السيرة الموسوية

سيرة موسى في الكتاب والسنة

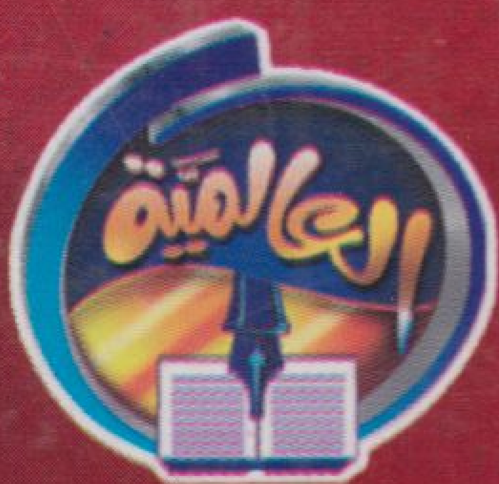
دروس وعبر

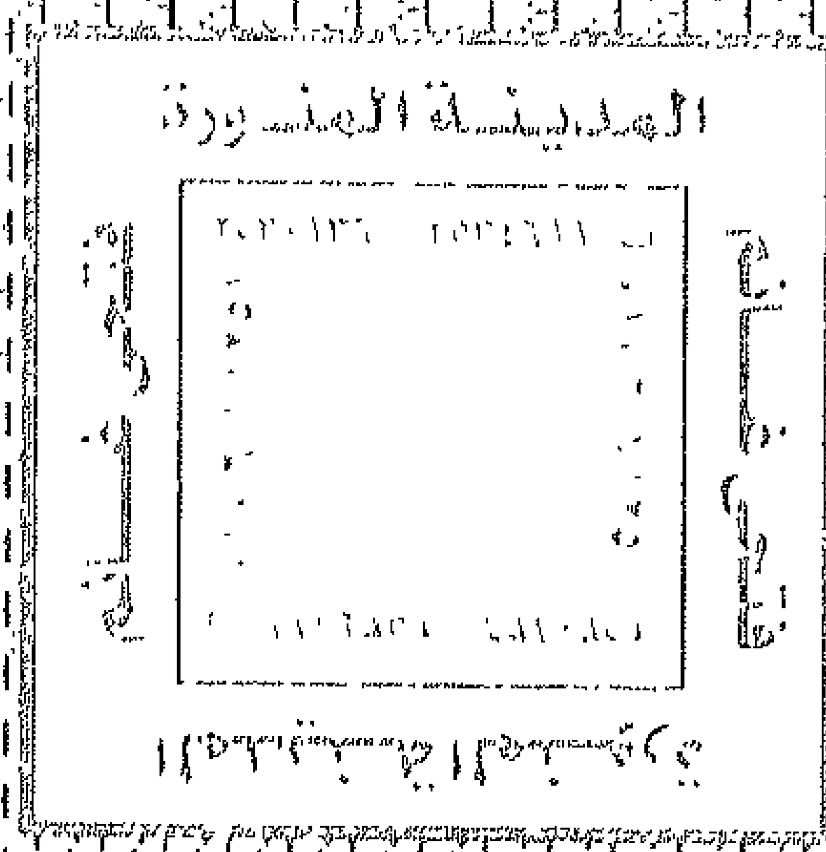
قدم له فضيلة الشيخ

ياسر برهامي

تأليف

مصطفى عمر




المدينة المنورة

السيرة الموسوية

سيرة موسى عليه السلام
في الكتاب والسنة

تأليف

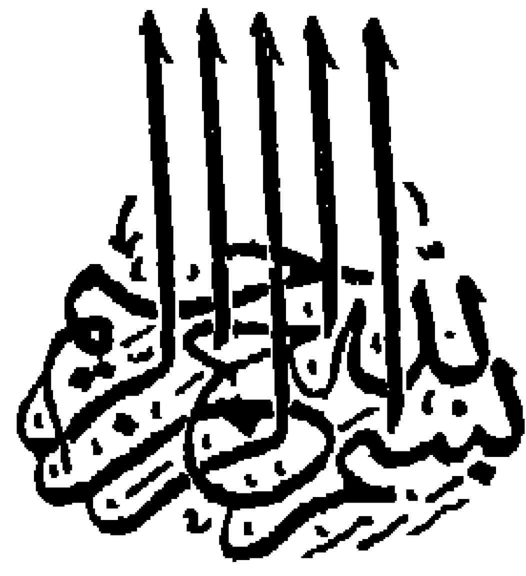
الشيخ/ مصطفى عمر

قدَّم له فضيلة الشيخ

ياسر برهامي



الدار العالمية للنشر والتوزيع



الدار العالمية للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2009/17867
ترقيم دولي: 978-977-6326-34-7

الطبعة الأولى
1430هـ/2009م



الدار العالمية للنشر والتوزيع
ص.ب: 610 ر.ب: 21111 31 ش الصالحي محطة مصر الإسكندرية
محمول: 0106552118 +2/ ت: 4970370 +203/ تلفاكس: 3907305 +203
E-mail: alamia_misr@hotmail.com

إهداء

إلى الذين أكرمني الله تعالى بهم فكانوا سببًا مباركًا في اجتياز محنة المرض

أد . محمد محمد الرحماني

صاحب اليد البيضاء - حفظه الله وزاده توفيقًا - الذي أكرم الله على يده المباركة بنجاح هذه الجراحة الدقيقة.

إلى مشايخنا الكرام الذين بذلوا نصحهم وعونهم وسدد الله دعائهم..

أد . جمال الدين برهامي

شيخنا الفاضل د . سعيد عبد العظيم

شيخنا الفاضل د . ياسر برهامي

إلى إخواني الأحبة الذين صحبوني الليل والنهار كأن ما بي بهم حفظهم الله وجزاهم عني خير الجزاء

أحمد عبد العزيز جابر حفني سامي سالم

سيد سعد ياسر عبد العزيز

والأستاذ الكريم / طلعت جودة

والوالد الحبيب وإخواني وأخواتي وزوجتي الغالية أم صهيب

وإلى كل مَنْ دعا لي، وسأل عني، واتصل عليّ من الإخوة حفظ الله الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،،

فإنَّ سيرة الأنبياء نور وهدى للبشرية، فهم الأسوة الحسنة في الإيمان والعبادة والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله ولإعلاء كلمته..

وإنَّ طريقة القرآن في عرض سيرتهم تختلف اختلافًا عظيمًا عن قصص أهل الكتاب، إذ هم مولعون بالتفاصيل التي لا تنفع، راغبون في حبكة الأساطير، مهملون للمواقف الإيمانية، والرقائق التربوية، وإصلاحات النفس والخلق التي يمتلئ بها قصصهم العظيم.

وإنَّ قصة موسى ﷺ وسيرته العطرة هي أكثر قصة في القرآن تكرارًا وذكرًا.. تعليمًا لأمة الإسلام كيف يُبنى أمة من تحت سلطان القهر والظلم، والاستضعاف إلى الإمامة في الدين والنصر والتمكين ووراثة البلاد والأرضين.

ولقد كان لأخينا الفاضل الكريم الشيخ/ **مصطفى عمر** هذه المحاولة الطيبة لجمع السيرة الموسوية، واستخراج فوائدها نفعًا للصحوة الإسلامية ونصيحة للأمة المحمدية، فنسأل الله أن ينفع بها كاتبها وناشرها وقارئها.

ونسأله سبحانه أن ينفعنا باتباع النبيين وحب الصالحين، وأن يجمعنا بهم في جنته.

كتبه

ياسر برهامي

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله.. نحمده ونستعينه ونستغفره.. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له، ومَنْ يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71].

أما بعد..

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عانى المرسلون وخاصة أولي العزم منهم عناءً شديدًا مع أممهم، وهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وصبروا على أذاهم وتعنتهم في رد ورفض الرسالات، وعدم الاستجابة لدعوتهم.

فقد تلقى محمد ﷺ ألوانًا وصنوفًا من الأذى والعذاب المادي والمعنوي، وعانى أشد العناء مع قومه من المشركين ومن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وتحمل أعباءً شديدة وهو يبلغ دعوته حتى توفاه الله سبحانه، ونوح ﷺ كذَّبه قومه وسخروا منه، ولم يتخلوا عن ذلك حتى وهو يبني سفينة النجاة التي أمر بها إيذانًا بإغراق المكذبين المعاندين، وعلى رأس هؤلاء ولده.

وإبراهيم ﷺ الذي ألقوه في النار وهو يدعوهم إلى العزيز الغفار.

وموسى ﷺ تلقى قدرًا وافرًا مما في جعبة بني إسرائيل التي لا ينتهي ما فيها من أذى وعنت وصدود وقسوة وغلظة وحيل وروغان وانحراف وفساد عريض، وقد نال عيسى ﷺ نصيبه من هذه الجعبة حتى رفعه الله جلَّ وعلا، ولكن يبقى أنَّ موسى هو صاحب النصيب الأوفى والحظ الأوفر من ذلك، ولعل هذا يُفسِر لما أكثر القرآن من ذكر موسى ﷺ وفصّل؛ ليكون عظة بما جرى له مع أمته المعاندة، وتصبيرًا للنبي ﷺ وكل مَنْ سار على هديه من أتباعه من الدعاة والمصلحين، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يذكر موسى في مواقف الشدة والعنت، ويدعو له [رحم الله موسى؛ لقد أُوذِي أكثر من هذا، فصبر] ويقول: [نحن أولى بموسى منهم] خ (2004 و3934).

وقد استعنتُ بالله، وجمعتُ ما تيسر لي جمعه من سيرة موسى ﷺ في الكتاب والسنة وأسميته «السيرة الموسوية.. في الكتاب والسنة»، وكنتُ ألقيتُ بعضها خطبًا، فقد حان الوقت لجعلها كلمات مقروءة بعدما كانت مسموعة قاصدًا أن ينتفع بها المسلمون دعاة وغيرهم في زمن الابتلاء والشدة التي ابتليت بها أمتنا من تسلط أعداؤها على أمرها، حتى عادوا يتصاعون ويستجيبون لما يملي عليهم هلعًا وخوفًا من عدوهم، وما كان ذلك إلا بذنوبنا ومعاصينا، والبعد عن الكتاب والسنة، وترك العمل بهما، وتحكيم غير شريعة الإسلام، حكامًا ومحكومين، أفرادًا ودولًا ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:30]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:165].

وآخرًا.. أسأل الله أن يلقى قبولًا، وأن ينفع الله به كاتبه وناشره وقارئه، وكل من ساهم في المعاونة على طبعه، وأن يدخر لي أجره في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:88-89].

وأن لا ينساني قارئه بدعوة صادقة مخلصة وأن يتم تغيير به.

والحمد لله رب العالمين..

وكتبه أبو صهيب

مصطفى عمر

غرة ذي القعدة 1425 — 13 / 12 / 2004

فصول السيرة الموسوية

- القصص في القرآن والسنة وأهميته وأهدافه.
- لماذا تكررت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم؟
- ثناء الله تعالى ورسوله ﷺ على موسى عليه السلام.
- موسى عليه السلام أخلاقه وصفاته وشمائله.
- فرعون مدعي النبوة والإلهية.
- أخلاق وأوصاف بني إسرائيل
- البداية والميلاد.
- حادثة قتل المصري.
- موسى عليه السلام في مدين.
- العودة والنداء.
- المهمة و المواجهة.
- المبارزة الكبرى.
- مؤمن آل فرعون.
- الآيات المفصلات.
- قصة قارون.
- الخروج الأخير.
- اجعل لنا إلهًا.
- اذهب أنت وربك فقاتلا.
- بنو إسرائيل في التيه.
- المواعدة واللقاء وطلب الرؤية.
- عبادة العجل الذهبي.
- الصعق.
- بقرة بني إسرائيل.
- الشيخان: موسى والخضر.
- حديث الفتون.
- أحاديث نبوية في السيرة الموسوية:

* الصحيحة * غير الصحيحة

أهمية القصص في القرآن والسنة

القصص في القرآن الكريم والسنة النبوية له أهميته ودوره التربوي المؤثر في نفوس العباد تذكيرًا واعتبارًا وتثبيتًا وإدكارًا.

تتجلى هذه الأهمية في الدروس المستفادة مما تتضمنه تلكم القصص من أحداث ووقائع تتوجه إلى قلوب وعقول المؤمنين، فتكون لهم نبراسًا وحجة ومددًا يُعين على ما يُلاقي العبد، ويتثبت بها، وهي تقص عليه أعظم مما يُعاني وأضخم، أشد كربًا، فيستشعر الراحة والطمأنينة، ولا يضعف ولا يحزن، لأن أزمّة الأمور كلها بيد الله جلَّ وعلا هو الذي يرسل البلاء، وهو على رفعه وإبعاده لقدير.

وأهم ما في تلكم القصص تثبيت العقيدة في قلوب الموحدين، فما قصَّ علينا سبحانه في القرآن العظيم قصصًا إلا كانت غايته الأولى الرد إلى الله والاستمساك بحبله المتين، والصبر على البلاء حتى يأتي التمكين، فمثلًا ما جاء في قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم، إلى ما انتهت إليه قصة آدم ﷺ بعد الإهباط من الجنة؟.. الرجوع إلى الله ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23]، تعلق القلب بالله جلَّ وعلا طمعًا في عفوه، ورجاءً في رحمته، وطلبًا لمغفرته، والتزامًا بدعائه، وإنابةً إليه عقب المعصية، وتوكلًا واعتمادًا عليه في تحمل المكاره، والاستعانة بالله في الأمور كلها.

وكذلك في قصة نوح ﷺ: كم كان قدر المعاناة التي عاناها في دعوته قومه إلى الله، ولم ييأس فيها طرفة عين؟ فظل يدعو قومه تسعمائة وخمسين عامًا؛ يدعو ليلًا ونهارًا سرًا وجهارًا، ومع ذلك لم يُؤمن من قومه إلا قلة، وليس في هؤلاء القلة ولده فلذة كبده، فدعا عليهم بالاستئصال من على وجه الأرض.

وفي قصة يوسف ﷺ: كيف أنه لازمَ دينه وعقيدته في رحلة الشقاء والعناء و الابتلاء؛ بدءًا من حضن أبيه مرورًا بالجب ومحنته، والبيع وذُله، والقصر ونعمه، والنساء وفتنتهن، وانتهاءً بالسجن، ومع ذلك ما ترك دعوته وعقيدته حتى ظهر بها بعون الله.

وفي كل القصص القرآني خاصة ما كان منه في حق الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، تجد دعوة إلى الله وإلى توحيده لا تتوقف ولا تنقطع مهما كان البلاء والابتلاء والصد والرد، والكبر والعناد، فهي دعوة إلى الله حتى الممات.

ولابد أن يكون هناك جزاء للمؤمنين الذين يتبعون الرسل، وعقوبة لمن خالفوهم وعاندوهم ولم يؤمنوا بما أرسلوا به، وهذا أيضًا مما يُستفَاد من هذا القصص العظيم. وكذلك الصبر على البلاء مهما طال، فلابد من فرج ويسر.

ومن أهداف وأغراض القصص في القرآن والسنة

1- إثبات الوحي والرسالة للنبي؛ فمن الذي بلّغ النبي هذه التفاصيل الدقيقة والتي هي أشبه برأي العين، حتى يسميه البعض التصوير القرآني، كما تراه في قصة إبراهيم مع أضيافه الملائكة، ويوسف مع امرأة العزيز، وموسى مع فرعون والسحرة وبني إسرائيل، ونوح مع قومه، ولوط وهود وصالح وغيرهم؟ اللهم إلا أن يكون وحيًا من الله تعالى إلى نبيه ﷺ قال تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:49] وقوله ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:48]. وقوله ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص:45] وقوله ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:44] وقوله ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:102]، وقوله ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص:44].

وكذلك إخبار النبي ﷺ بقصص عمن سلف من الأولين، ومَنْ سبق مما لا طريق له إلا بالوحي، كما قصّ عن أصحاب الأخدود، وقاتل التسعة وتسعين نفسًا، وغيرها.

2- إثبات قدرة الله تعالى الباهرة المعجزة في كونه وخلقه، كما في قصة إبراهيم عليه السلام وذبحه الطير ثم إحياءه، والذي أماته الله مائة عام ثم أحياه، وقصة أصحاب الكهف، وخلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق عيسى من أم بلا أب، قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59].

3- إثبات المعجزات لأنبياء الله ورسله؛ كناقة صالح، وعصا موسى، وتسخير الجن لسليمان، وإحياء عيسى للموتى بإذن الله.

4- الاعتبار والعظة من حال المعاندين والمكذبين، كما في قصة أصحاب الجنتين، وأهل القرية التي كانت مطمئنة فكفرت بأنعم الله، وقصة سد مأرب.

5- عاقبة الخير وعاقبة الشر كما في قصة ابني آدم، وقصة أصحاب الجنتين، وقصة يوسف عليه السلام.

6- تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين، والتمسك بالحق، والتحلي بأخلاق الصالحين، والتخلي عن صفات الطالحين. قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: 32]. وقال ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 120].

7- الثبات على عقيدة التوحيد؛ كما في قصة إبراهيم وأبيه آزر، وقصة الغلام والساحر في السنة المباركة.

***

مقدمة الكتاب

شهر الله المحرم شهر مبارك كريم، هو كالمفتاح للعام، لذلك كان من سنة رسول الله ﷺ الصيام فيه، وبخاصة العاشر منه؛ وذلك للحدث الهام العظيم في تاريخ الإنسانية عامة والإسلام خاصة، وهو الحدث الذي جرى على أرض مصر في الزمن القديم حين نجى الله سبحانه بقدرته موسى ﷺ وبني إسرائيل، وأهلك فرعون وهامان وجنودهما بالغرق، وقد جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء فقال: [ما هذا؟] قالوا: هذا يوم صالح، هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيمًا له. فقال رسول الله ﷺ: [نحن أولى بموسى منكم] وأمر بصيامه خ (2004) و(3934)، فكما قال نبينا ﷺ نحن أولى بموسى من الذين لم يقدروا له قدره، ويعرفوا له منزلته.. نحن أولى بموسى من أهل الظلم والبغي والعدوان، لأنه رسول الله للسلام والإسلام.. وأحد أولي العزم من الرسل. نحن أحق وأولى بموسى منهم، وهذا كتاب الله بين أيدينا ينطق بذلك، فقد أخبر القرآن بكل ما لاقى وعانى، وواجه موسى من تعنت وصد وإهانة، ورد لكل ما جاء به من عند ربه كأنك مُشاهده، تراه رأي عين. فلا يكاد يخلو جزء من القرآن من ذكر موسى بن عمران ﷺ، وقد ذكر حوالي مائة وستة وثلاثون مرة، بل وهناك سور قد أطنبتْ وفصلتْ في مواقفه وأحداثه: كالأعراف وطه والشعراء والقصص وغافر، حتى قال البعض: كاد القرآن يكون لموسى.. فنحن أحق وأولى بموسى منهم.

وما أكثر ما كان يذكره ﷺ ويُذكر به، ويمواقفه مع بني إسرائيل مما يعني أنّ لموسى مكانة خاصة في نفس النبي ﷺ ونفوس المؤمنين، فلا يكاد أحد يجهل أن وراء عدد الصلوات التي نصلي موسى ﷺ، فقد قصَّ علينا ﷺ قصة إسراءه، وإحضاره للمثول بين يدي الله سبحانه في مقام لم يصل إليه لا نبي مرسل ولا ملَك مقرب سواه ﷺ، قال ﷺ: [فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم و ليلة، فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق

ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعتُ إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف، فلم أزل أرجع بين ربي و بين موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم و ليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإنْ عملها كتبت له عشرًا، ومَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف. فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه] صحيح الجامع (127)، فنحن أولى بموسى منهم وأحق.

لذلك وغيره كانت السيرة الموسوية، نقرأ أيامها وأحداثها، ونُعايش هذه الشخصية النبوية، والتي نشأت وتربت على أرض مصر، فشرفت أرضنا وبلادنا بموسى ﵇. فنحن أحق بموسى من قتلة الأنبياء و جحدة الرسالات.

وما ترك القرآن العظيم لا شاردة ولا واردة، ولا صغيرة ولا كبيرة إلا وأطلعنا عليها وذكرها لنا من قصة موسى ﵇ إجمالًا وتفصيلًا، وقد أُمر ﷺ أن يذكر ويذُكّر به ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾

[مريم:51-52]

***

موسى عليه السلام أخلاقه وصفاته

اتصف موسى ﷺ بصفات جليلة كريمة؛ تُنبئ عن شخصيته، منها؛ شجاعته، وجرأته، وقوته، وصراحته، وحجته في المحاورة، ونفس أبية ترفض الظلم وتأباه في شهامة ومروءة.

كان موسى ﷺ قوي الجسم، قوي الشكيمة والإرادة، وساعده على التكوين البنياني القوي أنه تربى في القصر الملكي الفرعوني؛ فغُذيَ التغذية التامة في نعمه السابغة، بجانب الأجواء الصحية الطيبة والمناظر اللطيفة التي تعين على اكتساب القوة الجسدية والعضلية بالتريض وغيره، وإن كان الأصل في ذلك الاستعداد الخَلقي لقوة الجسم والعضلات؛ وقد تجلت هذه القوة الجسمية في مواقف:

ـ منها؛ ما ذكره أهل السير والتاريخ أنَّ موسى لطم فرعون لطمة شديدة وهو صبي رضيع ارتاع لها فرعون وتغيظ من الصبي حتى أنه قرر التخلص منه، إلا أن امرأته شفعت فيه، ودلتْ زوجها إلى اختبار وعي الفتى وفهمه لما يفعل في حادثة ذكرناها في موضعها.

ـ ومنها؛ وكزه للقبطي الذي اعتدى على الإسرائيلي، والوكزة في العادة لا تُفضي إلى الموت، ولكن كانت وراءها قبضة قوية، بل في غاية القوة أنهت على القبطي المعتدي الظالم، وفي هذا الموقف تحركت شخصية موسى التي تأبى الظلم مندفعة لرد الباطل، وما قصد أبدًا إلى قتل القبطي، ولذلك سارع إلى ربه جلَّ وعلا معتذرًا تائبًا ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: 15-16]

ـ **وأما شجاعته ورجولته** ﷺ: فتتجلى في كثرة مغادرته القصر ومخالطته بني إسرائيل عبيد فرعون وأذلائه مخالفة للطقوس الملكية، وأيضًا حين خرج من المدينة ودخل الصحراء متوجهًا إلى جهة الشام فوصل إلى مدين وحده، لا رفيق ولا أنيس في ليل الصحراء الموحش، ونهارها الحار الملتهب، ودروبها المجهولة النهاية، وجبالها الوعرة الشاهقة، ومفاوزها المهلكة، ووحوشها الضارية، وما إن انتهت أقدامه إلى مدين حيث وجد بلد وناس وأُنس، فتهيئ للراحة

بعد العناء، فإذا به يُعاين أمرًا لم يألفه وحالًا لم يعرفه؛ فتاتان قريبتان من بئر الماء ومن ورائهما أغنامهما، ولا تسقيان انتظارًا لانتهاء الرجال الأشداء من الرعاة من السقيا في ذلةٍ وتخوفٍ وانطواءٍ، فيتقدم موسى الوافد الغريب عن المكان وعن عاداته، وقد شاهد ما شاهد، واستثاره ما قد شاهد، فتتحرك نفسه الأبية الكريمة وشهامته لمساعدة الفتاتين الضعيفتين، وكان لا بد أن يعرف السبب في هذا الحال المنتكس حيث أرجأت الفتاتان وسقى الرجال، فسأل في كلمات قصار عن هذا الحال، فلما تبين له توجه إلى البئر، وكشف عن قوة قوية برفع الصخرة التي وضعها الرعاة فوق البئر، وسقى للفتاتين.

ثم بعد حين جاءته دعوة كريمة من الشيخ والد الفتاتين في صورة توفية الأجر، فأجاب تأدبًا مع الشيخ، والذي أعجب بموسى ورجولته ومروءته، فعرض عليه الزواج من إحدى الفتاتين، حرصًا على بقاء موسى القوي الأمين كما وصفته الفتاة، وأمانته ظاهرة في حفاظه على الفتاتين، ثم في وفائه للشيخ بما وعد به من العمل لديه مقابل الزواج بابنته، فوفّى وزاد وقضى الأجل، ثم قوة شخصيته في قيادة قومه رغم تشرذمهم وتشعبهم واختلاف أهواءهم، واجتماعهم على العناد والجدال، ومجاوزته بهم البحر.

- وأيضًا ما كان منه ﷺ في طلب علم الخضر، والحرص على الرحيل إليه، واندفاعه في الاعتراض على كل ما أتى به الخضر وفعله؛ وهي الثلاث المسائل: غرق السفينة، وبناء الجدار، وقتل الغلام، فأنكر هذه الظواهر المخالفة في اندفاع إيماني يُؤيد به الحق، ويرد به المخالف أيًا كان، وهو قريب مما حدث مع أخيه لما عاد من ملاقاة ربه، وقد أعطاه الألواح، فلما رأى حال قومه وعبادة غالبهم لعجل السامري الخوّار، مع سبق وصيته لأخيه، واستخلافه عليهم، تحرك ميله للحق ورده للباطل، فغضب للحق الذي رده قومه، وظهر انفعاله وغضبه جليًا لما ألقى ما جاء به من الألواح، وهجم على أخيه الذي غلب على ظنه تقصيره وتفريطه في خلافة الناس وعدم النصح لهم، وأخذ برأس أخيه الأكبر يجره، ويجذبه من لحيته غير مكترثٍ ولا مهتمٍ بكبر السن ولا حضور بني إسرائيل، طالما أنه رأى الحق يهدم، والباطل يزهو ويعربد في وسط قومه.

– ثم مواجهته القوية المستعينة بالخالق العظيم للطاغوت العاتي فرعون، ومحاجته في جرأة وظهور وصراحة، هدمت الصنم الفرعوني، والعلم الرباني الواضح الرادع لجهالات الفرعون المدعي ربوبية ما كانت له ولا لغيره، وإنما هي لله رب العالمين وحده، ولكنه ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾. يلقي موسى بالحجج القوية والآيات الظاهرة المضية أمام ملئه وجنده وأهل قصره، فيتلجلج ويهتز ويترنح فرعون المتفش الجهول المستكبر المغرور فيلقي بالكلمات المتخبطة، والبراهين المتهافتة، ولجأ إلى السحرة علّهم يستطيعون وقف الزحف المتجرأ الظاهر بظهور الحق، والحق أبلج والباطل لجلج، فيقف لهم موسى محذرًا ومخوفًا في قوة منفردة وفريدة في مواجهة ما يزيد على الثلاثين ألف من السحرة ـ كما ذكر أهل السير ـ ليقهر نفوسهم جميعًا قبل منازلتهم، ثم لما نازلهم، فغلبت آية الله سحرهم، فوقع الحق وبطل ما كانوا يصنعون من سَحْرِ الأعين، وكذلك لطمه لملك الموت لما كان يأتي ظاهرًا للعيان ففقأ عينه في قصة موته ﷺ.

إنَّ القوة البدنية وقوة الشخصية والجرأة كانت صفات مطلوبة بحق في وسط هذا الخليط المتشابك من الطبائع المعقدة والسلوكيات المعوجة والانحرافات المتسعة، فسبحان الذي خلق موسى مناسبًا لهذه البيئات المتعرجة البين عرجها، والأهواء المتعوجة البين عوجها، فقادها بإذن ربه، وأسلم قيادها لتلميذه عند موته يوشع بن نون عليهما السلام.

وأما البقية من أخلاقه ﷺ إجمالًا: والتي سترد في الكتاب تفصيلًا؛ فقد كان حييًا ستيرًا يحب التستر كما في قصة اغتساله، حليمًا صبورًا على الأذى النفسي، عظيم التأثر بما يراه مخالفًا، غضوبًا لله ولدينه، شديد التحمل للمتاعب والمشاق، عظيم الأدب، شديد التواضع، وفيًا بالعهد، حريصًا على العلم والتعلم، محبًا للدعاء كثير العبادة، صادقًا أمينًا، فطنًا ذكيًا، زاهدًا في الدنيا مؤثرًا للآخرة، مخلصًا لربه جلَّ وعلا.

هذا عن صفاته الخَلَقية، أما صفاته الخَلقية:

فموسى ﷺ كان أسمر شديد السمرة، ربعة الجسم ليس بالقصير البائن ولا بالطويل البائن هو إلى الطول أقرب، وليس بالنحيف ولا السمين ولكنه إلى النحافة أميل، قوي البنية مكتنز الجسم مجتمعه ليس فيه ترهل ولا سمنة، وكان دهين الشعر مسترسل غير مجعد، عالي الصوت قويه.

وبالجملة: كان سالمًا من كل العيوب المنفرة، واكتمل له كل ما للبشر من أوصاف الخَلق والخُلق، شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء والمرسلين.

***

موسى عليه السلام فضله وشمائله، وثناء الله تعالى عليه في القرآن العظيم

قال الله تعالى ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 144].

قال القرطبي (7/ 280): الاصطفاء: الاجتباء، أي: فضلتك، ولم يقل على الخلق، لأنَّ من هذا الاصطفاء أنه كلمه، وقد كلَّم الملائكة، وأرسله وأرسل غيره، فالمراد ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ المرسل إليهم.أهـ

﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾.. أي: اقنع بما أعطيتك، ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.. أي من المظهرين إنعامي إليك وفضلي عليك، والشاكر معرّض للمزيد كما قال ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: 7]. والآية فيها: دلالة واضحة على انفراده بالتكليم دون سائر السبعين من قومه.

قال ابن كثير (2/ 236): خاطب تعالى موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وكلامه ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ من الكلام والمناجاة، ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به. اهـ

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: 69].

قال القرطبي (7/ 14/ 250-252): لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، حذر المؤمنين من التعرض لإيذاء النبي ﷺ، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم نبيهم موسى.اهـ

ومن إذاية الرسول ﷺ ما روي أنَّ عبد الله قال: قسَّم رسول الله قسمًا، فقال رجل: إنَّ هذه لقسمة ما أُرِيدَ بها وجه الله، قال: فأتيتُ النبي ﷺفأخبرته فغضب، حتى رأيتُ الغضب في وجهه، ثم قال: [يرحم الله موسى؛ قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر] (خ م).

ـ وأما إذاية موسى ﷺ: فقد تعرض له قومه بكثير من الإيذاء والمضرة؛ ومن صور هذا الإيذاء ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه. فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة وإما آفة. وإن الله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر.. ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق ضربًا بالحجر بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا. فذلك قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾] (خ م ت حم د).

فإن قيل: كيف نادى موسى ﷺ الحجر نداء من يعقل؟ قيل: لأنه صدر عن الحجر فعل مَنْ يعقل.

وفي لفظ مسلم؛ قال رسول الله ﷺ: [كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض، وكان موسى...] إلى آخره، وسيأتي إن شاء الله شرح للحديث وفوائده.

وقيل في إذاية موسى؛ إنه قتل هارون، وذلك أن موسى وهارون خرجا من فَحْص التيه -أي المكان الذي تاهوا فيه أربعين سنة- إلى جبل، فمات هارون فيه، فجاء موسى، فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، وكان ألين لنا منك وأشد حبًا. فآذوه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلتهم على صدق موسى، ولم يكن فيه أثر القتل. رواه القرطبي عن ابن عباس، عن علي.

قال القرطبي: في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أي: عظيمًا. والوجيه عند العرب: العظيم القدر الرفيع المنزلة، ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئًا أعطاه إياه.اهـ

- وقد جعل الله هذه الوجاهة عنده، فما كانت عند أحد من أهل الدنيا أو في الآخرة، إنما جعل ثنائه على موسى ووجاهته عنده سبحانه، فهذا هو الشرف وتلكم الرفعة، وأفخر الثناء وأعظم المدح، فوجاهته ليس بعدها وجاهة، ومن وجاهته عند الله: أن شفع في أخيه هارون أن يرسله معه، فأجاب الله سؤاله قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾.

وقال الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: 51-53].

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن يذكر فيمن يذكّر بهم من أصحاب الابتلاءات، وأخصهم المرسلين، وكيف رحمة الله بهم لما دعوا ربهم، وصبروا على البلاء، فكانت العاقبة لهم، فقد أمر الله في هذه السورة بذكر زكريا المبتلى بعدم الذرية مع تقدم السن، ثم كيف امتن عليه ورحمه، واستجاب دعائه، ورزقه يحيى وأصلح له زوجه، ثم أمر ﷺ بذكر مريم وما ابتليت به لما حملت بعيسى عليه السلام، وكيف أن الله برحمته جعله يتكلم في مهده منافحًا عن أمه، وجعله نبيًا لبني إسرائيل، ثم أمر ﷺ بذكر إبراهيم عليه السلام وابتلائه بقومه وأبيه خاصة، ثم رحمة الله به لما اعتزلهم وما يعبدون وهب له إسحاق ويعقوب، وجعل في ذريته النبوة، ثم أمر ﷺ بذكر موسى عليه السلام قال سبحانه ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ بفتح اللام؛ أي: أن الله استخلصه واصطفاه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: 144]. وقرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة.

وفي قوله ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جمع الله له بين الوصفين؛ فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ .. النداء المذكور هنا هو المذكور في طه والنمل والقصص، وهو نداء الله له، فهو كلام الله تعالى أسمعه نبيه موسى، ولا يعقل أنه كلام مخلوق، ولا يعقل أنه كلام خلقه الله في مخلوق (الشجرة) كما يزعم ذلك بعض الجهلة الملاحدة؛ إذ لا يمكن أن يقول غير الله ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل:9]. ولا أن يقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:14]. فإن هذا صريح في أنَّ الله هو المتكلم بذلك صراحة لا تحتمل غير ذلك، كما هو معلوم عند من له أدنى معرفة بدين الإسلام.أهـ(أضواء البيان) (4/ 315-316) بتصرف.

إذن فقد كلم الله تعالى موسى ﷺ من فوق عرشه، وأسمعه كلامه كيف شاء، وذلك عند الشجرة في البقعة المباركة.

قال في (الأضواء) (4/ 313-314): قال الطبري: يقول تعالى ذكره؛ وناديناموسى من ناحية الجبل، ويعني بالأيمن يمين موسى؛ لأنَّ الجبل لا يمين له ولا شمال، وإنما ذلك كما يُقال: قام عن يمين القبلة وعن شمالها، وهذه القصة جاءت مبينة في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى؛ وذلك أنَّ موسى لما قضى الأجل الذي بينه وبين صهره، وسار بأهله راجعًا من مدين إلى مصر آنس من جانب الطور نارًا، فذهب إلى تلك النار ليجد عندها مَنْ يدله على الطريق، وليأتي بجذوةٍ منها ليوقد بها النار لأهله ليصطلوا بها، فناداه الله سبحانه، وأرسله إلى فرعون، وشفعه في أخيه هارون فأرسله معه، وأراه في ذلك الوقت معجزة العصا واليد ليستأنس بذلك قبل حضوره عند فرعون؛ لأنه لما رأى العصا في المرة الأولى صارت ثعبانًا ولى مدبرًا ولم يعقب، فلو فعل ذلك عندما انقلبت ثعبانًا لما طالبه فرعون وقومه بآية لكان ذلك غير لائق، ولأجل هذا مرن عليها في أول مرة ليكون مستأنسًا غير خائف منها حين تصير ثعبانًا. قال تعالى في سورة طه ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:9-14].أهـ

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:60].

يُذكّر ربنا جلّ في علاه بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن، بإنعامه على أسلافهم، وإجراء الآيات على يد موسى ﷺ آية بعد آية حتى يدخلوا في الإيمان والطاعة، فيظهر لهم هذه الآيات عيانًا، ومنها: طلب السقيا أول دخولهم في التيه بعد ما عاينوا لتوهم الآية الكبرى، وكيف أن الله سبحانه الذي يدعوهم موسى لعبادته وحده والطاعة له، قد نجاهم وأغرق عدوهم بعد ما كانوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك والقتل على يد فرعون وجنوده.

والاستسقاء هو طلب السقيا، فموسى ﷺ يُريهم درسًا عمليًا في التوجه إلى الله وحده بالطلب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:5]. فما دار بهم بحثًا عن بئر من آبار المياه كما هو إلف أهل الصحراء، وإنما توجه إلى ربه جل وعلا، وطلب منه سبحانه في ذلة وتضرع أن يسقيهم، وأبى الله إلا أن يُريهم آية أخرى من آياته، وكرامة جديدة لموسى نبيهم نبي الحق، فما أنزل من السماء ماء، فلو حدث لقالوا على جبلتهم الجاحدة: نزول المطر أمر معتاد، ولا حجة لموسى في ذلك ولا كرامة، وإنما جعل السقيا من خلال الآية المصاحبة لهم في رحلة الخروج، والتي كانت سببًا لنجاتهم؛ وهي العصا المعجزة، التي سُخرت لموسى ﷺ تأتمر بأمر الله؛ فتكون مرة حية تسعى، ومرة أخرى ضاربة للبحر فالقة له، والآن مفجرة للعيون المائية، لما سأل ربه السقيا قال: ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ فامتثل موسى وضرب وهم شاهدون ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ وهي بأعداد أسباطهم الاثنى عشر، حتى لا يكون ازدحامًا لو كانت عينًا واحدة، بل وقد علم كل سبط منهم موضع شربه، وهذه آية عظيمة من آيات الله تستوجب مداومة الشكر عليها، ومن عظيم القدرة والكرامة لموسى ﷺ أن هذا الحجر كان يرحل معهم، فإذا أرادوا شربًا ضرب موسى فانفجر منه الماء، فإذا اكتفوا جف الماء في الحجر.

قال القرطبي: وقد كان الله قادرًا على تفجير المياه، وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكنه أراد أن يربط الأسباب بالمسببات حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد.أهـ

وقال لهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾،فنسب سبحانه ذلك إليه حتى يشكروا نعمة الله عليهم وواجب النعمة الشكر، فأباح سبحانه لهم نعمه وعددها عليهم، ثم نهاهم عن الفساد في الأرض، والعبث شدة الفساد، والإفساد إنما يكون بمعاصيهم وذنوبهم ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: 41].

فهل اكتفى بنو إسرائيل بما منّ الله عليهم ويسره لهم في زمن التيه من المأكل والمشرب، وهو السلوى، والمن، والحجر الذي ينفجر منه الماء بلا عناء ولا نصب ولا كدر؟ إنها طبائع بني إسرائيل المتكسة ونفوسهم المعوجة، وعشقهم للمخالفة والتردد، قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 61].
خطابهم غير مؤدب، فهم يخاطبون موسى وكأنه الخادم لديهم، المنفذ لما يطلبون المطيع لما يأمرون، وكلامهم يظهر عدم صبرهم ومللهم من الطعام الواحد الكريم المتكرر في كل يوم؛ المن والسلوى. قال الحسن: كانوا نتانى؛ أهل كراث وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى عِكرهم عِكرِ السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم. ذكره القرطبي.

قالوا: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ يتكلمون بغاية القبح والسوء والنكران والجحود وكل ما تحمله نفوسهم من سوء الخلق؛ فيقولون ﴿ رَبَّكَ ﴾. وكأنهم يتبرءون من ربوبيته لهم، فهو رب موسى الذي يُجيب طلباتهم، ويُلبي حاجتهم ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 43]. وتشتم في كلامهم رائحة التحدي الجاهل، والذي يكشف عن سوء النية وخبث الطوية ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا

﴿وَبَصَلِهَا﴾[البقرة:61]. وقد علموا أن ما يطلبون لا يوجد في الصحراء التي تاهوا فيها بأمر ربهم، فقال موسى تعقيبًا على ما يطلبون متعجبًا من أمرهم مسفهًا لعقولهم ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فهل يستوي النازل من السماء بالنابت من الطين؟! لذلك جاء الجواب تعجيزًا من موسى ﷺ لهم فقال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ يعني إن استطعتم، ولن يستطيعوا لأنه كان قد كتب عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، فما زالت لديهم سنين تيه لم تكتمل، حتى يمكنهم التخلص من هذا الحكم بالتيه، وحينها فقط يمكنهم الهبوط إلى مصر من الأمصار.

ولا تملك إلا أن يأخذك العجب من حلم موسى وصبره على لجاجة قومه واعوجاجهم، فأين المن والسلوى طيّبا الطعم من الثوم والعدس والبصل!، والملائكة تتأذى من رائحة الثوم والبصل والكراث، ففي الحديث الصحيح: [**من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**] (م)، ولذلك صحت فيهم كلمة الحسن السالفة (كانوا نتانى).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾.. أي: أُلزموا وقُضِي عليهم بأن يكون فيهم الهوان والذل والفقر والصغار، والمكر والاحتيال.

﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.. أي: انقلبوا ورجعوا بغضب الله، فهم المغضوب عليهم.

***

فرعون مدعي الربوبية والإلهية

إنَّ أخطر وأعظم ما عرضت البشرية له نفسها ليس هو ما اخترعه البشر من الأسلحة المدمرة الفتاكة كالنووية والهيدروجينية وغيرها، وليس هو الاحتباس الحراري، ولا كل صور الفساد التي أظهرها أعداء أنفسهم وقال عنها تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41]. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ [الفجر: ١١-١٢]. إنما أعظم ذلك وأخطره هو معارضة الخالق العظيم سبحانه جلّ في علاه فيما خلق له الخليقة، وأهبط أبوها آدم إلى الأرض من الجنة لأجلها، بسبب المعصية المقدرة والتي تاب الله على آدم منها، فكأنها لم تكن، وإنما بقي ناتجها المقدر بحكمة الله وعلمه وتقديره ومشيئته الغالبة، بنزول الخلق إلى الأرض لإعمارها بإذن الله، والأصل في ذلك ما أخبر به جل وعلا ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]. ولعظم أمر العبادة وجلالتها وعلو شأنها، ولأنها المطلب الأول من العباد، بل هي المنحى الفطري والتوجه الجبلي للنفس البشرية إذا ما تُركت ما أقرت إلا بوحدانية الله قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: 30]. وقال النبي ﷺ: [كلُّ مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه] (خ م عن أبي هريرة)، ولكنها فسدت وانحرفت عن وجهتها السليمة المستقيمة بما سوله وزينه لها الشيطان عدو الإنسان، واتباعها لهواها، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 14-17]. وقال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: 50]. وقال جلّ وعلا ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد: 14]. لأجل ذلك أنزل الله الكتب وأرسل الرسل ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: 213].

ثم حدث الشرك والانحراف عن العقيدة بين البشر بعد قرون عشرة مضتْ من عهد آدم ﷺ، وأول ما حدث ذلك في قوم نوح ﷺ، فكان أول رسول ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء:163-165]. روى ابن حبان في صحيحه عن أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله، أنبيٌّ كان آدم؟ قال: [نعم مكلّم] قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال [عشرة قرون] (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه).

وفي قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:213].

قال ابن كثير (1/ 237-238): قال ابن جرير: عن ابن عباس قال «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» قال: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فكان أول من بعث نوحًا، وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس. فالناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا ﷺ فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. قال الربيع بن أنس في قوله ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم

قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم. وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن. أهـ بتصرف.

ولقد تعددت صور الكفر وأنواعه من الكافرين والمشركين والمنافقين:

النوع الأول: كفر التكذيب والعناد، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 68].

النوع الثاني: كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، ودليله قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: 34].

النوع الثالث: كفر الشك، وهو كفر الظن، ودليله قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: 35-38].

النوع الرابع: كفر الإعراض، ودليله قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾[الأحقاف: 3].

النوع الخامس: كفر النفاق، ودليله قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: 3].

وأظهر وأشهر نموذج لكفر العناد والتكذيب هو فرعون اللئيم ـ قبحه الله ـ فقد أظهر له موسى الكليم ﷺ الآيات الواضحات، فأبى إلا كفورًا.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في (معارج القبول) ما نصه (1/ 66): قال الله تبارك وتعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: 23-28]. فيذكر جلَّ ذكره المحاجة والمناظرة التي كانت بين موسى وفرعون، وما أقامه موسى على فرعون من الحجة

العقلية المعنوية ثم الحسية، وذلك أن فرعون ـ قبحه الله ـ أظهر جحد الخالق ـ تبارك وتعالى ـ وزعم أنه الإله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:23-24]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:38]. وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:14].

قال شيخ الإسلام في (مجموع الفتاوى) (2/ 279 - 285):

وزعمت طائفة من الاتحادية الذين ألحدوا في أسماء الله وآياته أنَّ فرعون كان مؤمنًا وأنه لا يدخل النار، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه، بل فيه ما ينفيه كقوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:46]. قالوا: فإنما أدخل آله دونه، وقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:98]. قالوا: إنما أوردهم ولم يدخلها. قالوا: ولأنه قد آمن ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:90]. ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه. وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة، بل ولا من اليهود ولا من النصارى، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون، فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل، فإنه لم يكفر أحد بالله، ويدعى لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون، ولهذا ثنى الله قصته في القرآن في مواضع فإن القصص إنما هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان وليس في الكفار أعظم من كفره، والقرآن قد دل على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع: *أحدها* قوله تعالى في القصص: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ -إلى قوله- وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:32-42]. فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه، وأخبر أنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، وأخبر أنهم ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص:36]. وأخبر أن فرعون قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأنه يظنه كاذبًا، وأخبر أنه استكبر فرعون

وجنوده وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وأنه جعلهم ﴿أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:41]. وأنه أتبعهم ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين المكذبين لموسى الظالمين الداعين إلى النار الملعونين في الدنيا بعد غرقهم المقبوحين في الدار الآخرة.

وهو أيضًا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون وهو في الآخرة مقبوح غير منصور، وهذا إخبار عن غاية العذاب وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:45-46]. وهذا إخبار عن فرعون وقومه أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ، وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا آل فرعون فظنوا أن فرعون خارج منهم، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن واللغة يتبين ذلك بوجوه: أحدها: أن لفظ آل فلان في الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص مثل قوله في الملائكة الذين ضافوا إبراهيم ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ -ثم قال- فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ -يعني لوطًا- إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الحجر:59-62]. وكذلك قوله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ -ثم قال بعد ذلك- وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:34-42]. ومعلوم أن لوطًا داخل في آل لوط في هذه المواضع، وكذلك فرعون داخل في آل فرعون المكذبين المأخوذين ومنه قول النبي: [قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم] وكذلك قوله: [كما باركت على آل إبراهيم] فإبراهيم داخل في ذلك وكذلك قوله للحسن: [إن الصدقة لا تحل لآل محمد].

وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان القوم إذا أتوا رسول الله ﷺ بصدقة يصلي عليهم فأتى أبي بصدقة فقال: [اللهم صل على آل أبي أوفى] وأبو أوفى هو صاحب الصدقة.

ونظير هذا الاسم أهل البيت فإن الرجل يدخل في أهل بيته كقول الملائكة ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود:73]. وقول النبي: [سلمان منا أهل البيت] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:33]. وذلك لأن آل الرجل من يؤول إليه ونفسه ممن يؤول إليه، وأهل بيته هم من يأهله وهو ممن يأهل أهل بيته. فقد تبين أن الآية التي ظنوا أنها حجة لهم هي حجة عليهم في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ وفي يوم القيامة، ويبين ذلك أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ -إلى قوله- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ -إلى قوله- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ -إلى قوله- ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ -إلى قوله- ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:23-48]. فأخبر عقب قوله ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ عن محاجتهم في النار وقول الضعفاء للذين استكبروا، وقول المستكبرين للضعفاء ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين وهو الذي استخف قومه فأطاعوه، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه.

الموضع الثاني: وهو حجة عليهم لا لهم قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ -إلى قوله- بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود:97-99]. فأخبر أنه يقدم قومه ولم يقل يسوقهم، وأنه أوردهم النار ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخرين النار كان هو أول من يردها وإلا لم يكن قادمًا بل كان

سائقًا يُوضح ذلك أنه قال: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فعلم أنه وهم يردون النار وأنهم جميعًا ملعونون في الدنيا والآخرة.

وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة فإن المرء مع من أحب، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، وأيضًا فقد قال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ [يونس:98]. يقول: هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس.

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ -إلى قوله- سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:82-85]. فأخبر عن الأمم المكذبين الرسل أنهم آمنوا عند رؤية البأس، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذٍ، وأن هذه سنة الله الخالية في عباده، وهذا مطابق لما ذكره الله في قوله لفرعون ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:91]. فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار أي: الآن تؤمن وقد عصيت قبل، فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعًا أو مقبولًا، فمن قال: إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن، وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده، يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذٍ مقبولًا لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس فإنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين، فإن الإغراق هو عذاب على كفره فإذا لم يكن كافرًا لم يستحق عذابًا. وقوله بعد هذا: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:92]. يُوجب أن يعتبر من خلفه ولو كان إنما مات مؤمنًا لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه، وأيضًا فإن النبي ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبي جهل قال: **[هذا فرعون هذه الأمة]**، فضرب النبي المثل في رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى، فهذا يُبين أنه هو الغاية في الكفر، فكيف يكون قد مات مؤمنًا؟ ومعلوم أن من مات مؤمنًا لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يُوصف؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، وفي (مسند أحمد) وإسحاق و(صحيح أبي حاتم) عن عوف بن مالك عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ في تارك الصلاة: **[يأتي مع قارون وفرعون وهامان وأُبي ابن خلف]**.اهـ

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: 4].

هذا العلو الذي يصف به ربنا جلّ وعلا فرعون - قبحه الله - ويَسمَه به هو علو بغير الحق، علو المجرمين المفسدين، علو الطواغيت الظالمين، علو الكبر والتكبر الذي يرى فيه فرعون نفسه ولا يرى سواها، فالناس جميعهم تحته وهو فوقهم، هو ربهم الأعلى الذين ليس لهم إله غيره ولا رب لهم سواه، وجاء هذا صريحًا في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: 51]. فهو عند نفسه مالك للبلاد وللعباد، بدلالة جريان الأنهار (النيل وفروعه) الجالبة للخير في أرض مصر، وكأنها لغبائه ما جرت إلا إكرامًا له، وخضعانًا لسلطانه، ورضًا بهيلامانه، وما مصر وأرضها ونيلها وأهلها إلا ذرة في عظيم ملك الله، وكونه الفسيح، فخيبة لمن عتى واستكبر وتاه بنفسه، وظن بنفسه الظنون، كحال هذا الفرعون المأفون، وأما إفساده في أرض الله وفساده العريض.

فقال الطبري (10/ 26): وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يقول: إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبر في الأرض على أهلها، وتكبره على عبادة ربه. وقال الشوكاني في (فتح القدير) (4/ 227): قال المفسرون: معنى علا تكبر وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض أرض مصر، وقيل: معنى علا: ادعى الربوبية، وقيل علا عن عبادة ربه. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبر، وفيه: بيان أن القتل من فعل الإفساد. اهـ

قال صاحب التحرير والتنوير (1/ 3115): إنَّ الله وصف فرعون وصفًا دلَّ على شدة تمكن الإفساد من خلقه ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون؛ لأن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه، ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته. فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين........

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعًا وفرقهم أقسامًا، وجعل منهم شيعًا مقربين منه، ويُفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يُثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين. وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فتنة وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير ويقوّمهم بالعدل واللين لا ميزة لفرقة على فرقة ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية.......

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يُعامل به الفرق الأخرى في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها، لأنَّ الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها........

والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل، وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة، فكان لهم من الحق في أرض

المملكة ما لسائر سكانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعًا، وأشار بقوله ﴿طَآئِفَةً﴾ إلى أنه استضعف فريقًا كاملًا، فأفاد ذلك: أن الاستضعاف ليس جاريًا على أشخاص معينين لأسباب تقضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلًا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول. من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يُراعِ النوعية من ذكورة وأنوثة........

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم ـ أي يأمر بذبحهم ـ فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال. وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة....

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء أي: يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء، فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج. وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق.اهـ.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:103].

وهنا يَصفه جلَّ وعلا بالظلم أي: الكفر ويصفه بالإفساد، فهو أشد الناس كفرًا وإفسادًا لَمَّا زعم أنه رب الناس وإلاههم، وهو أفسد المفسدين.

قال الراغب في (مفردات القرآن) (1/ 1114): الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة يُقال: فسد فسادًا وفسودًا وأفسده غيره. قال تعالى ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:71]. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22]. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم:41]. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:205]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[البقرة:11].

قال الطبري (6/ 14): والكفر بآيات الله وضع لها في غير موضعها، وصرف لها إلى غير وجهها الذي عُنيت به ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض.اهـ

وفي (فتح القدير) (2/ 230-231) قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة، وملأ فرعون: أشراف قومه، وتخصيص الذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لأن من عداهم كالأتباع لهم. قوله ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بها، وأطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفرًا مبالغًا لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها، والمراد بالآيات هنا: هي الآيات التسع أو معنى ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: المكذبين بالآيات الكافرين بها، وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد.اهـ

وعاقبة المفسدين كما أخبر عنها رب العالمين هي ما انتهى إليه مآل أشد أهل الأرض فسادًا ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:46]. وقال تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ -إلى قوله- بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود:98-99].

قال تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:83]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان:30-31].

يُؤكد سبحانه وصف هذا الفرعون الخبيث بعلو البغي وبإسرافه في بغيه وعتوه وكفره وضلاله، وتنبه إلى أنَّ الله تعالى أعاد أحد وصفي فرعون في آية القصص: علو فرعون، لكنه أزاد هنا في وصفه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ فالإسراف في فرعون هو إسراف في العتو والبغي بظلم العباد، والاستعلاء عليهم.

قال ابن كثير (2/ 409): يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجلٍ وخوفٍ منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جبارًا عنيدًا مسرفًا في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا. قال العوفي عن ابن عباس: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ يقول: بني إسرائيل.

وعن ابن عباس والضحاك وقتادة: الذرية القليل. وقال مجاهد في قوله ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ﷺ واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأنَّ الله تعالى سينقذهم من أسر فرعون ويظهرهم

عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئا، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:129]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ أي: وأشراف قومه أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاويًا إلى فرعون متصلًا به متعلقًا بحباله.اهـ

قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس:75].

وهنا نجد الإجرام وصفًا جديدًا لهذا المستكبر العنيد، وهو وصف تردد في حق المعاندين للمرسلين، وخالق السموات والأرضين أهل النار المخلدين فيها قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:147]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:40]. وقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم:49-50]. وقال: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم:86]. وقال: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه:102].

قال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:104].

قال في فتح القدير (2/ 213): أخبره بأنه مرسل من الله إليه، وجعل ذلك عنوانًا لكلامه معه؛ لأن من كان مرسلًا من جهة من هو رب العالمين أجمعين فهو حقيق بالقبول لما جاء به، كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم ثم يحكي ما أرسل به، فإن في ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة ما لا يقدر قدره.اهـ

إذًا فقد جاء دور موسى وهارون، فبعثهما الله سبحانه في سلسلة مَن بعث للضالين الشاردين عن عبادة رب العالمين رحمة منه، وإقامة للحجة على المكذبين المعاندين، فما قابلهم إلا الكفر والعناد والاستكبار من فرعون وملئه، فوصف الخبير العليم فرعونَ الخبيث اللئيم بأنه مستكبر عن اتباع الحق وسماعه، ثم وصفه بالإجرام هو وقومه الذين مالئوه واتبعوه على باطله، ويكرر سبحانه هذين الوصفين في قوله عَزَّ وَجَلَّ في تفصيل الآيات التي أرسلها الله عليهم على يد موسى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 133].

وهذا يدل دلالة واضحة على تمكن خلق الاستكبار من القوم فقد أقفلوا قلوبهم، وصموا آذانهم، وأغمضوا أعينهم، تكذيبًا بالآيات، وصدًا عن اتباع الحق فلا ينتظرهم إلا ما أعد الله لهم من العذاب الأليم جزاء إجرامهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 40].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: 74].

قال في فتح القدير (2/ 672): ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عن قبول الآيات، ولم يتواضعوا لها ويذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي كانوا ذوي إجرام عظام وآثام كبيرة فبسبب ذلك اجترأوا على ردها لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب.أهـ.

وقال صاحب مختصر ابن كثير 2/ 262: وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن رُبِيَ على فراشه بمنزلة الولد، ثم ترعرع، وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء ومرة بعد مرة مما يُبهِر العقول ويُدهِش الألباب ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ

أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: 48]. وصمم فرعون وملأه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45].

قال تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[الأعراف: 123-126].

هكذا يلقي فرعون بتهمه الباطلة الكاذبة، ويرمي مَن يخالفه بالصفات التي هي فيه، فهو من جهله و جبروته وخيلائه يظن أن كل شيء حتى قلوب العباد ملك له، لا تتحول ولا تعتقد إلا بإذن منه، ثم هو يُلاحق السحرة الذين آمنوا بتهمة أخرى باطلة يستحيل في الواقع حدوثها أن ما جرى من غلبة موسى ﷺ للسحرة ما كان إلا بتآمر بينهم، واتفاق مسبق، وتدبير مخطط حتى تكون لهم البلاد أي: تهمة قلب نظام الحكم والاستيلاء على مقاليد الأمور في البلاد.

قال ابن كثير (2/ 228-229): يُخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى ﷺ وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: 71]. وهو يعلم، وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل فإن موسى ﷺ بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى ﷺ لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترًا

وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:54]. فإن قومًا صدقوه في قوله: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:24]. من أجهل خلق الله وأضلهم. وقال السدي في (تفسيره) بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ قال التقى موسى ﷺ وأمير السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك، أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فو الله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما. قالوا: فلهذا قال ما قال، وقوله: ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ﴾ [الأعراف:124]. يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾، وقال في الآية الأخرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:71]. أي على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقول السحرة ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أي: قد تحققنا أنّا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص عن عذاب الله، ولهذا قالوا ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى ﷺ، وقالوا لفرعون: ﴿ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ [طه:72-75]. فكانوا في أول النهار سحرة فصاروا في آخره شهداء

بررة. قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء.اهـ

قال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس:88].

وموسى ﷺ هنا قد يأس من إيمان فرعون وملئه، فدعا عليهم بإذن من ربه، كما في قصة نوح ﷺ، وقد علل موسى دعائه عليهم، بأن فرعون الذي جمع أموالًا وذهبًا وملبسًا من عباد الله بالباطل وكنزها، واستعمل ما استعمله منها في إكرام من حاباه على باطله وزعمه أنه إله، فأضل الناس بذلك عن معرفة الحق والإيمان بخالق الأرض والسماء، لأن همّ الناس حينها النجاة من بطشه بمداهنته، والحصول منه على المنح والعطايا، كما هو الشأن والحال في حق كل بطانة مخادعة كاذبة، كما قال النبي ﷺ: **[إن الله تعالى لم يبعث نبيًا ولا خليفة، إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي]** (ت عن أبي هريرة. صح جم 1805). وعنه أيضًا: **[ما من أمير إلا وله بطانتان من أهله بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا، فمن وقي شرها فقد وقي، وهو من التي تغلب عليه منهما]** صح جم 5694.

قال ابن كثير (2/ 410-411): هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﷺ على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا.

قال موسى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وَأَمْوَٰلًا ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ فِى ﴾ هذه ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ بفتح الياء أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم

كقوله تعالى ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:121]. وقرأ آخرون بضم الياء أي ليفتتن بها أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي أهلكها، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع ابن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: جعل سكرهم حجارة. وذكر ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن قيس أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ الآية، فقال عمر: يا أبا حمزة أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتني بكيسٍ، فجاءه بكيسٍ، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة.

وقوله ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح ﷺ فقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:26-27]. ولهذا استجاب الله تعالى لموسى ﷺ فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون فقال تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمّن هارون أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا وهارون أمّن، وقال تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس:89]. الآية أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري. قال ابن جريج عن ابن عباس: فاستقيما فامضيا لأمري وهي الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقال محمد بن علي بن الحسين أربعين يومًا.اهـ

قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:90].

قال ابن كثير (2/ 411-412): يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإنَّ بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى ﷺ وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًا كثيرًا، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:61]. وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى ﷺ عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:62]. فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقًا لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:77]. وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيهات ولات حين مناص نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل ﷺ على فرس وديق حائل فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم

عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:90]. فآمن حيث لا ينفعه الإيمان﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:84-85]. ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس:91]. أي أهذا الوقت تقول وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:41]. وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ، فروى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **[لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة]** ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **[قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة]** ورواه الترمذي أيضًا وقال: حسن غريب صحيح، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وقد روي من حديث أبي هريرة فقال ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **[قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له]** يعني فرعون. وقوله ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:92]. قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى

البحر أن يلقيه بجسده سويًا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سويًا صحيحًا أي لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم والله أعلم، وقوله ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم [لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون] أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال البخاري عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال [ماهذا اليوم الذي تصومونه؟] فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون فقال النبي ﷺ لأصحابه [أنتم أحق بموسى منهم فصوموه].اهـ

قال في زاد المسير (4/ 59): قال ابن الأنباري: جنح فرعون إلى التوبة حين أغلق بابها لحضور الموت ومعاينة الملائكة، فقيل له ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ ﴾ أي: الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ بالدعاء إلى عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، والمخاطب له بهذا كان جبريل، وجاء في الحديث أن جبريل جعل يدس الطين في فم فرعون خشية أن يغفر له. قال الضحاك ابن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس ﷺ كان عبدًا صالحًا وكان يذكر الله، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله فقال الله ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:143-144]. وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله تعالى فلما أدركه الغرق قال: آمنت. فقال الله: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس:91]. اهـ

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: 96-99].

قال ابن كثير (2/ 440): يقول تعالى مخبرًا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه: ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: 16]. وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: 21-26]. وقال تعالى ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفورين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 38]. وقال تعالى إخبارًا عن الكفرة أنهم يقولون في النار ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب: 67-68].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار]، وقوله ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وهو كقوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

[القصص: 41-42]

وقال تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:46]. اهـ.

وفي فتح القدير (2/ 523): قوله ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ أي: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد، وخصَّ هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ على أمرهم لهم بالكفر لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته فيعم الكفر وغيره ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي: ليس فيه رشد قط بل هو غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى.اهـ

قال النسفي (1/ 203-204): قوله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه إلى أمره وهو ضلال مبين، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان، ومثله بمعزل عن الألوهية، وفيه: أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين، وعلموا أن مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس في أمره رشد قط، أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة. والرشد يستعمل في كل ما يحمد، ويرتضى كما استعمل الغي في كل ما يذم.اهـ

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:101-102].

قال ابن كثير (3/ 66): قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:102]. أي: حججًا وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أي: هالكًا قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعونًا، وقال

أيضًا هو والضحاك ﴿مَثْبُورًا﴾ أي: مغلوبًا، والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله، قال الشاعر عبدالله ابن الزبعري:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ ـي ومن مال ميله مثبور

وقرأ بعضهم برفع التاء، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:13-14]. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد، والسنين ونقص من الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وقوله ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:103]. أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء:103-104]. وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:76-77]. ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:59]. وقال هاهنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:104]. أي جميعكم أنتم وعدوكم قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أي جميعًا.اهـ

قال تعالى ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

[طه:43-44]

في أمره جل وعلا لموسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون، وصفه بالطغيان الذي هو التعدي، وتجاوز الحد والتكبر والعصيان. وما أعظم حلم الله بهذا الطاغية المريد، طلب من أوليائه أن يُكلمه باللطف واللين الذي هو أسلوب المرسلين حتى مع الطغاة الظالمين.

قال ابن كثير (3/ 149): قوله ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: 43]. أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: 44]. هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين.اهـ

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: 77-79].

فرعون الضال المضل الذي ضل الهدى واتبع هواه وكان أمره فرطًا، وأضله الله على علم كي يزداد طغيانًا واستكبارًا، فإذا أخذه أخذ عزيز مقتدر، قال ﷺ: [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته].

قال ابن كثير (3/ 156): قال تعالى ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أي البحر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي الذي هو معروف ومشهور، وهذا يُقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم: 53-54]. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود.أهـ

وفي فتح القدير (3/ 378): قوله ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي: علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم، والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾.اهـ

قال القرطبي (11/ 206): قيل إن قوله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيد لإضلاله إياهم، وقيل: هو جواب قول فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:29]. فكذبه الله تعالى، وقال ابن عباس ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه.اهـ

قال الألوسي في روح المعاني (16/ 238): قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ﴾ أي: سلك بهم مسلكًا أداهم إلى الخسران في الدين والدنيا معًا حيث أغرقوا فأدخلوا نارًا ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: وما أرشدهم إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية، والمراد بذلك التهكم به كما ذكر غير واحد، واعترض بأن التهكم أن يؤتى بما قصد به ضده استعارة ونحوها نحو﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:87]. إذا كان الغرض الوصف بضد هذين الوصفين، وكونه لم يهد إخبار عما هو كذلك في الواقع. وأجيب بأن الأمر كذلك، ولكن العرف في مثل ما هدى زيد عمرًا ثبوت كون زيد عالمًا بطريق الهداية مهتديًا في نفسه، ولكنه لم يهد عمرًا، وفرعون أضل الضالين في نفسه فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، ويحقق ذلك: أن الجملة الأولى كافية في الأخبار عن عدم هدايته إياهم بل مع زيادة إضلاله إياهم، فإن من لا يهدى قد لا يضل، وإذا تحقق إغناؤها في الأخبار على أتم وجه تعين كون الثانية بمعنى سواه وهو التهكم.

وقال العلامة الطيبي: توضيح معنى التهكم أن قوله تعالى ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ من باب التلميح وهو إشارة إلى ادعاء اللعين إرشاد القوم في قوله ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فهو كمن ادعى دعوى وبالغ فيها فإذا حان وقتها ولم يأت بها قيل له: لم تأت بما ادعيت تهكمًا واستهزاء.اهـ

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (45) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:45-48]. وقال: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:39].

قال ابن كثير (3/ 238): يُخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات، والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأنَّ فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين. أهـ

قال تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 23].

قال ابن كثير (3/ 321): يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه، وجحوده في قوله ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54]. وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون. اهـ

قال البغوي (1/ 111): قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إليَّ؟ يستوصفه إلهه بما وهو سؤال عن جنس الشيء، والله منزه عن الجنسية فأجابه موسى ﷺ بذكر أفعاله التي يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها. اهـ

قال أبو السعود (6/ 239): قال فرعون لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه في أمره وعدم تأثره بما قدمه من الإبراق والإرعاد شرع في الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل، فقال وما رب العالمين حكاية لما وقع في عباراته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي أى شيء رب العالمين الذي ادعيت أنك رسوله؟ منكرًا لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة والسلام. اهـ

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء:41-44].

قال في فتح القدير (4/ 99): قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا ﴾ عند الإلقاء ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ يحتمل قولهم بعزة فرعون وجهين: **الأول:** أنه قسم وجوابه إنا لنحن الغالبون، والثاني: متعلق بمحذوف والباء للسببية: أي نغلب بسبب عزته والمراد بالعزة العظمة.اهـ

قال تعالى ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص:3].

قال القرطبي (13/ 222): قوله تعالى: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى ﷺ وفرعون وقارون واحتج على مشركي قريش وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبر فكان ذلك من كفره فليجتنب العلو في الأرض وكذلك التعزز بكثرة المال وهما من سيرة فرعون وقارون.أهـ

قال تعالى ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [النمل:12].

قال ابن كثير (3/ 345): قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف، وقوله تعالى ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهانًا لك إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء:101]. وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [النمل:13]. أي بينة واضحة ظاهرة

﴿ قَالُوٓاْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل :14]. في ظاهر أمرهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي ظلمًا من أنفسهم سجية ملعونة وعلوًا أي: استكبارًا من اتباع الحق، ولهذا قال تعالى ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يُصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى فإن محمدًا ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له ﷺ.أهـ

قال تعالى ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

[القصص :32]

قال ابن كثير(3/ 374): قال الله تعالى ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ولهذا قال ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي: من غير برص، وقوله تعالى ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية، والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده، أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال ابن أبي حاتم: عن مجاهد قال: كان موسى ﷺ قد ملىء قلبه رعبًا من فرعون فكان إذا رآه قال: اللهم إني أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شره، فنزع الله ما كان في قلب موسى ﷺ وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال

كما يبول الحمار، وقوله تعالى ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه.أهـ

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:23-29].

قال ابن كثير(4/ 98): يقول تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ في تكذيب مَنْ كذَّبه من قومه ومبشّرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والاخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر:23]. والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي :كذبوه وجعلوه ساحرًا مجنونًا مموهًا كذابًا في أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 52-53]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عَزَّ وَجَلَّ أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى ﷺ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى إلى قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لا أبالي به وهذا في غاية الجحد والتهجم والعناد وقوله قبحه الله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني موسى يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكرًا يعني واعظًا يشفق على الناس من موسى ﷺ وقرأ الأكثرون ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى ﷺ استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي عن الحق مجرم ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم».أهـ

قال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر:36-37].

قال ابن كثير (4/ 81): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ [القصص:38]. ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات، وقيل طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عَزَّ وَجَلَّ أرسله إليه، قال الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار.أهـ

وهكذا يتبين لك أيها القارئ الكريم أنَّ فرعون اجتمع له من الصفات القبيحة الذميمة ما لم يجتمع لأحد من البشر أجمعين، فقد جمع أحط الأوصاف وأدنسها وأسوئها، وقد قمتُ بجمع ذلك، وحصره من آيات القرآن العظيم، واعترف بتقصيري في ذلك، فكان الآتي بغير ادعاءه الربوبية والألوهية، وإن كانت أحط أوصافه:

ـ العلو في الأرض بغير حق لإذلال أهل الحق.

ـ من المفسدين.

ـ الظلم الذي هو الكفر بالآيات والرسول.

- الظلم للعباد في أبشع صوره.
- من المسرفين.
- الاستكبار عن قبول الحق.
- من المجرمين.
- مخادع ومجادل بالباطل.
- كذاب مهين.
- كائد وماكر خبيث.
- ضال مضل عن سبيل الله.
- باغي ومعتد أثيم.
- عاصي وخطاء.
- ضحل الفهم والفكر.
- متسلط مغرور.
- طاغيَ متمرد عنيد.
- من الفاسقين.
- سيئ القول والعمل.
- جاحد لئيم.

* * *

أخلاق وأوصاف بني إسرائيل

لم تلق أمة من الأمم عناية واهتمامًا في القرآن الكريم مثل الذي كان لأمة بني إسرائيل، لعجيب أمرها وشأنها وسلوكها، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن العظيم من ذكر لبني إسرائيل، حتى أنك تقرأ في سورة البقرة قريبًا من نصفها من عند قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة:40]. وحتى قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة:142]. وسورة البقرة من أطول السور في القرآن (مائتان وست وثمانون آية) مما يدعو إلى التفكر، لما فصل سبحانه في حق هؤلاء، وأجمل مثلًا في حق الأمة التي نزّل عليها كتابه، واختارها لسيد المرسلين وخاتمهم ﷺ؟!

وما كان ذلك إلا لمعنى جليل وخطير أراده رب العالمين -وهو أعلم- ألا هو الاتعاظ والادكار بحال وأقوال وأفعال وأعمال هذه الأمة الغضبية كما يكثر أن يسميها ابن القيم أخذًا من قوله تعالى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:6-7]. والاحتراز مما كان منهم واجتناب ما صدر عنهم، وذلك إكرامًا وتشريفًا لهذه الأمة الخاتمة الخيّرة ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:110].

ولهذا ارتأيتُ مستعينًا بالله سبحانه ونحن بصدد السيرة الموسوية على صاحبها الصلاة والسلام أن أجمع ما ذكره القرآن عن أمته بني إسرائيل (اليهود)، فوجدت الأمر كثيرًا عسيرًا، فما ترك اليهود خصلة ولا خلق ذميم بين الناس إلا وكان فيهم، ثم إنه في القرآن منه الواضح من الصفات والأخلاق ومنه المستتر الذي يحتاج إلى مراجعة التفاسير. فالله المستعان.

الكذب على الله:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:80]. ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:111]. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:135]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران:24]. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:75]. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:181]. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران:183]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:18]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:30]. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام:20].

الكذب على الرسل وتكذيبهم والكفر بهم:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة:19]. ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:70]. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:110]. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:48].

قتلهم الرسل والأنبياء وإذايتهم:

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:61]. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87]. ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:112]. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:181]. ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران:183]. ﴿كُلَّمَا

جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: 70]. ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ﴾ [الأعراف: 150]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [الأعراف: 152]. ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: 5].

سوء أدبهم مع الله سبحانه:

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: 55]. ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة: 68]. ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة: 68]. ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [النساء: 24].

سوء أدبهم مع رسولهم ﷺ

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: 55]. ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: 129]. ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: 138].

التمرد على الرسل:

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [البقرة: 55]. ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: 24]. ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [المائدة: 70].

تحريفهم للكلم وللكتب المنزّلة:

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة: 59]. ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة: 75]. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: 79]. ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ

﴿ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: 78]. ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ [النساء: 46]. ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: 41]. ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الأعراف: 162].

إخفاؤهم الآيات والأحكام المنزلة:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 101]. ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ ﴾ [المائدة: 15].

نقضهم للمواثيق والعهود:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: 63-64]. ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: 83]. ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة: 100]. ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ [المائدة: 13].

قلوبهم قاسية:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: 74]. ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: 13].

جدالهم وتعنتهم وتنطعهم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ
عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ

تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: 67-71]. ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 247]. ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [آل عمران: 65]. ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: 153].

شدة عداوتهم للمؤمنين:

﴿ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [البقرة: 55]. ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: 105]. ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: 109]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: 120]. ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران: 69]. ﴿ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: 75]. ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 100]. ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: 118]. ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: 119]. ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ [آل عمران: 120]. ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 100]. ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة: 64].

لعن الله لهم وغضبه عليهم:

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: 88]. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 89]. ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 46]. ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: 60] ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: 64]. ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: 78]. ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه: 86].

لا يحكمون فيهم ما أنزل إليهم:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 101]. ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: 23]. ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: 42]. ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [المائدة: 43]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: 45]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 47].

أهل عصيان وطغيان وبغي وكفر وعناد:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة: 65]. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ [البقرة: 91]. ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: 92]. ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة: 93]. ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: 64].

دينهم هو اتباع الهوى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: 87]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾[البقرة: 91]. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: 145]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [المائدة: 77]. ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: 50].

انقسامهم واختلافهم وبغضهم لبعضهم البعض:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: 85]. ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 145]. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 64]. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93]. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[النحل: 124]. ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[القصص: 76]. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر: 14]. ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[البينة: 4].

ظلمهم لأنفسهم:

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 51]. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 59]. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 150].

يغالون ويطعنون في الدين بغير حق:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[النساء:171].
﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:77].

أهل عدوان ومخالفة وبغي وعناد:

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة:44]. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:61]. ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا﴾ [البقرة:90]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ [البقرة:91]. ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [البقرة:92]. ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة:93]. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة:78]. ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام:146].

أهل جهل وجهالة:

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:67]. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:138]. ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:148]. ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الحشر:13].

أهل ضلال وإضلال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:70]. ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:77]. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [الأعراف:149]. ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:85]. ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه:92-93].

أهل فسوق:

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:25]. ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:26]. ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:59]. ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:81]. ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف:165]. ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:5].

أهل نفاق وكذب:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة:14]. ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾[آل عمران:167]. ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:61]. ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [المائدة:80]. ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة:6].

بغضهم للإسلام:

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة:14]. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:32]. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:8].

مسخ طائفة منهم قردة:

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:145]. ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:60]. ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:166].

الدعاء عليهم:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:79]. ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:64]. ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:30].

حبهم للكذب وسماعه:

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ [المائدة:4]. ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة:42].

الفتنة والافتتان:

﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة:41]. ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:49]. ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ [طه:90].

يسعون بالفساد في الأرض:

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:60]. ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:64]. ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:4].

قلوبهم زائغة فاسدة:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:88]. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:41]. ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف:5].

يفعلون المنكرات ويتركون الطاعات:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:44].

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:79].

شراؤهم الدنيا ببيع الآخرة:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:86].

يبيعون دين الله وعهده بثمن قليل:

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:41]. ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة:44]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ [آل عمران:77]. ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:187].

تهديدهم لاتباعهم غير دين الحق:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:63]. ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:65-66]. ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة:68].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:152].

كراهيتهم الموت وحبهم للحياة:

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة:94-96]. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:6-8].

كتمانهم الحق:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:42]. ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:146].

تكتمهم لباطلهم:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:65]. ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة:61].

خلطهم الحق بالباطل:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:76]. ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:71].

سفاهة عقولهم:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: 142]. ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف: 155].

يصدون عن سبيل الله:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ [آل عمران: 99]. ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: 160]. ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 34].

تعاملهم بالربا وأكل أموال الناس بالباطل وأكل السحت:

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: 161]. ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة: 42]. ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [التوبة: 34].

اتخاذهم علمائهم أربابا رغم سوء حالهم:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]. ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 34].

إشعالهم الحروب:

﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: 64].

أهل خيانة:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران: 75]. ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة: 13].

يكرهون القتال في الحق:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 246]. ﴿ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: 249]. ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: 24].

توليتهم الأدبار في قتال المؤمنين:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: 111]. ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: 13].

امتناعهم بالحصون والجدر:

﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر: 3]. ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ [الحشر: 14].

أهل فزع وهلع ورعب:

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: 61]. ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: 26].

أهل ذلة وهوان ومسكنة:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [آل عمران: 112].

حبوط كيدهم وضررهم:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران: 111]. ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: 120].

هم شر البرية ولهم مثل السوء:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: 60]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: 6]. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ﴾ [الجمعة: 5].

افتراؤهم واتهامهم:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: 113]. ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 156].

اتباعهم الشيطان:

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: 102].

عداوتهم لله ورسله وملائكته:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:97-98].

***

البدء والميلاد

يقص علينا سبحانه البداية من عند الميلاد حيث بدء الصراع بين الحق والباطل، يقول سبحانه في سورة القصص ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ [القصص: 1-6].

قال سبحانه ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[القصص: 3].
أي: بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له، وتشويقًا لهذا النبأ، وما فيه من عظيم تصرف الله في خلقه حتى ينتفع بذلك المؤمنون.

بهذا التقديم العظيم قدم رب العالمين سبحانه للقصة والأحداث التي ستكون بين موسى نبي بني إسرائيل ﷺ، وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ﷺ، وفرعون المتكبر المتعالي بالباطل والمتسلط على أهل مصر وأرضها ليفسد فيها، ومن أعظم الإفساد تقسيم الناس إلى فئات وطبقات على أسس فاسدة باطلة كالفقر والغنى، أو السمع والطاعة وعدمها، أو على أساس الجنس، مع إعزاز طائفة وإذلال أخرى أو احتقارها أو الترفع عليها، فضلا عن تسخيرها في أحط الأعمال وأرذلها، وهذا عين ما صنع فرعون، حين جعل من رعيته شيعًا؛ فطائفة تؤيده وتدين له، وتعينه على فساده وظلمه وادعاءاته الكافرة الفاجرة؛ وهم الملأ والجند وجماعة المنتفعين من رجال الدولة والكهان والأغنياء سكان القصور؛ وطائفة أخرى هم الفقراء المسخرين لخدمة هؤلاء السابقين، وهؤلاء لا يعبدون ولا يؤمنون إلا برب السموات والأرض، ولا يرون الألوهية تصلح لأحد من البشر كائنًا من كان، فهم يدينون بدين إبراهيم جدهم ويعقوب أبيهم، رغم ما وقع في عقيدتهم من زيغ وانحراف،

وهؤلاء الذين استضعفهم فرعون، فذبّح أبنائهم الذكور، وترك إناثهم أحياء للخدمة، وهؤلاء هم بنو إسرائيل، وهم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خير أهل الأرض، والطائفة الثالثة والأخيرة هم أهل مصر الوثنيون المحتلون الراضخون المغلوبون على أمرهم تحت حكم فرعون الطاغية.

وكذلك جاءت هذه المقدمة لإظهار منة الله تعالى وفضله على بني إسرائيل، كما قال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة:47-49]. فذكرهم سبحانه بأنه أنعم على أوائلهم، وفضل أسلافهم بما جعلهم أفضل من سائر أمم زمانهم، فكأن أصحاب موسى اغتروا وأهملوا العبادة والطاعة اعتماداً على فضل أسلافهم، بل وتوهموا أنهم لذلك لن يصيبهم أيا مما أصاب الأمم قبلهم من البلاء والعذاب، فحذرهم بعد ما ذكرهم أنه لابد لهم من العمل الصالح كحال الذين مضوا من أسلافهم حتى يَسلموا ويُعافوا، ثم عاد سبحانه يذكرهم بمنة أخرى وهى إنجاؤهم من البلاء الذي عانوه في مصر من فرعون وآله الذين هم على دينه الكفري؛ والذي زعم فيه أنه هو الرب والإله!! قال الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على لسانه ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:24]. وقال تعالى أيضا ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:38]. ثم إن ذلك ما كان من الله إلا لتقويم اعوجاجهم، وانحرافهم عن ملة آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، وأنه وحده القادر على رفعه، فما أرادة فرعون وشاءه شأن، وما يريده الله سبحانه في كونه ومشيئته التي لا تُرد ولا تُغالب شأن آخر، فالأمور في حقيقتها إنما تمضي إلى نهايتها حسب مشيئة الله تعالى لا حسب مشيئة العباد ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴾ [الإنسان:30-31]. فهؤلاء المستضعفون المقهورون في أرض الله رغم غرورهم وعصيانهم شاء الله وأراد أن يغير ويبدل

أحوالهم؛ فيكونون هم أهل الأرض وأصحابها، بعد ما أفسد المفسدون، ويمكّنهم فيها حتى يصلحوا ما أفسده الظالمون، وما يكون ذلك إلا بتقدير من الله العليّ العظيم ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:128]. وقال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:137].

نقل القاسمي (1/ 335) عن ابن جرير قوله: أضاف الله جل ثناؤه ما كان من آل فرعون ببني إسرائيل من سومهم إياهم العذاب، وذبحهم أبنائهم، واستحيائهم نسائهم إليهم دون فرعون، وإن كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كان بقوة فرعون وعن أمره، لمباشرتهم ذلك بأنفسهم، فبين ذلك أن كل مباشر قتل نفس أو تعذيب حي بنفسه وإن كان عن أمر غيره، ففاعله المتولي ذلك هو المستحق إضافة ذلك إليه، وإن كان الآمر قاهرًا للفاعل المأمور بذلك سلطانًا كان الآمر أو لصًا ضاريًا أو متغلبًا فاجرًا.أهـ

والآية خطاب لكل متكبر علا في الأرض وتجبر؛ ليجتنب العلو في الأرض بغير الحق في زمن النبي ﷺ، وهم مشركو قريش، ومن بعدهم من الظالمين.

والقصة تحكي عن فرعون حاكم مصر في ذلك الوقت وملكها، واسمه على ما ذكر غالب المفسرين؛ الوليد بن مصعب بن الريان، وهو من العماليق الذين كانوا في الشام، وليس من قبط مصر كما يظهر من اسمه، وإنما تسلط عليها بجيوشه، وحكمها مدعيًا الربوبية والإلهية، وتجبر وعتى وأفسد، ولما لم يعارضه القبط؛ والذين كأنهم رضخوا واستكانوا بسبب ضعفهم ووثنيتهم، بينما عارضه بنو إسرائيل الذين كانوا أقرب إليه نسبًا من القبط.

وكان بنو إسرائيل قد أتوا إلى مصر في صحبة يوسف عليه السلام فاستوطنوها، وسلط الله تعالى عليهم فرعون فعاملهم أسوء معاملة، وكان فرعون جبارًا عتيدًا طاغية مَريدًا علا في الأرض واستكبر بغير الحق، فجعل يُسَخِر العباد لطاعته وخدمته بل وعبادته، ولم يكن أفضل من بني

إسرائيل في ذلك الزمان، ولكن سلط عليهم هذا الظالم يسومهم سوء العذاب.. فهو يستعملهم في أشق المهام وإدنئها، ولهذا وغيره لم يكن ليستطيع أن يطردهم لاحتياجه إليهم، وخشية أن يكونوا حربًا عليه إذا طردوا، ويشتد البلاء والمحنة حين يرى في نومه كأن نارًا خرجت من بيت المقدس فأحرقت لمصر ديارها، ولم ينجو إلا بني إسرائيل، فأخبره كهنته وسحرة قصره بأنه سيخرج من هؤلاء من تكون هلكة فرعون وجنوده وضياع ملكه على يده، فهداه تفكيره الإبليسي إلى خطة جهنمية خبيثة، وصارت سنة فرعونية ظالمة؛ قتل العباد للمحافظة على الملك والعرش، وهكذا يفعل الظالمون في كل مكان وزمان، فمن حمقه وجهله أن أمر بقتل الذكور الذين يولدون لبني إسرائيل -أشبه بسياسة تحديد نسل المسلمين- واعجب لهذا الحمق، فلو أن ما أخبره به الكهنة عما رأى في نومه حقًا، فما ينفعه قتل الأبرياء! وإن كان غير ذلك فما جدوى ما صنع!! فإن ما قضى الله تعالى لا بد مفعولًا، ومن شدة حذره وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل ليبادر بقتل من ولد منهم، حتى قتل زبانيته تسعين ألفًا من هؤلاء الأبرياء.. فخشي فرعون وملأه أن لا يجدوا من يقوم بالمقام الشاقة والأعمال الدنية، فكلموا فرعون الذي أمر بالقتل عامًا والترك عامًا.. فولد هارون ﷺ في عام الترك، وفي العام التالي أي عام القتل ولد موسى ﷺ، وحتى يمضي قدر الله إلى منتهاه لم يظهر على أم موسى مظاهر الحمل كغيرها من النساء، فلم يشعر بأمرها الدايات.

وفي قوله تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: 5-6].

قال ابن كثير (3/ 367): هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقارًا، وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه؛ أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه، وذهاب دولته على يديه.

وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم ﷺ حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعها منه بقدرته وسلطانه؛ فبشر إبراهيم ﷺ ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ وقد فعل الله تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:137]. وقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:59]. أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يُخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلـله وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه؛ لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.أهـ

قال صاحب التحرير والتنوير: ونكتة إظهار الذين استضعفوا دون إيراد ضمير الطائفة للتنبيه على ما في الصلة من التعليل، فإن الله رحيم لعباده وينصر المستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا. اهـ

هذه هي الظروف التي ولد فيها موسى ﷺ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد غير ما يريد فرعون، ويدبر غير ما يخطط الطاغية، فقد قضى العظيم الذي لا يُغالب ولا يُمانع ولا تُخالف

أقداره الكونية أن المولود الذي يخاف منه فرعون سيحيا ويكبر ليريه الذي كان يحذره ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ فسيجعل سبحانه بقدرته الضعيف قوياً والمقهور قاهرًا والذليل عزيزًا!.

قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:7] أم حائرة مرتعبة على وليدها، عاجزة عن حمايته، وعن إخفاءه وإخفاء صوت بكائه الفطري.. وحبها له لا يعلم قدره إلا الله، وموسى لم يكن يراه أحد إلا أحبه قال تعالى﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه:39]. وجعلت تفكر في نجاته و حمايته، فلما ضاقت بها الحيل، واستفرغت جهدها في ذلك جاء الفرج من تدبير الحكيم الخبير ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ [طه:38]. فألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها، وليس هذا وحي نبوة كما زعمه البعض، وإنما هو كقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل:68]. هدى الله أم موسى إلى صنع صندوقًا ـ وهو التابوت ـ وضعت فيه رضيعها في داخل النيل ـ والظاهر أنه أحد أفرعه المنحدرة من أصله إلى جهة الشرق ـ وربطته إلى الشط برباط وثيق، وباديًا أن مسكنها كان على حافة النهر، فكلما احتاج للرضاعة سحبته وأخرجته لترضعه، ثم ترده لموضعه في النيل﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [طه:39]. أمنًا وأمانًا وملجأً. فتدبر كيف تحول اليم إلى حضن لرضيع لا حول له ولا قوة!! ذلك أمر العزيز الرحيم الذي قال للنار: كوني بردًا وسلامًا فكانت، ويقول للشيء كون فيكون.

قال صاحب التحرير والتنوير: قوله ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الإرضاع الذي أمرت به يتضمن أن: أخفيه مدة ترضعيه فيها فإذا خفت عليه أن يعرف خبره فألقيه في اليم، وإنما أمرها الله بإرضاعه لتقوى بنيته بلبان أمه فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه في اليم قوت يشد بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه وإيصاله إلى بيت فرعون وابتغاء المراضع، ودلالة أخته إياهم على أمه إلى أن أحضرت لإرضاعه فأرجع إليها بعد أن فارقها بعض يوم.اهـ

وهذه الآية مثالًا من أمثلة دقائق الإعجاز القرآني فذكر عياض في (الشفاء) والقرطبي في (التفسير) (7/ 13/ 252) يزيد أحدهما على الآخر عن الأصمعي قال: سمعتُ جارية أعرابية تُنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كلِّه ... قَبَّلتُ إنسانًا بغير حِلِّه
مثل الغزال ناعمًا في دَلِّه ... فانتصف الليل ولم أُصلِّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أوَ يُعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية، فجمع في آية واحدة بين أمرين: أرضعيه وألقيه، ونهيين: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾، وخبرين: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ ﴾، ﴿ خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾، وبشارتين: ﴿ رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.اهـ

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7]. فلا بد من فقده وضياعه إلى حين، ثم يعود إليها، فحدث أن انفرط الوثاق يومًا ليتحقق ما قضى الله وقدر، فجرف التيار الصندوق إلى قصر فرعون ليعثرَ عليه.

وهنا لا بد لنا من تخيل تقريبي للموقع برمته بناء على ما فهمناه، وتخيلناه من السيرة الموسوية في مصر، وقد سمى القرآن العظيم الموقع؛ المدينة، وهي التي كانت تُحكم منها مصر. وهي تقع غالبًا على أطراف مصر الشرقية جهة الشمال، حيث يمثل القصر الفرعوني حجر الزاوية فيها، فهو يقع على فرع من النيل، بينما يقع إلى الجنوب منه مساكن بني إسرائيل، وقد قلنا إلى الجنوب من القصر لجريان التابوت مع التيار، والنيل في مصر يجري من الجنوب إلى الشمال، سواء في ذلك أصل النهر أو ما تفرع منه، ولهذا تخيلنا مساكن بني إسرائيل إلى الجنوب من القصر الملكي في المدينة، بل وعلى نفس الضفة من النهر (الفرع)، وهذا ما يُوحِي به مشي أخت موسى من بعيد ترقب مسار التابوت في الماء، وحتى يكونا قريبين من الحرم الفرعوني، وهم المسخرون رجال ونساء لخدمة القصر وأسر الملأ وقادة الجند، بل والجند كذلك وقريبًا من القصر توجد مساكن الملأ، وهم الوزراء وكبار رجال الدولة، ويمكن أن يكون ذلك للخلف من القصر الفرعوني، أو

للشمال والجنوب من القصر إحاطة به، بينما تقع مساكن الجند الملكي جنوبًا من القصر ثم للأعلى في اتجاه الشمال، كل ذلك مع مراعاة حرم القصر، وحرمة الاقتراب منه.

يحمل خادمات الملكة الصندوق إلى سيدة القصر امرأة فرعون واسمها آسيا بنت مزاحم - دون أن يفتحنه - والتي ما إن فتحت الصندوق حتى رأت غلامًا لا أحسن منه خلقة، ولا أجمل منه صورة، فما إن رأت نور موسى إلا وتعلق قلبها به وأحبته حبًا شديدًا، ولم تعلم أنه سيكون سببًا لسعادتها في الدنيا والآخرة، فالسعيد من أحبه طبعًا وشرعًا، وكانت هي بديلة الأم في الدفاع عن حياة الرضيع ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فها هي أمام فرعون الذي همَّ بقتله لغلبة ظنه أنه من بني إسرائيل، فتتحقق رؤياه التي رأى، ها هي تخاصم عنه وتدافع، بل وتجتهد أن تحببه إلى فرعون.

قال تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 8-9]. فالتقطوه التقاط عناية ورعاية حتى يمضي قدر الله؛ أن يربوا عدوهم معهم في قصرهم وبين أحضانهم.. حتى تكون نهايتهم وضياع ملكهم على يديه، كما قيل:

وللمنايا تُربي كل مرضعةٍ ودورُنا لخرابِ الدهرِ نَبنِيهَا

والأعجب أنها قالت حماية له وإخبارًا عن مكنونها: قرة عين لي ولك، ولم تقل: لنا، لعلمها حب فرعون لها، وتقديمه لمصلحتها على مصلحته، وسعيه في رضاها، فقدمت نفسها عليه للترغيب في ترك قتله، فأجاب: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، ولو وافقها على ما قالت لهداه الله كما هداها، والبلاء موكل بالمنطق!!، وقالت ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾.. فنفعها الله به في الدنيا باهتدائها به، وأما في الآخرة فأسكنها جناته بسببه، فسعدت في الدارين بعدما ذاقت الويلات وصبرت على عذاب فرعون الأليم الرهيب لإيمانها بموسى بعد ظهوره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها

الملائكة. فقالت ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:11]. فكشف لها عن بيتها في الجنة»، (أبو يعلى)، و(الصحيحة) (2508).

وقولها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.. أي: بالتبني، لأنه لم يكن لها ولد منه.

قال تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.. أي: لا يدرون ما أراده الله بالتقاطهم إياه من عظيم حكمته وباهر قدرته ونفاذ إرادته بكون هلاك فرعون وجنده ـ الذي اجتهد بكل ما ارتكبه من شناعة وفظاعة أن يهرب منه ـ على يد هذا الملتقط الرضيع!!.

قال تعالى﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:10]. فؤادها فارغًا من كل شيء من أمور الدنيا إلا من الهمّ والحزن على رضيعها موسى، لا شيء يملأ فؤادها ويشغل بالها إلا وليدها.. كيف هو؟ وأين هو؟.. هل غرق أم نجا؟ إن غرق أين تجده؟ وإن نجا فمن التقطه؟ أهو في أيدٍ أمينة؟ أم عثر عليه فرعون وقتله؟

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.. أي: كادت أن تصرخ بأعلى صوتها، وتصرّح للناس من حولها بحقيقة ما أخفته؛ أن وليدها قد ضاع منها، وأنها كانت تحفظه في النهر من عيون فرعون، لولا تثبيت الله سبحانه لها وطمئنته لقلبها لكانت أفضت بما كتمت وأخفت، فالتثبيت من الله وبالله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم:27]. ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:74].

قال تعالى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

[القصص:11-12]

هداها الله إلى أمر ابنتها الكبرى أن تتبع أثر موسى، وتعرف خبره دون أن تُثِير حولها ما يشعر بها، فوقعت عليه، ورأته بين أيديهم وهم في حيرتهم من أمر إرضاعه، فاقتربت مظهرة جهلها بأمره وعدم اكتراث بشأنه، وكان الله تعالى قد حال ومنع عنه الرضاع من كل المراضع.

قال ابن كثير (3/ 368): ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ ولم يكن تحريم المراضع عليه تحريمًا شرعيًا بل تحريمًا قدريًا لكي لا ترضعه إلا أمه الحقيقية، بعد ما عجزوا عن إيجاد مرضعًا له، وكانوا في حالهم هذا أشد الناس حرصًا على رضاعه وحفظاً لحياته، فأرسلوه مع خادمات القصر والمرضعات إلى السوق علّهم يجدون مرضعًا يرضى رضاعها، ويقبل ثديها بعد رفضه لكل مَنْ حاول إرضاعه من مرضعات القصر، فبينما هم وقوف به، والنساء عكوف عليه خرجت أخته عليهم عارضة ما يذهب حيرتهن ويحل إشكالهن ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.اهـ

وهنا سؤال؛ لمَ قالت: أهل بيت، ولم تقل: امرأة؟ وإجابته: حتى يُفهم أنها امرأة من أهل الشرف والفضل تليق بخدمة الملوك، فلمّا قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: إذن أنت تعرفين الغلام وأهله، وإلا كيف عرفت أنهم ناصحون له ومشفقون عليه؟ فقالت: إنما أردت ناصحون للملك لمحبتهم له. فحملوه وذهبوا به معها إلى أمه في الحقيقة، التي ما إن ألقمته ثديها فالتقمه ـ وهو لبن هارون ـ ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وقالوا: كيف رفض كل مرضع وقبل ثديك دونهن؟ فقالت: إني امرأة طيبة اللبن طيبة الريح لا يكاد يرفضني رضيع، وطلبوها أن تأتي معهم القصر للإقامة وارضاعه، فاعتذرت بأولادها وزوجها، فتركوه لها ترضعه في بيتها، وجاءها الخير الكثير من القصر من النفقة والكساوى والصلات. فرده الله إليها، وجمع شمله بشملها، ورجعت راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمنًا، في عز وجاه ورزق دار، ولهذا جاء في الحديث: [**مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ الأجر**] (ابن كثير3/ 369)، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو

نحوه، فانظر إلى عناية الله عَزَّ وَجَلَّ بأوليائه، وتدبيره لهم، فسبحان الذي بيده أزمّة الأمور ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:13]. فسبحان الذي يجعل لمن اتقاه من كل همّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، فربما يقع الأمر كريهًا إلى النفوس لكن عاقبته محمودة ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:216]. ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:19].

قال الله ممتنًا على موسى ﷺ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه:37-40].

ومما جرى لموسى في هذه المرحلة من عمره؛ أنه كان يومًا في حجر فرعون، فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها، فقال فرعون لآسية: هذا عدويّ فهات الذباحين. فقالت آسية: على رِسْلِك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء، ثم أتت بطَستين فجعلت في أحدهما جمرًا، وفي الآخر جوهرًا، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرتة، وهذا حين جعل يدعو ويقول ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه:27-28]. لما أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يُريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية. قال الله عَزَّ وَجَلَّ إخبارًا عن فرعون أنه قال ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:52]. أي: يفصح بالكلام. وقال الحسن البصري ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾

قال: حلّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي. وقال سبحانه أيضًا ممتنًا عليه ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾[طه:40].

قال صاحب التحرير والتنوير: وموضع العبرة من هذه القصة: أنها تتضمن أمور ذات شأن ذكرى للمؤمنين وموعظة للمشركين: فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدّره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وإن الحذر لا يُنجِي من القدر.

وثانيه، إظهار أنَّ العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين، وأن علو فرعون لم يُغنِ عنه شيئًا في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

وثالثه، أنَّ تمهيد القصة بعلو فرعون، وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه، ونصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم، وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

ورابعه، الإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم.

وخامسه، أن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر، وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قوله ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

وسادسه، أنه لا يجوز بحكم العقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين، ولأنَّ الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما: أخذ البريء وانفلات المجرم.

وسابعه: تعليم أنَّ الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومَنْ معه بحادث سماوي ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاءً أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن رده إلى أمه، فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين ﴿قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: 32].

وثامنه: العبرة بأنَّ وجود الصالحين من بين المفسدين، فإن وجود امرأة فرعون كان سببًا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي فقالت امرأته ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾

وتاسعه: ما في قوله ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

وعاشره: ما في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر في أدلة العقل.

ولما في هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التي حقه أن يخطب بها في الناس حين حلوله بالعراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير مكتفيًا بالإشارة مع التلاوة فقال ﴿طسٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأشار إلى جهة الشام يُريد عبد الملك ابن مروان ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأشار بيده نحو الحجاز يعني: أخاه عبد الله بن الزبير وأنصاره ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وأشار إلى العراق يعني: الحجاج ﴿مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾.اهـ

حادثة القتل

تربى موسى في قصر فرعون الملكي، وعاش حياة القصور والترف والتنعم في ظل رعاية وحماية من امرأة فرعون المحبة لوليدها بالتبني، فعاين موسى ظلم فرعون وجبروته وبطشه، ورأى، وعايش حياة الفساد في القصور وعفنها، تلك الحياة التي امتن فرعون بعد ذلك على موسى بها قال ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:18]. وقد عاش موسى هذه السنين في الرعاية الملكية، وفوقها العناية الربانية إلى أن بلغ أشده، واستوى جسمًا وعلمًا وفهمًا ودراية، وذلك ببلوغ الثلاثين أو الأربعين كما ذكر الأئمة.

قال سبحانه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:14]. والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي، والذي ساعد موسى في قراءة الواقع ودراسته، ويظهر من ألفاظ القرآن إشارات جلية تفيد بأن موسى ﷺ لم يكن راضيًا عن الظلم والبغي والفساد في داخل القصر وخارجه، ولذا كان كثيرًا ما يأوي إلى بني إسرائيل، ويجالسهم في مساكنهم على أطراف المدينة، متباعدًا عن القصر القابع في وسط المدينة، مع أنه معدود من رجال القصر، ابن فرعون بالتبني، يلبس لباسهم، ويحيا حياتهم، فكانت له صولة في ديار مصر، وصار لبني إسرائيل عز ووجاهة، وارتفعت رءوسهم لأنهم أرضعوه، فهم أخواله من الرضاعة ـ وربما تكون أمه قد أخبرته وعرّفته من هو، ومن قومه، وما ديانته!ـ ولا شك أن هذا التصرف وهذا التقرب من موسى لبني إسرائيل كان ضد رغبات القصر، ومخالفة صارخة للقواعد الراسخة عند أهل القصور والتي تقضي بعدم الخلطة مع العامة، والترفع عن مجالسة الدون من الرعية، وخاصة إذا كانوا من أهل المهن المحتقرة الدنية، ورغم ذلك فها هو يتقرب إليهم، ويتعرف أخبارهم، وربما لا يعترضه أحد لحجته الواضحة أن أمه التي أرضعته وربته من هؤلاء بني إسرائيل، إذن فقد أحسن موسى في توجهه، فأحسن الله إليه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

قال الله تعالى ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:15]. فدخول موسى للمدينة هو خروج عن حيز القصر وحرمه الذي لا يسمح فيه للعامة بالاقتراب منه، وساعده على ذلك وقت الظهيرة وقت غفلة الناس حين يأوي الناس إلى داخل بيوتهم هربًا من حر الظهيرة، والدخول في هذا الوقت وهذا الحال أفاد أنه لم يحضر ويشاهد حادثة القتل أحد من الناس، ورغم ذلك انتهى خبرها إلى القصر، وليس هذا الخروج هو الأول من نوعه، وإنما خص بالذكر عما سبقه للحادثة التي جرت في ذلك اليوم، والتي كشفت عن الثورة المتأججة في نفس موسى ضد الظلم والبغي والتعدي من فرعون وأتباعه.. فبينا المدينة في غفلتها يتعرض موسى لما استثاره، وأثار حوافظه، وأظهر كوامنه، لما رأى رجلين يتصارعان ويتجاذبان، أحد الرجلين من بني إسرائيل والآخر من أهل مصر العاملين بالقصر، وكما يشير النص أنَّ المصري كان الأقوى والأعنف، بينما كان الإسرائيلي أضعف، وذكر أهل التفسير: أن المصري كان من رجال القصر، ويريد تسخير الإسرائيلي في عمل من أعماله، فلما رأى موسى المشهور بينهم بالصفات الحميدة، وأهمها نصرة المظلوم ومعاونة الضعيف، بجانب ميله الظاهر إلى بني إسرائيل؛ فصاح الإسرائيلي مستغيثًا بموسى لرفع الظلم والعنت عنه، وهو صاحب الصولة والجولة والكلمة في قصر فرعون.. وقد عبر القرآن أدق تعبير عما حدث لَمّا قال ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾، وهي عداوة استشعرها موسى من فرعون خلال حياته في القصر تجاهه وتجاه بني إسرائيل ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ والوكز هو الضرب بجُمْع اليد، وهذه الوكزة في العادة لا تقتل، ولكن لما حدث ذلك بان أن من وراء ذلك قوة جسدية لا يُستهَان بها، ونفس أبية مندفعة تأبى الظلم ولا ترضاه، فقد أراد موسى دفعه وإبعاده عن الإسرائيلي فكانت القاضية، ولم يكن موسى بأية حال يريد قتله، فقد وكزه ولم يضربه، فالقتل غير مقصود ولا متعمد، وليس هو بالضرب المتكرر المفضي إلى الموت، وهذا الموقف كشف عن شخصية موسى عليه السلام الانفعالية المندفعة تحارب

الباطل والبطالين، وبالقطع رأى موسى ظلمًا وتعديًا واقعًا على الإسرائيلي المستغيث، وإلا كان أولى به أن ينتظر ويسأل، ويتحرى ويتثبت، فدفعه بقبضة يده ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾.. وفي هذا إشارة إلى القضاء الذي قضاه سبحانه بموت هذا القبطي الكافر على يد موسى ﷺ الذي ما إن رأى الرجل أمامه جثة بلا حراك، حتى سارع إلى ربه جَلَّ وعلا يسترجع ويندم، وينسب المعصية إلى فعل الشيطان وغوايته، وهذه أخلاق النبوة.. عدّ الفعل معصية، فاستغفر ربه منها، وندم على ذلك أول وقوعها، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

فموسى تعامل مع الموقف بالفطرة التي جبل عليها وهي محبة الخير والعمل به، فلما حدث ما حدث استشعر تدخل الشيطان بإغضابه، ونسبه إلى عمل الشيطان؛ لأنه غضب والغضب يؤجج نيرانه الشيطان فقال ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي: ظاهر الإضلال، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:6]. وقال سبحانه ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس:60-62]. وقوله ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم:44].وليس للشيطان على موسى ﷺ سلطان ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:39-40]. وقوله سبحانه ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر:42]. وإنما هو الأدب مع الله ومع النفس، لذا هرع إلى ربه ودعاه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:16-17]. دعاء موسى ربه عَزَّ وَجَلَّ، وأدب الدعاء الذي يستدعي الإجابة، ويستجلب المغفرة؛ ذكر الذنب ثم طلب التوبة، الاعتراف بالتفريط والتقصير بتذلل الفاعل الأثيم، ثم طلب المغفرة من الغفور الرحيم. قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأن الله قد غفر له، حتى أنه في القيامة يقول: إني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها، وهذا ما علّمه ﷺ

لأبي بكر ولنا: [اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، فاغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم] (خ م ت)، وقال الأبوان ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23]. وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعتُ أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: [إن الفتنة تجيء من ها هنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾] فغفر الله لموسى ﷺ إعلامًا بكرامته عند ربه. قال صاحب التحرير: وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تخلل نزع الشيطان في النفس.اهـ

﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾.. استشعر قلب موسى التوبة والمغفرة والعفو والرضى، وشعر بنعمة الله تعالى عليه في هذا الموقف من المعرفة والحكمة والتوحيد والفهم، وأنه ليس أمامه سوى الشكر لله على نعمه وأفضاله، وأنه لا بدّ من إحداث طاعة، ومنه قول السلف (إذا أحدث الله لك نعمة، فأحدث لها طاعة) فعاهد الله على لزوم جانب التقوى والعمل الصالح، والبعد عن الظالمين، وعملهم الفاسد الظالم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي: مساندًا ومعاونًا للظالمين على ظلمهم، فهو متبرء من الظلم والظالمين، ومن الإجرام والمجرمين، ومن المعصية والعاصين.. كان عمر ﷺ يوقظ أهله للفجر، ويقول ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.. وكان سلفنا الصالح يحذرون، ويمنعون من معاونة ومساعدة الظالمين بأي صورة من الصور، والقاعدة في ذلك ما قال سبحانه ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: 2].

روى القرطبي (13/ 263): قال عبيد الله بن الوليد الوصَّافي: قلتُ لعطاء بن أبي رباح: إنَّ لي أخًا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل وما يخرج، وله عيال، ولو ترك ذلك لاحتاج وادَّانَ؟ فقال: من الرأس؟ قلتُ: خالد بن عبد الله القَسْري. قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح

﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ قال ابن عباس: فلم يستثنِ، فابتلي به ثانية، فأعانه الله.

فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه. قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالمًا، ولا يكتب له، ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئًا من ذلك فقد صار معينًا للظالمين.اهـ

شخصية موسى ﷺ كما هو واضح من مواقفه في القرآن تعبر عن شخصية انفعالية، حارة الوجدان، قوية الاندفاع، كما قال الشاعر:

إِذَا استنجدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ   لأيــةِ حــربٍ أَمْ بــأي مَـكَـانِ

فبالأمس قتل نفسًا دفاعًا عن الحق بوكزة واحدة.. ولما كان القتيل من رجال القصر، قرر موسى عدم العودة للقصر، لأن عودته تعني مقتله، فهي إلقاء للنفس في التهلكة، فبات قلقًا مضطربًا.

قال سبحانه ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: 18-19].

فما مضى سوى الليل، والمدينة في غفلتها، وموسى كما يفهم من اللفظ القرآني لم يغادرها كعادته إلى القصر، وإنما بقي بها حتى الصباح في خوف وترقب لنتائج فعلته، ولا يشعر أحد بما يحدث لموسى الخائف خوف الفطرة من العدو وغدره، وكأنه تأكد لديه أو غلب على ظنه وصول خبر المقتول إلى القصر وأهله، وعلى رأسهم فرعون، وأنه لا بد مرسل في طلبه؛ فإذا بنفس الإسرائيلي يطلب الغوث من موسى ضد مصري آخر جاء يظلم ويعتدي، ولما كان موسى لم ينس درس الأمس وعهد الأمس مع الله، فقد رد عليه بشخصيته القوية ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ من الإغواء؛ فهو كثير المناحرة والاشتباك مع المصريين، ولا يجر ذلك إلا شدة العداوة لبني إسرائيل المستضعفين، كما أن حدث الأمس قد كشف عن حقيقة موسى ﷺ وميله لبني

إسرائيل، وعدائه لفرعون وملأه، وسخطه عليهم، ولكن شخصية موسى المندفعة دومًا لرد الظلم، وصد الظالمين هي الحاكمة، فيندفع لرد القبطي الظالم عن الإسرائيلي ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ﴾، فَمَنْ هو قائل هذا القول؟

ذكر العلماء هذا القول عن اثنين:

الأول- قائله القبطي أخذه بالظن، أو فهمه من كلام الإسرائيلي حين استغاثته بموسى.

وقيل: بل هو من كلام الإسرائيلي، لما هاجمه موسى قائلًا ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾، فظن أن موسى سيبطش به هو لا القبطي، حينها قال ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ﴾.. فكشف للمصري عن فعلة الأمس ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ وهو من بقية كلام القبطي متهمًا موسى بأنه يفعل فعل الجبابرة الذين يأخذون الناس بالشدة والعنف والبطش، ولا يفكرون في الإصلاح بين المتخالفين و المتخاصمين.

وأفلت المصري من موسى مسرعًا إلى القصر ينقل إليهم هذا الخبر الهام عن قاتل الأمس. ويتقرر في القصر الفرعوني بعد اجتماع عاجل لفرعون وملأه ضرورة التخلص من موسى، الذي صارت عداوته لفرعون وجنده وأعوانه واضحة لا لبس فيها، بينما ولاءه للإسرائيليين وعونه.. فيستعد فرعون بغضبه وقوته وجنده للبطش بموسى والقضاء عليه، لكن عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتدخل في وقتها المقدر لإنقاذ موسى وحمايته.

قال تعالى ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:20-21]. من قصر فرعون وجمعه المتآمر على موسى يخرج هذا الموصوف بوصف الرجولة في سرعة ولهفة وجد واهتمام يسعى حثيثًا لإنقاذ موسى من المؤامرة.. تكاد تسمع اضطراب نَفَسه في الآيات من فرط سرعته وعجلته، فقد جاء من أقصى المدينة حيث يقبع القصر الملكي في طرفها، وحيث

الاجتماع العاجل الذي جمع فرعون بملئه وجنده، وقرروا فيه التخلص من موسى بقتله؛ ولأن الأمر خطير ولا يحتمل التأخير؛ سارع هذا الرجل الموفق الناصح الأمين المحب لموسى واستقامته ليخبره بالأمر، ويأمره بالخروج العاجل، وذلك حتى يمضي قدر الله، وينجو موسى ليحقق ما أراد الله جَلَّ وعلا في شرعه، وكونه من إرسال موسى ﷺ لبني إسرائيل، وفرعون وملئه؛ ليَسلم الأولون، ويهلك فرعون وجنوده إنهم كانوا خاطئين.

والملأ هم جماعة المستشارين والمعاونين والكبراء والمنتفعين من ظلم وبطش فرعون بالآخرين؛ هم الذين يجمعون الفتات المتساقط من موائد البغي والعدوان والإثم، ففيهم الكبر، وحب الرياسة، والجاه مع الجهالة، واللؤم والنفاق، ولاشك عندهم أن موسى سيُذهب بذلك كله، لهذا كان لابد من التخلص منه نهائيًا بقتله، ولكنهم يكيدون كيدًا، ويكيد سبحانه لعبده موسى، فجاء الرجل المؤمن ناصحًا لموسى بالخروج والفرار بنفسه من مصر بأسرها إلى حيث لا تطوله يد الظالمين.

فخرج منها خائفًا وحيدًا يتلفت أن يدركه القوم فلا ينجو، ولكن إلى أين؟. وهذا الجهل بالجهة التي سيتوجه إليها يجعله يضرب على غير هدى، فربما يقع بين أيدي أعدائه بدلًا أن ينجو منهم، فاحتمى بربه ولجأ إليه ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فهو الحارس الحافظ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:36]. فهو الذي يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويدفع الضر، فلنتذكر دومًا هذا الفائدة الغالية من موسى؛ فإنك إن كنت على الحق فلست وحدك، فمعك الفئة التي لا تغلب، والهادي الذي لا يضل، والحارس الذي لا ينام.. والنجاة بيد الله؛ فاطلبها منه، واعتمد عليه، وأسلم تسلم.

قال صاحب التحرير: ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطي، وخروجه من المدينة من قوله ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ هو أنَّ الله يصطفي مَنْ يشاء من عباده، وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء هيأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير، وأن الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله

تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:16]. وإن أوضح تلك المظاهر استقامة السيرة ومحبة الحق، وأن دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما كيد له من المكائد. وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد ﷺ في ذاته وفي حالهم معه. ثم (إن) في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾الآية إيماء إلى أن رسوله ﷺ سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه. اهـ

والآن اقرأ القصة كاملة بتدبر وتأمل لعلَّ الله يفتح عليك بها لم يفتح علينا به حين كتابتها.

قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص:14-22].

***

موسى في مدين

خرج موسى ﷺ وحيدًا مطاردًا خائفًا منزعجًا يتلفت من حوله خشية أن يكون متبعًا لمّا جاءه الساعي الناصح النذير الأمين يخبره ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[القصص:20-22].

قال ابن عباس: خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن ربه، فخرج موسى إلى الطرق الصحراوية المجهولة له لا زاد ولا استعداد إلا حسن ظنه بربه وتوكله عليه، ولا دليل يقود خطاه في مسافات شاسعة وأبعاد مترامية بعيدًا عن بطش فرعون وسلطانه إلى جنوب الشام أو شمال الحجاز حيث انتهى سيره إلى مدين التي ما زارها قبل ولا أتاها، لكنه في حمى الله ورعايته وتوجيهه، فربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يغيب عن قلبه وفكره، ولا يغيب ذكره عن لسانه ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فهداه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة وجعله هاديًا مهديًا، وما وجهه سبحانه إلى مدين إلا للنسب الذي بينه وبينهم؛ لأنَّ مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان بين مدين ومصر ثمانية أيام، وكان مُلكُها لغير فرعون. ولما كان موسى في سيره ذلك راجلًا فتلك المسافة تصل حين ذاك خمسة وأربعين يوما. وكان يبيت في البرية لا محالة.

وفي مثل هذه المحن الشديدة، ليس للعبد إلا الاحتماء بالقوي القادر ليكفيه شر كل ذي شر، ولذلك لزم موسى ﷺ دعاء ربه جلَّ وعلا في كل تلك الأحوال، فاسمع إليه بعد ما قتل المصري ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص:16]. ثم هو يعلن ويظهر تمام توبته، ويشكر نعمة الله عليه، فيدعو ربه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[القصص:17]. ولما جاءه الناصح ينصحه بضرورة الخروج السريع من مصر بلا تمهل ولا انتظار، لجأ إلى مولاه سبحانه فناداه ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:21]. وحينما عزم على الخروج استجابة لنصح الناصح الأمين احتمى بربه وطلب في

ترجي وأدب ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: 22]. فلا هادي سواه لمن ضل سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

وصل المسافر المجهد المكدود إلى مرفأ أمان بعدما اجتاز مفاوز الصحراء بنهارها شديد الحرارة وليلها القارس البرودة مع الجوع والعطش، وأيامًا وحياة لم يحيا مثلها من قبل فبالأمس كان يحيا حياة الدعة والراحة، حياة القصور، وهاهو اليوم وحيدًا جائعًا في صحراء مقفرة خالية، وهكذا الدنيا.. تأخذك في أحضانها حينًا، وتوليك ظهرها أحيانًا، تلقاك بالسعادة والسرور حينًا، وترميك إلى عناء وشرور أحيانًا، أيامًا تحيا حياة الملوك، وأحيانًا تكون فيها صعلوك ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

هي الدُّنْيَا تَقُولُ بِملءِ فيها ... حَذارِ حَذارِ مِنْ بَطشِي وَتفكي
فلاَ يَغرركموا مني ابتسامُ ... فَقولِي مُضحكٌ والفِعْل مَبكِي

عند بئر مدين انتهت الرحلة بموسى، حيث ساقته المقادير إلى مدين، وهناك طالعه أول ما طالعه مشهد تنفعل له النفس الأبية، ويستثير الشخصية السوية، فإذا كانت هذه الشخصية هي شخصية موسى ﷺ المندفعة دومًا لإحقاق الحق وإبطال المنكر والباطل، ودفع الظلم ورده على صاحبه، فلابد من تفاعل وتداخل واندفاع.

قال عزَّ وجلَّ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 23-24].

أي: موسى جماعة من الرجال الرعاة الجفاة الأقوياء مع بهائمهم ينزعون من البئر، ويخصون بهائمهم بالسقيا، وخلف هذا الجمع المزدحم على البئر فتاتان يحال بينهما وبين الماء، فلا تسقيان أغنامهما إلا بعد أن ينتهي هذا الجمع من السقيا، فترد أغنامهما بقايا نزع الرجال من ماء البئر.

هذا المشهد الذي يتصادم مع المروءة والشهامة في الرجال، والتي تدعو إلى تقديم النساء في مثل هذا الحال لضعفها، وحيائها الذي يمنعها من الاختلاط بالرجال، والقيام عنها بما تحتاجه من قوة الرجال، هذا المشهد هو الذي حرك موسى، فلم يقعد ليستريح من وعثاء السفر وعناءه.. هذا المشهد هو الذي أنسى موسى آلامه ومخاوفه وأحزانه ليسأل: ما خطبكما؟، وهو سؤال وجيز مختصر لا يحمل سوى معناه الواضح الجلي، فليس هو من باب الاستدراج لما بعده مما يكون بين رجل وامرأة؛ رجل يستعرض قوته، وامرأة لا تملك إلا ضعفها.. وإنما مروءة وشهامة رجل طاهر يعين امرأتين لما رأى الأمر عجيبًا ومستغربًا من أخلاق الرجال.. فما خطبكما؟ يعني مع هؤلاء القوم الغلاظ المعرضين عنكما وعن معاونتكما وعن السقيا لكما.. هل أسأتما؟ أو كان منكما ما أغضب هؤلاء عليكما؟

فأجابتا بغير اتهام ولا انتقاصٍ لأحد ولا عيبٍ، خاصة وموسى غريب عن الجميع ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾، فنحن ننتظر دورنا في السقيا، وهو الأخير على كل حال، لأنه لا يأتي إلا بعد أن ينتهي الرعاة من السقي.. فإن أنكرت علينا تواجدنا في هذا المقام مع الرجال الأقوياء بلا رجل يحل محلنا، ويكفينا هذا المقام، فاعلم أن أبانا شيخ كبير، هو مثلنا لا يقوى على مدافعة الرجال، ولا يقوى على العمل والخدمة، ولا أبناء له سوانا لذلك نقوم نحن بالرعي والسقيا لبهائمنا.

بهذه الكلمات الوجيزة القليلة عبرت الفتاتان عن واقع الحال والظروف التي دعتهما؛ لأن تكونا في هذا المقام الذي لا يناسبهما بلا ثرثرة ولا إطناب، وما دعاهما للكلام سوى سؤال موسى ﷺ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾.

وهو سؤال من عدة أحرف أوجز فيه موسى دفعًا للتهمة عن نفسه، وما أراد إلا معرفة هذا الذي يحدث أمام عينيه من أمور مستغربة تخالف ما جُبل الناس عليه من الفطرة في معاونة الضعيف وبخاصة النساء، فاحتاجتا إلى التفصيل في ذكر السبب جوابًا على السؤال المختصر؛ لغربة السائل عن المكان، وغرابة الموقف من الفتاتين.

ـ وهذا الشيخ ليس هو شعيب الرسول المرسل إلى مدين، لأنَّ بينه وبين موسى زمنًا بعيدًا، ولو كان لذكر الله سبحانه من كلامه ما يدل على ذلك، ثم إنه لا يليق بمن آمن معه أن يعاملوا ابنتي نبيهم بهذه المعاملة!

ـ فلا حرج على المرأة إذا دعتها الضرورة، أو الاحتياج للخروج إلى العمل، مع التزام ما طلبه الشرع منها في نفسها وزيها، وعدم اختلاطها بالرجال بالتفاصيل الموجودة في مظانها. تتحرك شخصية موسى المباركة المملوءة إيمانًا وشهامة ورجولة ونجدة ومروءة ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.. نفس نبيلة، وفطرة سليمة، وقوة روح، وحب للخير، والإحسان إلى الناس والبهائم دعته إلى أن يسقي أغنام المرأتين، فيزاحم الرعاة في هذا الحر والقيظ الصحراوي الذي ظهر من قوله ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ مع ضعفه وإرهاقه؛ عن عمر بن الخطاب ﷺ أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تزودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم، رواه ابن كثير وقال: إسناده صحيح، فلما أنجز موسى مهمته آوى إلى الظل ليستريح بعد العناء، ولم يطلب أجرًا، ولم ينتظر منهن ثناءًا ولا شكرًا على صنيعه، فهو لا يرجو إلا الله، ولا يطلب إلا من الله ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فشكر ربه على نعمه التي سبقت لما استشعر نعمة الظل والراحة بعد العناء، وسأل الله من خيره العميم ولم يسأل سواه، وإنما عرّض بالدعاء، ولم يصرح بالطلب رغم افتقاره وجوعه، إلا أنه ما علّق قلبه، ولم يجعل رجاءه إلا في الغني القادر عَزَّ وَجَلَّ. قال رسول الله ﷺ: [إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك] (ت وهو صح).

قال القرطبي (7/ 13/ 270): في قوله تعالى ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعامًا سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ هكذا روى جميع المفسرين: أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما

قال ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة:180].وقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:8]. ويكون بمعنى القوة كما قال ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان:37]. ويكون بمعنى العبادة لقوله ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[الأنبياء:73]. قال ابن عباس: «وكان قد بلغ به الجوع، واخضر لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله» ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا.اهـ

ونقل ابن كثير (3/ 371) عن الطبري عن عبد الله بن مسعود قال: أحثثت على جمل ليلتين حتى أصبحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا هي شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي وكان جائعًا، فأخذها جملي وعالجها ساعة ثم لفظها، فدعوت لموسى ﷺ ثم انصرفت.اهـ

قال تعالى ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:25].

لمّا علّق القلب بالله جاءت إجابة الدعاء بسرعة بالغة ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ إجابة عاجلة لقلب موصول بالله عَزَّ وَجَلَّ، فقد عقب عَزَّ وَجَلَّ على الدعاء بالفاء الدالة على سرعة الإجابة ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾.

نتعلم أدب الدعاء وحب الدعاء وملازمته من موسى ﷺ، لأن ربنا يحب الدعاء من عباده، فحين ترفع يديك بالدعاء، فذلك إعلان عن فقرك إليه وهو الغني القادر، وأنك دومًا في حاجة إليه، فأسمعه صوتك، واسأله في كل شئونك.. كما سمعت موسى يدعو في كل المواقف ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص:16]. ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:17]. ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:21]. ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:22]. دعاء بعد دعاء،

ورجاء بعد رجاء، وها هو الفرج قد جاء ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ لا تبختر، ولا تبذل، ولا تبرج، ولا تثني، ولا إغواء. قال عمر ﷺ: «جاءت تمشي على استحياء؛ قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسَلفَع من النساء ولاجة خراجة» ابن كثير: سنده صحيح، والسلفع: هي الجريئة السليطة، فحياء المرأة هو سياجها الرائع وحصنها الحصين، وستر الوجه عن الأجانب سنة النساء الصالحات من قديم، وليست كما يقول أهل الزور عادة جاهلية، وكان هذا المجيء بعدما عادتا مبكرتين على غير المعتاد لأبيهما، فسألهما فأخبرتاه عن موسى وأخلاقه النبيلة وشهامته، فأرسل يدعوه ليتعرف عن قرب على هذا الغريب القوي الجريء، ولعله كان يدور في نفسه استخدامه مع مكافأته على السقيا، وفارق بين حالها وكلامهما عند السقيا وهما اثنتان، وبين مجيء إحدهما تمشي مبالغة في حيائها مخافة أن يفهم هذا الغريب غير الحقيقة، وكأنها استجمعت ما لديها من شجاعة نفسية وأطلقت الكلمات التي كلفت بإبلاغها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾.. دعوة واضحة، وألفاظ محددة تعبر عن المقصود حتى لا تكون ريبة، فلم تتلجلج، ولم تتلعثم، ولا تعثر، ولا ارتباك، ومما أراحها في مهمتها أنها ليست دعوة مطلقة، وإنما دعوة كريمة من شيخ كريم ﴿ يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فهي دعوة الشيخ الكبير تنقلها الفتاة لئلا يتوهم متوهم أو يرتاب مرتاب، وما أكثرهم في مثل هذه الأحوال، وموسى لا يريد أجرًا، وإنما فهم الأمر على أنه إجابة لدعائه، وفرصة ليشعر بالأمان في دار تؤويه ولو للحظات بعد هذه الرحلة وهذا العناء، فاستجاب موسى للدعوة آخذًا بالأسباب، وانتقل إلى دار الشيخ تقوده الفتاة من خلفه، وهو يمشي أمامها تدله على الطريق بالحصى، كما ذكره أهل التفسير.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.. لمس الشيخ الحكيم أن احتياج موسى إلى الأمن أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، ولذا تركه يقص حكايته من أولها إلى أن وصل مدين، وذلك في أثناء تناول الطعام، والقيام بحقه في الضيافة، وكان أول ما أجابه به ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ ﴾.. نزلت كلمات الشيخ بردًا وسلامًا على

قلب موسى، وأحس باهتمام الشيخ بأمره، وحرصه على سلامته، فاطمأنت نفسه بهذه الكلمات الحكيمة، فطابت نفسه وقرت عينه. فتعلّم كيف تواسي الحزين، وكيف تطمئن الخائف القلق، وكيف تسكن المضطرب الملتاع.. تعلّم كيف تكون مبشرًا ميسرًا لا منفرًا معسرًا.

ولما قرب صالح مدين طعامًا إلى موسى قال: لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبًا، فقال شعيب: ليس هذا عوض السقي، ولكن عادتي وعادة آبائي قرى الضيف وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: 26]. أي الفتاتين تكلمت؟ لم يذكر القرآن ذلك. وإنما تلحظ في أسلوب كلامها الأدب والتلطف، والاستعطاف والترجي لوالدها الشيخ ﴿ يَا أَبَتِ ﴾.. ما قالت: يا أبي! فأفادت هذه التاء ما ذكرنا. وأنت تقرأها في القرآن في مثل هذه المواطن ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: 42-45]. ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصافات: 102]. ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ [يوسف: 4].

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾.. كلام حكيم جامع لا يُزاد عليه، يضرب مثلًا، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان فيمن وكلته في أمر فقد تم المراد، ولهذا أمّر أبو بكر في خلافته للينه ورقته خالد بن الوليد على الجيش لقوته وشدته، فاستقام الأمر، فلما تولى عمر بقوته وشدته لم يصلح معه خالد، وإنما ولى أبا عبيدة بن الجراح للينه، فاستقام الحال. كما ذكره ابن تيمية رحمه الله وقد روي عن عمر أنه قال: «أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي».

قال ابن كثير (3/ 372): عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾، وصاحبة موسى حين قالت ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾. اهـ

والمتكلمة وأختها تعانيان من رعي الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء، ومن المخالطة التي لابد منها مع الرجال في المرعى والمسقى.. نظافة القلب وسلامة الفطرة في المرأة تدعوانها لهذا الطلب بهذا الاستعطاف، وترغيبًا لأبيها في إجابة طلبها تخبره عن قوة هذا الفتى الغريب وأمانته، وهي قوة بدت رغم أنه غريب، والغريب ضعيف على كل حال، وبدت أمانته في عفة اللسان وغض البصر عنها حين جاءته تدعوه، وهذا يرد به على من صور الأمر أنه إعجاب من الفتاة بموسى ورغبة في قربه، فهمها الأب وترجمها!! وهذا يرده القرآن فقد ذكر أن الرجل عرض إحدى الفتاتين على موسى، فهل هي التي جاءته تمشي، أم الأخرى؟!، واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته، وإبعادًا لسوء الظن وقالة السوء من أهل القرية رأى أن يجمع بين ذلك وبين تزويج ابنته له من كفء قوي أمين.. فعرض ابنته على موسى للزواج ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ [القصص:27-28]. أي: لقوتك وأمانتك أريد أن أدنيك مني بالزواج من إحدى ابنتي، هكذا بغير حرج أو لف ودوران وإشارات بعيدة مع التردد، فهو يعرض نكاحًا لا حرج فيه ولا خجل منه، زواجًا هينًا بسيطًا، لا تكلف فيه ولا تعقيد، من هنا قال العلماء: إنه أولى بالرجل أن يعرض ابنته أو موليته على أهل الخير والصلاح والكفاءة والديانة والمروءة، وهذا خلاف ما اعتاده الناس، ولهذا لا يصدر مثل ذلك إلا ممن كان عنده بصيرة وبعد نظر، وقد فعله الفاروق عمر أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين، ففي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: «إن عمر حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة، فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري! فلبثتُ ليالي ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر. فصمت أبو بكر فلم يرجع لي بشيء، وكنت أوجد عليه من عثمان، فلبثتُ ليالي فخطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين

عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ، إلا أني علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها. وعرضت أم المؤمنين أم حبيبة ﵂ أختها على النبي ﷺ فقال: [إن هذا لا يحل لي]، وعرض علي بن أبي طالب ابنة عمه عمارة بنت حمزة، فاعتذر ﷺ بأنها ابنة أخيه من الرضاعة، وهكذا كان سلفنا ﵃ في فهمهم للإسلام، وانتكس الحال وصار الناس يرون ذلك عيبًا وعارًا وجرحًا للكرامة بزعمهم، فلا حرج على الولي في ذلك، بل ولا على الفتاة التي بلغت مبلغ الزواج، وتقدم لها كفؤ أن تطالب وليها بالزواج الحلال، ولا نكاح إلا بولي فهو الذي يزوج، ولا حظ للمرأة في ذلك، وللأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، والصداق قد يكون عملًا وإجارة كما في القصة، وكما زوج النبي ﷺ الصحابي الفقير امرأة من المسلمين على أن يُحفظّها من القرآن ما حفظ عن ظهر غيب.

والتيسير في أمر الزواج أمر مُلّح وضروري لنشأة البيوت المسلمة، وتيسيرًا على الشباب بدلًا من فتن الإغواء، وكم من بنات عذارى عوانس و أيامى في بيوت آبائهن تأكل الأيام والسنون شبابهن وأعمارهن، لتعذر جمع المهر المطلوب وطلبات التزويج التي يطلبها الآباء، وهكذا عرض الشيخ الصالح على موسى العمل لديه في رعي الأغنام مقابل تزويجه من ابنته، فكان هذا مهرها، وهو يدل على فهم الشيخ وحكمته حيث لم يطلب منه صداقًا من مال، وإنما كان الصداق هو استئجاره في العمل راعيًا للغنم لسنوات ثمان، وإن تكرمت وأحسنت إلي لسني، فأزدهم ليكونوا عشر، وكأنه يقول: ولأني لن أجد مثلك لمثل هذا الأمر، ثم راعى أنه غريب، وربما بعد طول الغربة العودة إلى وطنه وأهله، فحدد الأقل وخيّره في الأكثر، ثم يقول الشيخ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ورغم ذلك ليست غايتي استغلال ظروفك أو إعناتك، وإنما حاجتي هي التي دعتني لذلك، وعلى أية حال سأكون معك من أهل الصلاح والتقوى الحافظين للناس حقوقهم وبخاصة الغريب في معاملته ووفائه، وهو أدب جميل جم في التحدث عن النفس، فلم يزكي نفسه ولكنه يرجو ذلك

ويكل الأمر إلى الله ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:32]. وقبل موسى العرض وأمضى العقد في وضوح ودقة وأشهد الله عَزَّ وَجَلَّ.. هكذا مضى الأمر، وتم الزواج المبارك. قال موسى لصهره: الأمر كما قلت؛ ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾، ولم يقضِ موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، عشر سنين كوامل تامة، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألتُ ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل». هكذا أبرم العقد في وضوح ويسر وكلمات مباركات.. وتم زواج موسى ﷺ من ابنة الشيخ الصالح في هدوء وبساطة بلا تكلف ولا تعقيد، فكان زواجًا ميمونًا مباركًا، بلا كماليات ومتطلبات تأسيس بيت الزوجية التي غالبًا ما تعرقل إن لم تمنع الزواج، وقد قال النبي ﷺ: **[إن جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض]** (صحيح الجامع 270).

قال صاحب التحرير: والعبرة من سياقة هذا الجزء من القصة المفتتح بقوله تعالى ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو ما تضمنته من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال، وكيف هيأ الله تعالى موسى لتلقي الرسالة بأن قلبه في أطوار الفضائل وأعظمها مصاهرته لهذا الشيخ الكريم، وما تتضمنه من خصال المروءة والفتوة التي استكنت في نفسه من فعل المعروف، وإغاثة الملهوف والرأفة بالضعيف، والزهد والقناعة وشكر ربه على ما أسدى إليه، ومن العفاف والرغبة في عشرة الصالحين والعمل لهم، والوفاء بالعقد، والثبات على العهد حتى كان خاتمة ذلك تشريفه بالرسالة وما تضمنته من خصال النبوة ليعتبر المشركون بذلك في مقايسة تلك الأحوال بأجناسها من أحوال النبي ﷺ فيهتدوا إلى أن ما عرفوه به من زكي الخصال قبل رسالته وتقويم سيرته وإعانته على نوائب الحق وتزوجه أفضل امرأة من نساء قومه إن هي إلا خصال فاذة فيه بين قومه. والله أعلم حيث يجعل رسالته، وليتأسي المسلمون بالأسوة الحسنة من أخلاق أهل النبوة والصلاح.اهـ

والآن اقرأ القصة في تدبر لعلَّ الله يفتح عليك بما لم يفتح علينا به حين كتابتها وهو الفتاح العليم.

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا
وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا
خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ
أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)
قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ
عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص:22-28].

***

العودة والنداء

مضت السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى ﷺ مع صهره، وهي الأكمل والأوفى من الأجلين، قضاها موسى في هذا الوسط الأسري الصالح الدافئ عوضًا من الله عَزَّ وَجَلَّ لعبده موسى عمّا فقد من الأهل والوطن، ثم هي فترة تدريب وتمرين، وإعداد وتأهيل؛ فبعد حياة الراحة والغنى واليسر، وكل ما يطلب مُعَدّ، وكل ما يشتهي حاضر، حياة القصور الناعمة، حياة البذخ والترف، يُنقل إلى حياة البداوة الخشنة حيث رعي الغنم، والبحث عن الكلأ ولو في أعالي الجبال، والاعتماد على النفس، والاحتكاك بمتطلبات الحياة البشرية والخبرات التجريبية، وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: [ما من نبي إلا ورعى الغنم]، وكأن ذلك كان لتدريبهم على سياسة الناس والصبر عليهم، والاحتمال، والتفكر، وحياة البسطاء وعيشهم، فهي سنوات قضاها موسى ﷺ ليُصنع فيها على عين الله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:39]. ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:42]. وقد مر بتجارب وأحوال متقلبة بين العسر واليسر.. بين الخوف والأمن.. بين الانفراد والجمع.. بين الغربة والألفة.. بين الشبع والجوع.. بين الإقامة والترحال.. بين طراوة العيش وشظفه، وكل ذلك وغيره كان موسى ﷺ في أشد الاحتياج إليه لإعداده للمهمة الجليلة القادمة.

قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:40]. فكل ما في حياة موسى ﷺ من تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ كان إعدادًا للمهمة العظيمة الثقيلة التي لا يقوى عليها إلا صنف من الناس لا يعرفهم إلا خالقهم ومصطفيهم ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[الأعراف:144].

قال صاحب التحرير: تقدير خاص وهو العناية بتدرج أحواله إلى أن بلغ الموضع الذي كلمه الله منه، وليس المراد القدَر العام الذي قدره الله لتكوين جميع الكائنات فإن ذلك لا يشعر بمزية لموسى ﷺ. وقد انتبه إلى هذا المعنى جرير بذوقه السليم فقال في مدح عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافةُ إذ كانتْ له قَدرًا كَمَا أَتَى ربَّه موسى عَلى قَدرِ

قال تعالى ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:13]. وموسى بخاصة كانت رسالته من أثقل الرسالات وأشقها، فالمطلوب منه مواجهة فرعون الطاغية المتجبر أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشًا، وأثبتهم ملكًا، وأطغاهم وأكفرهم؛ ليستنقذ أمة بني إسرائيل المقهورة المستذلة المستضعفة من براثنه ومخالبه، وهي أمة قد استمرأتْ الذل والمهانة، وألفتْ الرجس والعفن والقذارة، ولديهم عقيدة قديمة عظيمة انحرفوا عنها وحادوا، فقلوبهم لا ترضى سوى بهذا التحريف والانحراف، ويشق عليها أن تقبل بتصحيح العقيدة الذي جاء به موسى ﷺ إليهم.

جاء موسى تقوده أقدار الله إلى مدين، وهاهو يعود من حيث أتى تقوده أقدار الله على ذات الطريق طريق النجاة من مصر، حتى يتقن هذا الطريق، ويعرف دروبه ومسالكه، لأنه الطريق الذي سينقذ من خلاله ويقود بني إسرائيل، وهي أمة تحتاج إلى رائد قائد في الصغيرة والكبيرة بعدما أفسدهم الذل والقسوة والتسخير، فقد فقدوا القدرة على التدبير والتفكير.

عاد موسى وقد أصبح زوجًا وأبًا بأهله إلى مصر التي خرج منها خائفًا وحيدًا، فهل نسي الخطر الذي ينتظره؟ هل نسي فرعون وبطشه؟ أم أنه أمل أن الحال قد تغير بطول العهد بينه وبينهم؟ أو ربما أمل أن سنين غربته العشر أنستهم ما كان منه؟. إنه القدر يقود خطاك يا موسى!.

قال عزَّ وَجَلَّ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص:29]. قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، واستأذن صهره في الرحيل، وخرج في معية أناس متوجهين إلى مصر.

قال ابن كثير (3/ 371): وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفًا عليه بإسناد جيد قال: لما دعا نبي الله موسى ﷺ صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فرفع حبالًا على الماء، فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام.اهـ

وفي إحدى ليالي العودة بعدما انفصل عن مدين، ودخل إلى صحراء سيناء، في برد الصحراء القارص، مع الظلمة الحالكة في هذه المفاوز المهلكة وكان موسى ﷺ لشدة غيرته يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار، فأخطأ الرفقة، وكانت ليلة مظلمة باردة، ضل موسى وأهله الطريق، وجعل يقدح نارًا فلا تشتعل، فتعجب من ذلك، فبينما هم على هذا الحال إذ أبصر نارًا عن بعد تتأجج من جانب الطور الأيمن، وكأن موسى رآها دون أهله، والله أعلم.

قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل:7]. قال ابن كثير (3/ 374): فلما اقترب من هذه النار، سمع نداء يناديه من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:44]. فهذا مما يرشد أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، النار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في سفح الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتًا في أمرها، فناداه ربه.اهـ

وكانت النار نورًا في الحقيقة لا يصلح أحد لرؤيتها، قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه:9-10]. فوجد موسى ﷺ عندها هدى، وأي هدى!!، واقتبس منها نورًا، وأي نور!!، وأتاهم بخير، وأي خبر!! وجد نورًا يتلألأ ويتوهج في شجرة خضراء، تزداد نورًا كما تزداد خضرة، فوقف أمامها مشدوهًا متحيرًا متعجبًا، وحيدًا في هذا الليل البهيم البارد، فإذا به يتفصد عرقًا، ويهتز كيانه، ويهتز الكون من حوله، وإذا به يُنادى باسمه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: 30]. وقال عزَّ وجلَّ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: 8]. أي: بورك من في مكان النار، وهو موسى والملائكة، وذلك كالتحية والتبشير له، وبورك في البقعة وحواليها لما سيكون فيها من الأمر العظيم؛ تكليم موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات على يديه.

وقال ابن كثير (3/ 345): قال ابن عباس وغيره: لم تكن نارًا، وإنما كانت نورًا يتوهج، وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين، فوقف موسى متعجبًا مما رأى ﴿ نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ قال ابن عباس: تقدس ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي: من الملائكة. قاله ابن عباس وغيره، وقال ابن أبي حاتم: عن أبي عبيدة، عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار؛ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره] ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وأصل الحديث مخرج في (صحيح مسلم)، وقوله تعالى ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي الذي يفعل ما يشاء، ولا يُشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.اهـ وهذا التنزيه اقتضاه المقام إبعادًا لإيهام ما لا يليق من التشبيه.

قال عزَّ وجلَّ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: 11-16].

هو نداء علوي من القادر القوي لموسى النبي.. اصطفاء واختيار واجتباء، فكيف أطاق موسى سماع مالا يقوى على سماعه أحد لا بشر ولا ملك؟! ففي البخاري: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله؛ كأنه

سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير]، فأمر موسى بخلع نعليه خضعانًا وتواضعًا، وخشوعًا وتأدبًا لربه، وتعظيمًا وتوقيرًا وإكرامًا لتلك البقعة المباركة في هذه الليلة المباركة.

وموسى ﷺ أطاق أن يسمع لأنه أعدّ وأهلّ لهذا الشرف، وهذه المناجاة ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، قال له ربه: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فاستمع موسى في خشوع وأدب ليفهم، وحسن الاستماع أدب يحبه الله تعالى، ولهذا مدح صاحبه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر:17-18]. وذم مخالف ذلك فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[الإسراء:47]. فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدبًا لهم فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204].

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.. فهذا أول واجب على العبيد أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك، لا رب سواه ولا إله غيره، ولا معبود بحق إلا هو، لذلك قال: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ فهو أول مطلوب؛ وَحَدْنِي بالعبادة. وخَصَّ سبحانه الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ لأنَّ الصلاة تجمع أحوال العبادة، فهل يجوز لأحد بعد ذلك تأخير الصلاة عن وقتها فضلًا عن تركها؟

ذكر ابن كثير (3/ 140): عن الإمام أحمد بسنده إلى أنس، عن رسول الله ﷺ: [إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾] فالصلاة تُذكر العبد بخالقه. إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته.اهـ

قال ابن كثير (3/ 345) في قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[النمل:9]. أعلمه أن الذي يُخاطبه ويُناجيه هو ربه الله العزيز الذي عزَّ كل شيء، وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء.اهـ

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾.. فالساعة قائمة لا محالة وكائنة ولا بد، يكاد يخفيها سبحانه، قيل: حتى عن نفسه، فلا يعلمها أحد من الملائكة المقربين ولا أحد من الأنبياء والمرسلين، وقد قيل في إخفاء ذكرها حكمة: وهي اللطف بالمؤمنين، لحثهم على الأعمال الصالحة، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾.. فهي قائمة للجزاء كل عامل بما عمل ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:7-8].

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾.. أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمَنْ وافقهم على ذلك فقد خاب وهلك.

نقل القاسمي (7/ 128) عن الزمخشري قوله: (يعني أن مَنْ لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير، إذ لا شيء أطم على الكفرة، ولا هم أشد له نكيرًا من البعث. فلا يهولنك وفور دهمائهم، ولا عظم سوادهم. ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك. واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه الهوى واتباعه لا البرهان وتدبره. وفي هذا حثٌ عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله).اهـ

ثم يسأله عَزَّ وَجَلَّ مؤنسًا له ومطمئنًا لرهبته ووجله لما حدث وما سيحدث ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾[طه:17-20]. وكانت الإجابة كافية بمجرد التعريف، ولكن موسى فصّل وأزاد بذكر المنافع والمهام، وكأنه ليُطيل الكلام والمُقام في حضرة الملك العلام بالمناجاة مع ربه عَزَّ وَجَلَّ ﴿ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أي: أضرب بها ورق الشجر فيتساقط فتأكله غنمي ﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ ﴾ [النمل:10]. إنها المفاجأة التي لم يتهيأ لها موسى حين تحولت عصاه التي ذكر فوائدها، ومنافعها إلى حية ضخمة تتلوى وتلتهم ما تلقاه من حجر ومن شجر؛ مشهد تفر منه النفس

وتجزع، وترتعب وتخاف بالفطرة الجبلية، ولذلك ولى موسى مدبرًا جاريًا ولم يفكر في حضوره بين يدي ربه العظيم في مقام التكليم والمخاطبة، ولم يراجع ما سبق من كلام ربه، فاحتاج الأمر إلى طمئنة أخرى لنفس موسى البشرية الخائفة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص:31]. وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:10]. أي: لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم، وفيه: تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. حينها عاد موسى إلى مكانه، وذهب شئ من خوفه.. فلما قيل له ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:21]. عاد الخوف الفطري والتردد والارتباك ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ فاطمأنت نفسه، وانصاعت لأمر ربها، فلما أمسك بها من ذيلها على تخوف عادت عصاه التي عرفها، فازداد طمأنينة، وسكنت نفسه عن خوفها الفطري، وعاد إلى مقام الخاشع الساكن، إلى مقام التلقي من ربه العظيم الذي يقول للشيء: كن فيكون، وما أراد سبحانه من مباغتته بهذه الآية الرهيبة إلا أن يكون متهيئًا لمثلها أمام فرعون فلا يفزع ولا يرتبك.

وآية أخرى ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص:32]. وقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه:22-23]. وأطاع موسى الأمر هذه المرة بلا تردد، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره، ثم أخرجها فإذا بالمفاجأة الثانية؛ إنها يده صارت بيضاء تلألأ كأنها قطعة قمر لامعة مشعة من غير مرض، يلوي أصابعها ويحركها، فلا بئس بها سوى تحول لونها الأسمر لون بشرته إلى بياض لامع، حينها أدركت موسى طبيعته البشرية، فعاد يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة، فيؤمر ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ فأمر أن يضع يده على قلبه ليسكن جأشه وتطمئن نفسه، هذا وإن كان خاصًا بموسى إلا أن بركة الإيمان به تنفع بإذن الله من يفعله على نية الإقتداء بالأنبياء.

﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾.. وهما اليد والعصا.. آيتان معجزتان إلى فرعون وحاشيته وخاصته وكبراء دولته تدلان على أنك نبي مرسل من رب العالمين.

وقوله ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: 12]. أي: هاتان اثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهانًا لك إلى فرعون وقومه، وهي الآيات التسع التي قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: 101].

قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: 33-35].

ذكر موسى ﷺ في هذا المقام حادثة القتل، وتخوف من قتله في مقابلة ما جرى منه، وما ذكر ذلك وهو خارج من مدين بأهله في طريقه إلى مصر، وكأنه ﷺ كان سيحتاط للأمر، ويتكتم خبر وصوله إلى مصر، أو اعتقد أنَّ الأمر قد نسي بمرور السنين التي أقامها في مدين، وإنما ذكر الحادثة في مقامه هذا لتكليفه بالذهاب إلى فرعون في قصره، ومواجهته بالآيات، ودعوته إلى الرب الحق، وترك ربوبيته الكاذبة الواهمة، فما الذي يحول بينه إذن وبين أن يطلب من الملك الوهاب سبحانه العون والمساندة في مهمته الضخمة العظيمة بمدد يستعين به في محاجة القوم ومجادلتهم المتوقعة، وأن يكون ذلك العون من أهله هارون أخيه؛ الفصيح لسانًا، القوي إيمانًا.. فاستجاب الله وآتاه سؤله ومطلبه، وجعل هارون معينًا له، ومساندًا في رسالته ومهمته، ووعدهما بالغلبة، وعدم قربانهما بأي سوء ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: 46]. فهي المعية الإلهية الخاصة بالحفظ والتأييد والنصرة، وتلقى موسى التكليف

الذي كان يُعد من طفولته لتلقيه، وأنجز الله وعده الذي وعد أم موسى وهو رضيع ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:7].وعد الله ولا يخلف الله وعده، وهو أصدق القائلين.

يتذكر موسى ﷺ مصر، والأحداث التي أخرجته منها، ويذكرها لربه عَزَّ وَجَلَّ عذرًا وتحوطًا لحماية، وإتمام التكليف الذي كلف به لتوه، ولم يكن ذلك منه اعتذارًا عن المهمة والتكليف وإنما طلبًا للعون من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك لما قال له ربه عَزَّ وَجَلَّ ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:24]. ما اعتذر لربه بعذرٍ، وإنما أظهر حرصه على مهمته، وعلى تأدية رسالته وإنجاحها، فتقوى بكل الأسباب، وسأل ربه ما عجز عنه حتى تكتمل له رباطة الجأش لمواجهة هذا الذي جاوز الحد في التكبر والعتو، حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:25-36]. لكي يستجيب فرعون إن قدر له أن يستجيب، فسأل الله شرح الصدر وتيسير الأمر، وأن يحلل عقدة لسانه، وسببها كما ذكر أهل التفسير: أنه في صغره جذب لحية فرعون بيده، فأراد أن يقتله ظنًا منه أنه أراد إهانته واحتقاره، فأخبرته امرأته أنه صغيرًا لا يعي ما يفعل، فاختبروا فهمه ووعيه ومدى إدراكه، فخيّروه بين ثمرة وجمرة، فأراد أخذ الثمرة، فأرسل الله ملكًا أخذ بيده ووضعها على الجمرة، فأخذها ووضعها في فيه، فأصابته في لسانه بلثغة، هي التي سأل الله حل عقدة منها لا كلها ليتمكن من إقامة الحجة عليه، وطلب وزيرًا وعضدًا له أخاه هارون الأكبر سنًا حيث أنه أفصح منه لسانًا وبيانًا، فهو الأقدر على المجادلة لفرعون، ولكل معاند مكابر وليخلفه إذا قتلوه.. فأجاب الله عَزَّ وَجَلَّ موسى إلى جميع ما طلب، وامتن عليه وأعطاه كل ما سأل، وهذا من وجاهته ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:69]. قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم:53]. قال المفسرون: كان هارون يومئذٍ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون،

وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة، وأخبره بما أوحي إليه؛ فقال له موسى: إن الله أمرني أن آتي فرعون، فسألتُ ربي أن يجعلك معي رسولًا.

وقد سمعتْ أم المؤمنين عائشة رجلًا يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمنّ على أخيه؟ فقالت عائشة لمن حولها: «هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأُوحيّ إليه». وقد علل موسى احتياجه إلى مشاركة أخيه هارون بالتعليل الصادق العظيم ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: 33-36].

قال صاحب التحرير: ومحل العبرة من هذا الجزء من القصة: التنبيه إلى أنَّ الرسالة فيض من الله على مَنْ اصطفاه من عباده، وأن رسالة محمد ﷺ كرسالة موسى جاءته بغتة فنُودِي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأن الله ثبته كما ثبت موسى، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه.اهـ

والآن اقرأ متمعنًا قصة عودة موسى عليه السلام، وتكليف العلي العظيم له، وعش جلال الموقف.

قال تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ
نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ
﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ
﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ
﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى
﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى
﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ
فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ
أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ
قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ
إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ
قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: 9-48].

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى
جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: 7-12].

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ

أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ
وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ
هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

[القصص: 29-35].

***

المهمة والمواجهة

وضحت المهمة، وعلم التكليف الذي هو دعوة فرعون وملأه إلى ترك ما هم عليه من الباطل والكفر بالله، والإيمان بالله وحده، وإخراج قومه من مصر إلى الأرض المقدسة، ومن قبل تعبيدهم لله رب العالمين، إذًا فموسى لم يُرسَل إلى المصريين، لأنه وكما هو معلوم أن كل رسول إنما أرسل إلى قومه خاصة، وقد تبين لنا في بداية الكتاب أن فرعون لم يكن من المصريين القبط، وإنما كان من العماليق الذين هم أقرب لبني إسرائيل، فعلى هذا والله أعلى وأعلم قلت ما سبق؛ أنَّ موسى ﷺ إنما أرسل إلى فرعون وملأه، وإلى قومه بني إسرائيل، وهذا ما ذكره القرآن تحديدًا وتوصيفًا، فتابع معي ذلك في الآيات؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:103-105]. وقال تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس:75]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:5]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود:96-99]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:101]. وقال تعالى ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:24]. وقال تعالى ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه:43-47]. وقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا

مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون:45-48]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان:35-36]. وقال تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:10-11]. وقال تعالى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:16-17]. وقال تعالى ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ [العنكبوت:39]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:23-24]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف:46-47]. وقال تعالى ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات:38-40]. وقال تعالى ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:17-19]. هذا ما انتهى إليه فهمي لهذه النصوص القرآنية، والتي لم تُشرْ لا من قريب ولا من بعيد -حسب ما فهمت- إلى القبط المصريين اللهم إلا في قصة السحرة، فإن كان ما انتهى إليه فهمي صوابًا، فبتوفيق من الله وحده، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان، والله الهادي إلى سواء السبيل.

والمواجهة جرت بين موسى الكليم وفرعون اللئيم، وذلك حال عودة موسى بأهله إلى مصر، وتجاوز القرآن العظيم أحداث عودة موسى، وكيفية استقباله من بني إسرائيل قومه، ومن القبط وفرعون عدوه، ليقص علينا ما بعد ذلك لأنه الأهم، يقول عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:10-11]. وقد سماهم عَزَّ وَجَلَّ ووصفهم بالظالمين؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل بتذبيح

أبناءهم واستحياء نساءهم، وتعذيبهم بالسخرة والتنكيل، استثارة لنفس موسى، وتحفيزًا له بالذهاب لكف ظلمهم عن قومه، وبعد الوصف التعيين ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ فنسبهم إليه لمشاركته وعبادته من دون الله، ومطاوعته على ضلاله وكفره، قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ توجيه لاهتمامه بدعوتهم إلى اتقاء عواقب ظلمهم.. روى ابن كثير(3/ 142-143) عن وهب بن مُنبه قال: قال الله لموسى: «انطلق برسالتي، فإنك بسمعي وعيني، وإن معك أيدي ونصري، وإني قد ألبستك جُنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري، وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني. فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي؛ لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته،ولكنه هان عليّ، وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغنيت بما عندي، وحق أني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنّك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس ينطق ولا يطرف، ولا يتنفس إلا بإذني، وقل له: أجب ربك؛ فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، في كلها أنت مبارز بالمحاربة تسبه وتتمثل به، وتصد عباده عن سبيله، وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، لم تسقم ولم تهرم، ولم تفتقر ولم تغلب، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل،ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة، ولا قليل مني، تغلب الفئة الكثيرة بإذني، ولا تعجبكما زينته، ولا ما متع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت، ولكني أرغب بكما عن

ذلك، وأزوي عنكما، كذلك أفعل بأوليائي، وقديمًا ما جرت عادتي في ذلك فإني لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العناء، وما ذاك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم في دار كرامتي سالمًا موفرًا لم تكلمه الدنيا، واعلم أنه لا يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ فيما عندي من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم من لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقًا حقًا، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل قلبك ولسانك، واعلمْ أنه مَنْ أهان لي وليًا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة، وبادأني وأعرض لي نفسه، ودعاني إليها، وأنا أسرع شيئًا إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي حاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يُعاديني أن يعجزني، أم الذي يُبارزني أن يسبقني أو يفوتني، وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة،لا آكل نصرتهم إلى غيري.اهـ

وفرعون بظلمه وبغيه وتكبره، وجبروته معلوم لدى موسى فقد خبره، ولذا فقد أدرك أنها مهمة ضخمة وتكليف عظيم، ومن ثم شكى موسى إلى ربه ضعفه وقصوره، وليس ذلك اعتذارًا عن المهمة، وإنما طلبًا للعون والمساعدة كما ذكرناه قبل ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء:12-14]. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ [القصص:33-35].

فموسى ﷺ لا يخاف فرعون، وإنما يخاف تكذيبهم الذي يضيق معه صدر موسى جريًا على طبيعته، واتفاقًا مع شخصيته، وهذا بدوره يؤدي إلى انحباس لسانه فلا يحسن التعبير والبيان عن مراده، فيُظن أن الحق ليس معه، وإنما مع مكذبيه، فطلب من ربه مشاركة هارون معه في أداء الرسالة لأنه أفصح لسانًا، وأهدأ انفعالًا، فإن عجز موسى لحبسة اللسان قام هارون بالجدل والمحاجة والبيان، وإن حدث وقتل انتقامًا لحادثة القتل القديمة يقوم هارون بعده بالرسالة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟

قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:25-36].

وهذا كقول النبي ﷺ يوم بدر [اللهم إني أسألك نصرك ووعدك..اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض] (م ت) فأجاب الله موسى ما سأل وطمأنه مما يخاف، وتأتي الإجابة نافية تمامًا لكل المخاوف ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:15-17]. كلا.. لن يضيق صدرك، ولن يحتبس لسانك، ولن يقتلوك.

قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:42-46]. وهذا التأكيد بالمعية الإلهية بالعلم، والاطلاع الكامل على أحوالهما يفيد معية التأييد والتوجيه، وزيادة في الطمأنة ورباط جأشهما، وأمرهما بألا يتخليا أو يلهيا عن ذكره سبحانه على كل حال لاقيا وعاينا، كما قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:45]. وقال عَزَّ وَجَلَّ في مدح عباده المؤمنين أنهم هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران:191]. فهم يذكرونه على جميع أحوالهم، وإن كان أجلها حين ملاقاة مَنْ يخشى جانبه، فيذكر الله وهو أجلُّ حالات العبودية كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يروي عن رب العزة: [إنَّ عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه] ابن كثير (3/ 149).

ثم أمرهما سبحانه بالتوجه إلى فرعون دون تردد أو تأخر؛ لأنه طغى وتجاوز حده، حين دعا نفسه إلهًا على البلاد والعباد ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:24]. وقال ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:38]. ومع علم ربنا جَلَّ وعلا بكفره وجحوده وتجبره، وأنه أردئ خلق الله، فقد بعث إليه صفوة خلقه ليدعوه دعوة مَنْ يرجى إجابته وإنابته وعودته، فالغاية هي الهداية لا غير. وهذا حِلم الله وكرمه، ورحمته بخلقه، ثم هو إقامة للحجة وقطع للعذر؛

فيقول لهما ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يغضب ويُنفّر، وبلا تحقير ولا تجهيل لعله يجيء ويستفيق من غيه وضلاله ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:42-43].

قال الحسن البصري: إعذار إليه قولا له: إنَّ لك ربًا، ولك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا.

وقال يزيد الرقاشي: عند قوله تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾: يا مَنْ يتحبب إلى مَنْ يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟!، وقال يحيى بن معاذ: هذا رفقه بمَنْ يقول: أنا الإله، فكيف رفقه بمَنْ يقول: أنت الإله؟!

ولــو أنَّ فـرعـون لـمـا طـغـى وقـال عـلـى الله إفـكـا وزورًا
أنـابَ إلى اللهِ مُـسـتـغـفـرًا لـمـا وجـدَ اللهُ إلا غـفـورًا

وذكر ابن كثير (3/ 149-150) هنا شعرًا رواه ابن إسحاق وقال: هو من شعر زيد ابن نفيل:

وأنـتَ الـذي مِن فضل مَـنٍّ ورحمة بعثتَ إلى موسى رَسـولًا مناديا
فقلتُ لـهُ: فـاذهبْ وهـارونُ فادعوا إلى اللهِ فرعونَ الـذّي كـان باغيًا
فقولا لـهُ: هـلْ أنـتَ سويتَ هذه بلا وتـدٍ حتى استقلتْ كما هيا
وقـولا لـه: أأنـتَ سويتَ وسطها مُنيرًا إذا ما جنّه الليلُ هاديا
وقـولا لـه: أأنـتَ رفـعـت هـذه بلا عمدٍ، ارفقْ إذن بك بانيًا
وقـولا لـه: مَنْ يخرج الشمس بكرة فيصبحُ ما مسّتْ من الأرض ضاحيًا
وقولا له: مَنْ يُنبت الحبّ في الثرى فيُصبح منه البقلُ يهتزُّ رابيًا
ويَخرجُ منه حبّه في رؤوسِه ففي ذاك آياتٌ لمن كان واعيًا

لهذا قال عزَّ وَجلَّ ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:125]. فلا يأس في دعوة الغير إلى الله تعالى؛ لأن الداعي إذا يأس من اهتداء أحد بدعوته، فإنه لا يبلغها بحرارة، ولابد من الأخذ بالأسباب في الدعوات مع الاحتمالات ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ كما قال عزَّ وَجلَّ في أهل القرية الظالمة ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:164]. وإذا لم ينفع اللين مع المدعو، وأعرض واستكبر جازت الغلظة معه قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [العنكبوت:46]. وقال تعالى عن موسى: ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه:48].

قال تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:45-46]. والفرط هو التسرع بالأذى، والطغيان أشمل من التسرع، وأشنع من الأذى، وفرعون جبارًا لا يتحرج من الأمرين، وهذا منهما غيرة على دين الله أن لا يستجاب له، وخشية من إزدياد كفره وتطاوله وعناده، لكن الله تعالى يطمئنهما ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾القوي الجبار الكبير المتعال القاهر فوق عباده، كما قال عزَّ وَجلَّ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:15]. وهذه والله غاية العناية، فمعهما الله الحارس الذي لا ينام، والفئة التي لا تغلب، والقوة التي لا تقهر، فأنتما وهو تحت سمعي وبصري، أرى مكانكم، وأسمع كلامكم، نواصيكم بيدي؛ فهو لا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وأمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

قال تعالى ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [طه:47]. صدر الأمر الإلهي بالذهاب كرسولين لإنقاذ بني إسرائيل من بطش وعنت هذا الطاغية بعد دعوته، وآله إلى الحق وإطلاعه على آية الحية واليد لتأكيد أمر إرسالهما من عند رب السموات والأرض إله الحق، والسلام هنا يدخل فيه فرعون إن اتبع الهدى، فمَنْ لم يتبع الهدى لا سلام عليه، فهو يتضمن إنذار ووعيد إذا لم

يستجب، وذلك كما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام؛ فيه: [بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.. سلام على مَنْ اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم.. يؤتك الله أجرك مرتين...]، وكذلك لما كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ كتابًا صورته «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله..سلام عليك.. أما بعد، فإني قد أشركتك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريش قوم يعتدون»، فكتب إليه رسول الله ﷺ [من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب.. سلام على مَنْ اتبع الهدى..أما بعد؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى، وكان فرعون من هؤلاء ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾] [القيامة: 31-32].

فالتكليف وجه إذن إلى موسى وهارون لكن المخاصمة والمجادلة، والمحاجة ما جرت إلا مع موسى ﷺ وحده، وذلك لأنه هو صاحب الدعوة الأصيل، ثم إن الحوار والجدال كان مبدأه بما يخص موسى من أول نشأته بالقصر وحتى قتله للقبطي.

وقد بدأ الجدال والحوار بلهجة مؤدبة رفيقة لينة كما أمر موسى من ربه جَلَّ وَعَلَا ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: 104-105]. فبدأ بندائه بلقبه تأدبًا، ثم عرَّف نفسه بما شرفه به رب العالمين من إرساله برسالة من عنده، وفي ثنايا ذلك نفي مطلق لما يدعيه فرعون من الربوبية، ثم بيّن أنه صادق في قوله وواجب عليه، ومتعين أن يكون كذلك فلا يقول على الله إلا حقًا، فليس الكذب من شيمته ولا خلقه كما يعلم ذلك فرعون، فإذا لم يكن يكذب على الخلق فكيف يكذب على خالق الخلق؟! ثم يجهز موسى على الغطرسة الفرعونية بأن لديه الدليل على صدقه وصدق ما أرسل به من رب العالمين ومنهم أنت فلا صدق لربوبيتك المزعومة، ثم بيّن مطلبه في استعلاءٍ راسخٍ في نهاية كلامه الواثق الرصين؛ ألا

وهو إخراج بني إسرائيل معه من أرض مصر إلى حيث يتخلصوا من الإذلال والاستعباد إلى بيت المقدس.

فما تلقى موسى ردًا إلا الغطرسة والاستهزاء، والسخرية والتعالي من جانب فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء:18-19]. ففرعون يمتن على موسى حين عرفه، ويخوفه حتى يهتز ويترك دعوته التي جاء بها، ومقصوده من هذه العبارات المتعالية المتغطرسة: إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون؛ ألست الإسرائيلي الذي ربيناه في قصرنا، وتنعم بإنعامنا، ولم نقتله مع من قتلنا، فأنعمنا عليك بالحياة، ثم عشت معنا وبيننا عمرًا، فمتى حدث هذا الذي تدعيه أنك رسول من عند الله!؟ ثم ألم تقتل في نهاية بقاءك عندنا رجلًا من شعبي ومن خدمي، ثم جئت تدعي بعد ذلك أن الله أرسلك؟!

فأجاب موسى برباطة جأش وثقة في تثبيت مولاه موضحًا لفرعون أنه لا تأثير لكلامه في نفسه فاعترف بهذه الفعلة وهي قتل القبطي ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء:20-22]. فنفى عن نفسه الكفر، ونسب فعله إلى الضلال، وهو الجهل أي جاهل بأن الوكزة يمكن أن تقتل، أو ضال عن النبوة، فلم أكن نبئت حينها، وذلك لا يتعارض بحال مع النبوة التي هي من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، يرزقها مَنْ اصطفى من عباده، ونجاني منكم، وزادني ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأبطل دعواك الربوبية، وأخرج قومي من الذل والعبودية، ثم أنت تمن عليّ بتربيتك لي، وقد استعبدت بني إسرائيل، وأذللتهم وقهرتهم وقتلتهم، فكيف تفعل ذلك بقومي ويكون إحسانًا لي، ونعمة تمنها عليّ، ولو منعت هذا لكان والديّ هما اللذان ربياني! ثم إن الله أنعم عليّ فأصلح حالي وعلمني وهداني وأرسلني. والإنسان ابن يومه لا ابن أمسه والأحوال بأواخرها فلا عجب فيما قصدت فإن الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

قال تعالى ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:49-50]. ينتقل فرعون بعد هذا المقام إلى السؤال والجدال ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ يعني: إن لم أكن أنا ربكما كما تقولان، فمن يكون هذا الذي تدعون؟ فإني لا أعرفه و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:38]. وهو كاذب مخادع في ذلك قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:14]. ومع ذلك أجاب موسى على هذا الجحود بالقول اللين الذي أمر به ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.. ما أروعها من إجابة مفحمة؛ فإنه لم يقل: ربنا هو الله بالاسم العلم، وإنما عرف ربه عَزَّ وَجَلَّ بصفاته وأفعاله، وهكذا يعرف ربنا حقًا، ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ وهبه وجوّده على الصورة التي خلق بها، وهبه هدايته للوظيفة التي خلق لها. قال الزمخشري في (الكشاف): ولله در هذا الجواب ما أخصره! وما أجمعه! وما أبينه! لمن ألقي الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبًا للحق.

فيتحول فرعون - قبحه الله - إلى سؤال آخر ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ سوء الأدب في حق الله عَزَّ وَجَلَّ، وأسلوب التعالي الفج السفيه؛ أي شيء رب العالمين الذي تدعي وتزعم أنك من عنده رسول؟ فهو منكر لوجود الرب من الأساس، فتهكم على القول والقائل، وكأنه يقول: موضوع لا يصلح للحديث والمحاورة أصلًا. وهذه شنشنة من أجوف لا يجد حجة فيعمد إلى الشغب.

فيجيبه موسى بصبر وثبات بالدلالة على ربوبيته عَزَّ وَجَلَّ بالنظر في كل زاوية من زوايا الكون حوله ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:24]. وهو جواب كافٍ لهذا التجاهل العقيم، فهو رب هذا الكون الهائل العظيم الذي لا سلطان لك عليه يا فرعون ولا علم لك به، فصغّر فرعون وملكه، وجعله ذرة أو هباءة في ملكوت السموات والأرض وما بينهما.

يتلفت فرعون ليخفي ضعفه وعجزه عن الرد، وصغر أمره، وحقارة شأنه، وعلى طريقة الجبارين الذين يخافون تسرب كلمات الحق البسيطة الصريحة إلى القلوب، فيصرفون أتباعهم

بالضجيج والتشويش عن التأثر بها ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:25]. يتحول فرعون بالحديث إلى السفهاء وهم الملأ محقرًا وساخرًا من موسى وكلامه، متنقصًا ومستهزئًا كأن موسى يُهذي ويتكلم بما لا يعقل ولا يفهم! فيتعجب ويدعو من حوله لذلك! ولكن موسى يهجم عليه وعليهم بصفة أخرى من صفات رب العالمين تزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وتوقف عن التفكير المجادل عقولهم ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:26]. فتدرج موسى في خطابهم من ربوبية الكون، وما فيه للرب الخالق العظيم إلى ربوبيتهم هم أيضًا كذلك له، وهذا أشد مساسًا بفرعون ودعواه وأوضاعه، فهو يواجهه بأنه ليس هو الرب والإله، وإنما هو واحد من العبيد للإله الكبير العظيم، رب الأولين والآخرين ورب كل شيء، وهذه والله القاصمة التي قصمت ظهر فرعون فلم يطق سكوتًا حين سوّاه بالحضور من أتباعه في كونهم عبيدًا للرب الواحد العظيم، والناس تسمع لهذا الكلام وترضخ له، ولذا يخرج عن شعوره ويرمي بتهمه الباطلة على موسى ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:27]. لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته، يريد أن يبعد الناس عن الحق، وعن سماعه والإيمان به بالتهكم والسخرية من مسألة الرسول والرسالة، والتشويش على موسى واتهامه بالجنون، فيحتد ويرغي ويزبد، ولكنّ هذا لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والجبارين ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء:28]. وهما مشهدان معروضان للأنظار كل يوم، ولا قبل لفرعون ولا غيره على تغيير أمرهما وتبديله أو جحده مع أنها ظاهرة تتكرر في كل الأيام، فهل يقوى فرعون على جحدها والمخالفة؟! توجيه يهز القلوب المتحجرة هزًا، ويوقظ العقول الغافلة إيقاظًا، ويثير المشاعر المتبلدة، ويدعوها إلى التفكر والتدبر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وفي استدلاله بالمشرق والمغرب شبهٌ بالخليل إبراهيم في استدلاله بالشمس والقمر قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى

يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:258].

وفي هذه المحاورات يسأله فرعون ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:51]. وهي التي ماتت، واندثرت على غير العقيدة التي تدعو إليها من الآباء والأجداد؟ يُريد أن يوقع بين موسى والملأ الحاضرين؛ لأنه إن ذكر عذابهم وقع في المحظور وتصادم مع أبنائهم، وإن قال: سلموا سقطت حجة موسى، فأجابه موسى بذكاء وفطنة ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:52]. أحال موسى علم ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يعزب عن علمه شيء كان، ولا ينسى شيئًا، فهو الذي يعلم ما جرى لتلك القرون، وما كان من خبرها ومآلها، وهم وإن لم يعبدوا الله تعالى فإن عملهم عند الله معلوم مكتوب في اللوح المحفوظ، وسيجزيهم بعملهم ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي: لا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا، علمه بكل شيء محيط، ثم يرده موسى إلى الأهم، وهو أن تنظر فيها حولك، وتستنقذ نفسك وشعبك بالإيمان بالله الواحد القادر المعطي الرازق ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ۝ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:53-56].

وهكذا توالت حجج وبراهين موسى عليه السلام المؤيد من الله تعالى بالقول السديد، تُبيّن لفرعون وملئه لأي درجة من الضلال والجهل هبطت عقولهم وسفهت أحلامهم، فكل هذا الكون من حولهم، وكل هذه الآيات الدالة على ربوبية الله ووحدانيته، والتي لا يملك فرعون فيها قشةً، ولا يقدر أن يحرك فيها ذرة، فأظهر لهم سفههم وخفة عقولهم، وعلى الرأس منهم هذا المتعنت المغرور المجادل بالباطل لدحض الحق المبين.

وقد تعمد موسى عليه السلام أن يذكّره بمخلوقات الرب ومعطياته، ومننه على عباده في الكون؛ تمهيد الأرض لحياة العباد بالزرع فيها وغيره، والطرق الممهدة يسلكها المتنقلون بين

الجبال والهضاب العالية، وإنزال المطر الذي يحيي الأرض الميتة بالإنبات؛ ليأكل منها الناس والدواب فينتفعون بذلك كله، ثم المنّة العظيمة الجليلة؛ الخلق من تراب، والعودة إلى التراب بالدفن بعد الموت، ثم البعث والحساب.. فهل لك يا فرعون في ذلك من شيء؟!، وهل تقدر على إيجاد، أو تغيير، أو تحويل، أو تبديل شيئاً من هذا؟! يا أولي النهى.. أين عقولكم؟! كيف غابت عن ربكم الواحد الأحد الأعلى؟!.. يا لروعة الإفحام!!

فهل استجاب فرعون المتكبر لكل الآيات والدلائل على وجود الله وقدرته جَلَّ وعلا؟، هل سمع لصوت الحق وكلام الحق، والحق أبلج؟ قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 76-78]. فما جاءهم إلا الحق وهو واضح بيّن يقبله، ويفهمه العقلاء من الناس لأنه من عند الله العزيز الحكيم، فردوه وكذبوه، وسموه سحرًا، وهو الرد البارد السخيف الذي يعترض به البطالون على الحق الساطع المبين حيث لا حجة لهم صادقة ليردوا بها، وقد قيل «لابد للمغلوب من بارد العذر»!! وليس على هذا السفه رد سوى العجب، والاستغراب من تفاهة القول الذي ذكروه ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ أتقولون عن الحق سحرًا؟! وقد علم العقلاء أنَّ السحر تخييل في عين ونفس الناظر ولا حقيقة له إلا ذلك، لذلك فأثره مؤقت، بينما الحق صدق واضح ونور ساطع مقصوده تعبيد الناس لمن أنزله والتصديق لمن جاء به، فهل يفلح الساحرون فيما جاء به المرسلون، إنهم والله لا يفلحون ولا يصدقون!!

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه: 56]. وقال ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ [القمر: 41-42] فأي عناد وكبر بعد هذا؟!

قال ابن القيم في (إغاثة اللهفان 2/ 602): إمام المعطلين فرعون فإنه أخرج التعطيل إلى العمل، وصرح به وأذن به بين قومه ودعا إليه، وأنكر أن يكون لقومه إله غيره، وأنكر أن

يكون الله تعالى فوق سمواته على عرشه، وأن يكون كلَّم عبده موسى تكليمًا، وكذب موسى في ذلك، وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطلع بزعمه إلى إله موسى ﷺ وكذبه في ذلك، فاقتدى به كل جهمي فكذب أن يكون الله مكلمًا متكلمًا، أو أن يكون فوق سمواته على عرشه بائنًا من خلقه على العرش استوى، ودرج قومه وأصحابه على ذلك حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق، وجعلهم عبرة لعباده المؤمنين ونكالًا لأعدائه المعطلين، ثم استمر الأمر على عهد نبوة موسى كليم الرحمن على التوحيد، وإثبات الصفات، وتكليم الله لعبده موسى تكليمًا إلى أن تُوفي موسى ﷺ، ودخل الداخل على بني إسرائيل ورفع التعطيل رأسه بينهم وأقبلوا على علوم المعطلة أعداء موسى ﷺ وقدموها على نصوص التوراة، فسلط الله تعالى عليهم مَنْ أزال ملكهم، وشردهم من أوطانهم، وسبى ذراريهم كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم.اهـ

قال تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:78]. الحجة التي توارثها الكافرون كابر عن كابر فحالت بينهم وبين معرفة الحق واتباعه تراث الأباء ودينهم، وهذا كقولهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القصص:36]. قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان:21]. وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:23]. وقولهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة:104]. وأخبر تعالى عن قوم نوح ردهم ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:24]. وهو ردهم على إبراهيم ﷺ ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:52-53]. وتدعيم لحجتهم الداحضة يسارع الملأ بتقديم التهمة المتلائمة مع ضحالة فهمهم وفكرهم ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:78]. أي: أن غايتكما وما وراء دعوتكما ـ والخطاب لموسى وهارون ـ هي السلطة والشهرة عند الناس، والسمع والطاعة لكما لا غير، والجواب الأخير والقرار النهائي فيما جئتما به ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.. هي نهاية الحوار والجدال، وحينما يُغلب الباطل لا يجد إلا البطش والتهديد ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:29]. هذه هي الحجة الدامغة والجواب الحاسم الأخير لدى الطغاة الظالمين السجن والعزل، وما ذلك عليهم ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد، وشأن المغرور المتكبر الذي قهرته الحجة أن يتحول من الجدل إلى التهديد! لكن هذا التهديد لم يخف موسى، ولم يفقده رباطة جأشه، فعاد يفتح الصفحة التي أراد فرعون أن يغلقها ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:30]. أتجعلني كذلك من المسجونين؟! وهو استفهام مغلف بالتعجب والاستغراب من هذا التكبر والعناد عن متابعة الحق بعد سوق كل هذه الدلائل والآيات الدالة عقلًا على انتفاء زعم فرعون للربوبية وإثباتها للرب الخالق العظيم، فعدل موسى إلى إظهار آية من خوارق العادة في بيان ظاهر للأبصار بعد رده لدلالات التفكر والاعتبار، فكان إفحام جديد وإحراج شديد لفرعون أمام ملئه، فلو رفض لكان خائفًا، فاضطر أن يطلب منه إظهار هذا الشيء المبين مع تشكيكه من صدق موسى ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء:31-33]. فأسرع فرعون يدفع هذا التحدي الهائل قبل أن يتمكن من قلوب الحاضرين، فقال ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:34-35]. ومتى كان فرعون يطلب الرأي والمشورة؟! وإنما هو الإفلاس، وخواء عقولهم عن حجة يدفعون بها الحق الذي جاء به موسى ﷺ واضحًا جليًا، فليس لديهم في جعبة الباطل إلا التهم الكاذبة، فاتهموا موسى ﷺ بالجنون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:27]. ثم التهمة التي ثبتوا عليها لما وجدوها تتناسب مع عقول الناس من حولهم، وكذلك مع تحول العصا إلى حية تسعى، وتغير يده إلى البياض الناصع المتلألئ.. إذن السحر هي التهمة الأخيرة التي ركنوا إليها، وعضدوها جميعًا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم

مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القصص:36]. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:76]. ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [النمل:13]. ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:101]. أي: ساحر، كما قال ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:57]. وطنطن وأجلب ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:34-35]. وقال تعالى ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات:38-39]. أجاب الله تعالى على هذه التهمة الواهية التي طالما رُمي بها المرسلون ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات:52]. وقال موسى ردًا عليهم: ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ [يونس:77]. فأخبرهم بواقع وحال السحرة الذين يعلمون أنهم لا يفلحون لأن سحرهم سحر أعين لا حقيقة له، وهو خلاف ما جئتكم به من الحق الذي تزعمون بهتانًا وزورًا أنه سحر، وهكذا الطغاة والجبابرة يتظاهرون حينما تتزلزل الأرض تحت أقدامهم بأنهم أصحاب الفصاحة والحكمة والفهم السليم العميق الذي يُسبر أغوار الأشياء والأحداث، ويكشف المستور المجهول، وأنهم الحريصون على مصلحة العباد والبلاد، ولا همّ لهم ولا غاية إلا الحرص والسهر لحماية مصالح الشعوب!! ليخدعوا الشعوب، وإنما قال فرعون ما قال ليغطي على المعجزة المزلزلة كما قيل: لا بد للمغلوب من بارد العذر.

قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه:56].

قال ابن كثير (2/ 408): وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى ﷺ مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع، وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله

تعالى، وليس له وزير سوى أخيه هارون ﷺ، فتمرد فرعون واستكبر، وأخذته الحمية والنفس الخبيثة، وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله وعتا وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء ومرة بعد مرة مما يُبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا مَنْ هو مؤيد من الله ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: 48]. وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]. اهـ

والآن اقرأ متدبرًا محاورات العناد والكفر بين معتقدها فرعون الكافر العنيد، وبين موسى ﷺ المؤيد بالحق من ربه العلي العظيم، والتي ذكرها سبحانه في القرآن الكريم:

قال تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ
إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧)
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾

[الأعراف: 103-109]

وقال تعالى ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا
رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ
ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ

(٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ
رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ
وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ
ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه: 43-61].

وقال تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ
رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ
ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا
رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ
(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ
عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ
إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ
لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 10-37].

وقال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ
عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ
مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ
مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 36-43].

***

المبارزة الكبرى

كانت المواجهة والمناظرة بين موسى الكليم وفرعون اللئيم قد انتهت بظهور الحق وغلبته، واندحار الباطل وذلته، علتْ الحجة الموسوية، وطاشتْ القوة والجهالة الفرعونية في خاتمة أظهر فيها فرعون عنته وظلمه، وأظهر موسى لفرعون وملئه الآية الكبرى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الشعراء: 32-33]. فهل أثّر ذلك على فرعون فاستجاب وأناب؟ ما كان منه ذلك وما يكون لعلمه أنه حينها ينهدم ملكه ويتهاوى عرشه، وتضيع هيبته وربوبيته الباطلة التي زعم لذا اختار ما أظهره موسى كوسيلة لشغل الناس، وإلهائهم عن الإيمان بموسى ودعوة الحق ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: 57]. وقال ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: 34-35]. ومرة ثانية يلبس فرعون مسوح الواعظ الناصح الأمين الساهر على مصالح البلاد والعباد، والخائف الوجل على أمنهم ونفعهم!!، ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد قالوا في حق موسى ذات القولة ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: 109-110]. وهي ذات التهمة التي يُوجهها الطغاة الظالمون للأنبياء ودعاة الحق افتراء عليهم أنهم ساحرون، كما قالوا في حق رسول الله ﷺ ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: 52]. فلما كذبوا على أنفسهم، وصدقوا كذبهم وافتراءهم، وأن ما جاء به موسى ما هو إلا سحر، قرروا التأجيل بلهجة الواثق لحين أن يجمعوا سحرة مصر المهرة لتحدي موسى، وإبطال ما جاءهم به من السحر كما يزعمون ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 36-37]. وحولوا الأمر إلى قضية سياسية، فمقصود موسى عندهم ليس دعوة ودين، إنما هو يريد حكمًا وملكًا، أو ما يعرف بالمصطلح السياسي المعاصر (قلب نظام الحكم) تلاشي السلطة الإلهية الفرعونية المزعومة فمن سيعبد فرعون ويعظمه بعد ظهور عدم قدرته على السيطرة على بني إسرائيل؟ والبعد الثالث والأخير: هو خشية فرعون من بني إسرائيل إذا خرجوا من مصر أن يتحزبوا ضده، وربما يتجيشوا لقتاله أو ينضموا لأعدائه، لذلك كله

لم يستسلم فرعون، ولم يذعن للحق، ولم يتب إلى رب العالمين ويتبع موسى ﷺ، ولهذا أيضًا رضي منهزمًا أن يسمع للملأ، ويطلب مشورتهم متخليًا إلى حين عن ربوبيته، وإلا فمتى كان الرب يسأل ويستشير، ويسمع لرأي معبوديه؟! وكان ذلك منه ليقلّب الحقائق، ويخدع الناس ويلهيهم، ويفوت على موسى فرصة الاستماع لدعوته.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه:58].

وقد أتقن القبط في مصر مهنة السحر، وبرعوا فيها براعة شديدة، وجعلوه علمًا يدرسونه ويورثونه، بل كان كهان المعابد يعملون بالسحر ويعتمدونه في العبادة لديهم، وما كان سحرهم إلا تخييل؛ حيث كانوا يضعون فيه الزئبق، فكانت تتحرك بسببه وتتلوى وتضطرب بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، لهذا كان لابد من اللجوء إليهم والاستعانة بهم، وإن كانوا في حقيقة الحال لا أهمية لهم ولا قيمة لهم عنده سوى إنهم عبيده الذين قهرهم وأذلهم، ولا يملكون سوى السمع والطاعة لمالك بلادهم وحاكمها.

وتدبر تقدير العزيز العليم في إذلال هذا الجاهل المتعنت حين طلب فرعون التأجيل لجمع السحرة لمواجهة موسى ﷺ، بينما بطش وظلم فرعون لا يرضى ولا يقبل إلا القرار الحاسم السريع، فهو القاضي وهو الجلاد! وتدبر قرار فرعون ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه:58]. تستشعر الندية والمساواة بين موسى ﷺ الداعي إلى الله، وبين فرعون الملك المتغطرس المتكبر، بل إن موسى ﷺ يزيد عليهم جميعًا ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ وتدبر حال الطغاة وأعوانهم؛ ينظرون ما له تأثير في قلوب الناس فيفعلونه، فإن كان سحر يأتون بمثله، وإن كان كلامًا يأتون بكلام مثله، وإن كان صلاحًا يأتون بصلاح مثله، ولا يحتاج الأمر لأكثر من صورة لسجدة، ومسبحة في يد ليقتنع الناس بالطاغوت ويعدونه إمامًا صالحًا تقيًا، وأبواق الإعلام لها دورها الساحر في هذا.

ترك فرعون تحديد الموعد والمكان لموسى ﷺ تظاهرًا بالثقة بالنفس، وتحقيرًا لشأن موسى، والذي قبل التحدي والمواعدة، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد التي يجتمع فيها القبط، ولا ينشغلون بأعمالهم، ويتفرغون تمامًا لأخذ زينتهم والتهيؤ ليوم العيد. قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:59]. فزاد على تحديهم بآخر مثله؛ وهو اجتماع الناس ضحى نهارًا في وضوح لا خفاء فيه، ولا احتمال لاستعانة بشيء خفي في ظلمة أو عند غروب، ولا عند حر الظهيرة، وإنما الوقت الذي يسهل فيه اجتماع أكبر عدد من الناس، وكان ذلك مراد موسى ﷺ حتى يمكن له عرض دعوته، بعد إظهار الآيات للأقباط الحضور لعلهم يسلمون إذا رأوا المعجزة الإلهية وإقامة للحجة أمامهم على فرعون وملئه.

ولما استقر الأمر على تحديد الزمان والمكان الذي ستجري فيه المواجهة والمناظرة، ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه:60]. في حركات وأفعال ثلاث وصف القرآن بأسلوبه الفريد الأمر كما في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ [النازعات:22-23]. واختصر الزمان ليخبرنا عن اهتمام فرعون بالعرض ليكيد موسى ويهزمه، فقد ذهب يجمع من قدر علي جمعه من السحرة المهرة الأفذاذ، مستعينًا بكل ما يقدر عليه من وسائل ليشنع ويشوش على موسى ودعوته، فاجتمع له ما يزيد عن ثمانين ألفًا من السحرة، وأخذ يشجعهم ويحمسهم ويعدهم ويمنيهم ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:120].

قال تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:113-114]. إنهم سحرة محترفون أصحاب همم دنية، لا همّ لهم إلا المكاسب المالية والأرباح المادية، فعقدوا صفقة مع فرعون، واطمئنوا إلى ربحهم فيها؛ فهم سيقومون بتثبيت دعائم ملكه، ويقضون على عدوه، ويظهرونه كرَبٍّ أوحد منتصر، ولأجل هذه المكاسب أزادهم الوعد بالقربى منه ومن هيلمانه وبهرج قصره، والسلطة والمنفعة من كل وجه.

وحان الموعد ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: 39-40]. واجتمع الناس من أنحاء مصر في الميدان الفسيح بالمدينة لمشاهدة هذه المبارزة، وهي فرصة للنظر إلى ملك البلاد الذي حضر هو وملأه ووزراءه ورجال قصره وجنده الذين أعماهم غرورهم فاطمئنوا أن الناس يتبعونهم في إنكار ما جاء به موسى من الحق.

وقبل البدء يغتنم موسى الفرصة، كما هو حال الأنبياء وأتباعهم من الصالحين لا يدعون فرصة إلا ويغتنمونها للدعوة إلى الله، وتعبيد العباد لربهم، وليكون ذلك معذرة إلى ربهم؛ فيعظهم وينصحهم ويخوفهم ويحذرهم من عاقبة الكذب على الله، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويعرفون حقيقة فرعون، وخطورة ما يصنعون حين يصرفون الناس، ويصدونهم عن سبيل الله، وعن الإيمان بالخالق العظيم. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: 61]. وللكلمة الصادقة تأثير في القلوب، وإن لم يظهر ذلك على الفور، والظاهر من سياق القرآن أن هذا هو الذي حدث؛ فقد تأثر بعض السحرة بكلام موسى، فتلجلج في الأمر، وأخافهم ما سمعوا، ودار بين هؤلاء وبين المُصرّين على المبارزة جدلًا هامسًا خشية أن يسمع موسى شيئًا منه فيزداد ثقة في أمره ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: 62]. فقال المتعقلون الذين تأثروا بكلام موسى ودعوته: هذا كلام نبي وليس بساحر، فأجابهم المهيجون المتحمسون الطامعون في الأجر والقرب من فرعون: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: 63-64]. كلمة واحدة من موسى حامل الحق، والداعي إليه أربكت الصف الكافر، وحركت همم الباطل، وهيبة شديدة من موسى وأخيه، رجلان وحيدان من بني إسرائيل المستعبدين، ودعوة للتوحد والترابط والثبات يتنبه لها الكفار، ولا يتنبه لها أصحاب الحق!! ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]

وضح من إسرارهم ونجواهم أن خبر موسى ﷺ وما معه من آيات باهرات قد انتهى إليهم، وإن لم يكونوا عاينوا ذلك بعد، فكانت نجواهم تشجيعًا وتحميسًا، وتخويفًا من غلبة

موسى عليهم، لأن ذلك معناه ومنتهاه إخراجهم أذلة منكسرين بين يدي فرعون والناس، وبطلان سحرهم فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، بينما يستبد موسى وأخوه بهذه الطريقة وهي السحر، فتكون لهم الأموال والمنافع التي سيحرمون منها، وقد كانت لهم الرياسة في الأمر، فلا سبيل إلى الغلبة إلا بوقوفنا معًا في صف واحد وحرص واحد وكيد واحد، وإظهار سحرنا مرة واحدة لإبهار الأبصار، ولا فلاح لنا إلا بهذا ولا نجاح.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه:65]. بدأت المبارزة، وهذا سيرها: السحرة يخيرون موسى في البدء أو تركهم هم يبدأون ثقة في أنفسهم، وتحقيرًا لشأن موسى، فترك لهم موسى البدء وأول ظهور أمام الجمهور، وإبراز كل ما لديهم، واستبقى لنفسه الظهور الأخير، وقد أحسن بذلك، وهو من التوفيق السديد من عند الله جل وعلا لنبيه ﷺ حيث أن الحدث الأخير هو دائمًا الذي يبقى في الأذهان، وسرعان ما يتناسى الناس ما قد سبق مروره عليهم، إضافة إلى ثقته أن الله ناصره ومؤيده ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:116]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه:66-67]. فهي مفاجأة ضخمة باهرة كانت في انتظاره، كل هذا الكم من الحيات والثعابين الذي ملأ المكان، وهو سحر تخييل لا حقيقة له ولا تأثير، لذلك قال عزَّ وَجلَّ ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:116]. وإنما وقع المفاجأة هو الذي جعل موسى يوجس في نفسه خيفة أن يتمكن ذلك من قلوب الناس، ويغتروا مفتونين بهذا الكم العظيم من الحيات التي تتلوى وتضطرب، فأنساه للحظة أنه الأقوى، حتى ذكّره ربه عزَّ وَجلَّ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:68].

لا تخف فأنت على الحق وهم على الباطل..

لا تخف فمعك العقيدة ومعهم الحرفة..

لا تخف فمعك الإيمان بصدق دعوتك ومعهم الوعد بالأجر ومغانم الدنيا..

لا تخف فأنت موصول بالقوة الكبرى، وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما كان جبارًا عتيًا، كما قال لرسوله ﷺ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران:196-197]. فلا تخف على الناس وفتنتهم ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:69]. ولم يقل (عصاك) تنكيرًا لها ولدورها، لأن الأمر معجزة من عند الله العظيم القدير، فكانت حية عظيمة ضخمة جعلت تبتلع الحيات وتزدردها فكأنها لا أثر لها ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:45]. لأنَّ ما صنعوا صنعة سحر، وليست معجزة كالتي جئتهم بها من عند ربك، ولا يفلح الساحر أنى ذهب، وأي طريق سلك، ومهما جاء به من السحر، فلما ألقى موسى عصاه فكأنه زلزلهم بصاعقة، وأبهتهم بهذه المفاجأة الضخمة ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81]. فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، وسكت القرآن عن ما كان من حال المشاهدين وفرعون وملئه، ليحدثنا عن الأهم ألا وهو موقف السحرة وحالهم، الذين كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة، كما قاله ابن عباس وغيره.

كان وقع الأمر عظيمًا لدى السحرة أصحاب الخبرة بفنون السحر وطرقه، فقد عاينوا ما جعلهم يعتقدون ويعلمون علمًا يقينيًا أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه ولا جدال، وأنه لا يقدر على هذا إلا الرب العظيم الذي يدعو إليه موسى، وعندهم عنه خبر قديم من عهد يوسف عليه السلام.

فانظر ما الذي صنعته المفاجأة الكبرى في نفوس السحرة الذين جاءوا تسبقهم الأماني والآمال، ويحثهم ويدفعهم نيل الأجر والمنزلة والحظوة لدى ملك البلاد، وكفى ذلك من شرف ونجاح وغنى، خاصة وهم بارعون في فنهم وسحرهم؟ إنه التحول التام للمشاعر والوجدان، والاستدارة الكاملة للوجوه والأبدان، والمفارقة السريعة للأرض في اتجاه السماء.

لم يسعفهم الكلام للتعبير عن جلال الموقف وروعة ما حدث وضخامته ورهبته، فلا هو سحر ولا شعوذة ولا خيال ولا زور ولا بهتان، ولا ضلال ولا محال، إنما هو حق لا يقدر عليه إلا الحق، وليس لموسى في ذلك حق إلا البلاغ.. انكشفت الغفلة عن القلوب، وانزاحت الغشاوة عن الأعين ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف:117-119]. ولم يمكنهم التعبير عما في الصدور والقلوب، فجاءوا بالفعل الأبين من البيان ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:70]. ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:120-122]. ما الذي جرى؟ وما الذي أثر فيهم هذا التأثير، وحولهم هذا التحويل، إنها لمسة واحدة لشغاف القلب غيرت تعلقه.. لحظة واحدة.. مشهد واحد غيّر مسار القلوب من الكفر إلى الإيمان؛ هي رحمة وعناية الرحمن وتوفيق الكريم المنان، تُخرج من الظلمات إلى النور ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:125]. ويقول النبي ﷺ: [إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرّفه حيث يشاء] (م).. فيا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك.

ولكن هل يدرك الطغاة ذلك؟ وهل يستوعبون ما يحدث من تأثير الإيمان في القلوب؟ إنما قلوبهم في أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم وقر، إنهم لا يفهمون ولا يعقلون إلا الماديات الملموسة المحسوسة؛ لذا فهم يسخرون من الذين آمنوا، ويتوعدونهم بأشد العذاب؛ لأنهم في لحظة تحولوا، وفي سرعة تغيروا من وجهة إلى وجهة أخرى، ومن حال إلى حال مخالف، والطغاة يظنونه مكرًا وخديعة كما هم يفعلون.

لذلك قال فرعون للسحرة الذين كفروا به وأسلموا لله رب العالمين ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي

جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:71]. فرعون الطاغية لا يُدرِك ولا يفهم أنهم هم أنفسهم لا يملكون أن يدفعوا عن أنفسهم مس الإيمان شغاف قلوبهم، أو يدري ذلك ويفهمه ولكنه يتحامق ويتغابى، ثم يتبجح ويدعي أن إيمانهم بما جاء به موسى يحتاج إلى إذن منه، فالإيمان عنده يلزمه تصريح رسمي، فلكي يؤمن العبد بخالقه وإلهه لابد من إذن فرعوني!! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:123]. فهذا هو سر إيمانهم واستسلامهم في نظره؛ مكيدة دبرت، وخدعة أحكمت!! إذن ليس هناك إلا التهديد الغليظ والوعيد الشديد الذي يعتمده الطغاة، ويسلطونه على الأجسام والأبدان حين لا يملكون قهر القلوب والأرواح ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾.

ولكنه قد فات الأوان، فقد فعلت اللمسة الإيمانية فعلها، ووصلت إلى حال تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في النفس، فإذا قوى الأرض كلها ببطشها وعنفها ضئيلة ضئيلة، والحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة؛ لأنَّ القلوب تفتحت على آفاق مشرقة وضيئة لا احتياج بعدها إلى الأرض، وزينتها وبهرجها وزخرفها.

قال تعالى ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:72-73]. متى تعلموا ذلك؟ وكيف تلقوه؟ إنها اللمسة الإيمانية لشغاف القلب، وذوق حلاوة الإيمان.

قال تعالى ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ [الشعراء:50-51]. فأنت مهما فعلت بنا كان ذلك سببًا لانتقالنا إلى الدار الآخرة، لنحظى بالأمن والأمان والسكينة والراحة في جنات رب العالمين، تحت سلطانه وقهره وهو أرحم الراحمين، بعيدًا عن بطشك وظلمك وجبروتك وعنتك وشغبك وجهلك وجنودك وقهرك.

ثم يتوجهون إلى ربهم القادر القدير المتعال الكبير ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]. اختم لنا بالصالحات، وثبت قلوبنا على الإيمان بك، واحفظنا من شر كل ذي شر، وأذى كل ذي أذى، وادفع عنا ضر كل ذي ضر.. يا أرحم الراحمين.

والصبر الذي طلبوا من الله هو أعظم عطية: **[وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر]** (خ م) قال سبحانه ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

ولقد توعدهم فرعون لعنه الله بالعذاب ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124]. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: 71]. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الشعراء: 49]. وقد فعل لعنه الله ما وعد، قتلهم قتلة شنيعة، ومثّل بالمؤمنين عقوبة على إيمانهم بالله العظيم الذي له ملك السموات والأرض، وتصديقهم بنبوة موسى ﷺ، ولكنه سرعان ما انتهى الأمر، ورفعت أرواحهم إلى النعيم المقيم والدرجات العُلى.

ويبقى فرعون وملأه ليزدادوا إجرامًا وإفسادًا وعتوًا، لتكون عاقبتهم الأشنع في الدنيا بالغرق أجمعين، والعذاب الشديد في القبر، ثم يوم القيامة ما توعدهم به سبحانه ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: 45-46].

فهؤلاء السحرة كانوا من أول النهار سحرة فجرة، فصاروا آخره شهداء بررة، وكانوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فهاهم دعاة إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وإلى سبيله، وكانوا ضلالًا جهلة، فانقلبوا نُصّاح وعّاظ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 74-76].

وها هم يُحذرونهم من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونهم في ثوابه الأبدي المخلد، وقد روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خطب، فأتى على هذه الآية ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ فقال: [أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر فيؤتى بهم نهرًا يُقَال له: نهر الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل] رواه ابن كثير (3/ 155).

مشهد رائع في تاريخ البشرية، فيه إعلان لحرية القلب البشري، واستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، ولا يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان إلا في ظلال الإيمان.

إنَّ الطغاة والظلمة ربما يتحكموا في الأرزاق وفي الأبدان، وفي الإعلان بالإيمان، فربما يمنعوا الأرزاق، ويسجنوا ويُعذبوا الأبدان،.ويُكمموا الأفواه، ويغلقوا المساجد، ويمنعوا الأذان، لكنه لا سلطان لهم على القلوب، فهي ملك لله وحده، هو الذي يحركها ويقلبها ويوجهها كيف شاء.

قال القاسمي في «محاسن التأويل» (7/ 143 145): (لطائف من الكشاف وحواشيه للناصر:

الأولى: في تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح. وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم. وكأن الله عزَّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى ﷺ اختيار إلقائهم أولًا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم. فإذا فعلوا أظهر الله سلطانهم، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين، وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ

﴿ وَلَآ أَنتَ ﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه. وكما ألهم الله عَزَّ وَجَلَّ موسى ها هنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفًا بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم؛ ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم.

الثانية: جوز في إيثار قوله تعالى ﴿مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ على ﴿عَصَاكَ ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون تعظيمًا لها. أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة. فإن في يمينك شيئًا أعظم منها كلها. وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها. وثانيهما: أن يكون تصغيرًا لها أن لا تُبال بكثرة حبالهم وعصيهم. وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك. فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها. وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم مُنة وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة؟. ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه. فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين. واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين - التعظيم والتحقير- وتلك، والله أعلم، هي إرادة المذكور مبهمًا؛ لأن ﴿مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ أبهم من ﴿عَصَاكَ ﴾.

وقال الناصر: وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير. والله أعلم. وهو أنَّ موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى، عندما سأله عنها بقوله تعالى ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:17]. ثم أظهر له آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهًا له وتأنيسًا، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت. ألا ترى إلى قوله تعالى﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾؟ اهـ.

والآن اقرأ بقلبك متدبرًا متأملًا هذه الآيات لعلَّ الله يفتح عليك بما لم يفتح به علي عند كتابته.

قال عزَّ وجلَّ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ
إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ
﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ
﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ
نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ
عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 103-126].

وقال عزَّ وجلَّ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا

عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ
قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: 75-82].

وقال عزَّ وَجلَّ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا
وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ
أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 16-51].

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: 56-76].

* * *

مؤمن آل فرعون

من بعد قصة السحرة الشهداء البررة الذين قدموا أعظم درسًا للبشرية حين رضوا بالعذاب، ثم الموت عن الكفر بالله تعالى، وكيف يكون الثبات على الحق، وأثر ذلك على سلوك المسلم، تأتي قصة أخرى من قصص الإيمان وأهله الصادقين، في ثنايا هذا الفصل الجديد من فصول السيرة الموسوية.

رجل من عباد الله الذين آمنوا بموسى ﷺ قصته في سورة غافر حيث بدأت الآيات بقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:23-24].

فرعون الملك الطاغية الظالم، وهامان هو وزيره الأحمق الجاهل، وأما قارون فهو التاجر الغني الإسرائيلي القبيح، وكان من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملته حيث الحماية والوجاهة. وهكذا دائمًا ما اتحد المُلك الظالم مع الرئاسة والوزارة الجاهلة، ومعهم المال والغنى الطاغي المُطغي.. نماذج القيادة الدنيوية تحارب دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتصد عن سبيله، فلما رأوا الآيات؛ اليد والعصا ثم إيمان السحرة، واستعداد المصريين للإيمان بموسى بعدما رأوا الآيات، فلم يجدوا إلا الافتراء على موسى لصرف الناس عن الإيمان به، فقالوا ساحر كذاب ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات:52-53].

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر:25]. أجابوا على الحق البين بالعنف والتنكيل كعادة الظالمين والجبابرة الطغاة، وكان قد سبق الأمر من فرعون بقتل الأبناء واستحياء النساء؛ وهذا هنا أمر ثانٍ، لأن الأول كان احترازًا من ميلاد موسى ووجوده، بجانب تقليل أعداد بني إسرائيل وإذلالهم، وأما الأمر الثاني بقتل أبناءهم واستحياء نساءهم فهو للإهانة

والإذلال، والتقليل من أعداد بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، وأيضًا لزعمهم وادعائهم إفساد بني إسرائيل في الأرض، ولكفرهم بفرعون، وهو الأهم عندهم ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: 127].

وهنا يظهر الدور الخطير الذي يلعبه الملأ، وهم أخوف من موسى ﷺ ودعوته التي بدا صدقها ـ حتى بذل السحرة أرواحهم إيمانًا بها وبالإله الحق سبحانه ـ من فرعون ذاته الذي اهتز عرشه وملكه وربوبيته المزعومة الفاجرة لعنه الله؛ فها هم يهيجون فرعون ويثيرونه على موسى وقومه، ودافعهم لذلك الخوف على مصالحهم ومنافعهم، فلا أفضل من بقاء الحال على ما هو عليه، وسرعان ما يستجيب لمطالبهم التي وافقت هواه ورغبته، فليس إلا القهر لقوم موسى، وذلك كي يتباعدوا عن موسى ويتشاءموا بوجوده بينهم، ولذلك داوم موسى على توجيه قومه ودعوتهم أن يستعينوا بالله القوي القادر على عدوهم، والصبر على أذاهم، لعل الله يهلكهم بظلمهم، وما ذلك على الله بعزيز ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 128-129]. ويُجيب الحق عزَّ وَجَلَّ عليهم ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: 25]. فلا ينفعهم كيدهم شيئًا، ولا يفلحون بين يدي من يقول للشيء كن فيكون ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: 15-17].، وهذا عام في كيد كل كافر، فاللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 21].

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن موسى ﷺ أنه طلب من فرعون وقومه في نهاية المطاف، وبعد ظهور صدودهم وإعراضهم عن دعوته، ويأسه من استجابتهم، الموادعة واعتزاله بأن يترك، ودعوته التي بدأت تنتشر في أوساط الناس وخاصة بعد إسلام السحرة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا

قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ [الدخان :17-21].

قال تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر :26]. قمة الجحود والعناد من فرعون الظالم البغيض حيث يناصح قومه؛ وكأنهم كانوا يمنعونه من قتل موسى خوفًا من ثورة الجماهير التي بهرتها الآيات التي رأوها مع موسى، فقال لهم ﴿ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ حتى نسكته، ونسكت الحق الذي معه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾، وكأنهم خوفوه من دعاء موسى عليه، وهو لا يرى لهم ربًا سواه، ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ إن كان يستطيع أن يمنعه مني، ثم علل تعليلات في غاية السقوط وغاية الهبوط ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ فها هو فرعون الظالم الجبار خائف على مصالح عباده ودينهم لا دينه، إنما هو في غاية الشفقة لهؤلاء الأذلاء المقهورين يخاف عليهم من موسى ودينه، وقد ذهب ذلك مثلًا حين يتهكمون فيقولون (صار فرعون واعظًا)!!

وهي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؛ كلمة الباطل التي يدفع بها في وجه الحق؛ تلفيق التهم للأبرياء، وتصويرهم بأنهم هم أهل الفساد والإفساد، سنة فرعونية يتوارثها الطغاة الظلمة في كل زمان ومكان ويعملون بها ضد الحق وأهله!!

قال الرازي في (مفاتح الغيب): المقصود من هذا الكلام: بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجودهُ يوجِب إما فساد الدين أو فساد الدنيا، **أما فساد الدين**: فلأن القوم اعتقدوا أنَّ الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه، فلما كان موسى ساعيًا في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق، وأما فساد الدنيا: فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم، ويصير ذلك سببًا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.اهـ

فما كان رد موسى الكليم المؤمن الواثق بربه عَزَّ وَجَلَّ، المستعين به في كل أمره، عمّا بلغه من التهديد والوعيد ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:27]. أي: عذت بالله ولجأت إليه، واستجرت بجنابه من أن يتسلط عليَّ فرعون وغيره بسوء، ومن كل جبار عنيد لا يخاف عذاب الله وعقابه، ولا يعتقد معادًا ولا جزاء.

فالتعوذ والتحصن والحماية والملجأ للمؤمن من كل خوف بالله عَزَّ وَجَلَّ رب المستضعفين وملاذ العائذين والركن الركين والحصن الحصين، وكذلك كان رسول الله ﷺ إذا خاف قومًا على المسلمين قال: [اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم] (د).

قال الرازي في (مفاتح الغيب) ما نصه: واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى ﷺ تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أنَّ لفظة ﴿ إِنِّي ﴾ تدل على التأكيد فهذا يُدلل على أنَّ الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور، والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه، وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إنَّ الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائـدة الرابعة: أن قولـه ﴿ وَرَبِّكُم ﴾ فيه بعث لقوم موسى ﷺ على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه: أنَّ الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدًا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء، لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق.

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنـه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفًا بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوًا سواء كان مظهرًا لتلك العداوة أو كان مخفيًا لها.

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران:

أحدهما: كون الإنسان متكبرًا قاسي القلب.

والثاني: كونه منكرًا للبعث والقيامة، وذلك لأن التكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرًا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعًا له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلًا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلًا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال على سبيل الاستهزاء ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي، وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك.
واعلم أن مَنْ أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصلح، ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله والله أعلم. اهـ
قال تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم

﴿ بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:28]. دعوة صادقة وكلمات مخلصة من هذا الرجل الصالح الكاتم لإيمانه خشية البطش والتنكيل به؛ لأنه كان من رجال القصر، وكافيه: أنَّ الله تعالى ذكره بوصف الإيمان الذي هو ضد الكفر، وقالوا: كان ابن عم فرعون، ولم يؤمن من آل فرعون كما قال ابن عباس (سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي جاء من أقصى المدينة يسعى)، فاحتاج أن يظهر إيمانه، وتأخذه غضبة لله عَزَّ وَجَلَّ، ليصدح بالحق عاليًا، ولكن بعقل وحكمة وفهم للواقع، ما الذي يريده؟، ومَنْ يخاطب؟. يقول ﷺ: [أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر] ابن كثير (4/ 79) فقال لهم: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ وهي قولة لا أعظم منها عند فرعون!، فهل جزاء من يقول ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ الكلمة المباركة الطيبة العظيمة إزهاق الروح وقتل النفس، فإذا كان القائل معه حجته وبرهانه على صدق ما يقول، فهذا أدعى لأن يترك وحاله ودعواه، ثم إنه لم يجبر أحدًا على اتباعه، وقد قدم لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق!؟. وقد جاء في البخاري عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاصي ﷺ: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بينما رسول الله ﷺ يُصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر ﷺ فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾»، وقال علي بن أبي طالب: «والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن مؤمن آل فرعون رجل يكتم إيمانه وإن أبا بكر كان يظهر إيمانه وبذل ماله ودمه».

﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ ﴾ وهذا تنزل منه في مخاطبتهم، فكأنه يقول: وإن كان كاذبًا تنزلًا وافتراضًا؛ فإن الإثم والعار لا يلحق إلا به هو، فإن كان كذلك فلما وقوف الدولة بكل أجهزتها وكبرائها ضد موسى ﷺ!؟ ولماذا قتله أو تهديده بالقتل؟.

﴿ وَإِن يَكُ صَٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ يقول: وإن يكن موسى صادقًا، وكنتم قد آذيتموه، فقد عرضتم أنفسكم لما توعدكم به من العذاب في الدنيا والآخرة، وصدقه محتمل عندكم فلا تتعرضوا له، ودعوه وقومه يدعوهم ويتبعونه، وهو كلام في غاية الحكمة موافق للعقل وظاهر النصح، قدم فيه احتمال كذبه على صدقه؛ ليطمئنوا أنه موافق لهم وناصح

صادق، وهضمًا لبعض حق موسى، حتى لا يبدو متعصبًا لموسى، فيكون مثنيًا عليه عندهم، فيردوا نصحه وكلامه فلا تفلح غايته، وتضيع هيبته بينهم، وهو أيضًا المفهوم من قوله ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

ثم يُهددهم من طرف خفي بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾، لأنَّ هذا كلام ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم، ثم يخوفهم بعد التلطف والتعقل في الخطاب السابق بأسلوب التحذير المتعقل من واحد منهم يهمه ما يهمهم ويؤلمه ما يؤلمهم.

قال الرازي: وقول الرجل المؤمن في خاتمة نصيحته للملأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى ﷺ على طريق الرمز والتعريض، ويحتمل أيضًا أن يكون المراد أنَّ فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره.

قال: واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه، والذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون، ولهذا السبب حصل ههنا قولان:

الأول: أن فرعون لما قال: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى، بل أوهم أنه مع فرعون وعلى دينه، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسى، لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل، والإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات، بل الأولى أن يُؤخر قتله، وأن يمنع من إظهار دينه، لأنَّ على هذا التقدير إن كان كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا إليه، وإن كان صادقًا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه، ثم أكد ذلك بقوله

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ يعني: أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدي المسرف الكذاب، فأوهم فرعون أنه أراد بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون، فلما قال ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى، وشافه فرعون بالحق.أهـ

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر:29].

أي: أن الله أنعم عليكم بهذا الملك، والظهور في الأرض بالكلمة النافذة، والأمر المطاع والجاه العريض، فالملك والسلطان والجاه لن ينجي من عذاب الله إذا نزل، وهو الناصح الصادق الأمين البار الراشد ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك، فهو يشعرهم أن الهم واحد، ولأنَّ العذاب إذا نزل عمهم؛ لهذا فأمرهم يهمه غاية الأهمية، فيُحذرهم أن يسلبوا هذا الملك، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم، وذلوا بعد عزهم.

قال الرازي: اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى، خوفهم في ذلك بعذاب الله فقال ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به، وإنما قال: ﴿ يَنصُرُنَا ﴾ و﴿ جَآءَنَا ﴾ لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه.اهـ

عن الناصر صاحب الانتصاف: ويُناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:26-27]. فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق هو يوسف، دونها، لرفع التهمة وإبعاد الظن، وإدلالًا بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، ما في قصة يوسف مع أخيه. اهـ

وقال الرازي في (مفاتح الغيب): قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار، وذلك لأنه ما زاد على أن قال ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل ألبتة وقوله ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يحتمل وجهين:

الأول: أن قوله ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد، وهو قوله ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:50]. وقوله ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:24]. إلى آخر الآيات، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية: في أن الإقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم، فقال: إن كان هذا الرجل كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا عليه فاتركوه، وإن كان صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى إبقاؤه حيًا.

وثانيها: أنه إن كان الكلام حجة له، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة.

وثالثها: أن الكفار الذين أنكروا نبوة موسى ﷺ وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم، لأنه يُقَال: إن كان ذلك المنكر كاذبًا في ذلك الإنكار فعليه كذبه، وإن يك صادقًا انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلًا.

والجواب عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد، وهو أن تقدير الكلام أن يُقَال: إنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة، ثم تتركوا قتله، فإن كان كاذبًا فحينئذٍ لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يك صادقًا انتفعتم به، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه فبهذا الطريق تكون الأسئلة الثلاثة مدفوعة.اهـ

لكن فرعون تأخذه العزة بالإثم، فيستمر في العناد والمخالفة، فهذا النصح وهذا الوعظ تعديًا عليه وعلى سلطانه. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:29]. تدخل حاسم قاطع ورافض لأي مناصحة كما قيل: قطعت جهيزة قول كل خطيب، وهو كاذب في الأمرين معًا؛ فإنه كان متأكد وغير شاك في باطنه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، فهو يدّعي دائمًا أنه لا يرى إلا الصواب والرشاد بغيًا وعتوًا

وعدوانًا!! كحال كل طاغية يعتقد أنه وحده الذي يعرف الصالح العام، ولا يسمحون أن يظن بهم أحد أنهم قد يخطئون ولا يقبلون! وقد قال سبحانه ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:14]. إخبارًا عن دواخل فرعون وملئه، وبيان لما خبأوا في نفوسهم، وكذلك قال موسى ﷺ لفرعون ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:102]. ثم إن فرعون أبدًا لم يكن راشدًا، فقد قال عنه أصدق القائلين ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:79]. وقال ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود:97]. وقال ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:54]. فغش رعيته وما نصحهم، وفي الحديث: [ما من عبد يسترعيه الله عَزَّ وَجَلَّ رعية يموت يوم يموت، وهو غاشٌ رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة] (خ م).

لما رأى القوم منصتون له مقبلون عليه لم يؤثر فيهم ما تكلم به فرعون استمر الرجل المؤمن الراشد البار الأمين في دعوة قومه، وتحذيرهم من عذاب الله ومقته كما فعل بالمكذبين للمرسلين من قبلهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر:30-33].

هذا ولي الله يُحذرهم إن كذبّوا برسول الله موسى أن يُصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم، وقد علموا ما حلَّ بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم من النقمات والعقوبات في الدنيا وكذلك في الآخرة. والله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس هم الظالمين لأنفسهم بإشراكهم بالله رب العالمين. ويوم التناد حيث يتنادى الناس ويتصايحون؛ يُنادي أصحاب النار أصحاب الجنة، ويُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار، ويُنادي أصحاب الأعراف أصحاب الجنة والنار، ويُنادي الملائكة أصحاب الموقف فهو يوم زحام وخصام، ولا عاصم يومئذ من أمر الله تعالى.

قال الرازي: واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعًا من الكلمات ذكرها لفرعون:

الأول: قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ والتقدير مثل أيام الأحزاب، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد ثمود، فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس، ثم فسر قوله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ بقوله ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفار والتكذيب وسائر المعاصي، فيكون ذلك دائبًا ودائمًا لا يفترون عنه، والحاصل: أنه خوفهم بهلاك معجل في الدنيا، ثم خوفهم أيضًا بهلاك الآخرة، وهو قوله ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ والمقصود منه: التنبيه على عذاب الآخرة.

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ يعني: أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلًا، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء.اهـ

قال صاحب التحرير: ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ يوم الحساب والحشر سُمِيَ ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ لأنَّ الخلق يتنادون يومئذٍ: فمن مستشفع، ومن متضرع، ومن مسلم ومهنئ، ومن موبخ ومن معتذر، ومن آمر ومن معلن بالطاعة قال تعالى ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [القصص :62]. ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص :65]. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت :44]. ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف :44]. ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ [الأعراف :48]. ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [الأعراف :50]. ﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء :52]. ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ ﴾ [الإسراء :71]. ونحو ذلك.اهـ

قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر :34-35]. يُذكرهم بدعوة يوسف عليه السلام في

أوائلهم، وكيف تشككوا من دعوته ورسالته، فهو يدعوهم أن لا يكرروا الموقف مع موسى ﷺ، وهو من سلالة يوسف وذريته، فيكذبونه بغير سلطان ولا حجة معهم، ويدفعون الحق بالباطل، فيقرر الله ويؤكد إضلاله لمن كان هذا حاله؛ إسراف في الكفر وتشكيك للخلق في خالقهم، فإنَّ الله تعالى يمقت ذلك أشد المقت، ومَنْ كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، بينما المؤمنون يوافقون ربهم ويسمعون ويطيعون.

وبعد كل هذه الحجج والبراهين والترغيب والترهيب مازال فرعون المتكبر الطاغي في غيه وضلاله وجبروته وطغيانه مصرًا على رد الحق ورفضه، فيتحايل لكي يَظهر بضد ذلك، وأنه المنصف العادل، فيزعم التحقق من صدق دعوة موسى ﷺ، وخاصة بعد ما بدأ الحق بنوره يخترق ظلمات الجهل، ويهدم بسلاسته أسوار العناد، وبدأت العقول تنطق بمكنونها الرافض لألوهية البشر، لأنها فُطرت على الإيمان بألوهية الواحد الأحد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

قال تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: 36-37]. فرعون يتظاهر أنه يطلب حقًا! واسمع إليه في سورة القصص يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: 38]. وهنا قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ وهي طرقها ومساربها ومسالكها، فطلب بناء الصرح، وهو البناء الذي بناه له وزيره هامان، قيل: لم ير بناء أعلى منه، وأنه كان مبنيًا من الآجر المشوي بالنار، وقال ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ أي: في دعواه أن هناك ربًا للعالم غيري!! فهو يحاور ويداور كي لا يواجه الحق، وواضح أن هذا كان منه سخرية واستهزاء واستخفافًا بالعقول، وإلا فقد علم العقلاء في زمانه ومن قبله عجزهم عن الاقتراب

من السماء الدنيا، فكيف بما فوقها من السموات؟ ثم لم اختار أن يبني لأعلى، ولم يأمر بالحفر لأسفل؟! أو حتى بالتفتيش في زوايا الأرض؟! أليس في هذا دلالة على ما استقر في فطرته وفطر الخلائق أن الرب الخالق الرازق العظيم والإله المعبود وحده له العلو، وهو العلي الأعلى، فلا يصح إلا أن يكون في علو، وليس في كل مكان يُخالطنا كما يزعمه الخاطئون، ويردده الناس من وراءهم وهم غافلون، وإنما قوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:4]. فهي معية إحاطة بعلمه وسمعه وبصره، وليست معية مخالطة تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر:37]. ورغم هذا الإيهام بالبحث عن الحق، وهذا الكذب الصراح من فرعون المستنكف عن الحق، يُندد بموسى الرسول الصادق صاحب الآيات البينات، ويتهمه بالكذب، فزُين له سوء عمله وصد عن السبيل إلى الحق، وهذا التزيين لسوء العمل والصد عن السبيل القويم من الله تعالى فقد تركه لهواه وشيطانه، وحرمه التوفيق للهداية لاستنكافه عن سماع الحق البين وصده لموسى المرسل إليه بالحق، والجزاء من جنس العمل، قال سبحانه ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر:8]. وقال ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر:31]. فما كاد به ودبّر لإثبات كذب موسى عليه السلام إلا في خسار وبوار.

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر:38-40]. يُلقي ولي الله المؤمن الراشد بالكلمة الأخيرة بين ظهراني قومه بعد استخفاف واستهزاء فرعون وسخريته، فأعلنها في صراحة بلا مواربة ولا خفاء وبلا خوف ولا رهبة بأن ما يقوله هو الحق الذي لبس دونه إلا الضلال، ويُرد صراحة على دعوى

فرعون الضال ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ الذي أضل قومه وما هدى، أن سبيل الرشاد في اتباعه ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ثم يُذكرهم أنَّ الدنيا خلقت للتمتع بما فيها من متع ولذات تنتهي بانتهاء الدنيا وتزول بزوالها، وإنما النعيم الدائم المستقر واللذات الأبدية هي التي تكون في دار البقاء؛ والتي جزاء الصالحين فيها الجنة والنعيم، وهي التي يتمنى لهم ويرغبهم فيها.

قال الرازي: بين لهم حقارة حال الدينا وكمال حال الآخرة، أما حقارة الدنيا: فهي قوله ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ والمعنى: أنه يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، وأما الآخرة: فهي دار القرار والبقاء والدوام، وحاصل الكلام: أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة، والدائم خير من المنقضي، **وقال بعض الصالحين**: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خزفًا باقيًا، لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باق.اهـ

قال تعالى ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر:41-42]. توجيه رائع في قرب ختام كلماته المباركات لاستعمال العقل، والذي لن يجهد للوصول إلى الحق؛ نار وكفر وإشراك هذه عاقبة صدودكم، بينما دعوتي إلى النجاة من ذلك، والرجوع إلى العزيز الذي لا يضره ما تصنعون، الغفار الذي يغفر لمن تاب من قريب، ثم إن الشرك بالله الذي تجعلون لفرعون فيه نصيبًا وافرًا عاقبته وخيمة قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:72].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [غافر:43]. أي: حقًا أن ما تدعونني لعبادته من دون الله ليس له دعوة حق في الدنيا يدعى بها إليه، ولا دعوة تستجاب له في الدنيا ولا في الآخرة، وكذلك فإن مردنا ومرجعنا إلى الله ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:43]. ثم ختم بخير ختام وأطيب كلام ﴿فَسَتَذْكُرُونَ

﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:44]. ما أطيبها من كلمات امتلأت بالإيمان، وغُمرت في الثقة بالله والتوكل عليه، وصُبغت بالاستسلام لأمر الله وقدره ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:45-46]. انتهى كلام هذا الرجل المؤمن، وبلغتْ دعوته لقومه مداها ما بين الترغيب والترهيب، ما بين الرجاء في رحمة الله وعفوه باتباع رسوله، والتخويف من عذابه ونقمته وانتقامه لرسوله، فقد تكررت فيهم نداءاته رجاء متابعته إلى الحق الذي جاء به موسى ﷺ، ومحاولاته المستميتة لإنقاذهم من غفلتهم فقال ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ وقال ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وقال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:38-39]. وقال آخرًا ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر:41-42]. وبعد يأسه من استجابة القوم لنصحه الصادق كانت المتاركة، وهذه المواجهة الصريحة والمكاشفة الواضحة، والتي يغلب فيها على الظن هلاك هذا الناصح الأمين، والبطش به بعدما هددهم وخوفهم من عذاب عاجل يحل بهم أشد من عذاب فرعون وأقوى فيقول تعالى ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ وهكذا نجي الله وليه المؤمن الثابت على الحق، وكان النكال على المكذبين المعاندين؛ عذاب في الدنيا ثم بعد الموت في قبورهم ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فإن لم يكن هذا العرض على النار في القبور، فأين يكون؟ وقد ذكر أن بعده عذاب أشد ينتظرهم يوم القيامة عند قيام الساعة بعد البعث والنشور﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:41-42]. وفي البخاري

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يُقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة].

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما بين أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق، وفي الذب عنه، فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين، وقوله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ يدل على أنه لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه، وقيل: المراد بقوله ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصرفه عن الإسلام، فوقاه الله عن ذلك إلا أن الأول أولى لأن قوله بعد ذلك ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ لا يليق إلا بالوجه الأول، وقوله تعالى ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي غرقوا في البحر، وقيل: بل المراد منه النار المذكورة في قوله ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾. قال الزجاج: ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ بدل من قوله ﴿ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال: وجائز أيضًا أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير ﴿ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ كأن قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾. أهـ

قال ابن كثير (4/ 82-84): قال ابن عباس ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يقول: بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾. قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر، وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله تبارك وتعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: 5-6]. وقوله ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ [فاطر: 14] وقوله: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: في الدار الآخرة فيجازي كلا بعمله، ولهذا قال ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عَزَّ وَجَلَّ

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي مَنْ يستحق الهداية ويضل مَنْ يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، والقدر النافذ وقوله تبارك وتعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإنَّ أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، وقال قتادة في قوله تعالى ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحًا ومساءً ما بقيت الدنيا يُقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخًا ونقمة وصَغارًا لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يُغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، وقال: ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إنَّ أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها». وفي حديث الإسراء عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال فيه: [ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا

يعقلون]، وقال ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: [ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى] قال: قلنا يا رسول الله، ما إثابة الله الكافر؟ فقال: [إن كان قد وصل رحمًا أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك] قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: [عذابًا دون العذاب] وقرأ ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾، وقال الإمام أحمد عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عَزَّ وَجَلَّ إليه يوم القيامة» أخرجاه في (الصحيحين) من حديث مالك به.اهـ

قال الرازي في خاتمة الآيات الواردة في القصة لما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ [غافر:51-55].

واعلم أن نصرة الله المحقين تحصل بوجوه:

أحدها: النصرة بالحجة، وقد سمى الله الحجة سلطانًا في غير موضع، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع، ونعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانًا؛ لأنَّ السلطنة في الدنيا قد تبطل، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور، أما السلطنة الحاصلة بالحجة: فإنها تبقى أبد الآباد، ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها.

وثانيها: أنهم منصورون بالمدح والتعظيم، فإنَّ الظلمة وإن قهروا شخصًا من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس.

وثالثها: أنهم منصورون بسبب أنَّ بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين، فإنهم إنما ينظرون إلى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السماوات إلى أخس الأشياء.

ورابعها: أنَّ المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين، ففي الغالب أن ذلك لا يدوم؛ بل يكشف للناس أن ذلك كان أمرًا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق.

وخامسها: أن المحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور، فذلك يكون سببًا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته.

وسادسها: أنَّ الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم، ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر. وأما المحقون فإنَّ آثارهم باقية على وجه الدهر، والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير، فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين في الدنيا.

وسابعها: أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قُتِل قَتل به سبعون ألفًا، وأما نصرته تعالى إياهم في الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب، وكونهم مصاحبين لأنبياء الله كما قال ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]. اهـ
والآن اقرأ قصة هذا العبد المؤمن في القرآن متدبرًا

قال تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ

وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ
﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ
لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ
﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ
عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ
ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ
دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى
ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠
أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ
أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ
سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ
ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ
تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ
إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ

عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا
وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾

[غافر: 26-55].

***

الآيات المفصلات

ظل موسى ﷺ يؤدي رسالته في داخل مصر، يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، يدعو بني إسرائيل قومه، وكذا فرعون وملئه؛ الأمراء والوزراء، والقادة والأتباع والرعايا من القبط من سكان المدينة وقصورها؛ يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأراهم الآيات التي أرسله الله عَزَّ وَجَلَّ بها، وهي بينة ظاهرة على صدق دعوته ورسالته، فاستكبروا واستنكفوا عن اتباعه والانقياد له، وسخروا من الآيات وضحكوا منها ومن موسى ﷺ قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾[الزخرف:46-47].

وجعل الملأ يحرضون ويهيجون فرعون لقتل موسى ﷺ وقومه قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:127]. فهم يخشون على ملكهم ورئاستهم ووجاهتهم، وتنعمهم على حساب بني إسرائيل من هذه العقيدة التي جاء بها موسى، والتي يعدونها إفسادًا في الأرض؛ لأنها ستغير نمط الحياة وأسلوبها، وحتمًا ستغير نظام الحكم في البلاد، وهم أصحاب المنافع والمصالح من استمرار الحال على فساده، ولذلك عدّو ذلك فسادًا! وهذا كما قالوا: رمتني بدائها ثم انسلت. فهم المفسدون لا غير، وما زال التحريض مستمرًا من قبل الملأ ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال المفسرون: كان يعبد إلهًا سرًا، فكان يَعبد ويُعبد.

يثور فرعون ويهيج ويرغي ويزبد ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾، ولم يذكر موسى! وذلك لأنه علم أنه لن يقدر عليه، وألقيت المهابة في قلبه من موسى ﷺ؛ حتى ذكروا أنه كان إذا رآه بال من رعبه وهلعه وخوفه.

ولما بلغ موسى ما يهدد به فرعون وما توعد به، توجه موسى إلى قومه يبث فيهم العزيمة، ويثبتهم ويصبرهم ويشد من أزرهم ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:128].
والتوكل على الله يجمع الاستعانة والصبر كما قال ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:84].

﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾.. فالعون والنصر من الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:153]. والصبر لابد منه لاحتمال البلاء والفتنة، لأنه لابد من ابتلاء ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:1]. ﴿ وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:1-3].

نبي الله موسى يدعو قومه، ويبصرهم بما لا يدركون ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ كل الأرض لله عَزَّ وَجَلَّ، لا ملك لفرد ولا لدولة، ولا لقوة على أرض الله، ولا يتعارض هذا مع تملكنا الظاهري، وأما الملك على الحقيقة فهو لله، وهو يورثها من يشاء من عباده؛ يعطيها الضعيف أو يعطيها القوي، يعطيها الفقير أو يعطيها الغني، يعطيها الفاجر أو يعطيها الصالح، وذلك كله بعلمه وحكمته، هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة، فالناس على أرضه أضياف، ومالك الملك يعطي الملك من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويأخذ ممن سبق أن أعطاه، فلا اغترار بتمكن أحد، وسيطرة أحد، وقوة أحد، ولكنه قضى في العاقبة أن تكون الأرض لعباده الصالحين. قال ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:105]. فلا أرض مقابل السلام ولا غيره، إنما الأرض مقابل التقوى والصلاح، فمَنْ أراد الأرض فعليه بالتقوى والصلاح ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ طال الزمان أو قصر ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [غافر:4].

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران:196-197]. ولكن بني إسرائيل هم هم في كل أزمانهم، وعلى كل أحوالهم ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف:129]. لهجة التبرم والضيق

والضجر ونفاد الصبر، فهم يحكون عن حال لم يتغير من قبل بعث موسى ﷺ، ومن بعد بعثه تنكيل وأذى كأنه لا نهاية له ولا انتهاء، فيجيب موسى ﷺ وكله ثقة في الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]. يُبشرهم ويُؤملهم في لطف الله وكرمه، فهو يستخلف الصابرين المستعينين به وحده، ويهلك المعاندين الجاحدين، وذلك لينظر كيف يعملون بنعمه وعطائه، لهذا فهم ليسوا أبناء الله وأحبائه، ولم يستخلفهم جزافًا بلا غاية، وإنما هو استخلاف مؤقت، وقد تحقق الوعد والرجاء بكماله لم ينقص منه شيء، فأهلك سبحانه عدوهم، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها لما صبروا. قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137]. وقال ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5-6].

نقل القاسمي (5/ 171) عن الجشمي قوله: تدل الآيات على أن قوم فرعون، لما أن عجزوا عن موسى في آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى، وأوهموه أن تركه فساد في الأرض، وأنه عند ذلك أوعده، وذلك من أدل دليل على نبوة موسى، لأنَّ قتل صاحب المعجزة لا يقدح في معجزته، ولهذا قال مشايخنا: إنَّ العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن -التي في إيرادها إبطال أمر النبي ﷺ- إلى القتال -الذي لا يفيد ذلك- دلَّ على عجزهم، وهكذا حال كل ضال مبين، إذا أعيته الحجة، عدل إلى التهديد والوعيد. وتدل على أن عند الخوف من الظلمة يجب الفزع إلى الله تعالى، والاستعانة به والصبر، ولا مفزع إلا في هذين: وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة في الدفع، واللطف له في الصبر. وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى، وهي اتقاء الكبائر والمعاصي .اهـ

ونقل في (5/ 176) عن الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ قال: وحسبك به حاثًا على الصبر، ودالًا على أن مَنْ قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومَنْ قابله بالصبر وانتظار النصر، ضمن الله له الفرج. اهـ

وقال الحسن: عجبت ممن خفّ كيف خفّ، وقد سمع قوله تعالى -وتلا الآية-، ومعنى (خفّ) طاش جزعًا وقلة صبر، ولم يرزن رزانة أولي الصبر.اهـ

قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:130]. مضى فرعون في تهديده وإنفاذ وعيده، واستعمل طغيانه وجبروته؛ فقتّل الرجال، واستحيا النساء، وعاني موسى وقومه الويلات، وتحملوا العذاب، وهم صابرون يرجون الفرج من الله، ويصبرون على الابتلاء، حتى صار الأمر كالتالي: إيمان يقابله كفر، وطغيان يقابله الصبر، ومخلوق يتحدى الخالق، حينها لابد من مجيء العذاب، وتحقق سنن الله الكونية والشرعية، فيرسل سبحانه بالتحذيرات واحد تلو الآخر ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الجدب والجفاف والقحط هو التحذير الأول، والجدب في أرض مصر له دلالة ومعنى، فمصر دومًا مصدر للخير والعطاء والنماء؛ فكل المقومات للنماء والعطاء متوافرة من فضل الله عليها؛ أرض خصبة، وماء وفير، وطقس بديع، وأيد عاملة كثيرة، فإذا حدث جدب وقحط فهناك أمر جد وطارئ طرأ، وكان الأولى بهم أن يفيقوا من غفلتهم، وأن يعودوا إلى الجادة، لكن الفِطر انتكست من كثرة ما عبدت أصنامًا وأحجارًا وأشخاصًا، فليس سوى الإعراض والصد عن دعوة موسى ﷺ.

نقل القاسمي (5/ 172) عن الجشمي قال: تدل الآية على أنَّ الشدة والبؤس قد يكونان لطفًا وصلاحًا في الدين، لذلك قال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.اهـ

ولم يتنبه آل فرعون للعلاقة فيما بين كفرهم وصدهم عن دين الله الحق، وبين بغيهم وظلمهم لعباد الله، وبين هذا العذاب النازل بهم، ومضوا على طريقتهم وسلوكهم؛ فكانوا إذا جاءتهم الحسنة والرخاء حسبوا ذلك حقهم المفترض ونتاج أعمالهم وهم لذلك أهل! وإن

أصابتهم السيئة والجدب ردوا ذلك إلى شؤم موسى ومن معه من المؤمنين ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 131]. فهم يبررون الأحداث وفق هواهم، بعيدًا عن معاصيهم وجرائمهم وفجورهم، كما تسمع في عصرنا هذا عن الأزمات الاقتصادية العالمية، والظروف الاقتصادية غير المواتية، وارتباط اقتصاد الدولة بالدول العالمية والأسواق العالمية، والتأثيرات والمتغيرات، ولا ربط أبدًا بحالنا مع ربنا وطاعتنا أو معاصينا كأفراد وجماعات؛ قال عزَّ وجلَّ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: 112]. وقال سبحانه ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ: 15-17].

فلعل الله سبحانه يُرينا في هؤلاء الظالمين آية؛ الذين يتعاملون بالربا، ويلزمون الناس به بالوسيلة الصهيونية (البنوك)، ثم يشكون الأزمات، وانهيار الاقتصاد، والتضخم، والإفلاس، والرواج، والكساد، وكل هذه المصطلحات المالية. قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ

أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 275-280].

والتطير موروث شركي قديم بقدم التاريخ والإنسانية، والتطير قد أخذ اسمه من الطير التي كانوا يرقبونها؛ فإن كانت سانحة أي لجهة اليمين مضوا لأمرهم ومصالحهم، وإن كانت بارحة أي لجهة اليسار عادوا أدراجهم، بل إنهم كانوا يهيجون الطير في أعشاشها حتى ينظروا أين تتجه سانحة أو بارحة، وجاء الإسلام يبطل هذا الفهم الخرافي، وهذا الاعتقاد الشركي، فاللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، وقد قال ﷺ: [الطيرة شرك] (د ت)، وقال ﷺ: [لا عدوى، ولا طِيَرة، ولا هامّة، ولا صُفر] (خ م)، فتوكل على الله في أمرك كله، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك.

وظل فرعون وملأه على إعراضهم وعنادهم واستكبارهم وعتوهم في الأرض بغير الحق ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: 132]. وتماديًا في باطلهم يقولون: أيًا ما جئت به سنرده عليك ولا نقبله منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به؛ حينئذٍ يرسل القوي الجبار بالآيات القاهرات ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 133]. تتبع بعضها بعضًا، وكل آية أعنف وأشد من التي قبلها ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: 48].

قال ابن كثير (2/ 232): قال محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: (أبى فرعون إلا التمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين، وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم آيات مفصلات؛ فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا، ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: 134]. فدعا موسى ربه فكشف عنهم،

فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر - فيما بلغني - حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى ﷺ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه؛ فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملًا حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا) اهـ. والطوفان الذي أرسله جل وعلا كان إما مطرًا نازلًا من السماء أغرقهم وأرضهم وزرعهم، أو فيضانًا، والعجب أنه لم يصب بني إسرائيل من ذلك قطرة ماء، بينما دخل بيوت القوم من آل فرعون إلى تراقيهم!!، فلم يؤمنوا، فأنبت الله لهم في تلك السنة ما لم ينبته قبل ذلك من الزرع، فقالوا: كان ذلك الماء نعمة، فبعث الله عليهم الجراد يسقط على الزرع والثمر فيأكله، فيقلع عن الزرع وكأنه لم يزرع قبل ذلك، وكانت تأكل الأخضر واليابس حتى أكلت السقوف والأبواب، والعجب أنه لم يدخل منها دور بني إسرائيل شيء، فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كشف عنهم الجراد، فدعا ربه فكشف عنهم، فاكتفوا بما بقي من الزرع ولم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم القُمّل؛ وهو السوس الأسود الصغير دخل بيوتهم وفرشهم، والتصق بأجسامهم، ومنعهم النوم والقرار، فتضرعوا إلى موسى ﷺ، فلما كشف عنهم لم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع ـ جمع ضِفْدَع، وهي المعروفة، وهي التي نهى النبي ﷺ عن قتلها، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ: [عن قتل الصُرد، والضِفدِع، والنملة، والهدهد] (د)، ويُقَال: أنها كانت تصب الماء على نار إبراهيم، ولما تسلطت على فرعون وقومه ملأت فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم، فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وإذا تكلم وثب الضفدع في فيه، فشكوا إلى موسى وقالوا: نتوب!،

فكشف الله عنهم ذلك، فعادوا إلى كفرهم، فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل دمًا، فكان الإسرائيلي يغترف من النيل ماء، بينما يغترف القبطي دمًا، فيصب الإسرائيلي الماء في فم القبطي فيصير دمًا، والقبطي يصب الدم في فم الإسرائيلي فيصير ماءً زلالًا.اهـ

ومع كل ذلك لم يؤمن القوم ولن يؤمنوا رغم ما ذاقوا من الويلات وما نزل بهم من المصائب ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: 134]. فهم يتكلمون عن إيمان بموسى أي بتصديقه في أن له ربًا غير ربهم، فهو رب خاص بموسى لا علاقة لهم به إلا في استجابته لموسى كي يكشف عنهم الغم والبلاء الذي نزل بهم، فهو إذًا ليس إيمان برب موسى سبحانه، وإنما هم يتلاعبون بالألفاظ قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 135-136].

نقل القاسمي (5/ 176) عن الجشمي قال: تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله، وتدل على وجوب النظر، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض؛ فلذلك عاقبهم عليهما.اهـ

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: 46-50].

قال ابن كثير (4/ 131): يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله موسى ﷺ أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظامًا كيده

وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم، ومَنْ نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم وجهلهم وخبالهم، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: العالم قاله ابن جرير وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذمومًا عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك وإنما هو تعظيم في زعمهم ففي كل مرة يعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه وهذا كقوله تبارك وتعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: 133-135]. اهـ

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 101-102]. ذكر فيها سبحانه الآيات البينات وعددها تسعة؛ وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته، وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون؛ وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات. ابن كثير (3/ 65)

والآية كقوله تعالى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 12-14].

فهي حجج وأدلة على صدق ما جاء به موسى، ومع ذلك جحدوها، مع أنهم عاينوها وعايشوها، واكتووا بنارها، لكنهم قوم فاسقين، فما الذي ينتظر منهم؟! وقول موسى ﷺ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ كشف فيه المخبوء في نفس فرعون بأنه علم أن الآيات التسع التي نزلت بهم من عند العلي القدير ربه ورب كل شيء في هذا الكون الفسيح، فهي حجج قاطعة من الذي يقول للشيء: كن فيكون، وهو أمر صار مقطوع به لديك ولكن عنادك وكبرك يأبى عليك أن تنصاع للحق وتخضع، فليس ينتظرك بعد ذلك إلا الهلاك عاقبة المكذبين بالحق المبين، كما قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

قال الرازي: المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام. أحدها: أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه، قيل في التفسير ذهبت العجمة وصار فصيحًا.

وثانيها: إنقلاب العصا حية.

وثالثها: تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها.

ورابعها: اليد البيضاء.

وخمسة أخر: وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

والعاشر: شق البحر وهو قوله ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة: 50].

والحادي عشر: الحجر وهو قوله: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ [الأعراف: 160].

الثاني عشر: إظلال الجبل وهو قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: 171].

والثالث عشر: إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه.

والرابع عشر والخامس عشر: قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: 130]. والسادس عشر: الطمس على أموالهم من النحل، والدقيق والأطعمة

والدراهم والدنانير، روى أن عمر بن عبد العزيز: سأل محمد بن كعب عن قوله ﴿ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ فذكر محمد بن كعب في مسألة التسع: حل عقدة اللسان والطمس. فقال عمر بن عبد العزيز: هكذا يجب أن يكون الفقيه، ثم قال: يا غلام اخرج ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه، فإذا فيه بيض مكسور نصفين، وجوز مكسور، وفول، وحمص، وعدس كلها حجارة.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الستة عشر لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه لأنا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد، بل نقول: إنها يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية، ثم نقول: أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبقي الاثنان، ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما، ولما لم تكن تلك الأحوال مستندة إلى حجة ظنية فضلًا عن حجة يقينية لا جرم تركت تلك الروايات، وفي تفسير قوله تعالى ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أقوال أجودها ما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهوديًا قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال: [**هن: أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا، ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن تعدلوا في السبت**]، فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالوا: نشهد إنك نبي ولولا نخاف القتل وإلا اتبعناك.اهـ

فما صنع فرعون بعد كل ما رأى وسمع، وعاين وعانى؟ وما فعل بالبلاد والعباد في ملكه المزعوم، وما جرى عليهم من الآيات المفصلات ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: 51-56]. هذا هو

التمرد والعتو والكفر والعناد يتكلم به فرعون في تبجح وافتخار بملكه لمصر وتصرفه فيها، فهو مالك البلاد، ولهذا فهو يستحق أن يكون رب العباد!! وكم هو ملك مصر بجانب ملك السموات والأرض؟! وهل مصر إلا هباءة بجانب هذا الكون الواسع! وصدق الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46]. ففرعون لعنه الله وغضب عليه يذكر قومه بالعظمة والملك والغنى والثراء، بينما موسى وقومه فقراء ضعفاء، أي على طريقة ونهج ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة:247]. وهي مقاييس دنيوية جاهلة، تقيس بالمادة والدرهم والدينار، بالمال والعقار، ولا تلتفت إلى ما يملأ القلوب من الغنى بالله عَزَّ وَجَلَّ الذي قال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:55-56].

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.. يعني: أنه خير من موسى ﷺ، وقد كذب في هذا لعنه الله. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.. أي: أنه عيي لا يفصح عن كلامه بسبب العقدة التي كانت في لسانه بسبب الجمرة التي وضعها في فمه وهو صغير، ففرعون ينظر بعين كافرة شقية إلى موسى ﷺ ووالله لموسى أبهى وأجمل وأكمل خلقة من فرعون اللئيم، فقد اصطفاه واختاره رب العالمين، وهذا افتراء على موسى لأن الله عَزَّ وَجَلَّ شفاه وعافاه لما دعا ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه:27-28]. قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:36].

قال تعالى ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:53]. وهي الحلي التي يلبسها الملوك في أيديهم، فعلى عادة الملوك وأسلوبهم يتكلم ليبهرج على قومه الجهلاء السفهاء، الذين يصدقون كل ما يقال لهم وكل ما يسمعون، ولا يفهمون ولا يؤمنون إلا بما يقول ويتكلم به ملوكهم وحكامهم ولو كان كفرًا، ولا يرجعون ويراجعون شرع ربهم ليزنوا ما يرون ويسمعون ويقال لهم بميزان الشرع الذي لا يحيف ولا يظلم. لكنه الاستخفاف الذي يتقنه هؤلاء، وبخاصة في الأوساط الجاهلة. ﴿فَٱسْتَخَفَّ

قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 45]. فإن قومًا صدقوه في قوله ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: 55]. أي: لما أغضبوا ربهم وأسخطوه، واتبعوا أمر فرعون ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: 97]. جاءت العقوبة من الله بفتنة، بعد طول الإمهال والانظار مع الإنذار ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

والآن اقرأ الآيات بتدبر وتفهم وخشوع:

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ
عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ
فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا
هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا
وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ
لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا
هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا
كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 127-137].

قال تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟
إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ
زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 83-89].

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟
أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود: 96-99].

قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم
مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: 52-66].

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا
لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ

أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ
مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ
﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: 46-56].

***

قصة قارون

سلطان المال عند أهل الغنى واليسار غالبًا ما يقترن بالبغي والبطر، والاستكبار على الخلق، وجحود نعمة الخالق سبحانه، وهذا هو الذي بينه القرآن العظيم للعالمين في قصة قارون؛ حيث وضع سبحانه من قيمة المال والدنيا والزينة، وأعلى من قيمة العلم والإيمان والصلاح، مع الاعتدال والتوسط في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فسادًا. وهي قصة ضربت مثلًا لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم مثل: الوليد بن المغيرة وأبي جهل ابن هشام.

وقارون هذا ذكر المفسرون أنه كان ابن عم موسى ﷺ، فهو من قوم موسى بني إسرائيل، قال الله تعالى ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76].

وقد رأَّسه فرعون على قومه بني إسرائيل، لكن قارون طغى وبغى على قومه، وانضم بسلطان ماله إلى حزب فرعون الخبيث، ليكون من جنده ومن أعوانه، ويتمتع بحماية السلطة الآثمة المجرمة، ولو كان ذلك على حساب بني إسرائيل، وهو منهم، فأمره أغرب وأعجب من أمر فرعون!!

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مَضاضة   على المرء من وَقع الحسام المُهَنَّدِ

قال سبحانه ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: 23-24]. وسبب هذا البغي من قارون على قومه: هو الثراء الفاحش والغنى المطغي، والذي كثيرًا ما أودى بصاحبه إلى الهاوية، وكثيرًا ما أنسى صاحبه نفسه الوضيعة العاصية، وألبسه تعززه بماله ثوب التعاظم والكبر كحال المشركين ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]. بل وأنساه ربه وخالقه الذي أمده بكل هذا

المال وغيره ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: 1-6].

والقرآن يُصور قدر هذا المال الذي أمده الله به وضخامته بقوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ فمفاتيح هذه الكنوز المخبوءة، والزائدة عن الحاجة والاحتياج، يعجز عن حملها العدد الكبير من أقوياء الرجال، فكيف بالأموال المكتوزة داخل هذه الكنوز؟! لهذا بغى قارون على قومه؛ فربما ظلمهم، أو غصبهم حقهم وما يخصهم من أي شئ كما يفعله طغاة المال في كل زمان ومكان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في هذا المال الوفير، وهو حق الفقراء في أموال الأغنياء، وحتى لا تكون دورة المال بين الأغنياء وفقط فلا يقربه غيرهم، بينما الناس من حولهم في أمس الحاجة للقليل منه.

وقد حاول فريق من عقلاء قومه أن يردونه عن غيه وبغيه، فكلموه وناصحوه، ودعوه إلى الحق وإلى الصراط القويم ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 76-77]. وهذا هو النهج القويم الذي رسمه لنا رب العالمين؛ منهاج القصد والاعتدال والتوسط في الأمر كله، وهو المنهاج الذي تستقيم به حياة الأمة وحياة العالمين. فقالوا له ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ فرح الزهو والانتشاء والتعالي على الناس لكثرة المال والثراء، والابتهاج بالملك والاستحواذ.. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال، وينسي ما يجب من الحمد والشكر على هذه النعم.. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ فرح الذي يستخفه المال؛ فينشغل به قلبه، ويطير به لبه، ويستكبر به على خلق الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فهذا فرح لا يحبه الله، بل يبغض ويمقت صاحبه، هذا الذي يفرح بمعصية الله، ويسعد بظلم الآخرين، والفرح الذي يحبه الله بضد ذلك، فهو فرح بنعمة الله وفضله وطاعته وعبادته ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

وقال له قومه ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ فليكن الهم هم الآخرة، والغاية هي الآخرة، والقلب متعلق بالآخرة، ولا يريد الله إلا اليسر بعباده، فهو كذلك لا يحرمه ولا يمنعه من التمتع برزق الله الذي آتاه، ولا يحول بينه وبين الأخذ بنصيب من المتاع في هذه الدنيا، بل حضه على الاستمتاع بطيبات الدنيا من الحلال، على أن يكون هذا التمتع بنعم الله لأجل العمل للآخرة، فهو نوع من الشكر على نعمآئه، يقول تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:67]. وقال ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء:26-30].

وقال ﷺ: [**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**] (ت)، وقال: [**إن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا**] (خ د ت) فليس المطلوب زهدًا نهمل معه الحياة، وإنما حياة نحياها نأخذ فيها بما أمدنا الله قلّ أو كثر، فنستعمله فيما هو حلال من متاع الدنيا، وفيما يعين على الطاعة والعبادة التي خلق الخلائق لأجلها ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الحج:36]. وقالوا له ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ فالمال هبة من الله وجود وإحسان، فنتلقى ذلك الجود والإحسان ونقابله بإحسان قبول النعمة، وإحسان الشكر عليها؛ بإحسان التصرف في هبته وإحسانه بالإحسان إلى خلقه، وإحسان استعمالها بلا تفريط ولا إفراط، بلا إمساك ولا إسراف، وفي الحديث: [**إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء**] (م د) فالإحسان في كل شيء بحسبه. وقالوا له ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ الفساد بالبغي والظلم، والفساد بالتمتع المبالغ فيه بنعم الله فيما أحل الله وحرم، دون خوف من الله، ودون تنبه للآخرة، ودون مراعاة للآخرين من الفقراء والمحتاجين، والفساد بملء صدور الناس بالحسد والبغضاء عليك، أو الحنق والغيظ منك لسوء استعمالك، أو تطاولك

وتعاليك واستخفافك بخلق الله واحتقارهم، والفساد بإنفاق المال في غير وجهه، أو إمساكه عن الإنفاق في وجهه، والآية كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:205].

وقد قضى سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ كما أنه سبحانه لا يحب الفرحين، ولا يحب المبذرين إخوان الشياطين.

فما كان جوابه على هذا النصح الحسن المبارك من عقلاء قومه، والذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة؟! ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ فقد جمعت هذا المال بفطنتي وحنكتي ومهارتي وخبرتي وجهدي الخاص، وأراد إسكاتهم عن وعظه ونصحه؛ نموذج متكرر في الناس حينما يصيب صاحبه الغرور ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر:49]. قول مغرور يتناسى صاحبه كل ما حوله، مفتون بالمال فقد أعمى بصيرته؛ فالمال ماله هو الذي جمعه، ولم يرزقه إياه أحد، ولا دخل لكائن من كان في كيفية وأسلوب إنفاقه، نسي المنعم المعطي الرزاق الوهاب ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:6-8]. فهل قائله هو أول مَنْ اغتنى، وأول مَنْ جمع فأوعى، وأول مَنْ اكتنز من المال وحوى؟ بطبيعة الحال ليس هو الأول، فكم وكم من أهل الغنى واليسار سبقوه، فأين ذهبوا؟ وأين ما جمعوا؟ وما الذي صحبوا معهم عندما رحلوا؟!

يرد الله سبحانه على هؤلاء المتبجحة الغواة ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:78]. فإن كان ذا قوة وذا مال، فقد سبقه من جنسه صنوف عريضة من المجرمين البغاة، الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فلما كان علمهم هو الحياة الدنيا وزينتها، ولا يعلمون الحق، ولا يسألون عنه ليهتدوا به، ولا يلتفتون إليه، فكذلك لا يأبه لهم الله، ولا يسألهم عن ذنوبهم كقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:44]. وقوله تعالى عن أصحاب

الجنة (البستان) ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [القلم :17-29]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ :15-17]. وقول النبي ﷺ [إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته] خ م فهم أهون على الله ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن :41-44]. ولو كان الذي قاله صحيحًا لم يكن الله ليعاقب أحدًا ممن كان أكثر مالًا منه، ولم يكن ماله دليلًا على محبة الله له كما قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ :37]. وقال ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون :55-56].

قال تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص :79-80].

يخرج قارون في زينته وأبهته، وبريق ذهبه وفضته يتلألأ من حوله في مسيرته، والناظرون مفتونون بغناه وثروته، فتنجذب إليه أفئدة الذين لا يعلمون، وتشد إليه قلوبهم رحالها، ويغرقون في التمني والحسد؛ يتمنون مال قارون وحال قارون، ويتشهى المحرومون، ويحسدون قارون، بينما أهل العلم والإيمان يترفعون ويستعلون بإيمانهم، ويُذكّرون إخوانهم المنبهرين في ثقة ويقين.

وهكذا في كل زمان ومكان تستهوي طائفة من الناس، وتبهرها زينة الدنيا وبهرجها، فلا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأجل وأكرم، فلا يسألون ما الثمن الذي اشترى به صاحب الزينة زينته؟ ولا يسألون ما الوسيلة التي نال بها هذا العرض من الدنيا؟ وإنما جل همهم واهتمامهم: يا ليت لنا مثل ما أُوتي فلان من مال أو عرض أو جاه، يسيل لعابهم، ويشغل ليلهم ونهارهم حظ المحظوظين، ولا يهم إن كان الثمن باهظًا أو كانت الوسيلة دنيئة.

وإنما أهل العلم والتقوى لهم ميزان آخر يزنون به ما حولهم، ولهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع، فهم أهل العلم الصحيح، والإيمان النقي التقي، وهاهم قد أفصحوا عن فهمهم، وما الذي تتعلق به قلوبهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: 80]. ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون، وما عند هؤلاء المتعلقين بالدنيا الفانية الزائلة. والصابرون هم الذين يتطلعون إلى ثواب الله، فهم على فتنة الحياة وإغرائها صابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون. صابرون على مقاييس الناس المجحفة ومعاييرهم الباطلة. قال ﷺ: [وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر] (خ م)، وقال ﷺ: [لو كانت الدنيا تُساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء]، وما أحسن ما قاله بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات!. وتبلغ الفتنة ذروتها، وتتهاوى أمامها النفوس الضعيفة المريضة، والفتنة ظاهرة بادية مستمرة أمامهم لا تنقطع ولا تتوقف ولا تنتهي، تشغل الألباب، وتجذب الأنظار، وتتلهف عليها القلوب، حينئذٍ تتنزل رحمة ربك جلَّ وعلا على عباده الضعفاء حتى لا يتهاوى ضعفهم أمام قوة هذه الفتن، وشدة جاذبيتها.

قال تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: 81]. هكذا في آية معجزة ولحظة واحدة ولمحة خاطفة ابتلعته الأرض هو وداره التي خزن فيها أمواله، والتي طالما تعالى بها واستطال وبغى وظلم.. ذهبت الفتنة

المضلة وغابت في باطن الأرض، التي كثيرًا ما وطأها متخايلًا متكبرًا متعاظمًا متفاخرًا.. ذهب صاحب المال الكثير والجاه العريض ضعيفًا وحيدًا لا مال ولا أهل ولا خدم ولا حشم.. ذهب الغرور والكبرياء بضربة ماحية مذهلة أفاقت الغافلين المنبهرين المفتونين، يقول ﷺ: [بينما رجل يمشي في حُلة تُعجبه نفسه، مُرجّل شعره، يختال في مشيته، إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] (خ م)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان موسى يقول لبني إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم في أموالهم، فشق ذلك على قارون فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رجم، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيرجم فنستريح منه. ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا! فقالوا: فقد زنيت، فجزع. فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت. فأقرت بالحق، فخر موسى ساجدًا يبكي، فأوحى الله إليه؛ إني أمرت الأرض أن تطيعك أمرها بما شئت. فأمرها فخسفت بقارون ومن معه. قال الحافظ في (الفتح) (6/ 448): أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: 82].

أين الذين تمنوا بالأمس مال قارون وحال قارون؟ وأين أمانيهم؟ إنهم الآن يحمدون الله تعالى أن لم يستجب لهم، وذلك حينما رأوا النهاية السريعة المفجعة، وانتبهوا إلى أن الثراء والغنى ليس دليل على رضا الله، يقول ﷺ: [إنَّ الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنَّ الله يعطي المال مَنْ أحب ومَنْ لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا مَنْ يحب] (حم) فهو سبحانه يوسع الرزق على مَنْ يشاء من عباده ويضيقه، وذلك لأسباب أخرى غير الرضى والغضب، إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء، وقارون لم ينطق بكلمة الكفر، والكافرون لا يفلحون، ولكنه أغتر بماله، ونسب تحصيله وجمعه إلى ما عنده من العلم، ونسى ربه الذي أنعم عليه بنعمه الغزيرة الكثيرة وجحد، فسلكه ذلك في عداد الكافرين.

قال تعالى عن الظالمين أنفسهم، وعن شر ما كنزوا وجمعوا، وبخلوا به في أخراهم﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة:34-35]. ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴾ [مريم:77-80].

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة:30-37].

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[العنكبوت:39-40]. فخسف الله بقارون، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين. وفي (مسند أحمد) عن ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: [مَنْ حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومَنْ لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف]. قال ابن كثير (3/ 399): وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا ﴾ وهم عاد وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية الهبوب جدا تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى

بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحًا ومَنْ آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم والله أعلم.اهـ

قال تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83]. ختام كريم مع نهاية قصة قارون التي تخاطب أهل الدنيا المغترين بأحوال المنعمين فيها بأنواع الترف والرفاهية، وهؤلاء الذين يحسدون الناس على ما وسع الله به عليهم من ثروات الدنيا الزائلة الفانية بينما الأولى بهؤلاء جميعًا أن يتدبروا حال قارون وكيف أهلكه ماله وهلك معه.

فالعبرة ليست بالمال الذي يعطيه الله لمن أحب ولمن لا يحب، إنما بالإيمان والعمل الصالح الذي يلزمه، ويحرص عليه أهل التقوى لأجل الآخرة الباقية التي جعلها الله لعباده جزاءً موفورًا قال تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر:73-74]. وفي البخاري قال ﷺ [قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحون مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر]، قال ﷺ: [واقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]. وذكر صاحب التحرير: عن الفضيل بن عياض أنه قرأ هذه الآية ثم قال: ذهبت الأماني ههنا.. أي: أماني الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء، وأنَّ المؤمنين كلهم ناجون من العقاب، وهذا قول المرجئة قال قائلهم:

كنْ مسلمًا ومن الذنوب فلا تخفْ حاشا المهيمنُ أن يُري تنكيدا
لو شاءَ أنْ يُصليكَ نارُ جهنم ما كانَ ألهم قلبَك التوحيدا

والآن اقرأ القصة بتدبر:

قال تعالى ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[القصص: 76-83].

***

الخروج الأخير

لما تمادى الملأ على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ؛ أقام الله على آل فرعون الحجج القاهرة، وأراهم الخوارق الباهرة، وهم لا ينتهون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا قليل من القبط الفراعنة، فقد قال سبحانه ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:83]. والذرية هم شباب من قوم فرعون آمنوا على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، ففرعون الجبار العنيد المسرف الجاهل الظالم كان قد عاث فسادًا وظلمًا وتكبرًا ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:24]. وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:38]. قال ابن عباس: «فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه» ابن كثير (2/ 409).

حينها قال موسى ﷺ لقومه رابطًا بين الأحداث على أرض الله وبين الطاعة والعبادة لله؛ فإن كان فرعون كفر وطغى وتكبر وأسرف، فليس معنى ذلك أنه لا بد من هلاكه، فإن هذا غير كاف لإهلاكه، فإن ابتلى الله عباده بظلم الظالمين وجهل الجاهلين وإسراف المسرفين، فإن ذلك لابد وأن يلقي عند الطائعين العابدين المؤمنين مزيد من الطاعة والإخبات والإقبال على الله جل وعلا، فليس بمعصية العاصين يرتفع البلاء، وإنما لابد من عبادة العابدين وطاعة الطائعين، كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:55]. وهذا ما طالب به موسى قومه، قال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس:84-86]. فحقيقة الإيمان بالله: أن تسلم له الأمر كله، فأمرهم موسى

بالتوكل على الله، والاستعانة به، والالتجاء إليه تصديقًا لإيمانهم، فلما فعلوا ما أمروا به وامتثلوا جعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. ودعوا ربهم ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: 85]. فلا تظفرهم بنا ولا تسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا علينا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، وخلصنا برحمة منك من الذين كفروا بالحق وستروه، والمؤمن لا يتمنى البلاء فيسأل الله العافية والسلامة، ولكنه يثبت عند اللقاء، كما قال ﷺ: [**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاصبروا**] (خ م).

قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87]. والوحي بذلك كان إعدادًا وتهيئة لبني إسرائيل للرحيل. وما أوحى الله تعالى به لموسى ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ وضح فيه أول بشائر الخروج، فالمطلوب وحيًا هو الخروج من بيوت بني إسرائيل بالمدينة، وبناء بيوت جديدة خارجًا بأرض مصر بعيدًا عن المدينة في تحدٍ واضح للهيمنة الفرعونية على أمور البلاد والعباد، والعقيدة هي السلاح الأول والأخطر في المعركة، ولذلك أمرهم سبحانه بالإعداد الروحي ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بكثرة الصلاة وإحسانها كما قال تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 45]. واعتزال الكافرين والجهال والظالمين حيث أنتنت البيئة، ولم تعد صالحة للسكنى أو العبادة، وحين ذلك يستبشروا بموعود الله بالنصر والتمكين ووراثة الأرض ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: 5].

ولما يأس موسى عليه السلام من استجابة فرعون وقومه لدعوة الحق، وأوحي إليه بذلك كما أوحى تعالى إلى نوح عليه السلام ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36]. فحينها دعا عليهم نوح، وهنا دعا موسى ربه سبحانه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ

أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:88-89].

دعوة موسى كليم الله على فرعون عدو الله؛ غضبًا لله ولدينه، فدعا على دنياه التي اغتر بها، وسولت له نفسه أنه بها إله يُعبد من دون الله، فصدَّ عن السبيل، وضلَّ وأضل.

فلا يغتر أحد بالدنيا إن أعطيت للعصاة، ووسع بها عليهم، كما يقوله مَنْ يرى الدنيا واسعة على العصاة والظلمة والفجرة ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:79]. يرى الأموال تتدفق في أيديهم وأيدي أبناءهم ينفقونها في غير وجهها، بل ولا يدرون أين وكيف ينفقونها، بينما الكثير من العباد لا يجدون إلا الكفاف أو دونه، فربك هو المعطي المانع؛ يعطي بحكمته ويمنع بحكمته، يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وكله بعدل وكله بقضائه وقدره، فلا تعترض على مشيئته وعطاءه، وارضي بقضائه.

واحمد الله أنه لم يضلك بفتنة المال كما فتن المفتنون بالأموال والأولاد، فلا تغتر بما يأكلون وما يشربون، وما يلبسون وما يركبون، وما يسكنون وما ينفقون!! قال تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:55].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.. أي: أهلكها؛ فكانت حجارة ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.. فصارت قاسية غلف لا تعرف المعروف والإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.. وقد كان، واستجاب - جَلَّ وعلا - دعوة موسى الغاضبة لله تعالى ولدينه وحققها في هؤلاء الظالمين، كما استجاب لنوح في دعوته على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:26-27]. ولهذا قال تعالى مخاطبًا موسى حين دعا على فرعون، وأمّن هارون على دعائه ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.. بالاستعجال لوقوع العذاب، فذلك لا يكون إلا بقدر وحكمة تدبير العليم الخبير.

قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:52]. ها هو قد حان موعد الخلاص لبني إسرائيل، والهلاك لفرعون وجنده، النهاية الحتمية لثبات المؤمنين على الحق، وإمعان الظالمين في الظلم ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:21]. نزل الوحي يأمر موسى أن يقود قومه؛ وقد سماهم عبادي، ناسبًا إياهم إلى نفسه، وهي والله أعلم ليست نسبة تشريف لصدق عبوديتهم وإنما نسبة خلق وملك وقهر كسائر العباد كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:18]. وأمره أن يسري بهم، والإسراء السير ليلًا، وجاء ذلك صراحة في قوله تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان:23]. وأنبأهم أن فرعون لا بد وأن يتبعهم، وأنه سيكون من وراءهم هو وجنوده، وأمره سبحانه أن يقود قومه إلى ساحل البحر (عند خليج السويس حاليًا) ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:77]. وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من قبط المدينة وجند فرعون حليًا كثيرًا لعيد من أعيادهم، فخرجوا به معهم، مما أزاد حنق فرعون وملئه عليهم.

قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء:53-56]. أعلن فرعون التعبئة العامة في صفوف المصريين، وأرسل في المدائن أتباعه يجمّعون له الجنود ليدرك موسى وقومه، ويفسد عليهم تدبيرهم، وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير القوي القادر المتين، وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند وينبهون الناس لأمرهم حتى يقطعوا عليهم كل سبيل، وهذا التجميع يوحي بقوة موسى وقومه المعنوية، ومدى الرهبة والخوف عند فرعون، حتى أن الملك الإله - كما يزعم - هرع إلى التعبئة العامة، ولأن ذلك لا يتفق مع الهيبة الملكية، فيتظاهر بالتهوين من شأن المؤمنين مع موسى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ والشرذمة القلة المحتقرة، ولكنهم يأتون أفعالًا وأقوالًا تثيرنا وتغيظنا وتغضبنا، ولكنا متنبهون لهم ولخطرهم، ونحن لهم بالمرصاد ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ مترقبون لهم، ومسكون بزمام الأمور. إنه حذر الخائفين على الكراسي والعروش أن

تتهاوى أمام الحق، وهنا تظهر حيرة الباطل، وتخوفه من مواجهة أصحاب العقيدة الراسخين الثابتين على الحق، فليس إلا البطش والتنكيل والتهديد والوعيد دفعًا لأدنى الاحتمالات.

قال تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:57-59]. فكان خروجهم وراء موسى وقومه هو الخروج الأخير؛ لأنه كان إخراجًا لهم مما كانوا فيه من رغد العيش والنعيم والرفاهية، وانتزع منهم ملكهم وعزهم وسلطانهم وأموالهم وجاههم، وأعطي ذلك كله لقوم آخرين ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الدخان:28]. وأما الذي ورثه بنو إسرائيل فهي أرض الشام كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:137]. قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:26].

واسمع إلى هوانهم على الله عَزَّ وَجَلَّ حيث قال ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:29]. لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، وذهبوا ذهاب النمال بعدما كانوا الجبابرة الذين يطأون الناس بالنعال، ذهبوا غير مأسوف عليهم.. وياليت الجبابرة الظلمة في كل مكان وزمان يدركون ويشعرون ما في هذه الكلمات، حتى يعلموا قدر هوانهم على ربهم جل وعلا؛ الذي يمهلهم ليزدادوا إثمًا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، كما قال ﷺ: [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] وتلا قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:102]. (خ م).

نعود إلى الجيش الفرعوني الظالم الآثم بقيادة رأس الطغيان والجبروت، وسيرهم خلف موسى وقومه المتوجهين إلى ساحل البحر شرقًا بوحي وتوجيه من الله، قال سبحانه ﴿ فَأَتْبَعُوهُم

مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 60-62]. أصبح الصبح، وسار فرعون بجنوده وراء بني إسرائيل يتبع خطاهم ويقتفي أثرهم؛ تحقيقًا لما أوحى الله تعالى إلى موسى، حتى أدركهم عند ساحل البحر، ورأى كل فريق صاحبه، وانتهى الحال إلى هذه الصورة التي تضطرب لها النفوس، وكادت تنخلع لها قلوب بني إسرائيل؛ موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين، وهم لا يستطيعون خوض البحر، وليس معهم سلاح يدفعون به عن أنفسهم، ولا سبيل إلى النجاة، فقد ضاقت السبل؛ إلا سلوك البحر وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، ثم الجبال عن يسارهم وعن أيمانهم شاهقة مرتفعة، بينما اقترب فرعون وجنوده شاكين السلاح، وكلهم حنق وغيظ يطلبون بني إسرائيل الذين فروا منهم ولا يشعرون، البحر أمامهم والعدو خلفهم.

﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾.. شكوا إلى نبي الله ما هم فيه من الخطر العظيم والهلاك المحقق، وهذا كلام المقربين من موسى ﷺ يعبرون عن حال قومهم وحالهم؛ إنما هي دقائق معدودة تمر، ثم يهجم هؤلاء الموتورون الحانقون، وتكون الخاتمة المخيفة التنكيل و القتل، وهذا كله لم يُقنّط موسى أو ييأسه من تأييد الله وفرَجه، وقد سبق وطمأنه ربه بالنجاة والسلامة من فرعون وجنده ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ فلم يخف موسى ولم يشك لحظة في قدرة الله وصدق وعده، وإن كان لا يدري كيف النجاة! فيصيح بها بين ظهراني قومه يذكرهم ويطمئنهم بكل قوة وثقة وحزم ويقين وشدة توكيد.. كلا لن نُدرك ولن نهلك ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

فلما تفاقم الأمر واشتد الكرب وضاقت الدائرة، واقترب فرعون وجنوده، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، موقف عصيب كادت أن تنخلع له قلوب بني إسرائيل، حينها أوحى الحليم الكريم، رب العرش العظيم إلى عبده موسى الكليم ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: 63]. فعندما ضاق الأمر اتسع، فأُمر موسى ﷺ أن يضرب البحر بعصاه لتنفرج الشدة، ويأتي الفرج في اللحظة

الأخيرة، فينبثق شعاع الأمل المنير في ليل اليأس والكرب البهيم، وينفتح باب النجاة من حيث لا يحتسبون، وكانت المعجزة وحدث المستحيل، وانكشف بين فلقتي الماء من ضربة العصا طريقًا كالطود العظيم في قعر البحر.. خُلق في لحظة، وأرسل الله سبحانه ريح الدبور تجفف لهم الطريق حتى صار يابسًا كوجه الأرض ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:77]. ليقتحمه بنو إسرائيل مع موسى نحو حياة جديدة ومرحلة جديدة من مراحل حياتهم. وهكذا يظهر دور العصا الآية والهبة الربانية لموسى ﷺ عظيمًا كريمًا في تحولات وتقلبات وتغيرات أحوال بني إسرائيل منذ بعث موسى وما بعد ذلك، ولا يزال للعصا دور بعد النجاة!

بينما وقف فرعون بجنوده مبهوتًا مشدوهًا يراقب ذلك المشهد الخارق والحدث العجيب والآية الباهرة، وهو على حافة البحر من الناحية الأخرى في مائة ألف فارس..

وداخله الشك فيما هو فيه، وما هو مقدم عليه، وكاد يتراجع ويعود أدراجه، لكنه جاء بقدر، وجاء إلى قدر الله فيه، كيف يعود؟! وهيهات ولات حين مناص، فتحمله نفسه المطبوعة على الكفر وسجيته الكافرة الفاجرة إلى أن يتظاهر بالشجاعة والصلابة والإقدام، ولا يمنع أن يتوجه لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله أعانوه: انظروا كيف انشق لي البحر لأدرك عبيدي الآبقين الخارجين عن طاعتي!! ويتقدم تارة ويحجم تارات، لكنه مسوق إلى قدر الله، فلا يملك إلا المضي، فقد نفد القدر واستجيبت الدعوة!!

قال تعالى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:90-92]. فلما نجا موسى ﷺ ومن معه عن آخرهم، همَّ أن يعيد البحر كما كان بأن يضربه بعصاه لكي لا يسلكه فرعون وجنده فيصلون إليهم، ولكن هناك أمر آخر يدبره مَنْ يقول: كن فيكون، فأوحى الله إلي موسى ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ

مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: 24]. أي: اتركه ساكنًا على هيئته وحاله، ولا تغيره عن صفته التي هو عليها، والطريق البحري كما هو ممهد بين فلقتي البحر لمرورهم، وجاء جبريل ﷺ على فرس وديق حائل، كما ذكر أهل التفسير، فمر إلى جانب حصان فرعون، فحمحم إليها، واقتحم جبريل وراءه، ولم يبق فرعون يملك من أمر نفسه شيئًا، فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلا ألحقه بهم، فلما خاض فرعون زعيم الكفرة وجنوده البحر عن آخرهم، أطبق الله عليهم البحر، فغرقوا أجمعين لم ينجُ أحد من هؤلاء المجرمين الظالمين السفهاء الكفرة.

قال تعالى ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: 78-79]. وقال ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ [يونس: 90]. تقدم فرعون متبعًا بني إسرائيل، فيالخيبة المتابعة حينما تكون ظلمًا وعدوانًا، فقد لاقوا من الأهوال ما يصعب وصفه لعظيم ما لاقوا، وقاد فرعون قومه إلى سوء العاقبة والهلاك وأضلهم أيما ضلال، فلما عاين فرعون اللئيم الغرق، وأدرك أنه هالك لا محالة، وداهمه الموت؛ أناب حينئذٍ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسٌ إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: 84-85].

وما حكاه الله عن فرعون من قوله حين أدركه الغرق ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 90]. من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ، ولم يمنع معاينة الموت فرعون عن كبره وتعاليه وعجرفته المتغطرسة فقال ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ يستكبر حتى في لحظاته الأخيرة عن الاعتراف بأنه ليس بإله كما كان يخرف، وإنما الإله الحق هو الله الذي لا إله إلا هو، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس قال (لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه،

فيضرب به وجهه فيرمسه) حب طب يبغضه جبريل ويمقته لفعله برسول الله موسى والمؤمنين معه، و[أوثق عرى الإيمان؛ الحب في الله، والبغض في الله عَزَّ وَجَلَّ] (طب) و(الصحيحة1728).

وفي قوله تعالى ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:91]. استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك؛ لأنه -والله أعلم- لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:27]. قال الله ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام:28]. فلم ينفعه إيمانه؛ لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي كما في قوله تعالى ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:18].

قال ابن كثير (2/ 412): وفي قوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:92]. قال ابن عباس وغيره من السلف: «إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويًا بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض – وهو المكان المرتفع – ليتحققوا موته وهلاكه، وقوله ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك، وأن الله تعالى هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء. ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون بها» اهـ

وقال صاحب التحرير: واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أن فرعون الذي أرسل إليه موسى، والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق. وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة. وقال: ومن دقائق القرآن قوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ وهي عبارة لم يأتِ فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي. والظاهر: أن الأمواج ألقتْ جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا

يتقصون آثاره ممن بقوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه فرفعوه إلى المدينة وكان عبرة لهم. أهـ

وفي البخاري عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: [ما هذا اليوم الذي تصومونه؟] فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه: [أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا]. (خ) قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

قال تعالى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: 51-56].

قال ابن كثير (4/ 132-133): يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه، وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: 23-25]. وقوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن أم ههنا بمعنى بل، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أمّا أنا خير من هذا الذي هو مهين» قال ابن جرير: ولو صحت هذه

القراءة لكان معناها صحيحًا واضحًا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ على الاستفهام.

(قلت ـ ابن كثير) وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذبًا بينًا واضحًا فعليه لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، ويعني بقوله مهين كما قال سفيان: حقير.

وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر قال السدي ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي: لا يكاد يفهم، وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني عيي اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى ﷺ من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقوله ﴿مَهِينٌ﴾ كذب بل هو المهين الحقير خلقة وخلقًا ودينًا، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد، وقوله ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء أيضًا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة فقد سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:36]. وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يُعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء وهكذا قوله ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي قال ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه نظرًا إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ولهذا قال تعالى ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي

استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ قال الله تعالى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: آسفونا أسخطونا، وقال الضحاك عنه: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضًا، ومجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة والسدي، وغيرهم من المفسرين.

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: [إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له] ثم تلا ﷺ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وأيضًا بسنده عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله ﷺ فذكر عنده موت الفجأة فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ثم قرأ ﷺ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: وجدتُ النقمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز: سلفًا لمثل من عمل بعملهم، وقال هو ومجاهد: ومثلًا أي عبرة لمن بعدهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.اهـ

والآن اقرأ في تدبر وخشوع الآيات المباركات

قال تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا
أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ
وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 83-92].

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ
وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾
[الإسراء: 101-103].

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا
تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: 77-79].

قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم
مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)
فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤)
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: 52-66].

قال تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣)
وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)
وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: 22-32].

قال تعالى ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: 38-40].

***

اجعل لنا إلهًا

كانت نجاة بني إسرائيل وخروجهم من مصر مع موسى ﷺ، وغرق فرعون ومَنْ معه أجمعين مع إخراجهم مما كانوا فيه من جنات ونعيم علامة فاصلة في تاريخ وحياة بني إسرائيل؛ فسنتهم تبدأ من هذا التاريخ، وأعيادهم ترتبط بهذا التاريخ، بل وعباداتهم كذلك مرتبطة بهذا التاريخ. فما الذي حدث بعد هذه الحادثة في مصر؟ ومع بني إسرائيل، ومع النبي الكريم الكليم موسى ﷺ؟.

لما تمرد فرعون وملأه، وردوا الآيات النازلة، والمصائب المتلاحقة، وأعرضوا عن الإيمان والاستسلام لله مع موسى ﷺ، وطال الأمد عليهم وهم على حالهم؛ أخرجهم الحق جلَّ وعلا إخراجًا لا عودة بعده، وقتلهم شر قتلة قال تعالى ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 136]. فهذا هو العذاب، وهذه هي أسباب انتقام الجبار سبحانه انتقم لربوبيته ولوحدانيته التي ادعاها فرعون الخبيث، وانتقم لعباده الذين استذلهم فرعون وملأه، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 41-42]. فالتكذيب والغفلة هما سبب الهلاك في الدنيا والآخرة، فالذين يُكذبون بآيات الله سواء في ذلك الآيات الكونية أو الشرعية، فلا يؤمنون بالكوني ولا يعملون بالشرعي، والغفلة عنها حيث لا تدبر ولا تفكر، وكأنما خلقنا هملًا وعبثًا لغير ما فائدة ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115]. وإنما خلقنا لغاية جليلة هي عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 56-58].

قال تعالى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137]. فانظر إلى عظيم حكمة الله وتقديره، فأين الجبابرة والفراعنة، ذهبوا وذهبت دولتهم وأورث الله الخير لمن هو أهله، فجبر الله كسرهم،

وأعزهم بعد ذلهم، لما آمنوا وصبروا، فنجاهم من عدوهم، وقتله وجنوده أمام أعينهم، فآمنوا بغرقهم وأمِنوا عودته، ثم أورثهم الأرض التي بارك فيها سبحانه، وشمل ملك داود وسليمان مشارق الأرض ومغربها، ولم يتم ذلك بين لحظة وأختها، وإنما احتاج الأمر إلى تحمل وصبر طويل إلى أن جاء النصر والتمكين بعد العذاب والتنكيل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وصدق وعد الله ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 5-6].

قال تعالى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 138-139]. وبدأت الرحلة بعد النجاة، وجاءت المهمة الأشق والتي عاني فيها موسى ﷺ أشد العناء، فهو لا يواجه اليوم طاغوت فرعون، وإنما هو يواجه معركة أشد وأقسى وأطول أمدًا، معركة مع النفس البشرية، فنفوس بني إسرائيل أفسدتها رواسب الذل والقهر، لهذا امتلأت جبنًا والتواءً وقسوةً، وضعفت عن تحمل المسئولية والتبعات، وبعبارة مختصرة (نفوس مهلهلة) ولا أفسد لطبيعة النفوس من الذل والقهر حيث عاشوا في هذا العذاب طويلًا في ظل الوثنية الفرعونية؛ يقتّل فرعون أبناءهم، ويستحيي نساءهم وقتما شاء وبلا جريرة ولا ذنب غير التسلط والتسخير والإذلال، إنَّ التعذيب والضرب الواقع على النفس البشرية يخرجها عن فطرتها، ويصنع منها نفسًا أخرى لا تعرف إلا الخوف والجبن والالتواء والهرب، وقد كان عمر ﷺ يتحاشى ذلك، ويأمر عماله ويوصيهم بالناس: «ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم» وهذا هو الفهم الدقيق لطبائع النفوس، ولقد ضربت أبشار بني إسرائيل في أخف حالات الأذى، وكذلك ضربت أبشار المصريين حتى ذلوا هم أيضًا، واستخفهم فرعون، ضربت أبشار المصريين في طاغوت الفرعونية، ثم في عهود الطاغوت

الروماني، ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام الذي جاءهم بالحرية وعبدهم عبيدًا لله لا للبشر.

وموسى صاحب الدعوة ﷺ أمامه مهمة جليلة ألا وهي استصلاح نفوس بني إسرائيل التي أدمنت الذل والخضوع والمهانة، فألفت وأدمنت اللف والدوران، وأدمنت الوحل الذي تمرغت فيه طويلًا، فلا تريد النهوض، ولا تريد الانطلاق، ولا تريد التحول، حتى وإن جاءها النور، فسرعان ما يصيبها الانتكاس وتريد العودة إلى الظلمة.

قال تعالى ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ فهو محض فضل من الله جلَّ وعلا لا دخل لأحدٍ فيما حدث لا موسى ولا غيره، بل هو من عند الله؛ وكان نبيهم وزعيمهم هو السبب في إنقاذهم ونجاتهم، وهاهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنيتها، وما إن جاوزوا البحر ومضوا مبتعدين عنه حتى وقعت أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138].

إنَّ القرآن العظيم عرض عرضًا دقيقًا، ووصف وصفًا صادقًا، وبيّن بيانًا أمينًا لطبيعة بني إسرائيل ونفوسهم؛ عزائم خائرة، ونفوس ضعيفة ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى تنتكس وترتكس وترد على أعقابها، فكان حتمًا أن تتكشف طبيعتهم، فهاهم ما إن يمروا بقوم عاكفين على أصنام لهم حتى نسوا ما تلقوه من الآباء والأجداد، بل ونسوا ما تعلموه أكثر من عشرين سنة منذ أن جاءهم موسى ﷺ بالتوحيد، بل إنهم نسوا ـ وهذا من أعجب أمرهم ـ معجزة اللحظة الأكثر تأثيرًا في النفس، والأقرب حدثًا، والتي أنقذوا فيها من فرعون وملئه، وأهلكت هؤلاء جميعًا! وهؤلاء عبّاد أوثان، وكم استذلهم عباد الأوثان الفراعنة!! ينسون ذلك كله، وكأنها عدوى أصابتهم، أو كأنهم أفاقوا من غفلة خالفوا فيها طبائعهم فآمنوا، ثم تنبهوا فأرادوا العودة إلى طبائعهم الفاسدة، فيتوجه بعضهم ويطلبون من نبيهم أن يقوم هو بنفسه داعية التوحيد والعبودية لله

أن يتخذ أصنامًا وأوثانًا آلهة!! يريدون أن يشاركهم حمقهم وسفههم، ولو فعلوا ذلك بأنفسهم لكان أهون لسبق ضلالهم، فالعجب أنهم يطلبون من موسى رسول رب العالمين الذي أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد والإيمان، يريدونه أن يتخذ لهم وثنًا يعبد من دون الله!! فما أعجب جهالة هؤلاء القوم وبجاحتهم وانحرافهم!!

ويغضب موسى ﷺ غضبة رسول يغضب لربه سبحانه، ويُغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه، فيقول ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فنسبهم إلى الجهل والجهالة، الجهل الكامل، والجهالة إلى أبعد الحدود لأن العقل والعلم يقودان إلى توحيد الله جل وعلا، ولا يرد ذلك إلا الجهال والحمقى، وكأن بني إسرائيل سألوا هؤلاء لما يعبدون هذه الأصنام - وهي على شكل وصور البقر-؟ فزعموا أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الحاجات فصدقوهم في ذلك، وسألوا نبيهم الكليم الكريم أن يجعل لهم آلهة كما لهؤلاء مع قرب عهدهم، وتأثر بعضهم بعباد الأوثان من عجول وغيرها من المصريين، فبين لهم سوء عاقبة هؤلاء الوثنيون الذين لا يعقلون، الضلال الذين لا يهتدون ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 139]. إنَّ الحياة البعيدة عن توحيد الله وعبادته حياة فاسدة تالفة منحرفة، وكل عمل فيها محكوم عليه بالبطلان والحبوط. وفي قوة موسى وصراحته يقول ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 140]. لأجل أن يفيقوا ويتنبهوا مما هم فيه من جهل وضلال وحمق وسفه، وذكرهم بتفضيل الله لهم على أهل زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذي بين أظهرهم، وإنجائهم من قبضة فرعون الجبار وإهلاكه، وتوريثهم ما كان لفرعون وملئه من النعم.

والشيء بالشيء يُذكر وإلا ما ذكرت قصة بني إسرائيل في الكتاب إلا للعظة، ومقارنة أحوال أهل الباطل في كل زمان لاجتنابها والاعتبار، فرسولنا ﷺ تذكر أخاه موسى في موقف يقترب شبهًا من حال بني إسرائيل؛ وذلك بعدما انتهى ﷺ لتوه من فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، وانطلق خارجًا منها لملاقاة هوازن التي تهدد الإسلام بجمعها الكبير وحقدها المرير، فخرج إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا معه مكة وعددهم عشرة

آلاف، وازدادوا ألفين - وهم حديثو العهد بالإسلام أو مَنْ يعرفون بمسلمة الفتح - فمروا في طريقهم إلى حنين لملاقاة هوازن بشجرة ذكرت هؤلاء بعهدهم في الجاهلية، واعتقاداتهم فيها، حيث كانت لهم سدرة يتبركون بها، يعلقون بها أسلحتهم، ويعظمونها لاعتقادهم فيها النفع بالنصر في قتالهم، يقال لها: (ذات أنواط) روى ذلك أبو واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: [الله أكبر؛ إنها السُنن، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركبن سُنَن من كان قبلكم] (أ ت) فحذَّرهم ﷺ تحذيرًا شديدًا من الاقتداء ببني إسرائيل، والتشبه بهم في الأقوال فضلًا عن الأعمال الموصل حتمًا إلى المشابهة لهم في الاعتقاد، وكلًا قد طلب ما يعبده من دون الله، فاختلفت الألفاظ والمعنى واحد، فخاف عليهم الشرك بالله الذي قد يكون فيما يستحسنه المرء، ويظنه خيرًا ونفعًا لا ضرر فيه.

والآن اقرأ الآيات متدبرًا:

قال تعالى ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ
﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ
مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: 136-141].

اذهب أنت وربك فقاتلا

بعدما تبين كيف انحرفت الفطر، واعوجت نفوس بني إسرائيل، وكيف أظهروا طبائعهم الملتوية الخبيثة، حين سألوا موسى إلهًا كما لهؤلاء الوثنيون الذين لقوهم أول نجاتهم وذهابهم إلى جهة الشام، وكيف غار موسى ﷺ لله ولعقيدة التوحيد.

وليس هذا هو الموقف الأخير من بني إسرائيل مع نبيهم، ولكنه الأخطر الذي كشف دواخل القوم الفاسدة، و طبائعهم المتكسة، وقدرتهم على التلون، واستعدادهم للنكوص عن الوعد وعن الحق.

وموقف آخر لبني إسرائيل مع موسى ﷺ حيث بادئ موسى قومه، قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:20].

﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.. فهم كثير ما يغفلون عن ذكر نعمة الله فلا يشكرونها، وإن نسبوها لم ينسبوها إلى واهب النعم، وإنما ينسبونها إلى أنفسهم ومهارتهم وقدراتهم، فكذبوا وجحدوا، ولهذا نجد في كل المواقف والمواجهات بين موسى ﷺ وقومه تذكيرًا بأفضال الله عليهم، وإنعامه وإكرامه لبني إسرائيل على ظلمهم وجهلهم وتركهم الشكر، كمثل قوله ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:47]. ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة:64]. ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف:137]. ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:140]. وغيرها من الآيات، فنعم الله على هؤلاء الظالمين كثيرة؛ أولها إرسال الرسل إليهم انتهاء بموسى وعيسى، وآخرها نجاتهم من بطش فرعون وظلمه مع غرقه لعنه الله أمام أعينهم، ورغم هذا كله، فموسى ﷺ

يذكرهم ببعض هذه النعم والآلاء التي جمعت خيري الدنيا والآخرة بذكر ثلاث من أعظمها وأجلها ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾.. فكلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن إبراهيم ﷺ إلى من بعده، وكذلك كان فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، ويحذّرون نقمته، حتى ختموا بعيسى ﷺ. وهاهو موسى بين أظهرهم حيًا يوجههم ويعلمهم ويهديهم طريق الرشد والصواب.

﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾.. وهذا خير الدنيا حيث صار كل منهم يملك نفسه بعدما كان مملوكًا مستعبدًا في بلاد مصر، فصار يملك نفسه وماله وأهله، وقد صح القول عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ قال: «الخادم والمرأة والبيت»، وجاء رجل يسأل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: «ألكَ امرأة تأوي إليها؟» قال: نعم. قال عبد الله: «ألكَ مسكنًا تسكنه؟» قال: نعم. قال: «فأنت من الأغنياء» فقال الرجل: إن لي خادمًا. فقال: «فأنت من الملوك!» وقال الحسن البصري: وهل المُلك إلا مُرَكبٌ من خادم ودار. وهذا في حديث النبي ﷺ: [من أصبح منكم معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها] (ت ح ب).

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.. يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية:16].

وقال موسى لقومه ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهذه الأمة أشرف وأفضل منهم عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًا، وأعظم مُلكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأفرادًا، وأوسع مملكة، وأروم عزًا قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة:143]. وقال جلَّ وعلا ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:110]. ثم بعد هذا البيان والتذكير يُطالبهم موسى وقد توجهوا إلى الشام واقتربوا من بيت المقدس، بمجاهدة الكافرين الذين قد دنسوا هذه الأرض المقدسة الطاهرة، والتي كانت في أيديهم في زمن أبيهم يعقوب قبل أن يتركها مع أبنائه، ويرحل إلى ولده

يوسف في مصر حيث استقروا بها، ولم يخرجوا منها إلا مع موسى ﷺ، وعادوا في طريقهم إلى الأرض المقدسة، والتي سكنها بعدهم قوم عمالقة جبارين، فأمرهم موسى ﷺ بالدخول إليها، ويقتال أعدائهم، وبشّرهم بالنصر عليهم؛ فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فقال ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: 21]. فأمرهم بدخول أرض الله التي بارك فيها وقدسها -وهي أرض الشام- وكتب لهم أن يدخلها المؤمنون الصالحون منهم، تحريضًا لهم على دخولها وهو وعد من الله ووعد الله حق ويقين، وحذّرهم من الارتداد على الأعقاب بالفرار عن القتال، ففي ذلك الخسران المبين.

ولكن اليهود هم اليهود في كل مكان وزمان؛ الجبن والنكوص على الأعقاب، ونقض المواثيق، والتمحل بالأعذار﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة: 22]. فاعتذروا عن القتال، عن طاعة أمر نبيهم ومنقذهم بأنه يوجد في الأرض المقدسة جبارين عتاة كفرة متمردين لهم خلقة عظيمة وأجسام هائلة وقوة شديدة، فلا نقدر على مقاتلتهم أو مقاومتهم، فلا طاقة لنا بهم، لذا فنحن لن ندخل هذه البلدة حتى يخرج منها هؤلاء، فإن خرجوا حينها نبدأ في الدخول وطاعة أمرك، مع أنهم عاينوا هلاك فرعون وجنوده أجمعون، وكانوا أشد بأسًا وأكثر جمعًا وأعظم جندًا.

وسبحان الله! فموسى لم يطلبْ منهم ولم يأمرهم إلا بالدخول لا غير، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا لربما كان ذلك داعيًا لرفع الحرج أو لدخول لا ممانعة فيه ولا قتال، ولكن الطبع غلاب فأخبر ربنا عن طبائعهم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: 46]. إذن فهي طبائع بني إسرائيل التخاذل والخور والجبن، والنكوص على الأعقاب، والتلاعب بالألفاظ والمحاورة والمداورة في المواقف، وكل الصفات والأخلاق الرذيلة في هؤلاء القوم، يرثونها كابرًا عن كابر، ويورثونها جيل بعد جيل. (وراجع في ذلك فصل: أخلاق وصفات بني إسرائيل).

فهم يريدون دخولًا هينًا يسيرًا ونصرًا رخيصًا لا ثمن له، مريحًا لا جهد فيه ولا عناء، يتنزل عليهم كالمن والسلوى، وهنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، فالخوف من الله وحده يهون من شأن الجبارين ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: 23]. فهذان الرجلان يُحرضان قومهما، لله عليهما نعمة عظيمة وهي الخوف منه سبحانه وخشية عقابه، ويُقال: إنهما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا، والأول هو فتى موسى ووارث النبوة، والقيادة من بعده في بني إسرائيل.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾.. فلا يهولنكم ضخامة العظام وقوة الأجسام، فهذه أهمية الإيمان واليقين والثبات في ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس، فالله سبحانه لا يجمع في قلب عبده المؤمن بين مخافتين: مخافته لله جلّ وعلا ومخافة الناس؛ فمن خاف الله فلن يخاف أحدًا سواه، ولا يخاف شيئًا سواه، وهؤلاء هم أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، وقد عادوا لتوهم من أُحدٍ مثخنين بالجراح، ووقع فيهم التقتيل كما لم يقع مثله من قبله، قد جاءهم الخبر بأن قريشًا قد عادت لهم صبيحة أحد بجمعها؛ لتقضي عليهم، فماذا صنع الإيمان في قلوبهم؟ يخبرك عالم الغيب والشهادة بما كان فيقول ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 173-175].

﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾.. قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب؛ أقدموا واقتحموا، فمتى دخلتم على الناس في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم، وشعروا بالهزيمة قبل أن تقع بهم فينهزموا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ هذا هو منطق الإيمان وهذه حكمته، ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟! لبني إسرائيل!! وقد وضح لهم: أن المنوط بهم هو الدخول وفقط، فليس بعد الباب إلا الغلبة، ثم

إنه معكم السلاح الذي لا يفل، السلاح الذي لا يعرف قدره وأثره إلا المؤمنون.. التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه.

قال تعالى ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. فكلهم عزم وتصميم على عدم الدخول المؤبد ما لم يخرج منها القوم الجبارون، ويخالفون رسولهم في جبن ووقاحة معًا، فهم مرتعبون من الخطر الذي سيقدمون عليه، لذا فهم يتوقحون غاية التوقح، ويسيئون غاية الإساءة، ولا يكلفهم الأمر سوى تطاول اللسان، أما الواجب عليهم فشاق عسير لأنه يكلفهم وخز السنان.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾.. لا أدب ولا حياء (موسى.. موسى) هكذا يخاطبون رسول الله وكليمه وسيدهم ومنقذهم، وذلك حتى يحسموا الأمر الأول ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾، وكم عانى موسى من (لن) بني إسرائيل الفاجرة ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: 55]. ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: 61]. ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ [المائدة: 22]. ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ [المائدة: 24].

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.. هذه وقاحة العاجز؛ سوء أدب مع نبيهم ومع ربهم، وقد قالوا كلمة الكفر لو لم يعذروا بجهلهم، فهو ليس بربهم إذا كانت ربوبيته تعني التكاليف الثقال، ثم إن جوابهم فيه شك من رسالة موسى ﷺ؛ كأنهم قالوا: إن كان هو ربك حقًا كما تزعم، فليقاتل معك ولينصرك على هؤلاء، وهم أصحاب ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: 61]. ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ [البقرة: 69]. وعلى أي حال فقد وصفهم سبحانه بالفسق، والخلاصة أنهم لا يريدون ملكًا ولا عزًا، ولا يريدون أرض الميعاد طالما هناك تكليف بأمر وعمل مطلوب منهم ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

هذه هي نهاية المطاف، نهاية الجهد الجهيد والسفر الطويل، وتحمل الرذالات والانحرافات والالتواءات من بني إسرائيل، نكصوا على أعقابهم وأبوا دخول الأرض المقدسة وهم على أبوابها، ونكلوا عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق، فماذا يصنع موسى؟ ولمن يلجأ؟.

قال ابن القيم في (الإغاثة 2/ 640): وتأمل: تلطف نبي الله تعالى موسى ﷺ بهم وحسن خطابه لهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا: انقلبوا خاسرين.

فجمع لهم بين الأمر والنهى، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة فقابلوه أقبح المقابلة فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ فلم يوقروا رسول الله وكليمه حتى نادوه باسمه ولم يقولوا: يا نبي الله وقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته. وكان خوفهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدروا الجملة بحرف التأكيد، وهو ﴿ وَإِنَّا ﴾ ثم حققوا النفي بأداة لَن الدالة على نفي المستقبل أي لا ندخلها الآن ولا في المستقبل. ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فقال لهم ﴿ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بطاعته والانقياد إلى أمره من الذين يخافون الله. ﴿ ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي: باب القرية فاهجموا عليهم فإنهم قد ملئوا منكم رعبًا ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ﴾ ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل. فكان جواب القوم أن ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾.

فسبحان مَنْ عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه. وكان أقصى ما

عاقبهم به: أن رددهم في برية التيه أربعين عامًا يظلل عليهم الغمام من الحر وينزل عليهم المن والسلوى.اهـ

قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة :25]. دعوة ألم ولجوء إلى الرب القادر العظيم مقلب القلوب فيها استسلام له سبحانه، واعتراف بالفشل والعجز مع هؤلاء القوم، ثم طلب بالمفارقة والحكم بينه وأخيه وبينهم؛ لخروجهم عن الطاعة له ولربه جلَّ وعلا، فما الذي يربطه بهؤلاء الفجار الذين خذلوه بين يدي ربه، ولم يطيعوا أمر الله وأمر رسوله، لذا طلب من ربه الحكم الفصل فيهم، واستجاب الله لنبيه، وحكم فيهم بعدله وقضى بالجزاء العدل في هؤلاء الفاسقين ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة :26]. هكذا وهم على أبواب الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يدخلوها فرفضوا دخولها، وخالفوا أمره الشرعي، فكانت العاقبة والعقوبة تحريمها عليهم وحرمانهم منها وإبعادهم عنها فلا يدخلونها أبدًا كما قرروا واتفقوا، ثم عقوبة أخرى حيث أن الأولى لن تعدل عندهم كثيرًا، ولا تؤثر فيهم بأي تأثير؛ حكم عليهم وقضى سبحانه أن يتيهوا في الأرض، في صحراء سيناء، أربعين سنة كاملة، جزاء من جنس ما قدموا وعملوا، حينما رفضوا الدخول والقتال ثم القرار في الأرض المقدسة، فليس إلا التيه في صحراء قاحلة حارة حيث لا قرار ولا استقرار، على غير قصد.. الليل والنهار، وقد ذكر المفسرون أن هذا الجيل من بني إسرائيل قد مات كله في أرض التيه، فلم يدخلوها أبداً كما أرادوا، إلا الرجلين يوشع بن نون و كالب بن يوفا فهما اللذان قادا الجيل التالي للخروج من أرض التيه ودخول الأرض المقدسة ومقاتلة الجبارين، وذلك بعد انقضاء الأربعين سنة. وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس ﷺ (في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: فتاهوا أربعين سنة. قال: فهلك موسى وهارون في التيه، وكل من جاوز الأربعين سنة، ناهضهم يوشع بن نون وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له: اليوم يوم الجمعة، فهموا بافتتاحها، ودنت الشمس للغروب، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا، فنادى الشمس: إني مأمور وإنك

مأمورة، فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم يُر مثله قط، فقربوه إلى النار، فلم تأته، فقال: فيكم الغلول. فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلًا فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك فأخْرِجْه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأتت النار فأكلتها) قال ابن كثير (2/ 39): له شاهد في (الصحيح).

وهنا لابد لنا من وقفة نبين فيها موقف مشابه وقريب مما حدث مع بني إسرائيل، والفارق بينهم وبين أصحاب رسول الله ﷺ؛ وكيف استفاد أصحاب النبي ﷺ، وكيف وعوا الدرس الذي إما أن يكونوا سمعوه من أهل الكتاب أو قصه عليهم النبي ﷺ من أخبار بني إسرائيل، ثم قصّه ربنا علينا بعد ذلك في القرآن العظيم في سورة المائدة، ذلك لأن سورة المائدة نزلت بعد بدر فقد ورد ما يفيد أنها وسورة الفتح آخر ما نزل من القرآن؛ فإنهم ﷺ لما واجهوا الشدة، وكانوا قد توجهوا يوم بدر لمواجهة العير السهل اليسير وهم قلة، إذا بهم أمام النفير، وقد جاءوا ينقذون أموالهم، بينما فرت العير، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في ملاقاة النفير أو العودة إلى المدينة بعد فرار العير. فقام أبو بكر فقال وأحسن، وكذلك عمر، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه»، وفي رواية: «فإنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسر بذلك» (متفق عليه).

قال الله جلَّ وعلا لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فلا أسف ولا حزن على الفاسقين الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، إذا نزلت بهم العقوبة من الله جزاء فسقهم وظلمهم، هؤلاء الذين يرددون: نحن أبناء الله وأحباءه، الذين فضحهم الله فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل، أعداء الله والبُغضاء إليه، وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون.

قبح الله وجوههم، وجعل منهم الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، وقضى عليهم فيها بالتأبيد والخلود، فلله الحمد من عباده ومن جميع الوجود.

والآن أقرأ القصة بتدبر:

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: 20-26].

***

بنو إسرائيل في التيه

ذكر لنا ربنا جلَّ وعلا في سيرة موسى وأخباره ﷺ كيف كشف بني إسرائيل عن خبثهم ولؤمهم، وحقارة شأنهم، وسوء أدبهم لما رفضوا الدخول إلى الأرض المقدسة، فقضى عليهم سبحانه بالتيه أربعين سنة في أرض سيناء لا يهتدون إلى طريق للخروج منها، أربعون سنة يبدأون من حيث انتهوا، ويعودون من حيث بدأوا، ولم يكن ذلك حكمًا بالهلاك عليهم، بقدر ما هو حكم بالتطهير لذنوبهم، وحتى ينتهي هذا الجيل الفاسق العاصي من بني إسرائيل، فقد أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم بنعمه، وأمدهم بمدده في هذه الصحراء القاحلة المتقدة نارًا، والتذكير بالنعم يدعو إلى ذكر المنعم بها وشكره، فقد ذكرهم سبحانه بأنعمه وتفضيله لهم ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:47]. وذكرهم بأنه قد ظلل عليهم بالغمام ليقيهم حر صحراء التيه فقال سبحانه ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:57]. فكان التظليل لهم نعمة من نعم الله عليهم في هذا الحر الشديد؛ أن يأمر بالغمام وهو السحاب الرقيق أن يظل ملازمًا لبني إسرائيل أينما توجهوا، وكأنهم يمشون تحت مظلة تحميهم من حر الصحراء، فلا يشعرون بأية حرارة.

ولما احتاجوا إلى الطعام والشراب؛ أنزل لهم سبحانه برحمته وقدرته «المنَّ» شراب حلو كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج، فيأخذون منه ما يكفيهم ليومهم، فإن ادخروا منه شيئًا ليوم آخر فسد عليهم إلا في يوم الجمعة، فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم، وكان لا ينزل عليهم في السبت شيء لأنه يوم عبادة؛ فلا كدر ولا تعب ولا عمل ولا مشقة في هذا الشراب الحلو. وقد صح عن النبي ﷺ قوله: [الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين]؛ لأنها تنبت في الأرض بغير كلفة، ولا مشقة ولا تعب.

و﴿ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾طير كان ينزل عليهم بأمر الله، فيأخذون منه ويأكلون، ويُقَال: هو طائر السُّماني المشهور لذيذ اللحم سهل الصيد تسوقه لهم الريح، كان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه

يومه هذا، فإذا زاده فسد عليه، إلا ما كان يجمعه في يوم جمعة لسبت، فكان يصح لهم ولا يفسد، والمن والسلوى من فضل الله على بني إسرائيل، ونعمة عظيمة تستوجب الشكر المتواصل منهم لإنجائهم بهذا الطعام الطيب اللذيذ، وهذا المقام المريح في صحراء التيه، فهل شكروا الله على أنعمه واهتدوا؟! قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فجحدهم لنعم الله عليهم كان ظلمًا لأنفسهم.

وقد ذكر الله جلَّ وعلا من أحوالهم في التيه طلبهم للسقيا من موسى في موضع لا يظن أحد وجود الماء فيه، فاستسقى لهم ربَه سبحانه قال تعالى﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:60]. وهذا من عظيم أنعم الله عليهم لكنهم كعادتهم لا يقابلون النعم بالذكر والشكر والعرفان لمن أنعم بها!! ولما كان الإنسان عبد الإحسان، فما سمعنا عن جحود مثل جحود بني إسرائيل، فموسى هو الذي يستسقى لقومه العطشى الذين كثرت إساءتهم، فسبحان الذي جعل الفوارق بيننا وبينهم كثيرة عديدة وجعل بيننا وبين نهجهم وسلوكهم مغارب ومشارق بعيدة، وفي ديننا علمنا النبي ﷺ في طلب السقيا من الله تعالى أن نخرج بجمعنا في ذل وخضوع يؤمنا أتقانا وأعلمنا بالله نصلي في العراء مظهرين العبودية والفقر والمسكنة والمذلة نادمين تائبين فيسقينا من فضله وجوده. أما بني إسرائيل فقد أمر ربنا سبحانه موسى عليه السلام أن يضرب الحجر بعصاه المباركة، وهو من باب الأخذ بالأسباب، وربط الأسباب بالمسببات، وإلا فربنا جل وعلا قادر على إخراج الماء من الصخر والحجر دون أن يضرب موسى بعصاه؛ فانفجرت المياه من الحجر، وخرجت على صورة اثنتي عشرة عينًا بعدد أسباط وقبائل بني إسرائيل، لكل سبط وقبيلة عينًا معينة يحصلون منها على الماء، فلا تعدي ولا ظلم، ولا تقاتل ولا احتكاك؛ وفي سورة الأعراف ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: 160]. وكانت هذه السقيا أمرًا خارقًا للعادة، ومعجزة من المعجزات وآية من الآيات؛ فعصا تفعل ما تؤمر، وماء يفيض في صحراء، وماء ينبع من صخر، وعيون ماء تسيل بعددهم؛ كل ذلك ليلزموا جانب الإيمان والطاعة والأدب مع الله ورسوله، بينما جاءت أمثال هذه المعجزات من رسولنا ﷺ الذي نبع الماء من بين أصابعه، من بين لحم ودم فار الماء!، فكيف تعاملوا مع المعجزة التي عاينوها ولمسوها؟! في البخاري عن ابن مسعود قال: (كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا. كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَلَّ المَاءُ فَقَالَ: [اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ] فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: [حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ وَالبَرَكَةُ مِنْ الله] فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ الله ﷺ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ) ففاقت معجزته ﷺ معجزة موسى ﷺ في ذلك، وما كان ذلك إلا إكرامًا لرسولنا ﷺ، وإلا فمعجزته الكبرى هي القرآن الكريم.

وقد ذكر المفسرون: أن بني إسرائيل لما طلبوا السقيا، وانفجرت لهم العيون؛ يشربون ويسقون، ونزل عليهم المن والسلوى، اشتكوا من بلى ثيابهم وتمزقها، فخلق الله لهم ثياب لا تبلى ولا تخرق، وكانت تطول معهم كما تطول الصبيان!! أمة مدللة من رب حليم!!.

معجزات وخوارق وآيات بينات، وبعد ذلك كله خالفوا وعاندوا، فاسمع لهم بعد حين كيف ضجروا ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 61].

عدم الصبر وسوء الأخلاق، وسوء التدبير والرعونة، والجهالة بالخير ظاهرة بادية في كلمات القوم؛ هؤلاء الذين ألِفوا المهانة والذل، مع أن الله جل وعلا أخرجهم من الذل والهوان

الذي خالط حياتهم وطعامهم وشرابهم في مصر، فأخرجهم على يد نبيه موسى ليورثهم الأرض المقدسة، وينالوا العزة والكرامة؛ فإذا بهم يأبون ذلك ويرفضونه، بل ولا يريدون أن يقدموا أي تضحية، ولا أن يدفعوا ثمنًا، ولا حتى أن يغيروا ما ألِفوه من طعام وشراب شتان بينه وبين الذي رفضوه واستبدلوه من الطعام المبارك!! ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ .. يعنون بذلك المن والسلوى ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ .. وهي البقول والخضر ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ هي القثة والخيار ونحوهما ﴿وَفُومِهَا﴾ قيل: هو الثوم لذكر البصل بعده، وقيل: الحنطة التي يصنع منها الخبز، وقيل: الحبوب التي تُؤكل كلها فوم. قال لهم موسى تقريعًا وتوبيخًا لسؤالهم هذه الأطعمة الدنيئة، بدلًا مما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهين الطيب ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.. فالذي سألتم ليس بعزيز، وإنما هو في أي مصر من الأمصار، فأي بلد دخلتموه وجدتم فيه ذلك، أما طعام البركة الذي هو من عند الله فأنى تجدونه، فلما كان طلبهم هذا من باب الأشر والبطر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إلى ما طلبوا.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾. في كل زمان ومكان إلا أن يدخلوا في الإسلام أو تحميهم دولة من الدول كما قال تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: 112]. وإن كان هذا تاريخيًا لم يحدث لهم في التيه، وإنما حدث لهم بعد ذلك كما في قينقاع والنضير وقريظة وخيبر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 112]. فوكلهم إلى أنفسهم، ورفع عنهم حمايته ورعايته، وأبدل أمنهم خوفًا عقبة لهم على تمردهم وعتوهم وسوء أدبهم.

هؤلاء هم بنو إسرائيل، وهذا جحودهم، وهذه أخلاقهم، مع أنهم كانوا هم حملة الرسالة والأمانة والدعوة إلى الله جل وعلا، ولهذا لم تدم لهم، وحولت عنهم هذه المهمة المقدسة إلى هذه الأمة الخاتمة المباركة، فإن اليهود أذل الأمم، وأشدهم مسكنة، وأكثرهم تصاغرًا، لم ينتظم لهم

جمع، ولم تخفق فوق رؤوسهم راية، ولم تثبت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصى في كل زمان، وطروقة كل فحل في كل أوان، بعد ما كانوا أفضل الأمم قال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:47، 122]. في موضعين من سورة البقرة، وهكذا ينقلب الحال بهم جزاءًا بما كسبوا، مهما صار إليه أمرهم في واقعنا الآن، فلا بد أن ستقع بهم الذلة والمسكنة، ولتعلمنا نبأه بعد حين.

ومقابل هذه المواقف والتصرفات والأخلاق من بني إسرائيل، نذكر مواقف أصحاب النبي ﷺ الكرام، وفضائلهم وشرفهم إذا قارنتهم بأصحاب موسى، بل وبسائر أصحاب الأنبياء، كيف كان صبرهم وثباتهم، وكيف كانت أخلاقهم وأدبهم مع رسول الله ﷺ، حتى في أسفاره وغزواته؛ كما حدث في عام تبوك في ذلك الحر الملتهب والجهد الجهيد، والتي سماها ربنا جلَّ وعلا ساعة العسرة في سورة التوبة و من ثم سُميتْ في المغازي بغزوة العسرة. فإنهم مع ذلك لم يطلبوا من النبي ﷺ خرق عادة، ولا إيجاد أمر معجز، مع أن ذلك كان سهلًا على رسولنا ﷺ، فقد أمرهم أن لا يشربوا من بئر ثمود بالحجر، وهم في أمس الحاجة إلى الماء، «فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عجنا منها واستقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء» (خ م) واحتاجوا إلى الماء حتى اضطروا إلى ذبح العير مع قلتها؛ ليشربوا مما في كرشه من الماء، وحينها أراهم النبي ﷺ معجزة تفوق ما أتى به موسى عليه السلام؛ حين نبع الماء من بين أصابعه، وقام على رأس بئر فغسل فيها وجهه ويده، فجرت العين بماء كثير، فسقي الناس وسقوا، وكذلك لما أجهدهم الجوع، جمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك شاة؛ فدعا الله فيه، وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم، ودعا الله فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل، وملأوا أسقيتهم، وقد سمي هذا الجيش بجيش العسرة.

فقارن بين حال أصحاب النبي رضي الله عنهم، وبين ما عرفت من أخلاق وأحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، واحمد الله أنك من هذه الأمة المرحومة الخاتمة، ومن أتباع النبي محمد ﷺ، فازدد طاعة، وعض على سنة نبيك ﷺ بالنواجذ.

والآن أقرأ خبرهم في القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حيث
قال جلَّ وعلا ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا
عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا
عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟
مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة: 55-64].

***

المواعدة واللقاء

وضح كشمس النهار أن غالب بني إسرائيل لم يكونوا على استعداد للقيام بالمهمة الجليلة التي انتدبوا إليها، وهي القيام بدين الله جل وعلا في الأرض، ونشره والدعوة إليه، حين أظهروا ميلهم للشرك والوثنية يوم مروا بالقوم العاكفين على أصنام لهم، وكذلك عدم طاعتهم لرسولهم وقائدهم، وعصيانهم يوم طلبه دخولهم الأرض المقدسة، ومقاتلة أعدائهم فيها، مما أظهر ضعف التوحيد في قلوبهم، واحتياجهم لإعادة التربية والإعداد من جديد برسالة مفصلة تبين لهم دورهم المطلوب وقدرهم المنتظر. ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله تعالى لعبده موسى ﵇ ليلقاه ويتلقى عنه.

قال تعالى ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]. **قال المفسرون:** وكانت المواعدة بعد ثلاثين ليلة، فصامها موسى، وطواها عبادة واعتكافًا واعتزالًا لقومه، فلما تم الميقات وحان الأجل؛ استاك بلحاء شجر ليطيب فمه لملاقاة ربه سبحانه، وخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك، لذلك أمره أن يكون الثلاثين أربعين.

قال صاحب التحرير: وقد جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرًا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقًا، ورغبة في مناجاة الله، وعبادته زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال لم تصح. ولم يزده على أربعين ليلة: إما لأنه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشرية فباعده الله من أن تعرض له السآمة في عبادة ربه، وذلك ما يجتنبه المتقون بله الأنبياء، وقد قال النبي ﷺ: [**عليكم من الأعمال بما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا**]، وإما لأن زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار كما قيل: إنهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة، وسُميتْ زيادة الليالي العشر إتمامًا إشارة إلى أن الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة ولكنه

لما أمره بها أمره بها مفرقة إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرر الثواب، والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي: لأن المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة والنفس في الليل أكثر تجردًا للكمالات النفسانية والأحوال الملكية منها في النهار، إذ قد اعتادت النفوس بحسب أصل التكوين الاستئناس بنور الشمس والنشاط به للشغل، فلا يُفارقها في النهار الاشتغال بالدنيا ولو بالتفكر وبمشاهدة الموجودات، وذلك يغيب في الليل والظلمة، وتنعكس تفكرات النفس إلى داخلها، ولذلك لم تزل الشريعة تحرض على قيام الليل وعلى الابتهال فيه إلى الله تعالى قال ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:16]. الآية. وقال ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:18]. وفي الحديث [ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأستجيب له؟] اهـ وأكثر المفسرين على أن الثلاثين هي ذي القعدة، والعشر عشر ذي الحجة، وعلى هذا فيكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل التكليم لموسى ﷺ، فهذا اليوم أفضل أيام الدنيا، ففيه فدى الله جلَّ وعلا إسماعيل من الذبح، وهو أيضًا اليوم الذي أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ الآية العظمى الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:3]. وهذه الأربعين هي التي أجملها ربنا جلَّ وعلا بقوله ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:51]. وفي خلال العشرة الأخيرة قال قوم موسى: إن موسى أبطأ عن موعده، فهو قد ضل أو نسي، فنكثوا عهده، وبدلوا بعده، فعبدوا إلهًا غير الله، فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله، وعبدوا العجل!! ولما عزم موسى ﷺ على الذهاب إلى الطور لميقات ربه جل وعلا، كما قال ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه:80].

فحينئذٍ استخلف موسى أخاه هارون على بني إسرائيل، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهذه نصيحة واجبة من موسى لأخيه، حيث يعلم موسى قدر التبعة وثقلها، ويعرف طبيعة

قومه بني إسرائيل، ولما كان موسى يعرف لهارون قدره، وأنه نبي كريم له وجاهته وجلالته، فخشي عليه من قومهما فأخبره بهذه القاعدة الذهبية في الحكم لمثل هؤلاء ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قال صاحب التحرير: جمع له في وصيته ملاك السياسة بقوله ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح؛ وهو جعل الشيء صالحًا فجميع تصرفات الأمة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره، فإن عادت بالصلاح عليه وبضده على غيره لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أن تؤول فسادًا على من لاحت عنده صلاحًا، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرًا من جهة وشرًا من جهة أخرى وجب اعتبار أقوى حالتيه فاعتبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحًا وإن استوى جهتاه أُلغي إن أمكن إلغاؤه وإلا تخير، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة.

وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تحذير من الفساد بأبلغ صيغة؛ لأنها جامعة بين النهي، والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه، وبيّن تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين، والإتباع هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد، والمفسد من كان الفساد صفته فلمّا تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين كان تحذيرًا من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد لأن المفسدين قد يعملون عملًا لا فساد فيه فنهي عن المشاركة في عمل مَنْ عرف بالفساد؛ لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف في توقع إفضائه إلى فساد. ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد وسد ذرائع الفساد من أصول الإسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكررها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

فلا جرم أن كان قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ جامعًا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته.

وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه ما يقتضي أن في رعية هارون مفسدين، وأنه يُوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يُسايرهم عليه لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته، والاحتياط من حدوث العصيان في قومه كما حكى الله عنه في قوله ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ وقوله ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. اهـ

وهذا يُذكرنا برسول الله ﷺ حين رد علي بن أبي طالب في بعض مغازيه من الطريق، واستخلفه على المدينة، فأحزن ذلك عليٌّ، فقال له النبي ﷺ: [**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؛ غير أن لا نبي بعدي**] (م) فهو ليس استخلاف نبيٌّ لنبي كما يزعمه بجهل الشيعة الإمامية الرافضة وغيرهم، ولا هي خلافة دائمة له، وإنما هو استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته، ثم إن هارون كان شريكًا مع موسى في أصل الرسالة، فلا حجة لهم في ذلك ولا دلالة، وقد استخلف النبي ﷺ عددًا من أصحابه في مغازيه، فمن منهم يعد الخليفة بعد الرسول ﷺ؟!

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:143]. أي: اسمعه كلامه بغير واسطة، وقد كلمه من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه، وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع لموسى عليه السلام ومنزلة غالية عالية.

وقد اعترض المعتزلة وأشباههم على مسألة تكليم الله لموسى عليه السلام في قوله ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:134].

وقالوا: إنما هي (وكلم الله موسى تكليمًا) فبينما في الآية الله هو المتكلم، جعلوه سبحانه بزعمهم وباطلهم أنه هو المكلَّم، بينما المتكلم موسى، جزمًا على مذهبهم الباطل في نفي الصفات عن الله فلا يشتبه المخلوق بالخالق فنفوا صفة الكلام عن الله جلَّ وعلا، فرد عليهم العلماء بهذا الموضع من الآية ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فالهاء ضمير يعود على الغائب؛ وهو موسى عليه السلام، فبان أن الكلام منه تعالى، وبطل هراءهم، وانكسر باطلهم والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:143].

اجتهد أيها القارئ الكريم أن تستشعر جلال هذا الموقف الفريد وروعته الذي اختص الله تعالى به موسى، فيا لروعة مشهد موسى وهو يقف مخاطبًا ربه جلَّ وعلا، ويسمع لكلامه، ولهذا لما أخذه الحب واللهفة والرجاء ورغبة الشهود بعدما أسمعه، تطلع موسى إلى أعلى مما هو فيه كما هو حال الجبلة التي جبل الخلق عليها، ونسي موسى من هو، وطلب ما لا يكون لبشر في هذه الدنيا ولا يطيقه؛ يطلب الرؤية الكبرى العظمى! فسأل رفع الحجاب ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وفي الحديث قال ﷺ **[حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بُعده من خلقه]** (م مج حم). **قال صاحب التحرير**: وسؤال موسى رؤية الله تعالى تطلع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي؛ لأنه لما كانت المواعدة تتضمن الملاقاة وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث، وحصل لموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة، فالتكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية، ولا نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة فكان موسى يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا، ولا يمتنع على نبي عدم العلم بتفاصيل الشؤون الإلهية قبل أن يعلمها الله إياه، وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:114]. ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين في الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية لا نعلم كنهها وهو معنى قولهم « بلا كيف» وكان المعتزلة غير محقين في استدلالهم بذلك على استحالتها بكل صفة. اهـ

وقد أثار حرف (لن) في قوله ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ إشكالًا عند الناس، حيث اعتمد عليه المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، لأن « لن» نافية على التأبيد كما زعموا! وهذا الذي أثاروه من نفي الرؤية في الدنيا والآخرة لقوله تعالى لموسى ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ قد وافقهم

عليه أهل السنة فيما يختص بالرؤية في الدنيا، أما في الآخرة؛ فقد قال النبي ﷺ، والحديث مروي في (الصحيحين) عن أبي هريرة: أنّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ [هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟] قالوا: لا يا رسول الله. قال [هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟] قالوا: لا يا رسول الله. قال [فإنكم ترونه كذلك]، والأحاديث كثيرة ومتواترة في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة؛ رواها نحو ثلاثين صحابيًا! فإشكالهم الذي أثاروه ينافي ويعارض ما قاله الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. وقد أجاب العلماء على إشكالهم بأجوبة منها: ـ أن موسى عليه السلام لا يُظن به وهو كليم الله ورسوله، وأعلم الناس بربه أن يطلب مالا يجوز أو يستحيل.

ـ ثم إن ربنا جلَّ وعلا لم ينكر عليه سؤاله، كما أنكر مثلًا على نوح لما سأل نجاة ابنه من الغرق فقال ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:46]. وقد قال سبحانه ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يقل: إني لا أُرى، أولا تجوز رؤيتي، فهو دال على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى عليه السلام لا تحتمل قواه الرؤية في الدنيا لضعف القوة البشرية عن رؤيته تعالى.

– ثم إن ربنا سبحانه قال له ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ فأعلمه أن الجبل مع رسوخه وثبوته لا يثبت للتجلي، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28].

ثم إن ربنا جلَّ وعلا تجلى للجبل، فإذا جاز الظهور للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟!

ـ وأما ﴿لَن﴾ فلا تنفي الفعل للأبد، بدلالة قوله تعالى في حق الكافرين أصحاب النار﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة:95]. مع قوله عنهم ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:77].

– ثم إن ربنا برحمته جلَّ وعلا قد أخبر في القرآن برؤيته إكرامًا لعباده من أهل الجنة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22-23]. وقال عن الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحۡجُوبُونَ ﴾ [المطففين: 15]. (العقيدة الطحاوية 146-147) بتصرف. فليتدبر ذلك العاقلون وليسلموا تسليمًا.

ثم دله سبحانه ترفقًا به ولكي لا يحزن؛ لماذا «لن»؟ لأنه لا يطيق ذلك ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ والجبل أمكن وأثبت وأسكن، وهو أقل تأثرًا واستجابة من البشر، ومع هذا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ وهذا التجلي ظهور منه جلَّ وعلا، وكان على قدر طرف الخنصر كما ذكره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الصريح إشارة بيده؛ عن أنس عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال: [وضع إبهامه على قريب من طرف أنملته؛ فساخ الجبل] قال حميد الطويل لثابت: تقول هكذا؟! فوكزه. قال: ويقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس، فأكتمه أنا!!.الألباني في ظلال الجنة 480: إسناده صحيح وقرأ ذلك مفصلًا في شرح العقيدة الطحاوية.

فلما رأى الجبل العالي المنيف الصلد القوي الراسخ الثابت قد صار في لحظة مستويًا بالتراب، لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا، فأدركت موسى رهبة الموقف وجلالة الأمر.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ مغشيًا عليه غائبًا عن وعيه، فإذا لم يتحمل موسى مشهد الجبل المندك، فكيف كان سيقوى على مشهد الجلال والجمال والكمال والعظمة؟!

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾. وأدرك مدى قدرته وطاقته، واستشعر تجاوزه في السؤال والطلب.﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾.. تنزهت وتعاليت أن ترى بالأبصار، وأن تدرك في هذه الدنيا ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾. وهي ليست توبة من معصية، فالأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب، والوقوع فيها، ولكنه الأدب مع الله لما تجاوز موسى المدى في السؤال!

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وقد كان قبله مؤمنون، ولكنه يقول أنا أول من آمن بك أن لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

وهذا الغشي من موسى جاء به الخبر من النبي ﷺ ففي البخاري ومسلم، روى أبو سعيد الخدري قال (قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ، ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ. فَقَالَ: [مَنْ؟] قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ: ادْعُوهُ. فَقَالَ: [لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟] قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ؛ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ. قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ [لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ. فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى؟]. والظاهر أن هذا الصعق للناس يكون في عرصات القيامة، والمعنى أن موسى لم يصعق مع الناس، وهذا لبيان فضل موسى، وفيه تواضع من النبي ﷺ، وإلا فهو أفضل البشر أجمعين، بما فيهم الأنبياء والمرسلين، فهو أفضل من موسى، بل وأفضل من أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ، ولكن لا يستعمل هذا من قبيل العصبية والغضب أو التنقص، فلا تجوز المفاضلة بين الأنبياء بهذا الأسلوب.

قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف :144]. رحمة من الله تعالى على عبده وكليمه موسى، فهو يتلقى من ربه بشرى الاصطفاء على أهل زمانه، وإلا فإن محمدًا أفضلهم مطلقًا، وهو سيد الأولين والآخرين، سيد ولد آدم أجمعين، ولهذا ختم الله تعالى به. ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ من المناجاة والكلام، واشكر لربك على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

قال تعالى ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف :145]. فأخبر سبحانه أنه كتب له جلَّ وعلا بيده في الألواح كل شيء؛ مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال والحرام، ويُقَال: إنها غير التوراة، ويُقَال: إنها مشتملة على التوراة، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها، والله أعلم.

﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾.. أي: بعزم على الطاعة، والهمة فيها.

﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾. فهو أمر بالأخذ بالقوة، وهم أمروا بالأخذ بأحسنها ترفقًا بهم وتخفيفًا عليهم، لأن حال المرسلين ليس كحال عموم المسلمين. ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يقول [إني لست كهيئتكم؛ إني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني] (خ م) في وصال الصيام، ويقول [إني أوعك كما يوعك رجلان منكم] (خ م).

﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾. وهم أهل الشام، وهذا على سبيل التهديد والوعيد لمن خالف الأمر والطاعة لله رب العالمين. وطبائع بني إسرائيل الرخوة الملتوية المنحرفة لا يجب أن تترك على التميع والرخاوة والترخص، وإنما تؤخذ بالجد والهمة، والحسم والصراحة، والوضوح مع التهديد والوعيد، لذا يستمر توعدهم وتهديدهم.

قال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 146].

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾. أي: صرفًا كونيًا، فلا يفهمون الآيات المقروءة ولا المنظورة، ولا يتدبرونها ولا يعقلون معناها وما أريد منها، والذين يُصرَفون هم ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ مهما عاينوا ورأوا من المعجزات ومن خوارق للعادات، فلا ينقادون ولا يذعنون ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ فأنى يرشدون إلى الحق مع هذه الغفلة وهذا التغافل عن اتباع الحق، والتصديق به ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 147].

والآن أدعوك للقراءة بتدبر للآيات من سورة الأعراف:

قال تعالى ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ
وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَآءَ
مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ
ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ
بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ
شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ
(١٤٥) سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ
هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 142-147].

* * *

عبادة العجل الذهبي

كانت المواعدة واللقيا من الله جلَّ وعلا لموسى ﷺ، والتي طلب فيها الرؤية ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]

وفيها الخطاب من وراء الحجاب خاصة بموسى ﷺ، وكانت بعدها -والله أعلم- مواعدة أخرى مع البعض من قومه، فكانوا مطلوبين للتوجه مع موسى إلى جهة المواعدة ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: 80]. والمواعدة هنا كانت عند الجانب الشرقي للجبل بعكس المرة التي رأى فيها فكانت من الجانب الغربي كما قال ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: 30]. ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: 44].

وسبق موسى ﷺ قومه إلى ربه شوقًا وتحنانًا ولهفة بعد مضي الأربعون ليلة، لهذا قال له تعالى ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 83]. فموسى سبقهم ولم يأتِ معهم، فسأله ربه جلَّ وعلا وهو أعلم، وذلك من باب التعليم له؛ لأن الأصل أن يكون رئيس القوم وقائدهم معهم، بل ومتأخرًا عنهم في السفر، وقد ظهر ذلك في قوله تعالى للوط ﷺ على لسان الملائكة المرسلين إليه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: 65]. وكذلك فعل النبي ﷺ عند هجرته، وفي أسفاره ومغازيه، ولكن موسى غفل عن هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله جل وعلا، ومسارعة إلى الميعاد، وهكذا حال الموعود بما يسره، ود لو طار إليه بأجنحة الطير، وخشية تأخر قومه وتلكؤهم، فأجاب موسى ربه ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: 84]. فسنّها لك موسى ﷺ كي تعجل إلى ربك بالطاعة والعمل الصالح، والبحث عن رضا ربك في عجلة لا تعرف التأخر والتأني والتأجيل والتسويف.

وكان لابد من بلاء واختبار لعقائد القوم، وكشف مدى استعدادهم لتحمل التكليف، وإعادة بناء الكيان النفسي المهلهل لهؤلاء الذين فسدت طبائعهم حتى صاروا قاب قوسين أو أدنى من الكفر فكل من دعاهم للبعد عن الحق إلى الباطل والضلال أطاعوه وأجابوه.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه:85]. أي: كان البلاء بعد ذهابك عنهم، والسامري نسبة إلى بلدة سامرة، الذي زين لهم أن يعبدوا العجل، ويتخذوه إلهًا، لما طالت غيبة موسى عليهم، وأظهروا اليأس من رجوعه. قال تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:148].

وكان قد جمع حُلّي نساءهم، وكان مستعارًا من نساء آل فرعون قبل خروجهم منها.

نقل القاسمي (5/ 148) عن الجشمي قال: تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين، وأنه تعالى دلهم، فى بطلان اتخاذ العجل إلهًا، بأنه لا يتكلم ولا يهدى. وإنما ذكر الكلام؛ لأن الخوار تنفذ فيه الحيلة، ولا تنفذ فى الكلام. وتدل على أن إزالة الشبه في الدين واجب، كما أزالها الله تعالى. وتدل على أن القوم كانوا جهالًا غير عارفين حقيقة الأشياء، لذلك عبدوا العجل. وتدل على أن تلك الحليّ كانت ملكًا لبنى إسرائيل، لذلك قال ﴿ حُلِيِّهِمْ ﴾. فإن ثبت أنهم استعاروه فيدل على زوال ملكهم، و انتقال الملك إلى بنى إسرائيل، كما تملك أموال أهل الحرب. وتدل على أن الاتخاذ فعلهم. اهـ

لم يحتمل موسى النبأ المؤسف المخزي وما كان من قومه، فلما انتهى الخطاب من ربه طلب الإذن بالنزول والعودة إلى قومه ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[الأعراف:150]

وقال ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه:86].

ورجع موسى رجوع الحزين المغضب، فخاطب قومه بكل ما اعتمل في نفسه من حنق وغيظ ومرارة، فقرع أسماعهم بزواجره الغضبى ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ بإنزال التوراة لكم، فما الذي كنتم تنتظرون أفضل من وعد الله لكم بخير الدنيا والآخرة حتى عبدتم العجل من دونه! ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ لطول غيبتي عليكم فظننتم أن الله ربي وربكم قد خلف الميعاد ولن يفي بما وعد ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ ونسيتم ما أخبرتكم و ما أمرتكم به من انتظار رحمة الله ونعمه إلى حين أرجع من الميقات، فاستجلبتم غضب مَنْ لا تطيقون غضبه.

فاسمع إليهم وهم يعتذرون بعذر عجيب بارد بعد اللوم والتوبيخ، يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والسخف العقلي والسفاهة ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ [طه:87]. فيخبرونه أن ما حدث لم يكن لهم فيه اختيار، وإنما تورعهم الكاذب وخوفهم من الإثم والوزر دعاهم ليتخلصوا من حلّي الذهب الذي استعاروه من آل فرعون، وحملوه معهم حين الخروج، فألقوه عنهم وأعطوه السامري، فجمعه السامري من بعدهم وأضاف إليه القبضة التي قبضها من أثر الرسول، وصنع من ذلك عجله الذهبي الذي عبدوه، فما أسفه هؤلاء القوم تورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير! تحرجوا من حلي آل فرعون وهم أهل حرب، ولم يتحرجوا بقلة عقلهم وجهلهم من عبادة العجل الصنم!!

﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طه:88]. فجعل ينحت هذا الحلي بعدما صهره قطعة واحدة، وذكر ابن كثير (3/ 158) عن ابن عباس (أن هارون مرّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما ينفع ولا يضر. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون، وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور فخار، فكان إذا

خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم)، فصنع فيه فتحات بحيث إذا دخل فيها الريح يسمع له خوار، لكنه جسد لا روح فيه ولا حركة، ولا نفع فيه ولا فائدة، لكنهم لما رأوا عجلًا من ذهب يخور عكفوا عليه وعبدوه في بلاهة وبلادة حس عجيب، ونسوا ربهم الذي إنعامه وأفضاله عليهم كثيرة؛ أنجاهم من بطش فرعون، وأهلك عدوهم، ومتعهم بنعمه وهم في تيه الصحراء.

قال ابن القيم (إغاثة اللهفان) (2/ 630): ومن تلاعب الشيطان بهم؛ عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرابية، ونبيهم حي لم يمت. هذا، وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهرًا لبطن. ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى. فنسبوا موسى ﷺ إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعًا عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل. ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ﷺ ضالًا مخطئًا، فقالوا ﴿ فَنَسِيَ ﴾. قال ابن عباس: أي ضل وأخطأ الطريق.اهـ

﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾. سبحان ربي! ما أعظم قدر السفاهة والجهل عند هؤلاء القوم، حيث صوروا موسى ﷺ ناسيًا إلهه غافلًا عنه، فهاهم قد وجدوه حاضرًا بين أيديهم حيث فقده موسى، فنسبوا نبيهم إلى الغفلة والضلال، بينما إلههم قد جاءهم من غير عناء ولا انتقال، يالله من سفاهة القوم! وما أعظم حلم الله عليهم!.

قال الله تعالى تقريعًا لهم وتسفيهًا، وبيانًا لحماقتهم وسخافة عقولهم فيما انتهوا إليه ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ [طه:89]. وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:148].

فهو لم يصنع لهم عجلًا نافعًا بل حتى ضارًا؛ فهو لا يسمعهم إن خاطبوه، ولا يجيبهم إن سألوه، ولا ينفعهم إن احتاجوه، ولا يضرهم إن أغضبوه، فكيف يصح أن يكون هذا إلهًا لهم؟! وكيف رضوا به إلهًا إلا أن يكونوا من أخف الناس عقولًا وأسفههم؟!، تفكيرهم فاسد

وحججهم باطلة، وغباءهم ظاهر، وعقائدهم كافرة، وطبائعهم ملتوية مهلهلة.. هؤلاء هم بنو إسرائيل!!

ثم إن نبيهم هارون المستخلف عليهم والمقيم معهم لم يألوهم بالنصيحة والتحذير ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:90-91]. فحذَّرهم من الفتنة بالعجل الصنم، وأخبرهم أن إلههم الحق هو الرحمن، ثم دعاهم إلى متابعته وهو رسول ربهم، فتابعه على الحق فريق من بني إسرائيل، بينما صُمّ بقية القوم عن النصيحة وأجابوه جوابًا جازمًا ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ فتركوا عهدهم لنبيهم وراءهم ظهريًا، وعكفوا على إلههم الباطل الصنم الصامت عجل الذهب، وأعذار القوم وردودهم تثير انفعال أشد الناس هدوءًا وتمالكًا لأعصابه وانفعاله، وموسى ﷺ في حالة استنفار غضبي من قومه من بعد نجاتهم ودخولهم إلى سيناء، ثم لما سمع ما سمع اشتاط غضبًا وازداد حنقًا بعدما تبين منهم حقيقة الأمر، ورأى عيانًا عجل الذهب المعبود، فحينئذ تمكن الغضب لله من موسى ﷺ ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف:150]. وفي الحديث أنه قال ﷺ [ليس الخبر كالمعاينة؛ إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح] حم. ولاحظ الحدة والشدة في شخصية موسى ﷺ، في إلقائه للألواح التي كتبها الله له بيده سبحانه، وقد جاء بها لتوه من ميقات ربه، فهذه هي شخصية موسى الانفعالية الشديدة التأثر ذات الطبيعة الحادة، بعكس طبيعة بني إسرائيل المتبلدة الباردة، بينما نجد هارون أهدأ انفعالًا وأملك لأعصابه من موسى ﷺ.

نقل القاسمي (7/ 151): عن الرازي قوله: (اعلم أن هارون ﷺ سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم عن الباطل أولًا بقوله ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾، ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانيًا بقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، ثم دعاهم ثالثًا إلى معرفة النبوة بقوله ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾،

ثم دعاهم إلى الشرائع رابعًا بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾ وهذا هو الترتيب الجيد؛ لأنه لابد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى، فإنها هي الأصل. ثم النبوة، ثم الشريعة. فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه).اهـ

قال تعالى ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا ﴾ [الأعراف :145]. وفي حديث المحاجة قال آدم ردًا على موسى [أنت موسى نبي بني إسرائيل؛ اصطفاك الله وكلمك وكتب لك التوراة بيده].

وهنا تُثار شبهة: كيف يصح لموسى ﷺ أن يلقي الألواح وفيها كلام الله تعالى، وما أوحاه إليه وكتبه سبحانه، ألا يعد ذلك إهانة لكلام الله تعالى؟

والجواب على هذا: أن موسى ﷺ لم يلقها إلقاء إهانة وتحقير، وإنما وضعها عن كاهله في غضبه ليفرغ لمعاتبة قومه، ومخاطبة أخيه، وليس في الآية ما يدل على استهانة موسى بالألواح قال تعالى ﴿ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ [الأعراف :154].

قال تعالى ﴿ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ ﴾ وقال تعالى ﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ ﴾ [طه :94]. توجه موسى بكل سورته الغضبية تجاه خليفته على القوم، وأولى الناس بإنكار هذا المنكر، وأفهم القوم لخطورة هذا الشرك الشنيع؛ أخاه هارون، فجذبه من لحيته وذؤابة رأسه يجره جرًا أمام القوم؛ مَنْ وافق هارون وقبل نصيحته، ومن خالفه وعبد العجل، الكل يشهد هذه الغضبة الموسوية الشديدة القوية التي لم ترع حرمة النبوة، ولا الإخوة، ولا السن، حين انتُهكت حرمات الله وعُبد العجل الذهبي من دون الله الواحد الأحد سبحانه.

وهارون أكبر من موسى بسنة، وأحب إلى بني إسرائيل من موسى؛ لتميزه بلين الطبع وخفة الغضب، وهو ابن أمه وأبيه، ورغم ذلك هو يتلطف له، ويستعطفه رغم حدة تصرفه،

فناداه بعلاقة الرأفة والرقة؛ الأمومة، ثم بين له حقيقة موقفه فقال ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:150]. فما أغلظ هؤلاء القوم حيث لم تجد معهم دعوة هارون اللينة الرفيقة لترك العجل وعبادته، فانتهى بهم هواهم وفجرهم أن نظروا فوجدوا هارون وحيدًا فيما يدعوهم إليه، مستضعفًا وهو وحده بعيد عن موسى العنيف الشديد، فهموا بقتل هارون إن لم يسكت عنهم ويتركهم وما هم عليه من ظلمهم لأنفسهم بعبادة العجل الذي أشربوا حبه في قلوبهم ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾[البقرة:93]. وفي الحديث [حبك الشيء يعمي ويصم]، لذا نبه هارون موسى عليهما السلام أن الذي يحدث الآن منك تجاهي، يستدعي شماتة هؤلاء المارقين الذين عادوه؛ لأنه كان يدعوهم لترك فتنة العجل وعبادة الرحمن وحده ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه:90]. فأبوا إلا كفورا، وانقسم الناس بين قلة متبعة له، وكثرة ضالة، فخشي حينها من الفرقة التي قد تحدث بين القوم في غيبة موسى عليهما السلام، وكان بادأه بقوله ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه:92-93]. ولو فعل هارون لكان مخالفًا لما وصى موسى به ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:142]. فقدم هارون عذره بأنه اجتهد واختار أخف الضررين وأرجح المصلحتين؛ أن يلحق هو ومن آمن بأخيه أو يحافظ على وحدة القوم وبالتالي أموالهم ودمائهم ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه:94]. وهو في هذا قد ترك الراجح وأخذ بالمرجوح؛ فالمحافظة على الدين و العقيدة أولى وأرجح.

وهنا قيل: كيف ساغ لموسى أن يهين أخاه؛ فيجره من لحيته ومن رأسه أمام الناس، وهو نبي مثله وأسن منه؟ والجواب: أن موسى فعل ذلك غضبة لله ولدينه ولشرعه، فهو قد ظن أن أخاه قصر في خلافته من بعده على بني إسرائيل؛ فتركهم حتى ارتدوا وعبدوا العجل، فكأنه لم

يرضه أن يكتفي بنهيهم وزجرهم عن عبادة العجل، بل أراد منه أن يُفارق القوم، ويلحق به في الجبل، علّ ذلك يُنبههم إلى خطورة ما هم عليه، لكن هارون كان له نظر في ذلك وعذر.

فلما سمع عذر أخيه رفع موسى يديه إلى السماء يدعو ربه، ويعتذر عن نفسه وأخيه ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: 151]. فلما سمع القوم ذلك، وعاينوا كل الذي دار وجرى بين موسى وأخيه، تيقنوا أنهم ضلوا وظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله، وندموا على ما كان منهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 149]. ولكن هيهات فقد قدرت العقوبة عند الله على القوم الظالمين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: 152]. فعقوبتهم على افتراءهم، وقولهم على الله سبحانه وعلى رسوله غير الحق؛ غضب الله تعالى على هؤلاء مع ذلتهم بقتل أنفسهم كما سيأتي.

قال القاسمي (5/ 191): أي: مَنْ افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. اهـ

تتحول دفة الغضب الموسوي تجاه السامري صاحب الفتنة؛ فقال له متوعدًا ومهددًا ومخوفًا ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [طه: 95]. ما شأنك، وما حملك على ما صنعت؟ ذكر ابن كثير (3/ 159) أن ابن عباس قال: (كان السامري رجلًا من أهل باجر، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى ابن ظفر) اهـ

قال ابن القيم في (الإغاثة 2/ 631): فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهًا مصنوعًا من جوهر أرضي إنما يكون تحت التراب محتاجًا إلى سبك بالنار وتصفية وتخليص لخبثه منه مدقوقًا بمطارق الحديد مقلبًا في النار مرة بعد مرة قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلها غيره!!.اهـ

قال تعالى ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه: 96]. أي: فطنت إلى ما لم يفطنوا له؛ يُقال أنه راقب موسى ﷺ حين جاءه جبريل ليصحبه لميقات ربه، فرأى أثر الفرس؛ كلما ضرب بحافره الأرض اعشوشب مكانها بالخضرة، فأخذ قبضة بأطراف أصابعه من أثر فرس الرسول، واعتذر عن ذلك بأنه من تسويل النفس الأمارة بالسوء، والتي زينت له فعل ذلك، فعاقبه موسى على فتنته بما أوحى به الله إليه ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ [طه: 97]. وكانت عقوبته هي التي كانت في بني إسرائيل وهي النفي والإبعاد، فكما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: لا مساس أي لا يمس أحدًا، ولا يمسه أحد، فيهجر لا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد، فيبقى طريدًا مهجورًا، وأما عقوبة الآخرة فلن تتخلف عنك.

وأما بالنسبة لعجل الذهب، إله الزور والكذب، المعبود من دون الرب الخالق العظيم، فكانت نهايته ومآله ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: 97]. ليروا بأعينهم نهاية ما اتخذوه إلهًا، وكيف أنه لا يملك أن ينقذ نفسه من هذا التحريق والتدمير، ثم بين موسى الحق في هذا الموقف الذي زهق فيه الباطل وظهر الحق ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: 98]. ولم ينتهي الأمر عند ذلك، فهناك موعد للاعتذار والتوبة والندم لله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

قال صاحب التحرير: واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يُقال لهم أيضا السامرة لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين؛ فهم لا يعظمون بيت المقدس، ويُنكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع، وما كانت هذه الشذوذات فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخص في تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصهار ملوكهم ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى ﷺ.اهـ

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[الأعراف :154]. عاد موسى إلى هدوءه، وسكن ما به من الغضب، بعدما انتقم لربه سبحانه، والتقط الألواح التي كان ألقى بها جانبًا ليتفرغ للأمر الشنيع؛ ـ عبادة العجل الذهبي ـ ثم فرغ لمهمته ودعوته إلى ما جاءهم به من عند ربه جل وعلا، فأخذ الألواح داعيًا لما أمرهم رب العالمين فيها.

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة :54].

فالأمر لم يمر هكذا، وكأن شيئًا لم يكن، عبد القوم العجل الذي صنعه لهم السامري من دون الله جلَّ وعلا، ونبيهم موسى ﷺ يدعوهم الليل والنهار لعبادة الله وحده، وهارون ﷺ لم يألو جهدًا في نهيهم وتذكيرهم ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾ [طه :90]. فأخبرهم أن الأمر فتنة مضلة تأخذ بالنواصي إلى عذاب الله ونقمته، وتُنسيهم وتُبعدهم عن الحق الذي دعاهم إليه موسى ﷺ، وأن إلهكم الحق وربكم الأعلى هو الرحمن لا إله لكم ولا رب سواه، وقد أرسلني وأخي لتعرفوه وتعبدوه وحده، وقد أراكم الآيات، ونجاكم من فرعون وإذلاله لكم، وأراكم قدرته الباهرة حين أغرقه بين أيديكم وأنجاكم أنتم، ولم يكن هذا العجل الذي فتنكم وأضلكم موجودًا حين ذاك، وإنما

صنع على أعينكم، فكيف يصلح أن يكون ربًا ينفع صانعيه، فضلًا أن يكون لهم إلهًا معبودًا. ولما كانت لغة العناد التي تغيب العقل عند إقامة الحجج والبراهين، والتي هي لغتهم التي لا يعرفونا غيرها، وأسلوبهم الذي ليس لهم غيره ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:91]. وهكذا ترجح عندهم الشك فيما دعاهم إليه هارون، ومضيهم في عبادة العجل، ولزوم ذلك اليقين الذي انبهروا به وخضعوا له، فيا لله من سفاهة القوم وعنادهم الغبي!!

لهذا وغيره استحقوا العقوبة النازلة بهم في صورة التوبة، والتي جاءهم بها موسى الذي تحينوا رجوعه، فهاهو قد جاءهم عالمًا من الله بكفرهم وشركهم وعنادهم وتعنتهم الذي قادهم إلى الردة بعد أن آمنوا، رجع إليهم بالتوبة التي لا يملكون لها ردًا ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فكانت هذه التوبة العاتية التي ناسبت قلوبهم القاسية ﴿ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾.

قال ابن كثير (1/ 88): في قوله ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. ثم روى عن ابن جرير عن ابن عباس قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة:54]. قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يقتلوا أنفسهم. قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قُتل منهم كانت له توبة، وكل مَنْ بقى كانت له توبة.اهـ

قال ابن كثير: وروى ابن جرير بإسناد جيد عن الزهري قال: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه،

حتى إذا فتر بعضهم قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جلَّ ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟، أما من قتل منهم فحي عندي يرزقون، وأما من بقي، فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل. اهـ

هكذا قدم بنو إسرائيل عبيد السوء وأهل الردة والجهالة صورة من صور طبائعهم وأخلاقهم، وبان من هذه العقوبة التي أنزلها الله بهم أنهم لذلك مستحقون، وأنهم بمثلها في كل حياتهم وتاريخهم جديرون.

ونقل القاسمي (1/ 388-389) عن ابن جرير الطبري قال: قول موسى لقومه ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم ﴾ وظلمهم إياها كان فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه بها مما أوجب لهم العقوبة من الله تعالى، وكذلك كل فاعل فعلًا يستوجب به العقوبة من الله تعالى، فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالى.اهـ

والآن أقرأ القصة في القرآن متدبرًا

قال تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: 148-154].

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

[طه: 83-98].

الصعق

قصَّ الله تعالى علينا من أنباء بني إسرائيل وأخبارهم وسيرتهم، وأكثر من ذلك في القرآن العظيم، كل ذلك لتكون هذه الأمة على هدى وبصيرة، فلا تفعل فعلهم، ولا تنهج نهجهم، وتجتنب سلوكهم، وكشفهم لنا حتى نعرف حقيقة القوم وسلوكياتهم وطبائعهم لأن المواجهة والصدام بيننا وبينهم ممتد إلى قيام الساعة.

وأخبرنا سبحانه بحقيقة أمرهم، وما يكنون في صدورهم تجاه المؤمنين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:82]. وقال تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:12]. وقال تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:75]. هم أعدى أعداء الإسلام والمسلمين، وتاريخهم مع رسول الله ﷺ والمسلمين معروف مملوء بالغدر والكيد والتآمر والخسة والمكر، مع قينقاع والنضير وقريظة وأهل خيبر لا نغتر بما يرددونه حول السلام، ودماء الشهداء في فلسطين تراق صباح مساء، فهم قوم سوء، وأصحاب فتنة عبر الأزمان، وحكاياتهم مع نبيهم موسى عليه السلام كثيرة في القرآن، ولا يزال القرآن يقص علينا من أخبارهم.

يعدد ربنا جلَّ وعلا نعمه وأفضاله على بني إسرائيل، فيقول سبحانه ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ

يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة :47-61]. يُذكرهم سبحانه بسالف نعمه عليهم، وما فضلهم به من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم عطف بتحذيرهم مَنْ شدة نقمته على من ترك العمل بما أمر يوم القيامة، ثم بإنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يذيقونهم العذاب، ثم بإنجائهم من الغرق وإغراق فرعون ومن معه أمام أعينهم، ثم العفو عنهم بعدما عبدوا العجل وقت موافاة موسى للميعاد، ثم إيتاء موسى التوراة، ثم ذكر صفة توبتهم من عبادة العجل. قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف :152]. أما الغضب الذي نالهم في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضًا، وأما الذلة؛ فأعقبهم ذلك ذلة وصغارًا في الحياة الدنيا، ثم قال سبحانه متوعدًا كل من افترى على الله وزعم وجود آلهة معه، وأشرك بالله خالق الأرض والسموات

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ قال ابن كثير (2/ 238): نائلة لكل مَنْ افترى بدعة، وعن أبي قلابة الجرمي: أنه لما قرأ الآية قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.اهـ

قال تعالى حكاية عن ما أمرهم به موسى لأجل التوبة مما اقترفوه من الإثم والجرم العظيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54]. يأمرهم موسى ﷺ بالتوبة مما أشركوا وظلموا أنفسهم بعبادته من دون الله الذي خلقهم من العدم، وبين لهم كيفية هذه التوبة؛ وأنها قتلهم لأنفسهم بعضهم البعض، وأخبرهم أن ذلك هو الخير الذي ليس هناك أفضل منه، وهو أمر الله تعالى الذي لن يقبل منهم توبة سواه.

روى ابن كثير (1/ 88) ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال (أمر موسى قومه عن أمر ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يقتلوا أنفسهم. قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل؛ كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة)، وروى أيضًا بإسناد جيد عن الزهري قال (لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها؛ برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه حتى إذا فتر قال بعضهم: يا نبي الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جلَّ ثناؤه إلى موسى ما يحزنك أما من قتل منهم فحي عندي يرزقون، وأما من بقى فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل).اهـ

وعن علي رضي الله عنه قال (لما تعجل موسى إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من الحلي حلي بني إسرائيل فضربه عجلًا، ثم ألقى القبضة في جوفه، فإذا هو عجل له خوار، فقال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فقال لهم هارون: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا؟ فلما

أن رجع موسى إلى بني إسرائيل، وقد أضلهم السامري، أخذ برأس أخيه فقال له هارون ما قال. فقال موسى للسامري: ما خطبك؟ قال ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه:96]. قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شفا نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أباه وأخاه، ولا يُبالي من قتل، حتى قُتل منهم سبعون ألفًا، فأوحى الله إلى موسى: مرهم فليرفعوا أيديهم، فقد غفرت لمن قتل، وتبت على من بقي) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قال الله تعالى﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:155]. ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:55]. فهم لما جاءهم موسى بما أوحاه الله تعالى إليه من أمر ونهي بعدما فارقهم وصعد الجبل لمناجاة ربه جل وعلا؛ أظهروا العناد والإعراض، وكشفوا عن طبائعهم المنتكسة وخبث طويتهم فقالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أي: رؤيا عين، فقد طلبوا واشترطوا لإيمانهم بنبيهم وما جاء به من ربه من أوامر ونواهي، هذا الطلب المستحيل وهذه الرغبة التعجيزية في عجرفة متعالية، مع علمهم بما جرى لموسى ﷺ وهو أعلمهم وأشرفهم وأتقاهم حين سأل الله الرؤية فأباها عليه في قوله ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:143]. فغضب الله لطلب هؤلاء الحمقى السفهاء المتعجرفين؛ فعاقبهم الله لتوهم بالصاعقة الراجفة التي أرجفتهم وأرعبتهم، وأخذت أرواحهم فماتوا جميعًا قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى

اللَّهَ جَهْـرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:55]. وقال سبحانه لرسوله ﷺ لما تعنت معه يهود المدينة ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء:153]. فقام موسى يبكي ويدعو الله؛ يقول: ربي، أنت الذي قدرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارًا تختبرهم به، وقد أهلكت خيارهم؟ فماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وما يظنون بي، وأنت أعلم بسوء ما عندهم؟ وأنى يستجيبوا لي، ويسمعوا لي!.

قال ابن القيم في (الإغاثة 2/ 636): أن هذا استعطاف من موسى ﷺ لربه، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل حين عبد قومهم العجل ولم ينكروا عليهم يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل، وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم لو شئت وأخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولا فليسعني اليوم.أهـ

قال القاسمي (1/ 341): دلتْ الآية على أن طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سؤال الرؤية إلا استعظمه؛ وذلك في آيات منها هذه، ومنها قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء:153]. ومنها قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:21]. فدلتْ هذه التأويلات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها. وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عَزَّ وَجَلَّ برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك، وهي قطعية الدلالة. لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها. اهـ

ونقل القاسمي (5/ 196) عن الجشمي قال: تدل الآية عل حسن سؤال نعيم الدنيا، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة، وتدل على أن الواجب على الداعي أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص؛ لذلك قالوا ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾. وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر، ويخص بالثواب المؤمن، ومَنْ تأمل هذا السؤال والجواب عرف عظيم محل هذا البيان؛ لأنه ﷺ سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة، فكان من الجواب: أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح علي التنعم، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها. وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذي هو التصديق، حتى ينضم إليه الطاعات، ويبطل قول المرجئة. اهـ

قال تعالى على لسان نبيه وكليمه موسى ﷺ ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (155) وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: 155-156]. لو شئت أهلكتنا على أي حال، ولكن الذين عصوك وعبدوا العجل سفهاء، أفتهلكنا لأجل كفر وجريرة هؤلاء السفهاء!، فالأمر أمرك، والحكم حكمك، ونحن عبيدك نواصينا بيدك، وما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق ولك الأمر، أنت ولينا الذي لا ولي لنا سواه، تبنا إليك ورجعنا وأنبنا، فاغفر لنا يا خير الغافرين ويا أرحم الراحمين، فأجاب سبحانه دعاء موسى ﷺ بقوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 156]. وقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة، وقضى أن رحمته وسعت كل شيء، وأن رحمته تسبق غضبه؛ فرحمهم وامتن عليهم قال جلَّ وعلا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: 56]. فهو فضل الله عليهم ورحمته بهم سبحانه، وإلا فهم قوم سوء، ونكول عن الحق والعمل به واتباعه.

قال صاحب التحرير: وهذه عقوبة دنيوية لا تدل على أن المعاقب عليه حرام أو كفر لا سيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلًا، فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود. وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أن رؤية الله تعالى مستحيلة، وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة، وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لاعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام فكانوا بذلك كافرين إذ لا دليل في الآية ولا غيرها على أنهم كفروا كيف وقد سأل الرؤية موسى ﷺ!.اهـ

قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63]. وقد شدد عليهم سبحانه في أخذ الميثاق؛ وهو ما أنزله الله إليهم من التوراة، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93]. وقال ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:12]. وقال ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ [المائدة:70]. وغيرها من الآيات.

وذكر لنا سبحانه تفاصيل هذا الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:83]. فما أخذوه بحقه، وكم أخذ الله عليهم عهودًا ومواثيق، فما لزموها ولا رعوها حق رعايتها، ولهذا مقتهم الله وبغضهم ولعنهم وطردهم من رحمته ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:155]. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة:13].

قال تعالى ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171].

قال ابن كثير (2/ 250): عن ابن عباس قال (ثم سار بهم موسى ﷺ إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمره الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم) رواه النسائي بطوله، وقال سنيد بن داود في (تفسيره) عن أبي بكر بن عبد الله قال: (هذا كتاب أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل الله لكم، وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: أنشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها، فراجعوه مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل، فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء. قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عَزَّ وَجَلَّ؛ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل. قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر؛ يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز، ونغض لها رأسه أي حول، كما قال تعالى ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: 51].) والله أعلم.اهـ

إنه ميثاق لا ينسى، فقد أخذ في ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، وكانوا يومها متقاعسين عن أخذ الميثاق، فأعطوه في هذا الظرف الخارق، وقد أمروا أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجد، ويستمسكوا به بلا تخاذل ولا تهاون، ولا تراجع، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي، وتظل موصولة بالله لا تنساه، ولكن نقضت بنو إسرائيل الميثاق، ونسيت ربها، ولجت في المعصية، حتى استحقت غضب الله ولعنته، وحق عليهم القول، بعدما

اختارهم سبحانه على العالمين في زمانهم، وأفاض عليهم من عطاياه ونعمه، فلم يرعوا عهدًا، ولم يذكروا ميثاقًا؛ وإنما أقام الله عليهم الحجة بذلك.

لهذا الجحود والنكران وكل صفات الذم والقدح التي التصقت ببني إسرائيل يقول الله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة:75]. أي وهذا حالهم مع ربهم؟!.

والآن اقرأ متدبرًا قصة الصعق:

قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا
عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)
وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب
بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا
مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ
وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا
مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ
الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:55-64].

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ
تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ
مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى
مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا
قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ
اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

[الأعراف: 152-162]

بقرة بني إسرائيل

يولي القرآن العظيم أهمية قصوى لجرائم بني إسرائيل وتعنتهم وسفههم، فقصص بني إسرائيل قد امتلأ بها القرآن؛ سورة بأكملها أو بعضها، فكلما قلبت صفحات القرآن تقرأ تجددت الأحداث في ذهنك، وفهمت عن بني إسرائيل ما لم تكن تنبهت له قبل ذلك.

فمن معاني حدث الإسراء والمعراج المبارك: أن قيادة الدنيا إلى ربها انتقلت من بني إسرائيل إلى أمة الإسلام؛ لما صلى رسول الله ﷺ بالأنبياء والمرسلين أجمعين إمامًا في المسجد الأقصى عقب معراجه ـ نسأل الله تعالى أن يفك أسره ـ وقد ذكر ابن كثير (3/ 23) الأحاديث ورواياتها الواردة عن الحدث إلى أن قال: (والحق أنه ﷺ أُسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبًا البراق. فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج؛ وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليها. والظاهر أنه

بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم، جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق لأنه كان أولًا مطلوبًا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل ﷺ له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم) اهـ

فلأجل هذه المهمة التي أنيطت بأمة الإسلام فضح الله سبحانه بني إسرائيل، حتى كشف خبايا ما تكن صدورهم، ليكون ذلك عبرة للمؤمنين الذين سيقودون المسير إلى الله والدعوة إليه بعدهم.

باع كبير ومهارة فائقة لبني إسرائيل في أساليب اللف والدوران والمماحلة والروغان، ولهذا تجد في عصرنا تفننهم في الإكثار من المفاوضات فهم يتفاوضون في كل شيء، حتى أنهم يتفاوضون هل نتفاوض أو لا نتفاوض؟! فإن خالفتهم في جزئية، جروك بعيدًا عن أصل الكلام لتثور المعارك الكلامية، والجلسات التفاوضية حول هذه الجزئية، فهم مثيرو شغب وجدل وفتنة وحرب، فإن رددت عليهم اتهموك بأنك لا تريد السلام، فإن قلت: إنما نحارب لندفع الظلم والعدوان ونريد السلام، قالوا: إذن لماذا تحارب؟ فإن توقفت عن الحرب ولزمت جانب السلام؛ يتحرشون بك حتى تحاربهم!!

وهكذا في المفاوضات يتلاعبون بالألفاظ والحروف والكلمات تضييعًا للأوقات والزمان، وممارسة لهواية اللف والدوران.

وفي هذا المدار يحكي لنا ربنا قصة بني إسرائيل مع البقرة، فيقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البَقَرَة:67]. والذي دعا موسى ليقول لقومه هذا الذي أمرهم الله به بذبح بقرة هو الذي سيأتي بعد في نهاية القصة لما قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 72-73].

وخلاصة القصة كما جاءت عن الأئمة المفسرين: أن رجلًا غنيًا من أثرياء بني إسرائيل قتله أبناء أخيه، ولم يكن له وارث غيرهم، ولكنهم تعجلوا ميراثه، فعجلوا بقتله، ثم حملوه وألقوه في حي غير حيهم، كي يتهم به غيرهم.

واختلفوا فيمن قتل هذا الرجل، وجاء إلى موسى ﷺ هؤلاء الذين قتلوا القتيل كأنهم البُرآء يسألون عن قاتل عمهم، ويمرغون أنفسهم في التراب إظهارًا للحزن والأسى على مقتل من قتلوه!! وطلبوا من موسى النبي الصادق أن يراجع ربه في ذلك، ليتعرفوا على القاتل، فأوحى إليه ربه جلَّ وعلا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وهم أعلم الناس بالبقر، وهم قد عبدوه من دون الله، وهذا ما أخبرهم به الرسول الصادق، الذي جاءوا يطلبون علم خبر هذا القتيل عنده، فوجب عليهم أن يسمعوا له وينصاعوا لما يقول، ويعجلوا إلى إجابة ما طلبه، وما طلب ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

فبماذا أجاب هؤلاء السفهاء ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي: أنك تهزأ بنا يا موسى، وتسخر منا حين تطالبنا بذلك! فما علاقة القتل، ومعرفة القاتل بذبح بقرة؟!

وهذا إنما يدل على سوء أدبهم الملازم لهم والمتكرر مع نبيهم ﷺ، بجانب أنه استهزاء بموسى وصدقه، وهو كذلك رد لأمر الله تعالى واعتراض عليه، ولذلك نجد ديننا العظيم ينظر إلى الهزء والسخرية فيما يتعلق بالله تعالى وأوامره وكلامه ورسله وشعائر دينه نظرة ماقتة مكفرة لهذه الأفعال التي في حقيقتها ما هي إلا تكذيب بالله و شرعه، فقد روي أن رجلًا من المنافقين قال في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك (كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ) فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا

نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر (كأني أنظر إليه متعلقًا بنِسعْةِ ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ **[أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم]** ما يلتفت إليه وما يزيد على ذلك) ابن كثير351/2 وتنزل الآية من سورة التوبة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:65-66]. فالمؤمن هو الذي يسلّم وينصاع لأمر ربه وشرعه، وإن لم يعرف غاية ولا غرض ولا فائدة لهذا الأمر ولذاك النهي، يقول تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:65]. ويقول ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:51].

أما بنو إسرائيل فقد قالوا لنبيهم ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فأجابهم بقوله ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة:67]. وهذا يدل على أن قولهم هذا جهل وجهالة، فإنه إنما يبلغهم ذلك عن ربه عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يهزأ ويسخر؟! والجهل قبيح بأهله، كما قال بعضهم: « كفى بالجهل عيبًا أن يتبرأ منه صاحبه»، فموسى ﷺ يتعوذ بالله من الجهل وأهله، فلا يصح أن يتصف نبي بهذه الصفة القميئة!.

وشدد بنو إسرائيل على أنفسهم فشدد الله عليهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة:68]. أسلوب بذيْ وطريقة غير مستقيمة في مخاطبة رسولهم، وأنت تشعر بالمفاصلة والشقاق الذي يجعلونه بينهم وبين نبيهم وربه، أليسوا هم أصحاب ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة:24]. ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة:61]. وقد سألوا عن الماهية، عن حقيقة البقرة، وأمرها في غاية الوضوح والظهور.. بقرة!! ولو أنهم فعلوا ما أمروا به لكان خيرًا لهم، ولو مدوا أيديهم إلى أي بقرة فذبحوها، لكانوا قد أطاعوا الله ورسوله،

ولكنها طبيعة بني إسرائيل في المماحلة والتلكؤ واللف والدوران، وكأنهم ما زالوا في شك من أن موسى يهزأ، فسألوا عن الماهية، وهو في هذا المقام إنكار واستهزاء، إنها بقرة وكفى!!

ورغم كل ما تتقيأ به قرائح بني إسرائيل، والعجرفة والتعنت الإسرائيلي، يصبر موسى ويجيبهم معلمًا غير مجادل لهم في باطلهم ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة:68]. إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي بكر صغيرة لم تلد، وإنما هي شابة وسط بين هذا ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ وهي نصيحة آمرة، وفي هذا كفاية لمن أراد الهداية، تم التحديد الذي يريدون؛ فليأتوا ببقرة متوسطة السن، فيذبحونها وانتهى الأمر، ولكن لابد أن يمارسوا هوايتهم، ويظهروا طبيعتهم في تعقيد الأمور، وتضييق المسالك.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة:69]. أي: لونها الذي سألتم هو أصفر فاقع أي شديد الصفرة، كما نصف الألوان فنقول: أحمر قاني، وابيض ناصع، وأسود حالك، وهي تسر الناظرين بلونها ونشاطها وحيويتها لصغر سنها.

وهكذا ازداد الأمر تعقيدًا وتضييقًا وإلزامًا، ولكنهم على نهجهم وسوء أدبهم ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:70]. عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية، ويعتذرون عن هذا السؤال بأن الأمر مشكل حيث أن البقر تشابه؛ وهو أمر معلوم يقينًا عندهم من البداية، البقر كله متشابه، فكان يجزئهم ذبح بقرة، ولكنهم ضيقوا ما كان واسعًا، فضيّق الله عليهم، وكأنهم استشعروا لجاجتهم فقالوا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ولولا استثنائهم لما اهتدوا إليها أبدًا!!

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة:71]. إذن فهي بقرة مدللة مكرمة، ومع أن البقر إنما خلق للحرث، إلا أن هذه البقرة المطلوبة لم تذلل لإثارة الأرض وحرثها، ولا تسقي زرعًا؛ فهي مكرمة، وكذلك مسلَّمة من العيوب التي قد توجد في أخواتها كالعور

والعرج وغيره، ومسلمة كذلك من أي عمل آخر في الحقول، ولاشية فيها أي ليس فيها لون يخالف لون جلدها الأصفر الفاقع. وهكذا ازدادت الأمور تعقيدًا، وتضاعفت الشروط، وضاق الاختيار ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآن!! كأن كل ما مضى ليس حقًا، وكأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به موسى ﷺ هو الحق إلا الآن!! فذهبوا يبحثون عنها، فما وجدوها إلا بعد جهد وبحث، ودفعوا لأجل هذه البقرة المنشودة ما طلبه صاحبها ثمنًا لها؛ عشر أضعاف وزنها ذهبًا.

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.. لكثرة استفساراتهم و تعنتهم وتغابيهم. وكشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف بقوله ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:72-73]. والله سبحانه قادر على إحياء القتيل بدون ذبح لبقرة ولا غيره، وبدون ضربه ببعض أجزائها؛ وإنما هي وسيلة تكشف عن قدرة الله العظيمة، وآية من آياته، ومعجزة من المعجزات المؤيدة لدعوة موسى ورسالته لهؤلاء المعاندين المتكبرين الجاحدين، فضربوه ببعضها؛ فأحياه الله تعالى أمام أعينهم، والحمد لله أنه سبحانه أمرهم أن يضربوه ببعضها، وإلا وجدوه مرتعًا جديدًا لتعنتهم وتضييقهم بأسئلة باردة جديدة!.

قال ابن القيم في (الإغاثة 2/ 641-643): ومن تلاعب الشيطان بهم في حياة نبيهم: ما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه، وتدافعوا فيه حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها.

وفي هذه القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضال.

ومنها: إنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: اعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.

قال ابن جرير: عن الربيع، عن أبي العالية: لو أنَّ القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها. فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم، ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال. ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض مَنْ سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى ﷺ أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلًا منهم، وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها. قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إنَّ القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميّت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق.

قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾.

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا. فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب. ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أنَّ هذه القصة كانت بعد قصة العجل. ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل. أهـ

نقل القاسمي (1/ 364) عن الزمخشري في «الكشاف» قال: فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها؟ فيقال: وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟.

أجيب: بأن كل ما قصَّ من قصص بني إسرائيل، إنما قصَّ تعديدًا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعًا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع .اهـ

قال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 74].

لم يتراجع بنو إسرائيل فيلزموا جانب الشرع المنزّل، ولم يطيعوا ربهم ورسولهم، ولم يجددوا إيمانهم، وإنما ظلوا على غيهم وضلالهم، وأخبر الله تعالى عن حقيقة أمرهم، وخبايا صدورهم، وقساوة قلوبهم وتحجرها، فهي أقسى القلوب البشرية فقال تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة: 13]. لهذا نهى الله المؤمنين أن يكونوا كبني إسرائيل، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16]. فقلوبهم قاسية متحجرة، بل هي أشد قسوة من الحجارة التي تتفجر منها الأنهار، وتنشق فيجري منها الماء عذبًا، وترق فتهبط وتدكدك من خشية ربها وخالقها، فالحجارة أرق وألين من قلوب بني إسرائيل.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. يا أهل القسوة والغلظة، يا أحفاد القردة والخنازير، يا قتلة الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز؛ كل صفاتكم ذميمة حتى أن الله تعالى مقتكم وغضب عليكم ولعنكم، وأعد لكم جهنم وساءت مصيرًا. فهذا جزاؤكم بما عملتم وما ستعملون.

وهكذا خُتمتْ القصة في السورة التي سُميتْ باسم البقرة، لتظل تذكرنا ببني إسرائيل وإجرامهم وعنتهم وسوء أخلاقهم، ورقةت دينهم، وانحرافهم عن منهج الله وعن طاعة أوامرهم، لتأتي الآيات عقب القصة فتقول لنا﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ [البقرة: 75]. !!!.

والآن اقرأ قصة البقرة متأملًا متدبرًا:

قال تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 67-74].

الشيخان: موسى والخضر

من أروع القصص التي قصَّ علينا القرآن قصة موسى ﷺ والخضر، وهي القصة التي تدور محاورها حول العلم وطلبه، والحكمة الإلهية التي لا يحيط بها علم البشر.

والقصة مثيرة للمفاجآت والأحداث الغريبة، فهي ولا شك تشد إلى متابعتها السامع والقارئ كي يعرف السر وراء هذه الأفعال والتصرفات، حتى أنها شدت إليها سيد البشر ﷺ فقال [وددنا لو أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما] (خ).

وقد بدأتْ القصة من عند قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: 60-65].

ومقدمة القصة ومدخلها يسترعي الانتباه ويشده ليتساءل المرء أسئلة عدة من البدء: إذا كان هذا هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل؛ فمن هو فتاه؟ وأين مجمع البحرين الذي توجه له؟ ولماذا كل هذا الحرص والإصرار عند موسى ﷺ لبلوغ المجمع؟ وما الذي دعى موسى لأن يقول ما قال لفتاه في بدء القصة؟!

كل هذا وغيره توضحه وتبينه وتجيب عليه السنة المباركة؛ حيث جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: إِنَّ نَوْفًا الْبَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ. فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ؛ فأخبر أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى؛ الَّذِي سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ

إِلَى لُقِيِّهِ. هَل سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ يَقُولُ [قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى إِذَا فَاضَتِ العُيُونُ وَرَقَّتِ القُلُوبُ، وَلَّى. فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ الله، هَل تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا. فَعَتَبَ الله عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلمَ إِلَيْهِ. فَأَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ؟ فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ الله لَهُ الحُوتَ آيَةً، فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ، فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلقَاهُ، فَانطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ. قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾، فَكَانَ مُوسَى ﷺ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ. حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ.

﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، وَأَمْسَكَ الله عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ. فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ فَانطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ. فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَوَجَدَا خَضِرًا رَجُلًا مُسَجًّى بِثَوْبٍ قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ الله فِي كِتَابِهِ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيكَ، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلمٍ مِنْ عِلمِ الله عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ فَانطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ. فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى

حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ. فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ، فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالقَدُّومِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَا صَنَعْتَ؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا! ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، وَالوُسْطَى شَرْطًا وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا. فَانْطَلَقَا، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ البَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ، فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ قَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ [يَرْحَمُ الله مُوسَى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا] قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقْرَأُ ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ - صَالِحَةٍ - غَصْبًا ﴾ وَكَانَ يَقْرَأُ ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ - كَافِرًا وَكَانَ - أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾.

فالفتى هو يوشع بن نون المحب لموسى والخادم له، اختصه برفقته له وخدمته، وصار خليفة من بعده على بني إسرائيل، وفتح الله عليه بيت المقدس، ونصره على الجبارين.

ولما علم موسى من ربه أن لدى هذا العبد علمًا ليس عنده، سعى إليه سعيًا حثيثًا، وحرص حرصًا شديدًا ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ على الرحلة إليه مهما تكلف من مشقة ليتعلم العلم، فهي دعوة موسوية قرآنية للحرص على العلم والتعلم، ولو عانيت في ذلك، ومعلوم أن موسى عليه السلام نبي رسول، فهو بالقطع على علم مما علمه الله، بل هو أعلم الناس في زمانه.

وكانت آية وعلامة معرفة هذا العبد الصالح: أن يُحيي الله له الحوت (السمك) وكان مملحًا، ويمضي في البحر، وكان الموعد مجمع البحرين أي حيث يلتقي البحران، ولم يحددهما القرآن، واجتهد الناس في ذلك، ولا يضر الجهل بهما، فالمقصود أن الرحلة بطولها كانت على ساحل البحر، وهو إما الأبيض أو الأحمر حتى يلتقي بآخر.

وكان دور الفتى يوشع أن يذكّر موسى حين تظهر هذه الآية، ولهذا اختفى ذكره بعد ذلك في القصة في القرآن، ونسي الفتى أن يذكر لموسى اضطراب الحوت ودخوله في البحر بطريقة عجيبة حيث أسكن الله البحر، وجمّد موضع سير الحوت في الماء فصار كالطوق، وما تذكر الفتى لأنه ما أراد أولًا أن يوقظ موسى من نومه حين حدث ذلك، ثم نسي بعد الاستيقاظ كذلك، ومضى أمر الله، وما تذكر إلا حينما شعر موسى بالتعب والنصب والجوع من كثرة ما مشي بالنهار والليل، حتى أصبح فقال ﴿ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: 62]. وما شعر بذلك وما أحسه إلا بعدما جاوز المحل والميقات الذي حدده ربه سبحانه!!

يقول العلماء: إن هنا معنى جليل ألا وهو؛ أن المتوجه في أمر لله كطلب علم أو حج لا يشعر بحاجة نفسه، ولا يسرع إليه النصب والجوع، بخلاف المتوجه إلى حاجة نفسه كتجارة ودنيا يريدها وغيره، وهذا تلحظه في السيرة الموسوية؛ فحينما توجه موسى إلى ميقات ربه لم يستشعر ولم يذكر الجوع والتعب والنصب، بينما لما توجه إلى مدين هربًا من بطش فرعون، والتقى لفتاتين ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: 24]، وكذلك هنا لما توجه لطلب العلم من الخضر ما شعر بالنصب والتعب إلا لما زاد عن الحد وتجاوزه!!

والأصل في السفر التعب والنصب والمشقة قال ﷺ [السفر قطعة من العذاب؛ فمَنْ قضى نهمته فليعجل إلى أهله] (خ)، وإنما عنى موسى هذا السفر بعينه، ولهذا قال ﴿ مِن سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾ ولم يقل: في سفرنا! فذكّره الفتى لما تذكر ما سبق من أمر الحوت عند الصخرة التي أويا

إليها، وأنه نسي، وما كان نسيانه إلا بسبب من الشيطان، والذي يغوي الإنسان ليبعده عن كل طاعة وعن كل خير﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:60] وعذر موسى فتاه في نسيانه، والنسيان في شرعنا عذر كذلك؛ قال ﷺ [**إنَّ الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**] (مج مق).

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف:64]. وهذا يدل على الحرص والتيقظ حتى لا يفوتهما الموضع الذي تخلف فيه الحوت وسقط منهما، وهو الموضع الذي جعله الله علامة على المكان الذي يكون فيه العبد العالم.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:65-66].

اتفق غالب العلماء: على أن هذا العبد هو الخضر، وسمي بذلك لأنه ما أقام في مكان إلا نبت العشب حوله، واخضرت الأرض من تحته، وفي السُنّة [فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟! قال: نعم، أتيتك لتعلمن مما علمت رشدًا] ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف:67-69].

وهنا يظهر واضحًا جليًا أدب السائل والمتعلم؛ فموسى عليه السلام في غاية الأدب، وفي غاية العلم، ومع ذلك تواضع أشد التواضع، وتأدب بأحسن الأدب وأكمله؛ فاستجهل نفسه، وأظهر احتياجه إلى العلم للنقص عنده، واستأذن أن يكون تابعًا لأستاذه، وسأله أن ينعم عليه ويرشده بتعليمه بعض ما أنعم الله به عليه.

في السُنّة [قال له الخضر: يا موسى، إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر] أي: أن العلم الذي نعلمه أنا وأنت لم

ينقص من علم الله شيئًا، كما أن هذا الطائر لم ينقص ما أخذه بمنقاره مَنْ البحر، فسبحان من أحاط علمه كل شيء ولا نحيط به علمًا ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:85]

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف:69]. فيستعين الله، ويقدم مشيئته في عزمه على الصبر على ما سيلقى، وما سيعلم مع هذا العبد العالم.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:70]. وهنا يشترط الخضر على موسى هذا الشرط الهام؛ لا تسأل عن ما سترى ويحدث إلا بعد أن أخبرك أنا بعلل وأسباب ما سيكون من أحداث وأفعال مستغربة!

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:71]. في السُّنّة [فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم. فقال له موسى: قوم حملونا بغير نولٍ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئًا إمرًا] أي: عجيبًا عظيمًا.

وهذه هي الحمية للحق، كما عرفناها في شخصية موسى ﷺ، وسرعة إنكاره للمنكر، وشدته في ذلك، واندفاعه في صد الظلم، ومنع المظالم تظهر واضحة جلية، فقد قال حين خرق السفينة ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ولم يقل (لتغرقنا) فنسى نفسه، واهتم بغيره، بينما الغالب على حال الناس، وكل أحد في مثل هذا الحال حال الغرق أن يقول: نفسي.. نفسي، لا يلتفت لا إلى مال ولا إلى ولد؛ فسبحان الذي جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق، والشفقة عليهم والرأفة بهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:72]. لأنك رأيت أمرًا في غاية العجب، فبدلًا من مجازاة أهل السفينة الذين حملوهم بلا أجرة بالإحسان، إذا به يخرق السفينة، فلا يليق بآحاد الناس فعل هذا، فضلًا عن هذا الذي قال الله تعالى فيه ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ

ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:65]. فأين الرحمة! وأين العلم في مثل هذا الفعل؟! ولولا أن موسى على يقين من أمر ربه وتوجيه لكان عجل بالانسحاب بعد الاعتراض، فكأنه كان مطمئنًا أن وراء ذلك شئ لا يعلمه إلا الله وهذا العبد الصالح؛ فصبر موسى واعتذر.

وكان رد الخضر على موسى بمثابة التنبيه والتذكير بالعهد والشرط ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:70]. فقال الخضر ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف:72-73]. فكان الأمر نسيانًا من موسى، ولهذا طلب عدم المؤاخذة على النسيان، والناسي معذور في الطبائع والشرائع.

وكان بيان هذه المسألة الأولى في القرآن؛ ما قاله الخضر ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف:79]. فهم مساكين يملكون سفينة؛ فمَنْ امتلك آلة أو سيارة مثلًا يتكسب بها، أو امتلك حرفة أو ما يشابه ولا تكفي مؤنته؛ فهو مسكين مستحق للصدقة والزكاة، لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة:60]. وقال النبي ﷺ [ليس المسكين الذي يطوف على الناس؛ ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفُطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس] (البخاري1476) ويتأدب الخضر مع ربه جل وعلا، فينسب العيب إلى نفسه قال ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾.

وظهر السبب الذي أبطل العجب؛ أن هناك ملك ظالم لا تمر به سفينة صالحة إلا أخذها غصبًا وظلمًا من أصحابها، فخرق الخرق في السفينة ليصيبها العطب المانع من أخذها، وهذا وإن كان إفسادًا، لكن هناك مصلحة أغلب دعت إليه، فسلمت السفينة لأصحابها.

وتستمر رحلة العلم والتعلم مع الشيخين الكريمين والنبيين الجليلين صلوات الله وسلامه عليهما وعلى نبينا والأنبياء والمرسلين أجمعين. فقد نزل الخضر منزل الأستاذ والمعلم المتّبع المطاع، ونزل موسى منزلة التلميذ والطالب والتابع عن طواعية ورضا ليتعلم.

وانطلقا عليهما السلام، كما قال القرآن ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾ [الكهف: 74]. انطلقا بعدما خرجا من السفينة على الساحل يمشيان حتى لقيا هذا الغلام فقتله الخضر بفصل رقبته عن جسده!!

فاعترض موسى وأنكر؛ لأنه رأى غلامًا وضيئًا يلعب مع الصبيان يُقتل بغير جريرة ولا ذنب بهذه الكيفية العنيفة، ولا شك أن موسى معذور في هذه المسألة أكثر من التي سبقت؛ – خرق السفينة –، والتي لم يقع فيها الضرر إلا على السفينة وفقط، وبالإمكان إصلاحه، أما هنا فغلام يُقتل، ولم يقتل أحدًا فيكون قصاصًا، وقد اتفقت الشرائع أنه لا يحل قتل امرئٍ بغير كبيرة الزنى من المحصن، وقاتل النفس، والمرتد عن الملة، وفي الحديث قال ﷺ [لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة] (خ م د ت)، فهذا قتل بغير مستند للقتل، وقد ذكر أنه انتقى هذا الغلام من بين غلمان يلعبون، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضءهم؛ فقتله. لهذا اشتد إنكار موسى عن المرة الأولى ﴿ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ ﴾ أي: صغيرة طاهرة لم تعمل إثمًا بعد ولا ذنب!! ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾ أي ظاهر بيّن في النكارة والغرابة.

فعاد الخضر يذكره بالشرط والعهد ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ وقد كانت الأولى من موسى نسيانًا، وإنما هذه عمدًا وإصرارًا لما شاهد ورأى من عظيمة قتل النفس لصغير بريءٍ، لكنه ما زال على عهده وشرطه، بل إنه يزيده توكيدًا وتأكيدًا ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ [الكهف: 76] فلا اعتراض مني بعد هذه المرة، فأنت قد عذرتني فأبلغت العذر، فإن حدث مني فلا تصاحبني، وقد قال نبينا ﷺ: [رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال ﴿ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِي ﴾] ابن كثير (3/ 96).

وحق لموسى أن لا يصبر، فهو بالإضافة لكونه شيّ مخالف، فهي طبيعته الانفعالية المندفعة في إحقاق الحق وإنكار المنكر، وهو وإن كان أعطى الوعد وقبل الشرط، ولكن شتان ما بين الكلام النظري والتطبيق العملي! فإنه ليس بالهين أن يرى صغيرًا تحتز رأسه وتقطع رقبته بلا جريرة ولا ذنب فيما يرى من ظاهر الأمر!.

يعود موسى إلى نفسه، فيجد أنه خالف وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويضع نهاية عاجلة للرحلة ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾.

ثم ينطلق الركب على ضوء ذلك، قال تعالى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف:77].

وهما جائعان، وانتهيا في رحلتهما عند قرية أهلها بخلاء لئام، ولا داء أدوى من البخل؛ فهم لا يطعمون جائعًا، ولا يقرون ضيفًا، ولا يعطون محتاجًا، وبينما هما على حالهما، إذا به يرى جدارًا في القرية من بنيانها يكاد أن يقع، ولا عجب أن ينسب ربنا جل وعلا إلى الجدار إرادة وعزمًا، فقد اطلع منه على ذلك، وقد أخبرنا سبحانه في الأحجار قريبًا من ذلك، فقال ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:74]. وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر:21]. والنبي ﷺ قال: [إني لأعلم حجرًا كان يسلم عليّ بمكة] (م)، فحينما يريد هذا الجدار أن ينقض فلا عجب في قصة العجب.

اندفع الخضر إلى الجدار فأقامه وأعاده إلى موضعه حتى استقر فيه، وفعل ذلك دون مقابل طعام أو غيره من هؤلاء البخلاء، فقد رأى موسى أمرًا مخالفًا للمفترض في هذا المقام؛ وهو أن يشارطهم قبل عمله في الجدار، أو أن يطلب أجرًا إذ لم يسعفه الوقت، فأقامه على عجل قبل سقوطه، بعد انتهاء العمل، ولكنه عمل ما عمل، ثم صحب موسى ورحل، فتعجب

موسى لذلك ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ فكانت هذه هي الفاصلة بين الرجلين في هذه الرحلة العلمية:

لذا سرعان ما ألقى بها الخضر دون تقدمة أو تمهيد، فالرجل وما وعد ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: 78-81].

هذا تعليل لقتل الغلام الذي قتله؛ أنه غلام طبع كافرًا، ولا يُعلم ذلك إلا من عالم السرائر والبواطن، فقد كشف سبحانه ستر الغيب عن حقيقته لعبده الخضر، فأعلمه بشيْ من غيبه في حق هذا الغلام، وأنه في نهايته ومآله كافر طاغ، وقد أورد ابن كثير في التفسير عن أُبَيّ ابن كعب عن النبي ﷺ [الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا]، فكلما كبر كلما ازداد طغيانًا وكفرًا، وأبواه مؤمنان، فكانت الخشية أن يتحول هذا الإيمان بسبب حب هذا الولد إلى كفر بالله العزيز الحكيم، وقد قال ربنا سبحانه محذرًا ومخوفًا من ذلك عباده، فقال جلَّ وعلا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: 14]. وقال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: 28]. وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: 9]. وقال ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: 15]. فليرض كل واحد بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، قال تعالى ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: 216].

قال تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: 81]. أي: يكون بدلًا منه ولد آخر أزكى من هذا الولد، وأرحم بوالديه منه، ولا يستطيع أحد أن يحكم على

الغيب المغيب، ولا أن يصدر أحكامًا على أحد على ضوء الأمور المغيبة، إنما حكمنا يكون على الظواهر لا البواطن، ولهذا لا نستطيع أن نجزم لأحد بأنه من أهل الجنة، أو من أهل النار، وقد قال النبي ﷺ **[وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها]** (خ م) لذا كانت الأعمال بخواتيمها، وأما في هذه القصة؛ فهذا أمر أطلع الله عبده على حكمته وإرادته فيه، فجعل فعل الخضر على مثل إرادة ربنا سبحانه، وحكمته الماضية.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: 82]. وهذا الجدار كان مخبوء تحته كنز للغلامين اليتيمين ـ واليتيم هو من فقد والده ـ ووالد الغلامين كان صالحًا، وقد قام الخضر بما قام به من إقامة الجدار لمصلحة اليتيمين، وإحسانًا من الله جل وعلا إليهما وفائدة ذكر صلاح الأب هنا؛ أن الأبناء حُفظوا بصلاح الأب، فهذه من أعظم أسباب حفظ الذرية أن يعمل العبد الصالحات، ويتقي الله جل وعلا، كما قال ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: 9].

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾.. فهذان نبيان جليلان يعملان في جدار الغلامين لأجل أن أباهما كان رجلًا صالحًا، وهكذا يتولى الله الصالحين ﴿ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196]. كان سعيد بن المسيب يقول لابنه: يا بني، إني لأزيدن في صلاتي من أجلك؛ رجاء أن أحفظ فيك، وتلا هذه الآية: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾

وقد ذكروا أن الكنز المخبوء لم يكن إلا لوح من رخام مكتوب فيه وصايا ونصائح، فلا هو مال وثروات، ولا ذهب ومجوهرات، وإنما علم وحكمة، فتدبر.

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ذلك لأن بلوغ الحلم لا يقدر عليه إلا الله، لهذا نسب الإرادة إليه سبحانه، ولا يُتم بعد بلوغ.

وهذا الذي فعله الخضر هو بإرادة الله، وبتعليمه له، وإطلاعه علي مواقع حكمته وإرادته وقضائه، وعلى كل الأحوال ما كان إلا رحمة من ربك العزيز الحكيم الرحيم اللطيف، فكل ما يجري في كونه بعلمه وحكمته، وعلى مدار رحمته يدور، لأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فقد يبتلي وينزل المصائب، لكنها في علمه وحكمته من رحمته ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: 19].

والآن اقرأ القصة بتدبر:

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ
فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا
عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ
أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا
فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا
فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن
يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن
رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: 60-82].

* * *

حديث الفتون

عن سعيد بن جبير قال: سألتُ ابنَ عباس عن قول الله جلَّ وعلا لموسى ﷺ ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه:40]. فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنِف النهار يا بن جبير فإن لها حديثًا طويلًا، فلما أصبحت غدوتُ إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال (تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم ﷺ يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم ﷺ. فقال فرعون: كيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا: ليوشكنّ أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكرًا واتركوا بناتهم، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى ﷺ، فوقع في قلبها الهمّ والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به! فأوحى الله إليها ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:7]. فأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليمّ، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟! لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه. فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فأردن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالًا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيء حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلامًا، فألقى الله عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط، ﴿ وَأَصْبَحَ

فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص:10]. من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه. وذلك من الفتون يا بن جبير! فقالت لهم: أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم. فأتت فرعون فقالت ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص:9]. فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله ﷺ [والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له، كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك] فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها؛ لأن تختار له ظئرًا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها، فلم يقبل. وأصبحت أم موسى والهًا، فقالت لأخته قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا، أحي ابني أم أكلته الدواب، ونسيت ما كان الله وعدها فيه، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ [القصص:11]. أخته ﴿ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:11]. ـ والجُنُب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به ـ فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا ﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص:12]. فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له،هل تعرفينهم؟ حتى شكّوا في ذلك. وذلك من الفتون يا ابن جبير! فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك.فتركوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريًا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لإبنك ظئرًا، فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئًا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيعوا، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيرًا، فعلت؛ فإني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أنَّ الله منجز موعوده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتًا

حسنًا، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون: لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدتها يومًا تزورها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخُزانها وظئرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أمينًا يحصي كل ما يضع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون. فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه. ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه. فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به فتونًا!

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا يُعرف الحق به؛ ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه! فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به، وكان الله بالغًا فيه أمره. فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع. فبينما موسى ﷺ يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي. فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبًا شديدًا، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل، وحفظه لهم،لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره.

فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:15]. ثم قال ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:16-18].

فأتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلًا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومَنْ يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة من قومه، لا ينبغي له أن يقتل من غير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلًا من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:18]. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:19]. وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا.

وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير!

فخرج موسى متوجهًا نحو مدين ولم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه جل وعلا، فإنه قال ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ

مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: 22-23]. يعني بذلك حابستين غنمهما. فقال لهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: 23]. معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقي من فضول حياضهم. فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرًا حتى كان أول الرعاء و انصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة، وقال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 15].

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلًا بطانًا فقال: إن لكما اليوم لشأنًا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 25]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]. فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت. فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: 27]. ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت السنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرًا.

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ لقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانيًا كانت على نبي الله واجبة، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئًا؟ وتعلم أن الله كان قاضيًا عن موسى مدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده، ما قص الله عليك في القرآن. فشكا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يحذر من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه الله عَزَّ وَجَلَّ سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون ﷺ، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:47]. قال ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه:49]. فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان؟ وذكره بالقتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل، فأبى عليه وقال ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ﴾ [الشعراء:31-32]. حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه:63]. يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما.

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بما يعمل هذا الساحر؟ قال: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:59].

قال ابن جبير: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة، اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:40]. يعنون موسى وهارون استهزاء بهما؛ فقالوا يا موسى، بعد تربثهم بسحرهم ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:115]. قال: بل ألقوا ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء:44]. فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف:117]. فلما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال، حتى صارت حرزًا للثعابين تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلًا إلا ابتلعته. فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:118-119].

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه،وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم آيات مفصلات. كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب أن يكفها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلًا، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه. فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصي وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيًا لله جلَّ وعلا!

فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:61]. افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:138-139]. قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم. ومضى فأنزلهم موسى منزلًا وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم؛ فإني ذاهب إلى ربي، وأجّلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه جلَّ وعلا وأراد أن يكلمه في ثلاثين يومًا، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، كره أنْ يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئًا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك! ارجع فصم عشرًا ثم ائتني، ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجعْ إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر حفيرًا وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل؛ فاحتمل موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثرًا فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن تكون عجلًا! فاجتمع كل ما في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلًا أجوف، ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله ما كان فيه صوت قط. إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا؛ فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق! وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى؛ فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعكفنا عليه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا عدم التكذيب به.

فقال لهم هارون ﷺ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه :90]. ليس هذا. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا؟ هذه أربعون يومًا قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال. أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [طه :86]. فقال لهم ما سمعتم مما في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف :150]. وألقى الألواح من الغضب. ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: 96-97]. ولو كان إلهًا لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتفكر عنا ما عملنا. فاختار موسى من قومه سبعين رجلًا لذلك، لا يألو الخيّر من خيار بني إسرائيل ومَنْ لم يشرك في الحق. فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض.

فاستحيا نبي الله ﷺ من قومه ومن وفده حيث فعل بهم ما فعل فقال ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف: 155]. وفيهم مَنْ كان الله اطلع منه على ما أشرب به قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: 156-157]. فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم. فقال له: إنَّ توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين خفي على موسى وهارون أمرهم، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى ﷺ متجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا به، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر،

وذكروا من ثمارهم أمرًا عجبًا من عظمها، فقالوا ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22]. لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: 22].

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: 23]. أي: من الجبارين: آمنّا بموسى وخرجنا إليه، وقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين. ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تُبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كل ناحية ثلاثة عيون، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالمنزل الأول بالأمس).

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل. فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره.

وقد رواه الحافظ ابن كثير في التفسير (3/ 144-149) وقال: وهكذا رواه النسائي في (السنن الكبرى)، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في (تفسيريهما) كلهم من حديث يزيد بن هارون به، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ المزي يقول ذلك أيضًا.اهـ



أحاديث

السيرة الموسوية

أولًا- الأحاديث الصحيحة

الحديث الأول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا يَعْنِي عَاشُورَاءَ. فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّى الله فِيهِ مُوسَى، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا لله. فَقَالَ: [أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ] فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ. البخاري (2004 و3397).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: [مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟] فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ أَنْجَى الله فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا فَنَحْنُ نَصُومُهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ] فَصَامَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ. مسلم (1911).

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (4/ 290-291): وقد استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه أنه ﷺ حين قدومه المدينة وجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول، والجواب عن ذلك أن المراد أن أول علمه بذلك وسؤاله عنه كان بعد أن قدم المدينة لا أنه قبل أن يقدمها علم ذلك، ففي الكلام حذفًا تقديره: قدم النبي ﷺ المدينة فأقام إلى يوم عاشوراء، فوجد اليهود فيه صيامًا. ثم وجدت في (المعجم الكبير) للطبراني ما يؤيد هذا الاحتمال، وهو ما أخرجه في ترجمة زيد بن ثابت قال (ليس يوم عاشوراء باليوم الذي يقوله الناس، إنما كان يوم تستر فيه الكعبة، وكان يدور في السنة، وكانوا يأتون فلانًا اليهودي - يعني ليحسب لهم- فلما مات أتوا زيد بن ثابت فسألوه)وسنده حسن، ومعناه: أن جهلة اليهود يعتمدون في صيامهم وأعيادهم حساب النجوم، فالسنة عندهم شمسية لا هلالية.

واستشكل رجوعه إليهم في ذلك، والجواب: هو احتمال أن يكون أوحى إليه بصدقهم أو تواتر عنده الخبر بذلك، أو أخبره به من أسلم منهم كابن سلام، وقال القرطبي: لعل قريشًا كانوا يستندون في صومه إلى شرع من مضى كإبراهيم، وصوم رسول الله ﷺ يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم كما في الحج، أو أذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه وأمر بصيامه احتمل ذلك أن يكون ذلك استئلافًا لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم. وعلى كل حال فلم يصمه اقتداء بهما فإنه كان يصومه قبل ذلك وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه. وأخرج مسلم عن ابن عباس يقول: صام رسول الله ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: أنه يوم تعظمه اليهود والنصارى.. الحديث.

واستشكل بأن التعليل بنجاة موسى وغرق فرعون يختص بموسى واليهود، وأجيب باحتمال أن يكون عيسى كان يصومه وهو مما لم ينسخ من شريعة موسى؛ لأن كثيرًا منها ما نسخ بشريعة عيسى لقوله تعالى

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: 50]. وأكثر الأحكام الفرعية إنما تتلقاها النصارى من التوراة. أهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (3/ 1/ 10-11): قوله (أنَّ النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء، وقالوا: إن موسى صامه وإنه اليوم الذي نجوا فيه من فرعون وغرق فرعون، فصامه النبي ﷺ، وأمر بصيامه، وقال: [نحن أحق بموسى منهم] قال المازري: خبر اليهود غير مقبول، فيحتمل أن النبي ﷺ أوحي إليه بصدقهم فيما قالوه، أو تواتر عنده النقل بذلك حتى حصل له العلم به، قال القاضي عياض ردًا على المازري: قد روى مسلم أنَّ قريشًا كانت تصومه، فلما قدم النبي ﷺ المدينة صامه، فلم يحدث له بقول اليهود حكم يحتاج إلى الكلام عليه، وإنما هي صفة حال وجواب سؤال، فقوله: (صامه) ليس فيه أنه ابتدأ صومه حينئذٍ بقولهم، ولو كان هذا لحملناه على أنه أخبر به من أسلم من علمائهم كابن سلام وغيره،

قال القاضي: وقد قال بعضهم: يحتمل أنه ﷺ كان يصومه بمكة، ثم ترك صيامه حتى علم ما عند أهل الكتاب فيه فصامه، قال القاضي: وما ذكرناه أولى بلفظ الحديث، قلت: المختار قول المازري، ومختصر ذلك: أنه ﷺ كان يصومه كما تصومه قريش في مكة، ثم قدم المدينة فوجد اليهود يصومونه فصامه أيضًا بوحي أو تواتر أو اجتهاد، لا بمجرد أخبار آحادهم. والله أعلم.

فوائد الحديث:

1- شكر الله لا يكون باللسان فقط وإنما كذلك بالأعمال ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا ﴾ [سبأ: 13].

2- الصوم عبادة عند أهل الكتاب ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183].

3- العمل بما يوافق أهل الكتاب مما جاء في الكتاب والسنة ولم يخالف شرعنا.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ. فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا!! فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي؟ فَقَالَ: [لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟] فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: [لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله؛ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ. فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ؟ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي؟ وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى]) البخاري (3414).

وفي لفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ. فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي؟ أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللهُ؟]) البخاري (2411).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: [مَنْ؟] قَالَ: رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ. قَالَ: [ادْعُوهُ] فَقَالَ: [أَضَرَبْتَهُ؟] قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ «وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ». قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ!! فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ. فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ؟ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأُولَى؟]) البخاري (2412).

معاني الكلمات

(الصَعْقَ) غشي يلحق مَنْ سمع صوتًا أو رأي شيئًا يفزع منه.

(تَنْشَقُّ) الخروج من القبر يوم القيامة.

(بَاطِشٌ) آخذ بقوة.

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (6/ 514-651): قوله (فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهودي) أي: عند سماعه قول اليهودي (والذي اصطفى موسى على العالمين) وإنما صنع ذلك

فهمه من عموم لفظ (العالمين) فدخل فيه محمد ﷺ وقد تقرر عند المسلم أن محمدًا أفضل، وهذا مبين في حديث أبي سعيد أن الضارب قال لليهودي حين قال ذلك: (أي خبيث على محمد؟!) فدلَّ على أنه لطم اليهودي عقوبة له على كذبه عنده.

قوله [**فإن الناس يصعقون، فأكون أول مَنْ يفيق**] في رواية [**فأصعق معهم، فأكون أول مَنْ يفيق**] لم يُبين محل الإفاقة من أي الصعقتين؟، وفي رواية [**فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث**] والمراد بالصعق؛ غشي يلحق من سمع صوتًا أو رأى شيئًا يفزع منه، وهي ظاهرة في أن الإفاقة بعد النفخة الثانية، وأصرح منها حديث أبي هريرة [**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة**].

واستشكل ما في حديث أبي سعيد [**فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض**] وفي غيرها [**فأكون أول من يفيق**]، ويمكن الجمع بأن النفخة الأولى يعقبها الصعق من جميع الخلق أحيائهم وأمواتهم، وهو الفزع كما وقع في سورة النمل ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:87]، ثم يعقبُ ذلك الفزع للموتى زيادة فيما هم فيه وللأحياء موتًا، ثم ينفخ الثانية للبعث فيفيقون أجمعين، فمَنْ كان مقبورًا انشقت عنه الأرض فخرج من قبره، ومن ليس بمقبور لا يحتاج إلى ذلك، وقد ثبت أن موسى ممن قبر في الحياة الدنيا، ففي مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: [**مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**].

واستشكل كون جميع الخلق يصعقون مع أن الموتى لا إحساس لهم، فقيل:

المراد أن الذين يصعقون هم الأحياء، وأما الموتى فهم في الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: إلا من سبق له الموت قبل ذلك، فإنه لا يصعق، واختاره القرطبي. ولا يعارضه ما ورد في هذا الحديث أن موسى ممن استثني الله لأن الأنبياء أحياء عند الله وإن كانوا

في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء. والأنبياء أرفع رتبة من الشهداء.

قوله: [فإذا موسى باطش بجانب العرش] أي: آخذ بشيء من العرش بقوة، والبطش الأخذ بقوة.

قوله: [فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله] أي: فلم يكن ممن صعق، أي فإن كان أفاق

قبلي فهي فضيلة ظاهرة، وإن كان ممن استثنى الله فلم يصعق فهي فضيلة أيضًا. وفي حديث أبي سعيد: [فلا أدري كان فيمن صعق ـ أي فأفاق قبلي ـ أم حوسب بصعقته الأولى] أي: التي صعقها لما سأل الرؤية.

تكميل: زعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع، وذكرهم، وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعًا ليس بواضح بل هما نفختان فقط، ووقع التغاير في كل واحدة منها باعتبار مَنْ يستمعها، فالأولى: يموت بها كل من كان حيًا ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله، والثانية: يعيش بها من مات ويفيق بها من غشي عليه والله أعلم. قال العلماء في نهيه ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد: لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، فالإمام مثلًا إذا قلنا إنه أفضل من المؤذن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة إلى الأذان. وقيل: النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها كقوله تعالى ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: 285]. ولم ينه عن تفضيل بعض الذوات على بعض لقوله ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253].

تنبيه: إذا تقرر أن النفخة للخروج من القبور، فكيف تسمعها الموتى؟ والجواب: يجوز أن تكون نفخة البعث تطول إلى أن يتكامل إحياؤهم شيئًا بعد شيء.

ـ حاصل ما ورد في تعيين من استثنى الله تعالى في قوله تعالى ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:68]. عشرة أقوال: الأول: أنهم الموتى كلهم لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون، قاله القرطبي في «المفهم» ومستنده: أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وتعقبه صاحبه القرطبي في «التذكرة» ـ والأخير تلميذ الأول ـ فقال: قد صح فيه حديث أبي هريرة؛ وعن سعيد بن جبير موقوفًا هم الشهداء وسنده صحيح. وهو القول الثاني. الثالث: الأنبياء، واختاره البيهقي قال: هم أحياء عند ربهم كالشهداء فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتًا في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار. ورجحه الطبري. الرابع: قال يحيى بن سلام في (تفسيره): بلغني أن آخر مَنْ يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يموت الثلاثة، ثم يقول الله لملك الموت: مت فيموت. قلت: أخرج الطبري بسند صحيح عن ابن عباس مثل يحيى بن سلام [ليس فيهم حملة العرش لأنهم فوق السماوات]. الخامس: يمكن أن يُؤخذ مما في الرابع. السادس: الأربعة المذكورون وحملة العرش، وقع ذلك في حديث أبي هريرة الطويل المعروف بحديث الصور، وسنده ضعيف مضطرب. السابع: موسى وحده، أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أنس. الثامن: الولدان الذين في الجنة والحور العين. التاسع: هم وخُزّان الجنة والنار، وما فيها من الحيات والعقارب. حكاهما الثعلبي عن الضحاك بن مزاحم. العاشر: الملائكة كلهم. جزم به ابن حزم في «الملل والنحل» فقال: الملائكة أرواح لا أرواح فيها فلا يموتون أصلًا. وأما ما وقع ثم الطبري بسند صحيح عن قتادة قال: قال الحسن: يستثني الله، وما يدع أحدًا إلا أذاقه الموت، فيمكن أن يعد قولًا آخر. قال البيهقي: استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال؛ لأن الاستثناء وقع من سكان السماوات والأرض، وهؤلاء ليسوا من سكانها؛ لأن العرش فوق السماوات، فحملته ليسوا من سكانها، وجبريل وميكائيل من الصافين حول العرش، ولأن الجنة فوق السماوات والجنة والنار عالمان بانفرادهما خلقتا للبقاء.اهـ

قال أبو جعفر الطحاوي في (شرح معاني الآثار 4/ 315): عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ﷺ باطش بجانب العرش، فلا أدري أصعق فيمن كان صعق فأفاق قبلي أو كان فيمن أستثنى الله عَزَّ وَجَلَّ] فنهى رسول الله ﷺ أن يفضلوه على موسى، وقال لهم: إني أول مَنْ يفيق من الصعقة فأجد موسى قائمًا، فلا أدري أكان فيمن صعق قبلي فأفاق قبلي أم كان فيمن أستثنى الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان ذلك عندنا على أنه جاز عنده أن يكون فيما استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ فلم تصبه الصعقة، ففضل بذلك أو صعق فأفاق قبله فكان في منزلته لأنهما قد صعقا جميعا، فكره النبي ﷺ لذلك تفضيله عليه لما احتمل تخطي الصعقة إياه.اهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (15/ 130): قال القاضي: وهذا من أشكل الأحاديث؛ لأن موسى قد مات فكيف تدركه الصعقة، وإنما تصعق الأحياء؟

قوله [**ممن استثنى الله تعالى**] يدل على أنه كان حيًا، ولم يأت أن موسى رجع إلى الحياة ولا أنه حي كما جاء في عيسى، وقد قال ﷺ: [**لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق**] قال القاضي: يحتمل أن هذه الصعقة صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السموات والأرض فتنتظم حينئذ الآيات والأحاديث، ويؤيده قوله ﷺ [فأفاق] لأنه إنما يقال أفاق من الغشي وأما الموت فيقال بعث منه، وصعقة الطور لم تكن موتًا. وأما قوله ﷺ [فلا أدري أفاق قبلي] فيحتمل أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه أول من تنشق عنه الأرض إن كان هذا اللفظ على ظاهره، وإن رآه ﷺ أول شخص تنشق عنه الأرض على الإطلاق. قال: ويجوز أن يكون معناه أنه من الزمرة الذين هم أول من تنشق عنهم الأرض فيكون موسى من تلك الزمرة وهي والله أعلم زمرة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وقوله ﷺ: [**ولا أقول أن أحدًا أفضل من يونس بن متي**] وفي رواية [**أن الله تعالى قال: لا ينبغي لعبد لي يقول: أنا خير من يونس بن متي**] وفي رواية [**ما ينبغي لعبد يقول: أنا خير من يونس بن متي**] قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل وجهين: أحدهما: أنه ﷺ قال هذا قبل أن

يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: [أنا سيد ولد آدم] ولم يقلْ هنا أن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. والثاني: أنه ﷺ قال هذا زجرًا عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئًا من حط مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصته. قال العلماء: وما جرى ليونس ﷺ لم يحطه من النبوة مثقال ذرة، وخص يونس بالذكر لذكره في القرآن بما ذكر، وأما قوله ﷺ: [ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس] فالضمير في أنا قيل يعود إلي النبي ﷺ، وقيل: يعود إلي القائل أي لا يقول ذلك بعض الجاهلين من المجتهدين في عبادة أو علم ذلك من الفضائل، فإنه لو بلغ من الفضاء ما بلغ لم يبلغ درجة النبوة. والله أعلم.

فوائد الحديث:

1- خبث اليهود وتعنتهم.

2- العرش مخلوق له جسم يُحمل ويمسك، وله جهات تحده.

3- غيرة الصحابة وتعظيمهم لمكانة رسول الله ﷺ، وشدة محبتهم وإجلالهم له.

4- التبين والتثبت قبل الحكم للمدعي.

5- السماع لطرفيّ الخصومة قبل الحكم.

6- عدم جواز المفاضلة بين الأنبياء من باب العصبية أو التنقص للآخرين، وإنما يكون التفضيل بدليل من الشرع.

7- عدالة النبي ﷺ وتواضعه.

الحديث الثالث

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَذَكَرْتُهُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ. قُلتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟! قِيلَ: بَل هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا

هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ. قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ] ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: [هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: [نَعَمْ] فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: [سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ]. البخاري (5705 و5752 و6472 و6541).

عنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ [عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ؛ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ. فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ. فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ] ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟] فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ [هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: [أَنْتَ مِنْهُمْ] ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: [سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ]. مسلم (323)، ورواه الترمذي والنسائي.

معاني الكلمات:

(انْقَضَّ) أي: سقط. (البَارِحَةَ) هي أقرب ليلة مضت.

(لُدِغْتُ) أي: لدغته العقرب وذوات السموم إذا أصابته بسمها، وذلك بأن تأبره بشوكتها.

(اسْتَرْقَيْتُ) أي: طلبت من يرقيني.

(العَيْنِ) فهي إصابة العائن غيره بعينه.

(حُمَةٍ) قال الخطابي: الحمة كل هامة ذات سم من حية أو عقرب.

(فَخَاضَ) أي: تكلموا وتناظروا.

(الأُمَمُ) جمع أمة، وهم العدد الكثير.

(الرُّهَيْطُ) تصغير الرهط، وهي الجماعة دون العشرة.

(وَلَا يَتَطَيَّرُونَ) أي: أنهم لا يتشاءمون كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (11/ 415-420): ذلك كان ليلة الإسراء ولفظه «لما أسرى بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد الحديث فإن كان ذلك محفوظًا كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة أيضًا غير الذي وقع بمكة، فعند أحمد والبزار بسند صحيح قال «أكربنا الحديث عند رسول الله ﷺ ثم عدنا إليه فقال: [**عرضت على الأنبياء الليلة بأممها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي يمر ومعه العصابة**] فذكر الحديث. والذي يتحرر من هذه المسألة: أنَّ الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماوات بابًا بابًا، ولا من التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة معهم، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات، ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك، وإنما

تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبي ﷺ، فمنها بمكة البعض ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها في المنام، والله أعلم.

قوله: [والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشر] في رواية: [فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، والنبي معه الخمسة]، وفي حديث ابن مسعود: [فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة، والنبي يمر ومعه العصابة، والنبي يمر وليس معه أحد]. والحاصل من هذه الروايات: أن الأنبياء يتفاوتون في عدد أتباعهم.

قوله: [فنظرت فإذا سواد كثير] في رواية: [فرأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق] والسواد ضد البياض هو الشخص الذي يرى من بعيد، ووصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد الجنس لا الواحد.

قوله: [ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير] في رواية: [فقيل لي انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر] مثله، وقد استشكل الإسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى، وقد ثبت من حديث أبي هريرة (كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: [إنهم غر محجلون من أثر الوضوء] وأجاب: بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه، وهذا كما يرى الشخص شخصًا على بعد فيكلمه ولا يعرف أنه أخوه، فإذا صار بحيث يتميز عن غيره عرفه. ويُؤيده أن ذلك يقع عند ورودهم عليه الحوض.

قوله: [هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب] في رواية [معهم] بدل قدامهم، والمراد بالمعية المعنوية فإن السبعين ألفًا المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفًا إليهم، والإشارة بهؤلاء إلى الأمة لا إلى خصوص من عرض، ويحتمل أن تكون مع بمعنى من فتأتلف الروايات.

قوله: (ثم نهض - أي النبي ﷺ- فدخل منزله، فخاص الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: هم الذين) وفي رواية (فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا الرسول، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال).

قوله: [كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون] وفي رواية عند مسلم: [ولا يرقون] بدل «ولا يكتوون»، وقد أنكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقي يحسن إلى الذي يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟ وأيضًا فقد رقي جبريل النبي ﷺ ورقي النبي أصحابه وأذن لهم في الرقي وقال: [من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل] والنفع مطلوب. قال: وأما المسترقي فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه، وتمام التوكل ينافي ذلك. قال: وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شيء. وأجاب غيره: بأن الزيادة من الثقة مقبولة وسعيد ابن منصور حافظ وقد اعتمده البخاري ومسلم واعتمد مسلم على روايته هذه وبأن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه. والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المسترقي؛ لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يُقال له والذي يفعل غيره به ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعي ولا في فعل النبي ﷺ له أيضا دلالة؛ لأنه في مقام التشريع وتبين الأحكام،ويمكن أن يقال إنما ترك المذكورون الرقي والاسترقاء حسما للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركًا أو احتمله، ومن ثم قال ﷺ [اعرضوا عليَّ رقاكم، ولا بأس بالرقي ما لم يكن شرك] ففيه إشارة إلى علة النهي، وقد نقل القرطبي عن غيره: أن استعمال الرقي والكي قادح في التوكل بخلاف سائر أنواع الطب، وفرق بين القسمين بأن البرء فيهما أمر موهوم وما عداهما محقق عادة كالأكل

والشرب فلا يقدح، قال القرطبي: وهذا فاسد من وجهين: **أحدهما: أن أكثر أبواب الطب** موهوم، **والثاني**: أنَّ الرقى بأسماء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحًا في التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رقي النبي ﷺ ورقي وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعًا من اللحاق بالسبعين أو قادحًا في التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم. وتعقب بأنه بني كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقًا، وليس كذلك، وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهني قال: (أقبلنا مع رسول الله ﷺ فذكر حديثًا وفيه: [**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومَنْ صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة**] فهذا يدل على أنَّ مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم، بل فيمن يحاسب في الجملة مَنْ يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته وعرف مقامه من الجنة يشفع في غيره من هو أفضل منهم.

قوله [**وعلى ربهم يتوكلون**] يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص لأن صفة واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك. وقال **القرطبي** وغيره: قالت طائفة من الصوفية لا يستحق، اسم التوكل إلا مَنْ لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لا ينزعج، وحتى لا يسعى في طلب الرزق لكون الله ضمنه له. وأبي هذا الجمهور وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعًا ولا تدفع ضرًا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئة، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو

تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحيانًا إلا أنه قد يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقي إلى مقام الواصل. وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تُنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره. ومن الأدلة على مشروعية الاكتساب حديث أبي هريرة رفعه [أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه] فقد قال تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء:80].

وقال تعالى ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:102]. وأما قول القائل: كيف تطلب ما لا تعرف مكانه؟ فجوابه: أنه يفعل السبب المأمور به، ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته فيشق الأرض مثلًا ويلقي الحب ويتوكل على الله في إنباته وإنزال الغيث له، ويحصل السلعة مثلًا ونقلها ويتوكل على الله في إلقاء الرغبة في قلب من يطلبها منه، بل ربما كان التكسب واجبًا كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة فمتى ترك ذلك كان عاصيًا. وسلك الكرماني في الصفات المذكورة مسلك التأويل فقال: قوله [لا يكتوون] معناه إلا عند الضرورة مع اعتقاد أن الشفاء من الله لا من مجرد الكي، وقوله [ولا يسترقون] معناه بالرقي التي ليست في القرآن والحديث الصحيح كرقي الجاهلية وما لا يؤمن أن يكون فيه شرك، وقوله [ولا يتطيرون] أي: لا يتشاءمون بشيء فكأن المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية في عقائدهم. قال: فإن قيل إن المتصف بهذا أكثر من العدد المذكور فما وجه الحصر فيه؟ وأجاب باحتمال أن يكون المراد به التكثير لا خصوص العدد. قلت: الظاهر أن العدد المذكور على ظاهره، فقد وقع في حديث أبي هريرة وصفهم بأنهم [تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر] وأيضًا عنه رفعه [أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة] وقد جاء في أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفًا زيادة عليهم، ففي حديث أبي هريرة عند أحمد والبيهقي عن النبي ﷺ قال: [سألتُ ربي فوعدني أن يدخل الجنة من أمتي] فذكر الحديث وفيه: [فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا] وسنده جيد، وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن حبان في (صحيحه)

من حديث أبي أمامة رفعه [وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي] وفي (صحيح ابن حبان) والطبراني بسند جيد من حديث عتبة بن عبد نحوه بلفظ [ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفًا، ثم يحثى ربي ثلاث حثيات بكفيه] وفيه (فكبر عمر)، فقال النبي ﷺ: [إن السبعين ألفًا يشفعهم الله في آبائهم وأمهاتهم وعشائرهم وإني لأرجو أن يكون أدنى أمتي الحثيات] وعند أحمد عن أنس رفعه [إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف] فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله، فقال: هكذا وجمع كفيه، فقال: زدنا. فقال وهكذا. فقال عمر: حسبك أن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة، فقال النبي ﷺ: [صدق عمر] وسنده جيد.

قوله (فقام إليه عكاشة) يُقال عكش الشعر ويعكش إذا التوى حكاه القرطبي، وحكى السهيلي: أنه من عكش القوم إذا حمل عليهم، وقيل: العكاشة بالتخفيف العنكبوت، ويُقال أيضًا لبيت النمل. ومِحْصَن هو ابن حُرْثان من بني أسد بن خزيمة ومن حلفاء بني أمية. كان عكاشة من السابقين إلى الإسلام وكان من أجمل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، قال ابن إسحاق: بلغني أن النبي ﷺ قال: [خير فارس في العرب عكاشة] وقال أيضًا: قاتل يوم بدر قتالًا شديدًا حتى انقطع سيفه في يده فأعطاه رسول الله ﷺ جزلًا من حطب فقال: [قاتل بهذا] فقاتل به فصار في يده سيفًا طويلًا شديد المتن أبيض فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد بيدي طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة ثم أسلم طليحة بعد ذلك.

قوله: [سبقك بها عكاشة] قد اختلفت أجوبة العلماء في الحكمة من قوله: [سبقك بها عكاشة] فأخرج ابن الجوزي في «كشف المشكل» من طريق أبي عمر الزاهد: أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب عن ذلك فقال: كان منافقًا، وكان ﷺ لا يسأل في شيء إلا أعطاه، فأجابه بذلك. ونقل ابن عبد البر عن بعض أهل العلم نحو قول ثعلب. وقال ابن بطال: معنى قوله «سبقك» أي: إلى إحراز هذه الصفات وهي التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله «لست منهم أو

لست على أخلاقهم» تلطفًا بأصحابه ﷺ وحسن أدبه معهم. وقال ابن الجوزي: يظهر لي أن الأول سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثاني فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثاني نعم لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية له وليس كل الناس يصلح لذلك. وقال القرطبي: لم يكن عند الثاني من تلك الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل مَنْ كان حاضرًا فيتسلسل، فسد الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقًا لوجهين: أحدهما: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح، والثاني: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول، كيف صدر ذلك من منافق؟ وإلى هذا جنح ابن تيمية. وصحح النووي: أن النبي ﷺ علم بالوحي أنه يجاب في عكاشة ولم يقع ذلك في حق الآخر. وقال السهيلي: الذي عندي في هذا أنها كانت ساعة إجابة علمها ﷺ واتفق أن الرجل قال بعدما انقضت. قلت: فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى.

وأما الرقية فتمسك بهذا الحديث مَنْ كره الرقى والكي من بين سائر الأدوية وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرهما، وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة: أحدها: قاله الطبري والمازري وطائفة أنه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعيين في أن الأدوية تنفع بطبعها كما كان أهل الجاهلية يعتقدون، وقال غيره: الرقى التي يحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية وما الذي لا يعقل معناه لاحتمال أن يكون كفرًا، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه. وتعقبه عياض وغيره بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفا مزية على غيرهم وفضيلة انفردوا بها عمن شاركهم في أصل الفضل والديانة، ومن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها فليس مسلمًا فلم يسلم هذا الجواب. ثانيها: قال الداودي وطائفة: إن المراد بالحديث الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا، وهذا اختيار ابن عبد البر. ثالثها: قال الحليمي: يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث من غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض،

فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله، والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء ورقى الرقاة ولا يحسنون من ذلك شيئا، والله أعلم. رابعها: أن المراد بترك الرقى والكي الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره، لا القدح في جواز ذلك لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب، وإلى هذا نحا الخطابي ومن تبعه. قال ابن الأثير: هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها، وهؤلاء هم خواص الأولياء. ولا يرد على هذا وقوع ذلك من النبي ﷺ فعلًا وأمرًا، لأنه كان في أعلى مقامات العرفان ودرجات التوكل فكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكله، لأنه كان كامل التوكل يقينًا فلا يؤثر فيه تعاطي الأسباب شيئًا، بخلاف غيره ولو كان كثير التوكل، لكن من ترك الأسباب وفوض وأخلص في ذلك كان أرفع مقامًا. قال الطبري: قيل لا يستحق التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من شيء البتة حتى السبع الضاري والعدو العادي، ولا من لم يسع في طلب رزق ولا في مداواة ألم، والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعًا لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال الذي سأله: أعقل ناقتي أو أدعها؟ قال: [اعقلها وتوكل] فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل، والله أعلم. أهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (1/ 3/ 90-95): وأما (البارحة) فهي أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب: يُقال: قبل الزوال رأيتُ الليلة، وبعد الزوال، ورأيت البارحة، قالوا: وهي مشتقة من (برح) إذا زال، وقد ثبت في (صحيح مسلم) في كتاب الرؤيا: أن النبي ﷺ

كان إذا صلى الصبح قال: [هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟]. وقوله: (أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت) أراد أن ينفي عن نفسه اتهام العبادة والسير في الصلاة مع أنه لم يكن فيها.

وقوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة) أما (الحمة) وهي سم العقرب وشبهها، وقيل: فوعة السم وهي حدته وحرارته، والمراد أو ذي حمة كالعقرب وشبهها أي: لا رقية إلا من لدغ ذي حمة، وأما العين فهي إصابة العائن غيره بعينه. والعين حق، قال الخطابي: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى وأولى من رقية العين وذي الحمة، وقد رقى النبي ﷺ وأمر بها فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله تعالى فهي مباحة، وإنما جاءت الكراهة منها لما كان بغير لسان العرب؛ فإنه ربما كان كفرًا أو قولًا يدخله الشرك، قال: ويحتمل أن يكون الذي كره من الرقية ما كان منها على مذاهب الجاهلية في العِوذ التي كانوا يتعاطونها، ويزعمون أنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أنها من قبل الجن ومعونتهم. هذا كلام الخطابي رحمه الله والله أعلم.

وقوله ﷺ: [فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب] معناه: ومع هؤلاء سبعون ألفًا من أمتك. فكونهم من أمته ﷺ لا شك فيه. وأما تقديره فيحتمل أن يكون معناه: وسبعون ألفًا من أمتك غير هؤلاء وليسوا مع هؤلاء، ويحتمل أن يكون معناه: في جملتهم سبعون ألفًا، ويُؤيد هذا رواية البخاري في (صحيحه): [هذه أمتك ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا].

قوله ﷺ: [هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون] اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقال الإمام أبو عبد الله المازري: احتج بعض الناس بهذا الحديث على أن التداوي مكروه، ومعظم العلماء على خلاف ذلك، واحتجوا بما وقع في أحاديث كثيرة من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة كالحبة السوداء والقسط والصبر وغير ذلك، وبأنه ﷺ تداوى، وبأخبار عائشة ﵂ بكثرة تداويه وبما علم من الاستشفاء برقاه، وبالحديث الذي فيه: أن بعض الصحابة أخذوا على الرقية أجرًا، فإذا ثبت هذا حمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها ولا يفوضون الأمر إلى الله تعالى. قال القاضي عياض: قد ذهب إلى هذا التأويل

غير واحد ممن تكلم على الحديث، ولا يستقيم هذا التأويل وإنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة يدخلون الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر، ولو كان كما تأوله هؤلاء لما اختص هؤلاء بهذه الفضيلة؛ لأنَّ تلك هي عقيدة جميع المؤمنين، ومَنْ اعتقد خلاف ذلك كفر. وقد تكلم العلماء وأصحاب المعاني على هذا؛ فذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلى أن المراد: مَنْ تركها توكلًا على الله تعالى ورضاء بقضائه وبلائه، قال الخطابي: وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان قال: وإلى هذا ذهب جماعة سماهم، قال القاضي: وهذا ظاهر الحديث ومقتضاه أنه لا فرق بين ما ذكر من الكي والرقى وسائر أنواع الطب. وقال الداودي: المراد بالحديث الذي يفعلونه في الصحة فإنه يكره لمن ليست به علة أن يتخذ التمائم ويستعمل الرقى، وأما من يستعمل ذلك ممن به مرض فهو جائز. وذهب بعضهم إلى تخصيص الرقى والكي من بين أنواع الطب لمعنى وأن الطب غير قادح في التوكل، إذ تطبب رسول الله ﷺ والفضلاء من السلف. وكل سبب مقطوع به كالأكل والشرب للغذاء والري لا يقدح التوكل عند المتكلمين في هذا الباب، ولهذا لم ينف عنهم التطبب، ولهذا لم يجعلوا الاكتساب للقوت وعلى العيال قادحًا في التوكل إذا لم يكن ثقته في رزقه باكتسابه وكان مفوضًا في ذلك كله إلى الله تعالى، والكلام في الفرق بين الطب والكي يطول، وقد أباحهما النبي ﷺ وأثنى عليهما، لكني أذكر منه نكتة تكفي وهو أنه ﷺ تطبب في نفسه وطبب غيره، ولم يكتو وكوى غيره، ونهى في الصحيح أمته عن الكي وقال: [ما أحب أن أكتوي]. هذا آخر كلام القاضي. والله أعلم. والظاهر من معنى الحديث: ما اختاره الخطابي ومَنْ وافقه كما تقدم، وحاصله: أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم. ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها. وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز. والله أعلم.

قوله ﷺ: [وعلى ربهم يتوكلون] اختلفت عبارات العلماء من السلف والخلف في حقيقة التوكل، فحكى الإمام أبو جعفر الطبري وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يستحق اسم التوكل إلا مَنْ لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى من سبع أو عدو حتى يترك السعي

في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار. وقالت طائفة: حده الثقة بالله تعالى والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لا بد منه من المطعم والمشرب، والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين. **قال القاضي عياض**: وهذا المذهب هو اختيار الطبري وعامة الفقهاء، والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والإشارات. وذهب المحققون منهم إلى نحو مذهب الجمهور، ولكن لا يصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب، بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته والثقة بأنه لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضرًا والكل من الله تعالى وحده. هذا كلام القاضي عياض. **قال الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري** رحمه الله: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن تيسر فبتيسيره. **وقال سهل بن عبد الله التستري** رضي الله عنه: التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد. **وقال أبو عثمان الجبري**: التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه. وقيل: التوكل أن يستوي الإكثار والتقلل. والله أعلم.

قوله (عكاشة بن محصن) في قوله ﷺ للرجل الثاني: **(سبقك بها عكاشة) قال القاضي** عياض: قيل إن الرجل الثاني لم يكن ممن يستحق تلك المنزلة، ولا كان بصفة أهلها بخلاف عكاشة، وقيل: بل كان منافقا فأجابه النبي ﷺ بكلام محتمل، ولم ير ﷺ التصريح له بأنك لست منهم لما كان ﷺ عليه من حسن العشرة، وقيل: قد يكون سبق عكاشة بوحي أنه يجاب في ولم يحصل ذلك للآخر، قلت: وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه (في الأسماء المبهمة) أنه يقال إن هذا الرجل هو سعد بن عبادة رضي الله عنه، فإن صح هذا بطل قول من زعم أنه منافق، والأظهر المختار هو القول الأخير. والله أعلم.

قال شارح كتاب التوحيد (80-89): قوله (عن حصين بن عبد الرحمن) هو السلمي أبو الهذيل الكوفي.

ثقة تغير حفظه في الآخر مات سنة ست وثلاثين ومائة وله ثلاث وتسعون سنه. وسعيد ابن جبير هو الإمام الفقيه من جِلَّة أصحاب ابن عباس روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة وهو كوفي مولى لبني أسد قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين.

قوله: (أما إني لم أكن في صلاة) القائل هو حصين خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأي النجم إلا لأنه يصلي فأراد أن ينفي عن نفسه إيهام العبادة وأنه يصلي مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الأولياء وربما علق السبحة في عنقه أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس إعلامًا للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز، وقد حدث أن مر ابن مسعود بامرأة تُسبح به فقطعه وألقاها، ثم مر برجل يسبح بحصى، فضربه برجله، ثم قال: (لقد جئتم ببدعة ظلمًا أو لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ علمًا).

قوله: (فما حملك على ذلك) فيه: طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: (حديث حدثناه الشعبي) واسمه عامر بن شرحبيل الهمْداني الشعبي ولد في خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم، وفقهائهم مات سنة ثلاثة ومائة.

قوله: (عن بُرَيدة) تصغير بردة بن الحُصَيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي صحابي شهير أسلم قبل بدر، وعمل على اليمن في أيام النبي ﷺ مات سنة ثلاث وستين.

قوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أي: مَنْ أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن لأنه أدى ما وجب وعمل بما بلغه من العلم بخلاف مَنْ يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيئ آثم، وعلم بهذا أنَّ الحديث الأول لا يُخالف الثاني، وفيه: فضيلة علم السلف وعمقه وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم في تبليغ العلم و إرشادهم من أخذ بشيء وإن كان مشروعًا إلى ما هو أفضل منه، وأن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل العلم.

قوله: (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ.

فقال: [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل] فكان كذلك. قال عمر (لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا أحد) أي: ما بلغ عشره في العلم مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قوله [عرضت علي الأمم] في رواية عند الترمذي والنسائي عن حصين بن عبد الرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء فقال الحافظ: فإن كان ذلك محفوظًا كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة الذي وقع بمكة. كذا قال وليس بظاهر بل قد يكون رأي ذلك ليلة الإسراء ولم يحدث به إلا في المدينة، وليس في الحديث ما يدل على أنه حدث به قريبًا من العرض عليه.

قوله: [والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد] فيه: أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم، وأن بعضهم لا يتبعه أحد، وفيه الرد على مَنْ احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك بل الواجب إتباعَ الكتاب والسنة مع مَنْ كان وأين كان.

قوله: [إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي] وفيه: حسن ظن النبي ﷺ بربه.

قوله: [فقيل لي هذا موسى وقومه] أي: موسى بن عمران كليم الرحمن وقومه الذين اتبعوه وفيه فضيلة موسى وقومه.

قوله: [فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألف يدخلون الجنة بلا حساب أو عذاب] أي: لتحقيقهم التوحيد، وفي رواية ابن فضيل [ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا]. وفى حديث أبى هريرة في (الصحيحين) [أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر] وروى الإمام أحمد والبيهقى في حديث أبي هريرة [فاستزدت ربى فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا] قال الحافظ: وسنده جيد.

قوله: (فخاض الناس في أولئك) فيه إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق، وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. وفيه حرصهم على الخير.

قوله فقال: [هم الذين لا يسترقون]) هكذا ثبت في (الصحيحين) وهو كذلك في حديث ابن مسعود في (مسند أحمد). وفي رواية لمسلم (ولا يرقون) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ (ولا يرقون) وقد قال النبي ﷺ وقد سُئِلَ عن الرقى؟ [من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه] وقال: [لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا] قال: وأيضًا فقد رقى جبريل النبي ﷺ ورقى النبي ﷺ أصحابه. قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم، وكذا قال ابن القيم.

قوله: [ولا يكتوون] أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقاهم استسلامًا للقضاء وتلذذًا بالبلاء، أما الكي في نفسه فجائز كما في مسلم عن جابر بن عبد الله (أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيبًا فقطع له عرقًا وكواه) وفي البخاري عن أنس: أنه كوي من ذات الجنب والنبي ﷺ حي، وفي البخاري عن ابن عباس مرفوعًا [الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي] وفي لفظ [وما أحب أن أكتوي]. قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته، والثالث: الثناء على مَنْ تركه، والرابع: النهي عنه ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية.

قوله [ولا يتطيرون] أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها.

وقوله: [وعلى ربهم يتوكلون] ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال، وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه الذي هو نهاية تحقيق التوحيد

الذي يثمر كل مقام شريف: من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به ربًا وإلهًا، والرضى بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء فسبحان مَنْ يتفضل على مَنْ يشاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم. واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يُباشرون الأسباب أصلًا؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]. أي: كافيه. وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلًا على الله كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم له لكونه سببًا مكروهًا، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببًا لشفائه بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعًا؛ لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: [**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه مَنْ علمه، وجهله مَنْ جهله**]. وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال [**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يضع داءًا إلا وضع له دواء إلا واحد**] قالوا: ما هو؟ قال: [**الهَرَم**] رواه أحمد. **قال ابن القيم**: فقد تضمنتْ هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول مَنْ أنكرها، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة. ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل. فإنْ تركها عجز يُنافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه و دنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع،فلا يجعل العبد عجزه توكلًا ولا توكله عجزًا. وقد اختلف العلماء في التداوي: هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، والمشهور عند

الشافعية الثاني، حتى ذكر النووي أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف، واختاره الوزير أبو المظفر قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يُداني به الوجوب، ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه. وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.اهـ

فوائد الحديث:

1- أن أمة موسى أكثر الأمم بعد أمة محمد ﷺ.

2- إباحة المناظرة في العلم والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق.

3- فضل السلف الصالح، وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء، والتزين بما ليس فيهم، وأن يحمد بما لم يفعله.

4- طلب الحجة على صحة المذهب، وهل كان مقتديًا فيه أم لا؟.

5- وفيه: فضيلة علم السلف وعمقه، وحسن أدبهم وهديهم، وتلطفهم في تبليغ العلم وارشادهم من أخذ بشيء وإن كان مشروعًا إلى ما هو أفضل منه.

6- أن لا نُزهد في القِلة ولا نغتر بالكثرة.

7- أن مَنْ عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل العلم

8- أنَّ الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم، وأن بعضهم لا يتبعه أحد.

9 فضيلة موسى وقومه.

10- طلب الدعاء من الفاضل.

11- استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.

12- حسن ظن النبي ﷺ بربه.

الحديث الرابع

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ [بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - يَعْنِي بِهِ مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ - فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَض. فَقَالَ لَهُ: هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ. يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ. فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ. قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ. قَالَ: هَذَا يُوسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ. قَالَ: هَذَا هَارُونُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ

صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى. قَالَ: هَذَا مُوسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى! قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي. ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ: هَذَا أَبُوكَ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى؛ فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ. قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ. ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ. فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ. قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي] البخاري (3207و3393و3430و3887).

معاني الكلمات

(طَسْتٍ) إناء معروف، وخص بذلك لأنه آلة الغسل عرفًا وكان من ذهب؛ لأنه أعلى أواني الجنة، وقد أبعد مَنْ استدل به على جواز تحلية المصحف وغيره بالذهب؛ لأن المستعمل له الملك، فيحتاج إلى ثبوت كونهم مكلفين بما كلفنا به، ووراء ذلك كان على أصل الإباحة؛ لأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة.

(أَتَانِي آتٍ) هو جبريل. (ثُغْرَةِ نَحْرِهِ) وهي الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين.

(شِعْرَتِهِ) أي شعر العانة. (نسم بنيه) النسم جمع نسمة وهي الروح.

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (7/ 243-258): والمراد بالحطيم هنا الحجر، وأبعد من قال المراد به ما بين الركن والمقام، أو بين زمزم والحجر، لأن المراد هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها، ومعلوم أنه لم تتعدد القصة لاتحاد مخرجها، والجمع بين هذه الأقوال أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته - وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه - فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعا وبه أثر النعاس؛ ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق.

وقيل: الحكمة في نزوله عليه من السقف الإشارة إلى المبالغة في مفاجأته بذلك، والتنبيه على أن المراد منه أن يعرج به إلى جهة العلو. وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به. وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ولكل منها حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس [**فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك**] وكان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن

تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ. ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره، وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها. وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك.

قوله: [طست من ذهب] خصَّ الطست لكونه أشهر آلات الغسل عرفًا، والذهب لكونه أعلى أنواع الأواني الحسية وأصفاها، ولأن فيه خواص ليست لغيره ويظهر لها هنا مناسبات: منها: أنه من أواني الجنة، ومنها: أنه لا تأكله النار ولا التراب ولا يلحقه الصدأ، ومنها: أنه أثقل الجواهر فناسب ثقل الوحي. وقال السهيلي وغيره: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه، ولكونه وقع عند الذهاب إلى ربه، وأن نظر إلى معناه فلوضاءته ونقائه وصفائه ولثقله ورسوبته، والوحي ثقيل قال الله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: 5]. ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 8]. ولأنه أعز الأشياء في الدنيا، والقول هو الكتاب العزيز، ولعل ذلك كان قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة ولا يكفي أن يقال إن المستعمل له كان ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة؛ لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب فيلحق بأحكام الآخرة.

قوله: [مملوءة إيمانًا] زاد في رواية [وحكمة] قال النووي: معناه أن الطست كان فيها شيء يحصل به زيادة في كمال الإيمان وكمال الحكمة وهذا الملء يحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسيد المعاني جائز كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك من أحوال الغيب. وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيرًا، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف

المعنوي بالمحسوس. وقال ابن أبي جمرة: فيه أن الحكمة ليس بعد الإيمان أجل منها، ولذلك قرنت معه، ويؤيده قوله تعالى ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:269]. وأصح ما قيل في الحكمة أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله، فعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول فقد يتلازمان؛ لأن الإيمان يدل على الحكمة.

قوله: [فغسل قلبي] في رواية مسلم: [فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم] وفيه: فضيلة ماء زمزم على جميع المياه، قال ابن أبي جمرة: وإنما لم يغسل بماء الجنة لما اجتمع في ماء زمزم من كون أصل مائها من الجنة ثم استقر في الأرض فأُريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ في الأرض. وقال السهيلي: لما كانت زمزم هزمة جبريل روح القدس لأم إسماعيل جد النبي ﷺ ناسب أن يغسل بمائها عند دخول حضرة القدس ومناجاته.

وقد اشتملت هذه القصة من خوارق العادة على ما يدهش سامعه فضلًا عمن شاهده، فقد جرت العادة بأن مَنْ شق بطنه وأخرج قلبه يموت لا محالة، ومع ذلك فلم يؤثر فيه ذلك ضررًا ولا وجعًا فضلا عن غير ذلك. قال ابن أبي جمرة: الحكمة في شق قلبه - مع القدرة على أن يمتلئ إيمانا وحكمة بغير شق - الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالًا ومقالًا، ولذلك وصف بقوله تعالى ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:17].

قوله: [ثم أتيت بدابة] قيل: الحكمة في الإسراء به راكبًا مع القدرة على طي الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيسًا له بالعادة في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت بأن الملك إذا استدعى من يختص به يبعث إليه بما يركبه.

قوله [**دون البغل وفوق الحمار أبيض**] والحكمة لكونه بهذه الصفة الإشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة.

قوله [**يضع خطوه عند أقصى طرفه**] أي: يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. قيل ويُؤخذ من ترك تسمية سير البراق طيرانًا أن الله إذا أكرم عبدًا بتسهيل الطريق له حتى قطع المسافة الطويلة في الزمن اليسير أن لا يخرج بذلك عن اسم السفر وتجري عليه أحكامه. والبراق بضم الموحدة مشتق من البريق، فقد جاء في لونه أنه أبيض، أو من البرق؛ لأنه وصفه بسرعة السير انتهى. قال ابن أبي جمرة: خص البراق بذلك إشارة إلى الاختصاص به لأنه لم ينقل أن أحدًا ملكه، بخلاف غير جنسه من الدواب. قال: والقدرة كانت صالحة لأن يصعد بنفسه من غير براق، ولكن ركوب البراق كان زيادة له في تشريفه؛ لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش، والراكب أعز من الماشي.

قوله [**فحملت عليه**] وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: [**أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به أتي بالبراق مسرجًا ملجمًا فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا؟ فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقًا**] أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، وصححه ابن حبان. وللنسائي وابن مردويه عن أنس نحوه موصولًا وزاد: [**وكانت تسخر للأنبياء قبله**] وفيه: دلالة على أن البراق كان معدًا لركوب الأنبياء، خلافًا لمن نفى ذلك، ويؤيده ظاهر قوله [**فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء**] وقد جزم السهيلي أن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهده بركوب الأنبياء قبله. قال ابن المنير: إنما استصعب البراق تيهًا وزهوًا بركوب النبي ﷺ عليه، وأراد جبريل استنطاقه فلذلك خجل وارفض عرقًا من ذلك. وقريب من ذلك رجفة الجبل به حتى قال له: [**اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيد**] فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب.

قوله: [فانطلق بي جبريل] والذي يظهر أن جبريل في تلك الحالة كان دليلًا له فيما قصد له فلذلك جاء سياق الكلام يشعر بذلك.

قوله: [حتى أتى السماء الدنيا] ظاهره أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء، والعروج في غير هذه

الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق بل رقي المعراج، وهو السلم كما وقع مصرحًا به في حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج فلم أر قط شيئا كان أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء] الحديث. وقد حفظ ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال: [أتيت بالبراق - فوصفه قال - فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناءين - فذكر القصة قال - ثم، عرج بي إلى السماء] وقوله في رواية ثابت [فربطته بالحلقة] أنكره حذيفة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: (تحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟) قال البيهقي: المثبت مقدم على النافي، يعني مَنْ أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على نفي ذلك، فهو أولى بالقبول. وأنكر حذيفة أيضًا في هذا الحديث أنه ﷺ صلى في بيت المقدس، واحتج بأنه لو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه كما كتب عليكم الصلاة في البيت العتيق، والجواب عنه منع التلازم في الصلاة إن كان أراد بقوله (كتب عليكم) الفرض، وإن أراد التشريع فنلتزمه، وقد شرع النبي ﷺ الصلاة في بيت المقدس فقرنه بالمسجد الحرام ومسجده في شد الرحال، وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث، وفي حديث ابن مسعود عند مسلم [وحانت الصلاة فأممتهم] وفي حديث ابن عباس عند أحمد: [فلما أتى النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه] وفي حديث عمر عند أحمد أيضًا أنه (لما دخل بيت المقدس قال: أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى)، قال عياض: يحتمل أن يكون صلى

بالأنبياء جميعًا في بيت المقدس، ثم صعد منهم إلى السماوات من ذكر أنه ﷺ رآه، ويحتمل أن تكون صلاته بهم بعد أن هبط من السماء فهبطوا أيضًا. وقال غيره: رؤيته إياهم في السماء محمولة على رؤية أرواحهم إلا عيسى لما ثبت أنه رفع بجسده، وقد قيل في إدريس أيضًا ذلك، وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس فيحتمل الأرواح خاصة، ويحتمل الأجساد بأرواحها، والأظهر أن صلاته بهم ببيت المقدس كان قبل العروج، والله أعلم.

قوله: [السماء الدنيا] في حديث أبي سعيد عند البيهقي [**إلى باب من أبواب السماء يُقال له باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسماعيل وتحت يده اثنا عشر ألف ملك**].

قوله: [**قال جبريل**] فيه: من أدب الاستئذان أن المستأذن يسمي نفسه لئلا يلتبس بغيره.

قوله: [**أو أرسل إليه**] يحتمل أن يكون خفي عليه أصل إرساله لاشتغاله بعبادته، ويحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء وهو الأظهر لقوله «إليه».

وقولهم: [**أرسل إليه**] أي: للعروج، وليس المراد أصل البعث؛ لأن ذلك كان قد اشتهر في الملكوت الأعلى،

وقيل: سألوا تعجبًا من نعمة الله عليه بذلك أو استبشارًا به، وقد علموا أن بشرًا لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن الله تعالى، وأن جبريل لا يصعد بمن لم يرسل إليه.

وقوله: [**من معك**] يشعر بأنهم أحسوا معه برفيق وإلا لكان السؤال بلفظ «أمعك أحد» وذلك الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوار أو نحوها يشعر بتجدد أمر يحسن معه السؤال بهذه الصيغة، وفي قول «محمد» دليل على أن الاسم أولى في التعريف من الكنية، وقيل: الحكمة في سؤال الملائكة «وقد بعث إليه؟» أن الله أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى لأنهم قالوا: «أو بعث إليه» فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له ; وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد؟ مثلًا.

قوله: [مرحبًا به] أي: أصاب رحبًا وسعة، وكنى بذلك عن الانشراح، واستنبط منه ابن المنير جواز رد السلام بغير لفظ السلام، وتعقب بأن قول الملك «مرحبًا به» ليس ردًا للسلام فإنه كان قبل أن يفتح الباب والسياق يرشد إليه، ووقع هنا أن جبريل قال له عند كل واحد منهم [سلم عليه قال: فسلمت عليه فرد عليَّ السلام] وفيه: إشارة إلى أنه رآهم قبل ذلك.

قوله: [فنعم المجيء جاء] فيه: تقديم وتأخير،والتقدير «جاء فنعم المجيء مجيؤه».

قوله: [فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم] زاد في رواية أنس عن أبي ذر ذكر النسم التي عن يمينه وعن شماله.

قوله: [نسم بنيه] النسم جمع نسمة وهي الروح، وظاهره أن أرواح بني آدم من أهل الجنة والنار في السماء،

وهو مشكل. قال القاضي عياض: قد جاء أن أرواح الكفار في سجين وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟ وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا فصادف وقت عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على أن كونهم في الجنة والنار إنما هو في أوقات دون أوقات قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: 46]. واعترض بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء كما هو نص القرآن. والجواب عنه ما أبداه هو احتمالًا: أن الجنة كانت في جهة يمين آدم والنار في جهة شماله، وكان يكشف له عنهما. ويحتمل أن يُقَال: إن النسم المرئية هي التي لم تدخل الأجساد بعد وهي مخلوقة قبل الأجساد ومستقرها عن يمين آدم وشماله. وقد أعلم بما سيصيرون إليه، فلذلك كان يستبشر إذا نظر إلى من عن يمينه ويحزن إذا نظر إلى من عن يساره، بخلاف التي في الأجساد فليست مراده قطعًا، وبخلاف التي انتقلت من الأجساد إلى مستقرها من جنة أو نار فليست مراده أيضًا فيما يظهر. وبهذا يندفع الإيراد ويعرف أن قوله «نسم بنيه» عام أريد به الخصوص.

قوله: [بالابن الصالح والنبي الصالح] قيل: اقتصر الأنبياء على وصفه بهذه الصفة وتواردوا عليها؛ لأن الصلاح صفة تشمل خلال الخير، ولذلك كررها كل منهم عند كل صفة، والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد، فمن ثم كانت كلمة جامعة لمعاني الخير، وفي قول آدم « بالابن الصالح» إشارة إلى افتخاره بأبوة النبي ﷺ.

قوله: [ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية] وقد توافقت هذه الرواية مع رواية ثابت عن أنس عند مسلم أن في الأولى آدم وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم.

وقد استشكل رؤية الأنبياء في السماوات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض، وأُجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم، أو أحضرت أجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفًا له وتكريمًا. وقد اختلف في الحكمة في اختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه بها، فقيل ليظهر تفاضلهم في الدرجات، وقيل: لمناسبة تتعلق بالحكمة في الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، فقيل: أمروا بملاقاته فمنهم مَنْ أدركه في أول وهلة، ومنهم مَنْ تأخر فلحق ومنهم مَنْ فاته، وهذا جمعه السهيلي فأصاب، وقيل: الحكمة في الاقتصار على هؤلاء المذكورين للإشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم، فأما آدم فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان مآل كل منهما أن يرجع إلى موطنه الذي أخرج منه، وبعيسى ويحيى على ما وقع له من أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم وصول السوء إليه، وبيوسف على ما وقع له من إخوته من قريش في نصبهم الحرب له وإرادتهم هلاكه وكانت العاقبة له.

وقد أشار إلى ذلك بقوله لقريش يوم الفتح [أقول كما قال يوسف: لا تثريب عليكم] وبإدريس على رفيع منزلته عند الله، وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه، وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه وقد أشار إلى ذلك بقوله: [لقد أوذي موسى بأكثر من

هذا فصبر] وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة منسك الحج وتعظيم البيت، وهذه مناسبات لطيفة أبداها السهيلي فأوردتها منقحة ملخصة. وقد زاد ابن المنير فذكر في مناسبة لقاء إبراهيم في السماء السابعة معنى لطيفًا زائدًا، وهو ما اتفق له ﷺ من دخول مكة في السنة السابعة وطوافه بالبيت، ولم يتفق له الوصول إليها بعد الهجرة قبل هذه، بل قصدها في السنة السادسة فصدوه عن ذلك. قال ابن أبي جمرة: الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء وهو أصل فكان أولًا في الأولى، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة، وعيسى في الثانية لأنه أقرب الأنبياء عهدًا من محمد، ويليه يوسف لأن أمة محمد تدخل الجنة على صورته، وإدريس في الرابعة لقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم:57]. والرابعة من السبع وسط معتدل، وهارون لقربه من أخيه موسى، أرفع منه لفضل كلام الله، وإبراهيم لأنه الأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقيه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وأيضًا فمنزلة الخليل تقتضي أن تكون أرفع المنازل ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته، فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى.

قوله: في قصة موسى [فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي] وفي حديث أبي سعيد [قال موسى: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني] قال العلماء: لم يكن بكاء موسى حسدًا، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان مَنْ اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة. وأما قوله [غلام] فليس على سبيل النقص، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسن منه. وقد وقع من موسى من العناية بهذه الأمة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث

أبي هريرة عند الطبري والبزار، قال ﷺ: [كان موسى أشدهم علي حين مررت به، وخيرهم لي حين رجعت إليه] وفي حديث أبي سعيد: [فأقبلت راجعًا، فمررت بموسى ونعم الصاحب كان لكم، فسألني: كم فرض عليك ربك؟] الحديث قال ابن أبي جمرة: إن الله جعل الرحمة في قلوب الأنبياء أكثر مما جعل الرحمة في قلوب غيرهم، لذلك بكى رحمة لأمته، وأما قوله: [هذا غلام] فأشار إلى صغر سنه بالنسبة إليه. قال الخطابي: العرب تُسمي الرجل المستجمع السن غلامًا ما دامت فيه بقية من القوة. ويظهر لي أن موسى ﷺ أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا ﷺ من استمرار القوة في الكهولية وإلى أن دخل في سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم ولا اعترى قوته نقص، حتى أن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفًا أبا بكر أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه في العمر أسن من أبي بكر، والله أعلم. وقال القرطبي: الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك. ويُشير إلى ذلك قوله: [إني قد جربت الناس قبلك] انتهى.

وقال غيره: لعلها من جهة أنه ليس في الأنبياء من له أكثر من موسى، ولا من له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من هذه الجهة مضاهيًا للنبي ﷺ، فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه من غير أن يريد زواله عنه، وناسب أن يطلعه على ما وقع له وينصحه فيما يتعلق به، ويحتمل أن يكون موسى لما غلب عليه في الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد حتى تمنى ما تمنى أن يكون، استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم والشفقة عليهم ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه فيما وقع منه في الابتداء.

وذكر السهيلي: أن الحكمة في ذلك أنه كان رأى في مناجاته صفة أمة محمد ﷺ فدعا الله أن يجعله منهم، فكان إشفاقه عليهم كعناية من هو منهم. وقد وقع من موسى ﷺ في هذه القصة من مراعاة جانب النبي ﷺ أنه أمسك عن جميع ما وقع له حتى فارقه النبي ﷺ أدبًا معه وحسن عشرة، فلما فارقه بكى وقال ما قال.

قوله [فوضع شطرها] وقد أثبتت رواية ثابت أن التخفيف كان خمسًا خمسًا وهي زيادة معتمدة يتعين حمل باقي الروايات عليها. وأبدى ابن المنير هنا نكتة لطيفة في قوله ﷺ لموسى ﷺ لما أمره أن يرجع بعد أن صارت خمسًا فقال [استحييتُ من ربي] قال ابن المنير: يحتمل أنه ﷺ تفرس من كون التخفيف وقع خمسًا خمسًا أنه لو سأل التخفيف بعد أن صارت خمسًا لكان سائلًا في رفعها فلذلك استحيي. ودلت مراجعته ﷺ لربه في طلب التخفيف تلك المرات كلها أنه علم أن الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام، بخلاف المرة الأخيرة ففيها ما يشعر بذلك لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [قٓ:29]. ويحتمل أن يكون سبب الاستحياء لخشية أن يدخل في الإلحاح في السؤال لكن الإلحاح في الطلب من الله مطلوب، فكأنه خشي من عدم القيام بالشكر والله أعلم. وأبدى بعض الشيوخ حكمة لاختيار موسى تكرير ترداد النبي ﷺ فقال: لما كان موسى قد سأل الرؤية فمنع وعرف أنها حصلت لمحمد ﷺ قصد بتكرير رجوعه تكرير رؤيته ليرى مَنْ رأى، كما قيل: لعليَّ أراهم أو أرى من رآهم. قلت: ويحتاج إلى ثبوت تجدد الرؤية في كل مرة.

قوله: [هن خمس وهن خمسون] والمراد هن خمس عددًا باعتبار الفعل وخمسون اعتدادًا باعتبار الثواب، واستدل به على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس كالوتر، وعلى دخول النسخ في الإنشاءات ولو كانت مؤكدة، خلافًا لقوم فيها أكد، وعلى جواز النسخ قبل الفعل. قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عَزَّ وَجَلَّ نسخ الخمسين بالخمس قبل أن تصلى، ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الثواب.

(تكملة): اختلف في حال الأنبياء عند لقي النبي ﷺ إياهم ليلة الإسراء هل أسري بأجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة، أو أن أرواحهم مستقرة في الأماكن التي لقيهم النبي ﷺ وأرواحهم مشكلة بشكل أجسادهم كما جزم به أبو الوفاء بن عقيل، واختار الأول بعض شيوخنا، واحتج بما ثبت في مسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: [رأيت موسى ليلة أسري بي

قائمًا يصلي في قبره] فدل على أنه أُسري به لما مر به. قلت: وليس ذلك بلازم بل يجوز أن يكون لروحه اتصال بجسده في الأرض، فلذلك يتمكن من الصلاة وروحه مستقرة في السماء.

قوله [ثم رفعت إلى سدرة المنتهى] المراد أنه رفع إليها أي: ارتقى به وظهرت له، والرفع إلى الشيء يطلق على التقريب منه، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 34]. أي: تقترب لهم، ووقع بيان سبب تسميتها سدرة المنتهى في حديث ابن مسعود عند مسلم ولفظه؛ لما أسري برسول الله ﷺ قال: [انتهى بي إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط فيقبض منها] وقال النووي: سُميتْ سدرة المنتهى؛ لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ.

وحديث ابن مسعود ثابت في الصحيح فهو أولى بالاعتماد. وقال القرطبي في (المفهم): ظاهر حديث أنس أنها في السابعة؛ لقوله بعد ذكر السماء السابعة [ثم ذهب بي إلى السدرة] وفي حديث ابن مسعود أنها في السادسة، وهذا تعارض لا شك فيه، وحديث أنس هو قول الأكثر، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب على ما قال كعب، قال: وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من أعلمه. قلت: ولا يعارض قوله إنها في السادسة ما دلت عليه بقيةُ الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، وفي حديث أبي ذر [فغشيها ألوان لا أدري ما هي] وبقية حديث ابن مسعود المذكور [قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: 16]. قال: فراش من ذهب] كذا فسر المبهم في قوله ﴿ مَا يَغْشَىٰ﴾ بالفراش.

قال البيضاوي: «وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها» انتهى. ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة ويخلق فيه الطيران، والقدرة صالحة لذلك. وفي حديث أبي سعيد

وابن عباس [يغشاها الملائكة] وعن أنس عند مسلم [فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها].

قوله: [فإذا نبقها] والنبق معروف وهو ثمر السدر.

قوله: [مثل قلال هجر] قال الخطابي: القلال بالكسر جمع قلة بالضم هي الجرار، يريد أن ثمرها في الكبر مثل القلال، وكانت معروفة عند المخاطبين فلذلك وقع التمثيل بها، قال: وهي التي وقع تحديد الماء الكثير بها في قوله [إذا بلغ الماء قلتين] وهجر اسم بلدة. قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل ممدود، وطعام لذيذ، ورائحة زكية فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، والظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

قوله: [وإذا أربعة أنهار] في رواية [فإذا في أصلها - أي في أصل سدرة المنتهى- أربعة أنهار] ولمسلم [يخرج من أصلها] وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة [أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان] فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة والأنهار تخرج من تحتها فيصح أنها من الجنة.

قوله: [أما الباطنان ففي الجنة] قال ابن أبي جمرة: فيه أن الباطن أجل من الظاهر، لأن الباطن جعل في دار البقاء والظاهر جعل في دار الفناء، ومن ثم كان الاعتماد على ما في الباطن كما قال ﷺ [إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم].

قوله: [وأما الظاهران فالنيل والفرات] جاء في رواية شريك [أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما] والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بالعنصر عنصر امتيازهما بسماء الدنيا. كذا قال ابن دحية، وجاء في حديث شريك أيضًا [ومضى به يرقى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك

أذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك]. وفي حديث أبي سعيد [فإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل فينشق منها نهران أحدهما الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة]. قلت: فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان. وعن مقاتل قال: الباطنان السلسبيل والكوثر. وأما الحديث الذي أخرجه مسلم بلفظ [سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة] فلا يُغاير هذا؛ لأن المراد به أن في الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة، وحينئذٍ لم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك. وأما الباطنان فهما غير سيحون وجيحون. والله أعلم. قال النووي: في هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء الله، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر فليعتمد. والحاصل أن أصلهما في الجنة وهما يخرجان أولا من أصلها ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض ثم ينبعان. واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات لكون منبعهما من الجنة، وكذا سيحان وجيحان. قال القرطبي: لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء لكونهما ليسا أصلًا برأسهما. وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات. قال: وقيل: وإنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهًا لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة، والأول أولى، والله أعلم.

قوله: [ثم رفع لي البيت المعمور] زاد الكشميهني [يدخله كل يوم سبعون ألف ملك] واستدل به على أن الملائكة أكثر المخلوقات لأنه لا يعرف من جميع العوامل من يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفا غير ما ثبت عن الملائكة في هذا الخبر.

قوله: [ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها] أي: دين الإسلام. قال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لأنه أول شيء يدخل بطن المولود ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه كان مألوفا له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مفسدة، وقد وقع في هذه الرواية أن إتيانه الآنية

كان بعد وصوله إلى سدرة المنتهى، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ [رفعت لي سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار] وقال فيه [وأتيت بثلاثة أقداح] وفي حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق في قصة الإسراء [فصلى بهم - يعني الأنبياء - ثم أتي بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء، فأخذت اللبن] الحديث.

قوله [ثم فرضت علي الصلاة] والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة وأن منهم القائم فلا يقعد والراكع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، وقال في اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة بل بمراجعات تعددت على ما سبق بيانه.

قوله [ولكن أرضى وأسلم] فيه حذف تقديره: سألت ربي حتى استحييت فلا أرجع، فإني إن رجعت صرت غير راض ولا مسلم، ولكني أرضى وأسلم.

قوله [فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي] هذا من أقوى ما استدل به على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلم نبيه محمدًا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة.

(تكملة): وقع في غير هذه الرواية زيادات رآها ﷺ بعد سدرة المنتهى لم تذكر في هذه الرواية، منها [حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام] وفي رواية شريك عن أنس [حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة تبارك وتعالى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه خمسين صلاة] الحديث. وفي رواية أبي ذر: [ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك] وعند مسلم عن أنس رفعه [بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر] وأيضًا عن أنس (لما عرج بالنبي ﷺ) فذكر نحوه. وعند ابن أبي حاتم عن أنس [ثم انطلق حتى انتهى بي إلى الشجرة،

فغشيني من كل سحابة فيها من كل لون، فتأخر جبريل. وخررت ساجدًا] وفي حديث ابن مسعود عند مسلم

[وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته المقحمات، يعني الكبائر] وفي هذه الرواية من الزيادة **[ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل، فانصرفت سريعًا فأتيت على إبراهيم فلم يقل شيئًا، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت]** الحديث. وفيه أيضًا: **[فقال رسول الله ﷺ لجبريل: ما لي لم آت أهل سماء إلا رحبوا وضحكوا إليَّ، غير رجل واحد فسلمتُ عليه فرد عليَّ السلام ورحب بي ولم يضحك إلي؟ قال: يا محمد ذاك مالك خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك]** وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذي **[حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار، ووعد الآخرة أجمع]** وفي حديث أبي سعيد **[أنه عرض عليه الجنة، وإذا رمانها كأنه الدلاء ; وإذا طيرها كأنها البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها]**.اهـ

قال ابن حبان في (صحيحه 1/ 244): فأما قوله ﷺ في خبر مالك بن صعصعة [بينما أنا في الحطيم إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه] فكان ذلك له فضيلة فضل بها على غيره، وأنه من معجزات النبوة إذ البشر إذا شق عن موضع القلب منهم ثم استخرج قلوبهم ماتوا.

وقوله: [ثم حشي] يريد أن الله جَلَّ وعلا حشا قلبه اليقين والمعرفة الذي كان استقراره في طست الذهب فنقل إلى قلبه، ثم أتي بدابة يقال لها البراق فحمل عليه من الحطيم أو الحجر وهما جميعًا في المسجد الحرام.

[ثم صعد به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟] يريد به، وقد أرسل إليه ليسرى به إلى السماء لا أنهم لم يعلموا برسالته إلى ذلك الوقت، لأن الإسراء كان بعد نزول الوحي بسبع سنين، فلما فتح له فرأى آدم على حسب ما وصفنا قبل، وكذلك رؤيته في السماء الثانية يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، وفي السماء الثالثة يوسف بن يعقوب، وفي السماء الرابعة إدريس، ثم في السماء

الخامسة هارون، ثم في السماء السادسة موسى، ثم في السماء السابعة إبراهيم؛ إذ جائز أن الله جَلَّ وعلا أحياهم لأنَّ النبي ﷺ عرج به في تلك الليلة، فيكون ذلك آية معجزة يستدل بها على نبوته، ثم رفع له سدرة المنتهى فرآها على الحالة التي وصف، ثم فرض عليه خمسون صلاة، وهذا أمر ابتلاء أراد الله جَلَّ وعلا ابتلاء صفيه محمد ﷺ حيث فرض عليه خمسين صلاة؛ إذ كان في علم الله السابق أنه لا يفرض على أمته إلا خمس صلوات فقط، فأمره بخمسين صلاة أمر ابتلاء، وهذا كما نقول: إن الله جَلَّ وعلا قد يأمر بالأمر يريد أن يأتي المأمور به إلى أمره أن يريد وجود كونه؛ كما أمر الله جَلَّ وعلا خليله إبراهيم بذبح ابنه أمره بهذا الأمر أراد به الانتهاء إلى أمره دون وجود كونه فلما أسلما وتله للجبين فداه بالذبح العظيم إذ لو أراد الله جَلَّ وعلا كون ما أمر لوجد ابنه مذبوحًا، فكذلك فرض الصلاة خمسين أراد به الانتهاء إلى أمره دون وجود كونه فلما رجع إلى موسى وأخبره أنه أمر بخمسين صلاة كل يوم ألهم الله موسى أن يسأل محمدًا ﷺ بسؤال ربه التخفيف لأمته فجعل جَلَّ وعلا قول موسى عليه السلام له سببًا لبيان الوجود لصحة ما قلنا إن الفرض من الله على عباده أراد إتيانه خمسًا لا خمسين فرجع إلى الله جَلَّ وعلا فسأله فوضع عنه عشرًا، وهذا أيضا أمر ابتلاء أريد به الانتهاء إليه دون وجود كونه، ثم جعل سؤال موسى عليه السلام إياه سببًا لنفاذ قضاء الله جل وعلا في سابق علمه أن الصلاة تفرض على هذه الأمة خمسا لا خمسين حتى رجع في التخفيف إلى خمس صلوات ثم ألهم الله جل وعلا صفيه ﷺ حينئذ حتى قال لموسى: [**قد سألتُ ربي حتى استحييتُ لكني أرضى وأسلم، فلما جاوز ناداه مناد أمضيت فريضتي**] أراد به الخمس صلوات [**وخففت عن عبادي**] يريد من أمر الابتلاء الذي أمرتهم به من خمسين صلاة التي ذكرناها. وجملة هذه الأشياء في الإسراء رآها رسول الله ﷺ بجسمه عيانًا دون أن يكون ذلك رؤيا أو تصويرًا صور له إذ لو كان ليلة الإسراء وما رأى فيها نومًا دون اليقظة لاستحال ذلك لأن البشر في المنام يرون السماوات والملائكة والأنبياء والجنة والنار وما أشبه هذه الأشياء فلو كان ﷺ ما وصف في ليلة الإسراء في النوم دون اليقظة لكانت هذه حالة يستوي فيها معه البشر إذ في مناماتهم مثلها، واستحال فضله، ولم تكن تلك حالة معجزة يفضل بها على غيره.اهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (2/ 224): قوله ﷺ في موسى ﷺ [فلما جاوزته بكى! فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي] معنى هذا والله أعلم أن موسى ﷺ حزن على قومه لقلة المؤمنين منهم مع كثرة عددهم، فكان بكاؤه حزنًا عليهم وغبطة لنبينا ﷺ على كثرة أتباعه، والغبطة في الخير محبوبة، ومعنى الغبطة أنه ود أن يكون من أمته المؤمنين مثل هذه الأمة لا أنه ود أن يكونوا أتباعًا له وليس لنبينا ﷺ مثلهم، والمقصود أنه إنما بكى حزنًا على قومه، وعلى فوات الفضل العظيم والثواب الجزيل بتخلفهم عن الطاعة فإن من دعا إلى الخير وعمل الناس به كان له مثل أجورهم كما جاءت به الأحاديث الصحيحة، ومثل هذا يبكى عليه ويحزن على فواته والله أعلم.

وحدث نبي الله ﷺ أنه [رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان. فقلت: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات] هكذا هو في أصول صحيح مسلم [يخرج من أصلها] والمراد من أصل سدرة المنتهى كما جاء مبينًا في (صحيح البخاري) وغيره.

فوائد الحديث:

1 – أن للسماء أبوابًا حقيقة وحفظة موكلين بها.

2– وفيه: إثبات الاستئذان، وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول: أنا فلان، ولا يقتصر على أنا لئلا يلتبس بغيره فهو يُنافي مطلوب الاستفهام.

3– أن رسول الرجل يقوم مقام إذنه، لأن الخازن لم يتوقف عن الفتح له على الوحي إليه بذلك، بل عمل بلازم الإرسال إليه.

4– وأن المار يسلم على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد.

5– وفيه: استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء.

6– جواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتتان في وجهه.

7– جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة.

8- جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل.

9- وفيه: فضل السير بالليل على السير بالنهار لما وقع من الإسراء بالليل، ولذلك كانت أكثر عبادته ﷺ بالليل، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل، وقال ﷺ [عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل].

10- أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة، يُستفاد ذلك من قول موسى ﷺ للنبي ﷺ أنه عالج الناس قبله وجربهم، ويستفاد منه تحكيم العادة، والتنبيه بالأعلى على الأدنى لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانا من هذه الأمة، وقد قال موسى في كلامه إنه عالجهم على أقل من ذلك فما وافقوه.

11- وفيه: فضيلة الاستحياء، وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك.

12- ويُستفاد منه: أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم، ومقام التكليم مقام الإدلال والانبساط، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم ﷺ، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة.

13- أن الجنة والنار قد خلقتا.

14- وفيه: استحباب الإكثار من سؤال الله تعالى وتكثير الشفاعة عنده، لما وقع منه ﷺ في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف.

الحديث الخامس

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ الحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ [**سُبْحَانَ الله هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**]) (الترمذي 2106) وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وأحمد، وصححه الألباني.

شرح الحديث:

قال صاحب تحفة الأحوذي (6/ 339-340): قوله (لما خرج) أي عن مكة (إلى حنين) موضع بين الطائف ومكة (يُقال لها ذات أنواط) قال الجزري في (النهاية): هي اسم شجرة

بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك، وأنواط جمع نوط.

(سبحان الله) تنزيهًا وتعجبًا (هذا) أي هذا القول منكم (كما قال قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لكن لا يخفى ما بينهما من التفاوت المستفاد من التشبيه حيث يكون المشبه به أقوى [لتركبن] أي لتتبعن [سنة من كان قبلكم] وفي حديث أبي سعيد عند البخاري [لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا شبرًا، وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم] قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟. قال: [فمن؟] ورواه الحاكم عن ابن عباس وفي آخره [وحتى لو أن أحدكم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه] قال المناوي: إسناده صحيح.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا: [لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع] فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: [ومن الناس إلا أولئك]. والسنة لغة الطريقة حسنة كانت أو سيئة، والمراد هنا طريقة أهل الأهواء والبدع التي ابتدعوها من تلقاء أنفسهم بعد أنبيائهم من تغيير دينهم وتحريف كتابهم كما أتى على بني إسرائيل. وقال النووي: المراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ما أخبر به ﷺ.اهـ

قال شارح كتاب التوحيد (1/ 149- 154): قوله: (عن أبي واقد الليثي) اسمه الحارث بن عوف، وقيل: الحارث بن مالك صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر) أي: قريب عهدنا بالكفر ففيه دليل أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة.

قوله: (**يعكفون عندها**) الاعتكاف هو الإقامة على الشيء بالمكان ولزومها ومنه قوله ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:52]. وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركًا بها وتعظيمًا لها، وفي حديث عمرو بن عوف قال (كان يُناط بها السلاح فسميتْ ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها) الحديث، فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاء لبركتها.

قوله: (**وينوطون بها أسلحتهم**) أي: يعلقونها عليها للبركة.

قوله: (**فقلنا يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط**)؛ أي: شجرة مثلها نعلق عليها، ونعكف حواليها ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك، وإلا فهم أجل قدرًا وإن كانوا حديثي عهد بكفر عن قصد مخالفة النبي ﷺ.

قوله: **فقال النبي ﷺ [الله اكبر]، وفي رواية [سبحان الله]** والمقصود باللفظين واحد؛ لأن المراد تعظيم الله وتنزيهه عن الشرك والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك خلافًا لمن كرهه.

قوله: (**أنها السنن**) بضم السين أي: الطرق.

قوله: [**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهًا**] الخ أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها وتعليق الأسلحة بها تبركًا كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى ﷺ حيث قالوا ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها، وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا. **قال الإمام أبو بكر الطرطوشي** من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة

يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها. وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب (البدع والحوادث): ومن هذا القسم أيضًا ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلدٍ يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث، ثم ذكر الحديث المتقدم، وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا، ثم قال: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبنياني رَحِمَهُ اللَّهُ أحد الصالحين ببلاد أفريقية في المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدب: أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية فتعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي اسحق نحوها فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأسا. قال: فما رفع لها رأس إلى الآن. قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم.وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له.

قوله: [لتركبُن] بضم الموحدة أي لتتبعن أنتم أيها الأمة سُنن من كان قبلكم بضم السين أي: طرقهم ومناهجهم وأفعالهم ويجوز فتح السين، وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله.

فوائد الحديث

1 – أن ما يفعله مَنْ يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركًا ويقع في هذه الأمة فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل اجعل لنا إلهًا فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة.

2 – وفيها: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيما ومحبة، فإن ذلك هو الشرك وإن سماه ما سماه وقس على ذلك.

3 – وفيها: أن من عبد فهو إله لأن بني إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها فكان ذلك اتخاذا له مع الله تعالى.

4 – وأن لا إله إلا الله تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة ذكره المصنف فكيف بما هو أعظم منه ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهلًا.

5 – وفيها: أن معنى الإله هو المعبود.

6 – النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين.

7 - وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر فصار فيها التنبيه على مسائل القبر أما من ربك فواضح، وأما من نبيك فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك فمن قولهم: اجعل لنا إلها إلى آخره.

8 - وفيه: أن الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة كما وقع فيمن قبلها، ففيه: رد على مَنْ قال إن الشرك لا يقع في هذه الأمة.

9 - أن مَنْ أراد أن يفعل الشرك جهلًا فنهي عن ذلك فانتهى لا يكفر.

10 - وفيه: سد الذرائع - والغضب عند التعليم - وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره.

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أنَّ التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في (شرح مسلم) في الأحاديث التي فيها: أن الصحابة فعلوا شيئا من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ وهذا خطأ صريح لوجوه :

1 - منها: عدم المقاربة فضلًا عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة.

2 - ومنها: عدم تحقق الصلاح فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص كالصحابة الذين أثني الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، أو مَنْ شَهَرَ بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم.

3 - ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء والأعمال بالخواتيم فلا يكون أهلًا للتبرك بآثاره.

4 - ومنها: أنَّ الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم، فدلَّ أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ.

5 - ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه فيورثه العجب والكبر والرياء فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم.

الحديث السادس

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ! قَالَ: [أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي] البخاري (4416).

عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَمَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ سَعْدًا فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسُبَّ أَبَا التُّرَابِ؟ فَقَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتُ ثَلَاثًا قَالَهُنَّ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَلَنْ أَسُبَّهُ لَأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لَهُ خَلَّفَهُ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ الله خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ [أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي] وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ [لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ] قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا. فَقَالَ [ادْعُوا لِي عَلِيًّا] فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ؛ فَفَتَحَ الله عَلَيْهِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ﴾ [آل عمران :61]. دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ [اللهمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي] مسلم (4420).

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: قُلْتُ لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ حَدِيثٍ وَأَنَا أَهَابُكَ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ يَا ابْنَ أَخِي إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ عِنْدِي عِلْمًا فَسَلْنِي عَنْهُ وَلَا

تَهَبْنِي. قَالَ: فَقُلْتُ قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ لِعَلِيٍّ حِينَ خَلَّفَهُ بِالْمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالَ سَعْدٌ: خَلَّفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا بِالْمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَتُخَلِّفُنِي فِي الخَالِفَةِ فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ! فَقَالَ [أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى] قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: فَأَدْبَرَ عَلِيٌّ مُسْرِعًا كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى غُبَارِ قَدَمَيْهِ يَسْطَعُ. أحمد (1408).

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (7/ 92-93): **قوله: [أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى] أي**: نازلًا مني منزلة هارون من موسى، وفي رواية عن سعد (فقال علي: رضيت رضيت)، وفي حديث البراء بن أرقم (قال: بلى يا رسول الله. قال **[فإنه كذلك]** وفي أول حديثهما أنه ﷺ قال لعلي **[لابد أن أقيم أو تقيم]** فأقام علي، فسمع ناسًا يقولون: إنما خلفه لشيء كرهه منه، فاتبعه، فذكر له ذلك. فقال له الحديث، وإسناده قوي. والحديث روي عن النبي ﷺ من حديث عمر وعلي نفسه وأبي هريرة وابن عباس وجابر بن عبد الله والبراء وزيد بن أرقم وأبي سعيد وأنس وجابر بن سمرة وحبشي بن جنادة ومعاوية وأسماء بنت عميس وغيرهم. واستدل بحديث الباب على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى. وأجيب بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته لأنه مات قبل موسى باتفاق أشار إلى ذلك الخطابي. وقال الطيبي: معنى الحديث؛ أنه متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى، وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله: **[إلا أنه لا نبي بعدي** فعرف أن الاتصال المذكور بينهما ليس من جهة النبوة بل من جهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به إنما كان خليفة في حياة موسى دل ذلك على تخصيص خلافة علي للنبي ﷺ بحياته. والله أعلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (15/ 174): قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: **[أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي]** قال القاضي: هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقًا لعلي، وأنه وصى له بها. قال: ثم اختلف هؤلاء؛

فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره، وزاد بعضهم فكفر عليًا؛ لأنه لم يقم في طلب حقه بزعمهم، وهؤلاء أسخف مذهبًا وأفسد عقلًا من أن يرد قولهم أو يناظر. وقال القاضي: ولا شك في كفر مَنْ قال هذا؛ لأن من كفر الأمة كلها والصدر الأول فقد أبطل نقل الشريعة وهدم الإسلام، وأما مَنْ عدا هؤلاء الغلاة فإنهم لا يسلكون هذا المسلك، فأما الإمامية وبعض المعتزلة فيقولون: هم مخطئون في تقديم غيره لا كفار، وبعض المعتزلة لا يقول بالتخطئة لجواز تقديم المفضول عندهم. وهذا الحديث لا حجة فيه: لأحد منهم، بل فيه إثبات فضيلة لعلي، ولا تعرض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاستخلافه بعده لأن النبي ﷺ إنما قال هذا لعلي حين استخلفه في المدينة في غزوة تبوك، ويؤيد هذا أن هارون المشبه به لم يكن خليفة بعد موسى بل توفي في حياة موسى، وقبل وفاة موسى بنحو أربعين سنة على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقصص قالوا: وإنما استخلفه حين ذهب لميقات ربه للمناجاة والله اعلم. قال العلماء: وفي هذا الحديث: دليل على أن عيسى بن مريم ﷺ إذا نزل في آخر الزمان نزل حكمًا من حكام هذه الأمة يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ ولا ينزل نبيًا. اهـ

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التمهيد (22/ 132): قول النبي ﷺ لعلي [أنت مني بمنزلة هارون من موسى] واحتجاج أهل الزيغ به على أنه أراد بذلك استخلافه، فقد أجابه عن ذلك أبو إسحاق المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجواب على وجهين مجملين: **أحدهما**: أن هارون كان خليفة موسى في حياته ولم يكن علي خليفة رسول الله ﷺ في حياته، وإذا جاز أن يتأخر علي عن خلافة رسول الله ﷺ في حياته على حسبما كان هارون خليفة موسى في حياته جاز أن يتأخر بعد موته زمانًا ويكون غيره مقدمًا عليه، ويكون معنى الحديث القصد إلى إثبات الخلافة له كما ثبتت لهارون لا أنه استحق تعجيلها في الوقت الذي تعجلها هارون من موسى ﷺ. **والوجه الآخر**: أن هذا الكلام إنما خرج من النبي ﷺ في تفضيل علي ومعرفة حقه لا في الإمامة، لأنه ليس كل من وجب حقه وصار مفضلًا استحق الإمامة، لأن هارون مات قبل موسى بزمان فاستخلف موسى بعده يوشع بن نون، فهارون إنما كان خليفة لموسى في حياته، وقد علم أن عليًا لم يكن

خليفة النبي ﷺ في حياته، ولم يكن هارون خليفة لموسى بعد موته فيكون ذلك دليلًا على أن عليًا لم يكن خليفة رسول الله ﷺ بعد موته. قال أبو عمر: كان هذا القول من النبي ﷺ لعلي حين استخلفه على المدينة في وقت خروجه غازيًا غزوة تبوك، وهذا استخلاف منه في حياته، وقد شركه في مثل هذا الاستخلاف غيره ـ ممن لا يدعي له أحد خلافة ـ جماعة قد ذكرهم أهل السنة وقد ذكرناهم في كتاب الصحابة، وليس في استخلافه حين قال له ذلك القول دليل على أنه خليفة بعد موته، والله أعلم.اهـ

فوائد الحديث:

1- فضل علي وعلو منزلته.
2- كفر مَنْ ادعى النبوة بعد رسول الله ﷺ، فهو خاتم النبيين.
3- فضل موسى على هارون عليهما السلام.
4- أن عليًا لم يكن خليفة رسول الله ﷺ بعد موته.

الحديث السابع

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: (كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ؛ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ!! قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ!! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ!! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العَلَق :1-5]. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﷺ فَقَالَ: [زَمِّلُونِي.. زَمِّلُونِي] فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: [أَيْ خَدِيجَةُ، مَا

لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي!] وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ. فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى. يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا. لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟] قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الوَحْيُ) البخاري (4و4954و6982)، ومسلم (231).

معاني الكلمات:

(مِنْ الوَحْيِ) أي: من أقسام الوحي.

(مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ) أي: ضياؤه.

(الخَلَاءُ) الخلوة.

(جَاءَهُ الحَقُّ) أي: الأمر الحق.

(فَيَتَحَنَّثُ) بمعنى يتحنف، أي: يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم.(فَغَطَّنِي) الغط حبس النفس.

(فزَمِّلُوهُ) أي: لفوه.

(الرَّوْعُ) الفزع.

(الكَلَّ) هو مَنْ لا يستقل بأمره.

(النَّامُوسُ) صاحب السر، وهو جبريل ﷺ.

(جَذَعًا) الجذع هو الصغير من البهائم.

(مُؤَزَّرًا) أي: قويًا من الأزر وهو القوة.

(لَمْ يَنْشَبْ) أي: لم يلبث.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (8/ 587-592): قوله (أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة) قال النووي: هذا من مراسيل الصحابة، لأنَّ عائشة لم تدرك هذه القصة فتكون سمعتها من النبي ﷺ أو من صحابي. ومرسل الصحابي ما يرويه من الأمور التي لم يدرك زمانها، بخلاف الأمور التي يدرك زمانها فإنها لا يُقال: إنها مرسلة، بل يحمل على أنه سمعها أو حضرها ولو لم يصرح بذلك، ولا تختص هذا بمرسل الصحابي بل مرسل التابعي إذا ذكر قصة لم يحضرها سميت مرسلة، ولو جاز في نفس الأمر أن يكون سمعها من الصحابي الذي وقعت له تلك القصة. وأما الأمور التي يدركها فيحمل على أنه سمعها أو حضرها، لكن بشرط أن يكون سالمًا من التدليس والله أعلم. ويُؤيد أنها سمعت ذلك من النبي ﷺ قولها في أثناء هذا الحديث « فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال رسول الله ﷺ: [ما أنا بقارئ]. قال: [فأخذني] » إلى آخره. فقوله قال: فأخذني فغطني ظاهر في أن النبي ﷺ أخبرها بذلك فتحمل بقية الحديث عليه.

قوله: (مِنْ الوَحْيِ) يعني إليه، ويحتمل أن تكون « من تبعيضية، أي من أقسام الوحي، ويحتمل أن تكون بيانية، وهو إخبار عما رآه من دلائل نبوته من غير أن يوحي بذلك إليه وهو أول ذلك مطلقًا ما سمعه من بحيرا الراهب، وهو عند الترمذي بإسناد قوي عن أبي موسى، ثم ما سمعه عند بناء الكعبة حيث قيل له « اشدد عليك إزارك » وهو في البخاري من حديث

جابر، وكذلك تسليم الحجر عليه وهو عند مسلم من حديث جابر بن سمرة. والرؤيا الصالحة قال ابن المرابط: هي التي ليست ضغثًا ولا من تلبيس الشيطان.

قوله: (في النوم) لزيادة الإيضاح، أو ليخرج رؤيا العين في اليقظة لجواز إطلاقها مجازًا.

قوله: (إلا جاءته مثل فلق الصبح) قال ابن أبي حمزة: إنما شبهها بفلق الصبح دون غيره لأنَّ شمس النبوة كانت الرؤيا مبادي أنوارها فما زال ذلك النور يتسع حتى أشرقت الشمس فمن كان باطنه نوريًا كان في التصديق بكريًا كأبي بكر ومن كان باطنه مظلمًا كان في التكذيب خفاشًا كأبي جهل، وبقية الناس بين هاتين المنزلتين كل منهم بقدر ما أعطى من النور.

قوله: (حبب) لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كلٌّ مِن عند الله، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام. والخلاء بالمد الخلوة، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له. وحِراء هو جبل معروف بمكة. والغار نقب في الجبل وجمعه غيران.

قوله: (فيتحنث) هي بمعنى يتحنف، أي: يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم. والتحنث: إلقاء الحنث وهو الإثم ، كما قيل يتأثم ويتحرج ونحوهما.

قوله: (قال والتحنث التعبد) هذا ظاهر في الإدراج، ويحتمل أن يكون من كلام عروة أو من دونه، ولم يأتِ التصريح بصفة تعبده، عند ابن إسحاق «فيطعم مَنْ يرد عليه من المساكين» وجاء عن بعض المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكر، ويحتمل أن تكون عائشة أطلقت على الخلوة بمجردها تعبدًا، فإنَّ الانعزال عن الناس ولا سيما مَنْ كان على باطل من جملة العبادة كما وقع للخليل ﷺ حيث قال ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99].

قوله: (يأتي حراء) قال ابن أبي حمزة: الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت. قلت: وكأنه مما بقي عندهم من أمور الشرع على سنن الاعتكاف، وقد تقدم أن الزمن الذي

كان يخلو فيه كان شهر رمضان وأن قريشًا كانت تفعله كما كانت تصوم عاشوراء، ويزاد هنا أنهم إنما لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه فتبعه على ذلك من كان يتأله، فكان ﷺ يخلو بمكان جده وسلم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم.

قوله: (الليالي ذوات العدد) قال الكرماني: يحتمل الكثرة إذ الكثير يحتاج إلى العدد وهو المناسب للمقام. وقد جزم الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة بأن المراد به الكثرة؛ لأن العدد على قسمين فإذا أطلق أريد به مجموع القلة والكثرة فكأنها قالت ليالي كثيرة أي مجموع قسمي العدد. وقال الكرماني: اختلف في تعبده ﷺ بماذا كان يتعبد بناء على أنه هل كان متعبدًا بشرع سابق أولا؟ والثاني قول الجمهور ومستندهم أنه لو وجد لنقل، ولأنه لو وقع لكان فيه تنفير عنه. وبماذا كان يتعبد؟ قيل بما يلقى إليه من أنوار المعرفة، وقيل بما يحصل له من الرؤيا، وقيل بالتفكر، وقيل باجتناب رؤية ما كان يقع من قومه ورجح الآمدي وجماعة الأول.

قوله: (ثم يرجع إلى خديجة فيتزود) خص خديجة بالذكر بعد إذ عبر بالأهل إما تفسيرًا بعد إبهام، وإما إشارة إلى اختصاص التزود بكونه من عندها دون غيرها. وخديجة هي أم المؤمنين بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي.

قوله: (فيتزود لمثلها) والضمير لليالي أو للخلوة أو للعبادة أو للمرات. أي: السابقة، ورجح شيخنا البلقيني: أن الضمير للسنة فذكر من رواية ابن إسحاق «كان يخرج إلى حراء في كل عام شهرًا من السنة يتنسك فيه يطعم من جاءه من المساكين». قال: وظاهره أن التزود لمثلها كان في السنة التي تليها لا لمدة أخرى من تلك السنة، وقد كنت قويت هذا ثم ظهر لي بعد ذلك أن مدة الخلوة كانت شهرًا كان يتزود لبعض ليالي الشهر فإذا نفذ ذلك الزاد رجع إلى أهله فتزود قدر ذلك من جهة أنهم لم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب زادهم اللبن واللحم وذلك لا يدخر منه كفاية الشهور لئلا يسرع إليه الفساد ولا سيما وقد وصف بأنه كان يطعم مَنْ يرد عليه. ويُؤخذ منه إعداد الزاد للمختلي إذا كان بحيث يتعذر عليه تحصيله لبعد مكان

اختلائه من البلد مثلا، وأن ذلك لا يقدح في التوكل وذلك لوقوعه من النبي ﷺ بعد حصول النبوة له بالرؤيا الصالحة، وإن كان الوحي في اليقظة قد تراخى عن ذلك.

قوله: (حتى جاءه الحق) أي: انتهى توجهه لغار حراء بمجيء الملك فترك ذلك، وقوله: «الحق» أي: الأمر الحق. وسُمِيَ حقًا لأنه وحي من الله تعالى. وقد ثبت في (صحيح مسلم) عن عائشة مرفوعًا [لم أره - يعني جبريل - على صورته التي خلق عليها إلا مرتين]، وبيَّن أحمد في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خلق عليها، والثانية عند المعراج. وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة (لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهي، ومرة في أجياد).

(تنبيه): إذا علم أنه كان يُجاور في غار حراء في شهر رمضان، وأن ابتداء الوحي جاءه وهو في الغار المذكور اقتضى ذلك أنه نُبِئَ في شهر رمضان، ويُعكر على قول ابن إسحاق: أنه بعث على رأس الأربعين مع قوله: إنه شهر في رمضان ولد، ويمكن أن يكون المجيء في الغار كان أولًا في شهر رمضان وحينئذٍ نُبِئَ وأنزل عليه ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾، ثم كان المجيء الثاني في شهر ربيع الأول بالإنذار وأنزلت عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ [المدثر: 1-2]. فيحمل قول ابن إسحاق «على رأس الأربعين» أي: عند المجيء بالرسالة. وأفاد شيخنا أن سن النبي ﷺ حين جاءه جبريل في حراء كان أربعين سنة على المشهور، قال: وكان ذلك يوم الاثنين نهارًا، قال: الراجح أنه الشهر الذي جاء فيه في حراء فجاءه الملك، وعلى هذا يكون سنه حينئذ أربعين سنة وستة أشهر.

قوله: (اقرأ) يحتمل أن يكون هذا الأمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقى إليه، ويحتمل أن يكون على بابه من الطلب فيستدل به على تكليف ما لا يطاق في الحال وإن قدر عليه بعد ذلك، ويحتمل أن تكون صيغة الأمر محذوفة أي قل اقرأ، وإن كان الجواب ما أنا بقارئ فعلى ما فهم من ظاهر اللفظ، وكأن السر في حذفها لئلا يتوهم أن لفظ قل من القرآن، ويؤخذ منه جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب وأن الأمر على الفور، لكن يمكن أن يجاب بأن الفور

فهم من القرينة. قال شيخنا البلقيني: ظاهره أنه لم يتقدم من جبريل شيء قبل هذه الكلمة ولا السلام، فيحتمل أن يكون سلم وحذف ذكره لأنه معتاد، وقد سلم الملائكة على إبراهيم حين دخلوا عليه، ويحتمل أن يكون لم يسلم؛ لأن المقصود حينئذٍ تفخيم الأمر وتهويله، وقد تكون مشروعية ابتداء السلام تتعلق بالبشر لا من الملائكة وإن وقع ذلك منهم في بعض الأحيان. قلت: والحالة التي سلموا فيها على إبراهيم كانوا في صورة البشر فلا ترد هنا، ولا يرد سلامهم على أهل الجنة لأن أمور الآخرة مغايرة لأمور الدنيا غالبًا.

قوله (ما أنا بقارئ) ثلاثًا. « ما « نافية، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخول الباء، أي ما أحسن القراءة. فلما قال ذلك ثلاثًا قيل له ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك، كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية، ذكره السهيلي. فإن قيل: لم كرر ذلكِ ثلاثًا؟ أجاب أبو شامة: بأن يحمل قوله أولًا « ما أنا بقارئ « على الامتناع، وثانيًا على الإخبار بالنفي المحض، وثالثًا على الاستفهام.

قوله: (فغطني) والغط حبس النفس، ومنه غطه في الماء، أو أراد غمني ومنه الخنق. والحكمة في هذا الغط شغله عن الالتفات لشيء آخر أو لإظهار الشدة والجد في الأمر تنبيهًا على ثقل القول الذي سيلقى إليه، فلما ظهر أنه صبر على ذلك ألقى إليه، وهذا وإن كان بالنسبة إلى علم الله حاصل لكن لعل المراد إبرازه للظاهر بالنسبة إليه ﷺ، وقيل: ليختبر هل يقول من قبل نفسه شيئًا فلما لم يأت بشيء دل على أنه لا يقدر عليه، وقيل أراد أن يعلمه أن القراءة ليست من قدرته ولو أكره عليها، وقيل: الحكمة فيه أن التخيل والوهم والوسوسة ليست من صفات الجسم ; فلما وقع ذلك لجسمه علم أنه من أمر الله. وذكر بعض من لقيناه أن هذا من خصائص النبي ﷺ، إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحي مثل ذلك.

قوله: (حتى بلغ مني الجهد) روي بالفتح والنصب، أي: بلغ الغط مني غاية وسعي. وروي بالضم والرفع أي بلغ مني الجهد مبلغه. قال التوربشتي: لا أرى الذي قاله بالنصب إلا

وهم، فإنه يصير المعنى أنه غطه حتى استفرغ الملك قوته في ضغطه بحيث لم يبق فيه مزيد، وهو قول غير سديد، فإن البنية البشرية لا تطيق استيفاء القوة الملكية لا سيما في مبتدأ الأمر، وقد صرح الحديث بأنه داخله الرعب من ذلك. قلت: وما المانع أن يكون قواه الله على ذلك ويكون من جملة معجزاته، وقد أجاب الطيبي بأن جبريل لم يكن حينئذ على صورته الملكية فيكون استفراغ جهده بحسب صورته التي جاءه بها حين غطه قال: وإذا صحت الرواية اضمحل الاستبعاد. قال شيخنا: وكان الذي حصل له عند تلقي الوحي من الجهد مقدمة لما صار يحصل له من الكرب عند نزول القرآن كما في حديث ابن عباس (كان يعالج من التنزيل شدة) وكذا في حديث عائشة وعمر ويعلى بن أمية وغيرهم، وهي حالة يُؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي يحصل له عند تلقي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال خص الله نبيه ببرزخ في الحياة يلقى إليه فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار، وقد يقع لكثير من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره إطلاع على كثير من الأسرار، وذلك مستمد من المقام النبوي، ويشهد له حديث [رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة]. قال السهيلي: تأويل الغطات الثلاث على ما في رواية ابن إسحاق أنها كانت في النوم أنه سيقع له ثلاث شدائد يبتلى بها ثم يأتي الفرج، وكذلك كان، فإنه لقي ومن تبعه شدة أولى بالشعب لما حصرتهم قريش، وثانية لما خرجوا وتوعدوهم بالقتل حتى فروا إلى الحبشة، وثالثة لما هموا بما هموا به من المكر به كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال: 30]. الآية، فكانت له العاقبة في الشدائد الثلاث.

قوله: (فغطني الثالثة) يُؤخذ منه أن مَنْ يريد التأكيد في أمر وإيضاح البيان فيه أن يكرره ثلاثًا، وقد كان ﷺ يفعل ذلك، ولعل الحكمة في تكرير الإقراء الإشارة إلى انحصار الإيمان الذي ينشأ الوحي بسببه في ثلاث: القول، والعمل، والنية. وأن الوحي يشتمل على ثلاث: التوحيد، والأحكام، والقصص. وفي تكرير الغط الإشارة إلى الشدائد الثلاث التي وقعت له

وهي: الحصر في الشعب، وخروجه في الهجرة وما وقع له يوم أحد. وفي الإرسالات الثلاثة إشارة إلى حصول التيسير له عقب الثلاث المذكورة: في الدنيا، والبرزخ، والآخرة.

قوله: (فقال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ -إلى قوله- مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾هذا القدر من هذه السورة هو الذي نزل أولًا، بخلاف بقية السورة فإنما نزل بعد ذلك بزمان. والحكمة في هذه الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن: ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله، وبيان كونها اشتملت على مقاصد القرآن أنها تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت على الأمر بالقراءة والبداءة فيها ببسم الله، وفي هذه الإشارة إلى الأحكام وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل، وفي هذا إشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

قوله (بِٱسۡمِ رَبِّكَ) استدل به السهيلي على أن البسملة يؤمر بقراءتها أول كل سورة، لكن لا يلزم من ذلك أن تكون آية من كل سورة، كذا قال، وقرره الطيبي فقال: قوله ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ قدم الفعل لكون الأمر بالقراءة أهم، وقوله (اقرأ) أمر بإيجاد القراءة مطلقًا، وقوله «باسم ربك» حال، أي: اقرأ مفتتحًا باسم ربك: وأصح تقاديره قل باسم الله ثم اقرأ، قال: فيؤخذ منه أن البسملة مأمور بها في ابتداء كل قراءة انتهى. لكن لا يلزم من ذلك أن تكون مأمورًا بها، فلا تدل على أنها آية من كل سورة، وهو كما قال.

وقال النووي: ترتيب آي السور في النزول لم يكن شرطًا، وقد كانت الآية تنزل فتوضع في مكان قبل التي نزلت قبلها ثم تنزل الأخرى فتوضع قبلها، إلى أن استقر الأمر في آخر عهده ﷺ على هذا الترتيب، والمحفوظ أن أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وأن نزول الفاتحة كان بعد ذلك.

قوله: (ترجف بوادره) والمراد بها اللحمة التي بين المنكب والعنق، جرت العادة بأنها تضطرب عند الفزع.

قوله: (لقد خشيت على نفسي) دلَّ هذا مع قوله «يرجف فؤاده» على انفعال حصل له من مجيء الملك، ومن ثم قال «زملوني». والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولًا:

وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب، مَنْ قال: الموت من شدة الرعب، وقيل: المرض، وقد جزم به ابن أبي حمزة، وقيل: دوام المرض. والله الموفق.

قوله: (زملوني زملوني) التزميل التلفيف، وقال ذلك: لشدة ما لحقه من هول الأمر، وجرت العادة بسكون الرعدة بالتلفيف. وفي مرسل عبيد بن عمير «أنه ﷺ خرج فسمع صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي في ناحية آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك» وهو المعتمد، فإن إعلامه بالإرسال وقع بقوله ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾.

قوله: (فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع) أي: الفزع، وأما الذي بضم الراء فهو موضع الفزع من القلب. «فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ» قال عياض: هذا وقع له أول ما رأى التباشير في النوم ثم في اليقظة، وسمع الصوت قبل لقاء الملك، فأما بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشك ولا يخشى من تسلط الشيطان. وتعقبه النووي بأنه خلاف صريح الشفاء، فإنه قال بعد أن غطه الملك وأقرأه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ قال: إلا أن يكون أراد أن قوله «خشيت على نفسي» وقع منه إخبارًا عما حصل له أولًا لا أنه حالة إخبارها بذلك جازت فيتجه.

قوله: (فقالت خديجة: كلا) معناها النفي والإبعاد، ويَحْزُنُك من الحزن. أو يُخْزِيك من الخزي. وقال القزاز: هي هنا بمعنى الرد لما خشي على نفسه أي لا خشية عليك، ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدًا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به. والكَلّ: هو من لا يستقل بأمره كما قال الله تعالى ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ [النحل: 76].

ومن اللطائف: أن هذه الكلمة التي ابتدأت خديجة النطق بها عقب ما ذكر لها النبي ﷺ من القصة التي وقعت له هي التي وقعت عقب الآيات الخمس من سورة اقرأ في نسق التلاوة فجرت على لسانها اتفاقًا لأنها لم تكن نزلت بعد وإنما نزلت في قصة أبي جهل، وهذا هو المشهور عند المفسرين، قولها (لا يخزيك الله) الخزي الوقوع في بلية وشهرة بذلة، وعند ابن إسحاق مرسلًا «أن خديجة قالت: (أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك إذا جاء؟ قال [نعم]. فجاءه جبريل، فقال [يا خديجة، هذا جبريل]. قالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، ثم قالت: هل تراه؟ قال [نعم]، قالت: فتحول إلى اليمنى كذلك، ثم قالت: فتحول فاجلس في حجري كذلك، ثم ألقت خمارها وتحسرت وهو في حجرها وقالت: هل تراه؟ قال [لا]. قالت: اثبت، فوالله إنه لملك وما هو بشيطان).

وقولها: (وتكسب المعدوم) قال الخطابي: الصواب المعدم بلا واو أي الفقير، لأن المعدوم لا يكسب. قلت: ولا يمتنع أن يطلق على المعدم المعدوم لكونه كالمعدوم الميت الذي لا تصرف له، والكسب هو الاستفادة. فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالًا موجودًا رغبت أنت أن تستفيد رجلًا عاجزًا فتعاونه. وقال قاسم بن ثابت في (الدلائل): قوله: (يكسب) معناه: ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه هو ويكسبه. قال أعرابي يمدح إنسانًا: كان أكسبهم لمعدوم، وأعطاهم لمحروم.أهـ. وقال غيره: «وتَكسب» بفتح أوله، قال عياض: وهذه الرواية أصح. قلت: قد وجهنا الأولى، وهذه الراجحة، ومعناها تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، ويقال: كسبت الرجل مالًا وأكسبته بمعنى.

وقولها: (وتعين على نوائب الحق) هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم، وفي رواية «وتصدق الحديث» وهي من أشرف الخصال. وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه في هذه القصة «وتؤدى الأمانة».

قوله: (تنصر) أي صار نصرانيًا، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر،

وكان لقي مَنْ بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل.

قوله: (فكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية)، وفي رواية: ويكتب من الإنجيل بالعربية. ولمسلم: فكان يكتب الكتاب العربي. والجميع صحيح، لأنَّ ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي، لتمكنه من الكتابين واللسانين. وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه؛ لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسرًا كتيسر حفظ القرآن الذي خصت به هذه الأمة، فلهذا جاء في صفتها «أناجيلها صدورها».

قولها: (يا بن عم) هذا النداء على حقيقته. وقالت في حق النبي ﷺ: اسمع من ابن أخيك. لأن والده عبد الله بن عبد المطلب وورقة في عدد النسب إلى قصي بن كلاب الذي يجتمعان فيه سواء، فكان من هذه الحيثية في درجة إخوته. أو قالته على سبيل التوقير لسنه. وفيه إرشاد إلى أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرف بقدره ممن يكون أقرب منه إلى المسئول، وذلك مستفاد من قول خديجة لورقة «اسمع من ابن أخيك» أرادت بذلك أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ وذلك أبلغ في التعليم.

قوله: (ماذا ترى؟) فيه حذف يدل عليه سياق الكلام، وقد صرح به في (دلائل النبوة) لأبي نعيم بسند حسن إلى عبد الله بن شداد في هذه القصة قال: فأتت به ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى.

قوله: (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى). وأشار بقوله «هذا» إلى الملك الذي ذكره النبي ﷺ في خبره، ونزله منزلة القريب لقرب ذكره. والناموس: صاحب السر. وزعم ابن ظفر أن الناموس صاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر. والأول الصحيح الذي عليه الجمهور. وقد سوى بينهما رؤبة بن العجاج أحد فصحاء العرب. والمراد بالناموس هنا جبريل ﵇.

وقوله: (على موسى) ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيًا؛ لأن كتاب موسى ﷺ مشتمل على أكثر الأحكام، بخلاف عيسى. وكذلك النبي ﷺ. أو لأن موسى بعث بالنقمة على فرعون ومن معه، بخلاف عيسى. كذلك وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر. أو قاله تحقيقًا للرسالة، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى فإن كثيرًا من اليهود ينكرون نبوته. نعم في (دلائل النبوة) لأبي نعيم بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه في هذه القصة أن خديجة أولًا أتت ابن عمها ورقة فأخبرته الخبر فقال: لئن كنت صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم. فعلى هذا فكان ورقة يقول تارة ناموس عيسى وتارة ناموس موسى، فعند إخبار خديجة له بالقصة قال لها: ناموس عيسى بحسب ما هو فيه من النصرانية، وعند إخبار النبي ﷺ له قال له ناموس موسى للمناسبة التي قدمناها، وكل صحيح. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم. وأخرج الترمذي عن عائشة: (أن خديجة قالت للنبي ﷺ لما سُئِلَ عن ورقة: كان ورقة صدقك. ولكنه مات قبل أن تظهر، فقال: [رأيته في المنام وعليه ثياب بيض]، ولو كان من أهل النار لكان لباسه غير ذلك. وعند البزار والحاكم عن عائشة مرفوعًا [لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين].

قوله: (يومك) أي وقت الإخراج، أو وقت إظهار الدعوة، أو وقت الجهاد. وتمسك ابن القيم الحنبلي بقوله في الرواية التي في بدء الوحي «ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي» برد ما وقع في (السيرة النبوية) لابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال والمشركون يعذبونه وهو يقول: أحد أحد فيقول: أحد والله يا بلال، لئن قتلوك لاتخذت قبرك حنانًا، هذا والله أعلم وهم، لأن ورقة قال: «وإن أدركني يومك حيًا لأنصرنك نصرًا مؤزرًا» فلو كان حيًا عند ابتداء الدعوة لكان أول من استجاب، وقام بنصر النبي ﷺ كقيام عمر وحمزة. قلت: وهذا اعتراض ساقط، فإن ورقة إنما أراد بقوله «فإن يدركني يومك حيًا أنصرك» اليوم الذي يخرجوك فيه، لأنه قال ذلك

عنه عند قوله «أو مخرجي هم» وتعذيب بلال كان بعد انتشار الدعوة، وبين ذلك وبين إخراج المسلمين من مكة للحبشة ثم للمدينة مدة متطاولة.

قوله: (يا ليتني فيها جذع) التقدير: يا ليتني جعلت فيها جذعًا. وضمير «فيها» يعود على أيام الدعوة. والجَذع هو الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابًا ليكون أمكن لنصره، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرًا أعمى.

قوله: (إذ يخرجك) قال ابن مالك: فيه استعمال «إذ» في المستقبل كإذا، وهو صحيح، وهو كقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم:39]. هكذا ذكره ابن مالك وأقره عليه غير واحد. وفيه: دليل على جواز تمني المستحيل إذا كان في فعل خير، لأن ورقة تمنى أن يعود شابًا، هو مستحيل عادة. ويظهر لي أن التمني ليس مقصودًا على بابه، بل المراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به، والتنويه بقوة تصديقه فيما يجيء به.

قوله: [أو مخرجي هم؟] جمع مخرج، واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها. وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج. قال السهيلي: يُؤخذ منه شدة مفارقة الوطن على النفس فإنه ﷺ سمع قول ورقة أنهم يؤذونه ويكذبونه فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له الإخراج تحركت نفسه لذلك لحب الوطن وإلفه فقال [أو مخرجي هم]؟ قال: ويُؤيد ذلك إدخال الواو بعد ألف الاستفهام فأشعر بأن الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع، ويؤكد ذلك: أن الوطن المشار إليه حرم الله وجوار بيته وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عليه السلام. اهـ. ويحتمل أن يكون انزعاجه كان من جهة خشية فوات ما أمله من إيمان قومه بالله وإنقاذهم به من وضر الشرك وأدناس الجاهلية ومن عذاب الآخرة وليتم له المراد من إرساله إليهم، ويحتمل أن يكون انزعج من الأمرين معًا.

قوله: (إلا عُودِي) وفي رواية «إلا أوذي» فذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم

ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم، وفيه: دليل على أن المجيب يقيم الدليل على ما يجيب به إذا اقتضاه المقام.

قوله: (إن يدركني يومك) ولابن إسحاق «إن أدركت ذلك اليوم» يعني يوم الإخراج.

قوله: (مؤزرًا) بهمزة أي قويًا مأخوذ من الأزر وهو القوة، وقال أبو شامة: يحتمل أن يكون من الإزار، أشار بذلك إلى تشميره في نصرته، قال الأخطل: «قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم» البيت.

قوله: (ثم لم ينشب) بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث. وأصل النشوب التعلق، أي: لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات. وهذا بخلاف ما في السيرة لابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، وذلك يقتضي أنه تأخر إلى زمن الدعوة، وإلى أن دخل بعض الناس في الإسلام. فإن تمسكنا بالترجيح فما في الصحيح أصح، وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود.

(فائدة): وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي: أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان. وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن فقط. ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد، ولفظه عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (1/ 197-205): وقوله: (أن عائشة ﵂ قالت كان أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة) هذا الحديث من مراسيل الصحابة ﵃ فإن عائشة ﵂ لم تُدرِك هذه القضية فتكون قد سمعتها من النبي ﷺ أو من الصحابي.

وقولها: (فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) قال أهل اللغة: فلق الصبح وفرق الصبح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه وإنما يُقَال هذا في الشيء الواضح البين. قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ وغيره من العلماء: إنما ابتدئ ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا يحتملها قوي البشرية فبُدِئَ بأول خصال النبوة، وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء، وسماع الصوت، وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوة.

قولها: (ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه وهو التعبد الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود ثم يرجع إلى خديجة ﵂ فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق) أما (الخلاء) فهو الخلوة وهي شأن الصالحين، وعباد الله العارفين. قال أبو سليمان الخطابي: حببت العزلة إليه ﷺ لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه. وأما (الغار) فهو الكهف والنقب في الجبل وجمعه (غيران) والمغار والمغارة بمعنى الغار وتصغير الغار (غوير). وأما (حراء) فهو جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال عن يسار الذاهب من مكة إلى منى. وأما (التحنث) فقد فسره بالتعبد وهو صحيح وأصل الحنث الإثم فمعنى يتحنث الحنث، فكأنه بعبادته يمنع نفسه من الحنث، ومثل يتحنث يتحرج ويتأثم أي يتجنب الحرج والإثم. وأما قولها: (الليالي أولات العدد) فمتعلق بالتحنث لا بالتعبد، ومعناه يتحنث الليالي؛ ولو جعل متعلقًا بالتعبد فسد المعنى فإن التحنث لا يشترط فيه الليالي بل يطلق على القليل والكثير. قوله ﷺ: (ما أنا بقارئ) معناه: لا أحسن القراءة فما نافية هذا هو الصواب.

قوله ﷺ: (فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني) أما (غطني) فمعناه: عصرني وضمني يقال: غطه، وغته، وضغطه، وعسره، وخنقه، وغمزه كله بمعنى واحد. وأما (الجهد) فهو الغاية والمشقة. وأما (أرسلني) فمعناه: أطلقني. قال العلماء: والحكمة في الغط شغله من الالتفات والمبالغة في أمره بإحضار قلبه لما يقوله له، وكرره ثلاثًا مبالغة في التنبه ففيه: أنه ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم وأمره بإحضار قلبه.

قوله ﷺ: (ثم أرسلني فقال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن (اقرأ) وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف.واستدل بهذا الحديث بعض مَنْ يقول: إن بسم الله الرحمن الرحيم ليست من القرآن في أوائل السور لكونها لم تذكر هنا. وجواب المثبتين لها: أنها لم تنزل أولًا بل نزلت البسملة في وقت آخر كما نزل باقي السورة في وقت آخر.

قولها: (ترجف بوادره) ومعنى (ترجف): ترعد وتضطرب وأصله شدة الحركة. قال أبو عبيد وسائر أهل اللغة والغريب: وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق تضطرب عند فزع الإنسان.

قوله ﷺ: (زملوني) أي: غطوني بالثياب ولفوني بها.

قوله ﷺ: (لقد خشيت على نفسي) قال القاضي عياض: ليس هو بمعنى الشك فيما أتاه من الله تعالى لكنه ربما خشي أن لا يقوى على مقاومة هذا الأمر،ولا يقدر على حمل أعباء الوحي فتزهق نفسه، أو يكون هذا لأول ما رأى التباشير في النوم واليقظة وسمع الصوت قبل لقاء الملك وتحققه رسالة ربه فيكون خاف أن يكون من الشيطان الرجيم، فأما منذ جاءه الملك برسالة ربه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا يجوز عليه الشك فيه، ولا يخشى من تسلط الشيطان عليه.

أما قولها: (كلا) فهي هنا كلمة نفي وإبعاد وهذا أحد معانيها. قد تأتي (كلا) بمعنى حقًا وبمعنى ألا التي للتنبيه يستفتح بها الكلام.

قولها: (لا يخزيك) الخزي الفضيحة والهوان. وأما (صلة الرحم) فهي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول فتارة تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك. وأما (الكل) أصله الثقل. ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل:76]. ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك وهو من الكلال وهو الإعياء.

وقولها: (وتكسب المعدوم) فمعناه: تكسب غيرك المال المعدوم أي تعطيه إياه تبرعًا، وقيل: معناه تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

وأما قولها: (وتُقري الضيف) قال أهل اللغة: يُقَال: قريت الضيف أقريه. ويقال للطعام الذي يضيفه به قِري.

قولها: (وتُعين على نوائب الحق) فالنوائب جمع نائبة وهي الحادثة إنما قالت نوائب الحق؛ لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر قال لبيد:

نَوائبُ مِنْ خيرٍ وشرٍ كلاهُمَا فَلا الخيرُ مَمدودٌ وَلا الشرُ لَازِبٌ

قال العلماء: معنى كلام خديجة ﵂ أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل. وذكرت ضروبًا من ذلك، وفي هذا: دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء. وفيه: مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال نظرًا لمصلحة. وفيه: تأنيس من حصلت له مخافة من أمر وتبشيره وذكر أسباب السلامة له، وفيه: أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة ﵂، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها.

قولها: (وكان امرأً تنصر في الجاهلية) معناه: صار نصرانيًا،والجاهلية ما قبل رسالته ﷺ سموا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة.

قولها: (وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله تعالى أن يكتب) هكذا هو في مسلم الكتاب العربي ويكتب بالعربية. ووقع في أول (صحيح البخاري) (يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية) وكلاهما صحيح. وحاصلهما: أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث إنه صار يتصرف في الإنجيل فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء وبالعربية إن شاء. والله أعلم.

قولها: (فقالت له خديجة ﷺ أي عم اسمع من ابن أخيك) فهو ابن عمها حقيقة فإنه ورقة ابن نوفل بن أسد وهي خديجة بنت خويلد بن أسد. وأما الأول فسمته (عمًا) مجازًا للاحترام. هذه عادة العرب في آداب خطابهم يخاطب الصغير الكبير بيا عم احترامًا له ورفعًا لمرتبته ولا يحصل هذا الغرض بقولها يا ابن عم.

قوله: (هذا الناموس الذي أنزل على موسى ﷺ) (الناموس) وهو جبريل ﷺ قال أهل اللغة: الناموس في اللغة صاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر، واتفقوا على أن جبريل ﷺ يسمى الناموس. قال الهروي: سمي بذلك لأن الله تعالى خصه بالغيب والوحي.

قوله: (يا ليتني فيها جذعًا) الضمير (فيها) يعود إلى أيام النبوة ومدتها، وقوله: (جذعًا) يعنى شابًا قويًا حتى أبالغ في نصرتك. والأصل في الجذع للدواب وهو هنا استعارة. قوله: (وإن يدركني يومك) أي: وقت خروجك. قوله: (أنصرك نصرًا مؤزرًا) أي: قويًا بالغًا.اهـ

فوائد الحديث:

1 - استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه.

2 - أن مَنْ نزلت به أمر استحب له أن يطلع عليه مَنْ يثق بنصيحته وصحة رأيه.

3 - أنَّ صاحب الحاجة يقدم بين يديه مَنْ يعرف بقدره ممن يكون أقرب منه إلى المسئول.

4 - جواز تمني المستحيل إذا كان في فعل خير.

5 - أنَّ المجيب يقيم الدليل على ما يجيب به إذا اقتضاه المقام.

6 - جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وأن الأمر على الفور.

7 - أن مَنْ يريد التأكيد في أمر، وإيضاح البيان فيه أن يكرره ثلاثًا.

8 - أنَّ مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء.

9 - مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال نظرًا لمصلحة.

10 - أن أول ما نزل من القرآن ﴿اقْرَأْ﴾.

11 - تأنيس مَنْ حصلت له مخافة من أمر وتبشيره، وذكر أسباب السلامة له.

12 - أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة ﵂، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها.

13 - ينبغي للمعلم أن يحتاط في تنبيه المتعلم، وأمره بإحضار قلبه.

الحديث الثامن

عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا. فَيَقُولُ ك لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، وَيَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ؛ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ الله خَلِيلًا. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ؛ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ الله. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ؛ ائْتُوا عِيسَى. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ؛ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا

ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ]. وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ عِنْدَ هَذَا: أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ. قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: [إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ] يَعْنِي قَوْلَ الله تَعَالَى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة:162]. البخاري (4476) و(6565) و (7410) و(7509) و(7510) و(7516).

وَعَنْ مَعْبَدِ بْنِ هِلَالٍ العَنَزِيِّ قَالَ: انْطَلَقْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ وَتَشَفَّعْنَا بِثَابِتٍ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَأْذَنَ لَنَا ثَابِتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَأَجْلَسَ ثَابِتًا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ. فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، إِنَّ إِخْوَانَكَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تُحَدِّثَهُمْ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ! قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: [إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ! فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا! وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الله، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا! وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى ﷺ فَإِنَّهُ كَلِيمُ الله، فَيُؤْتَى مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا! وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى ﷺ فَإِنَّهُ رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ، فَيُؤْتَى عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا! وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَأُوتَى فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا! فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ يُلْهِمُنِيهِ الله، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ] هَذَا حَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي أَنْبَأَنَا بِهِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمَّا كُنَّا

بِظَهْرِ الجَبَّانِ قُلنَا: لَوْ مِلنَا إِلَى الحَسَنِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ فِي دَارِ أَبِي خَلِيفَةَ. قَالَ: فَدَخَلنَا عَلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقُلنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَبِي حَمْزَةَ فَلَمْ نَسْمَعْ مِثْلَ حَدِيثٍ حَدَّثَنَاهُ فِي الشَّفَاعَةِ! قَالَ: هِيَه، فَحَدَّثْنَاهُ الحَدِيثَ. فَقَالَ: هِيَه، قُلنَا: مَا زَادَنَا. قَالَ: قَدْ حَدَّثَنَا بِهِ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمَئِذٍ جَمِيعٌ، وَلَقَدْ تَرَكَ شَيْئًا مَا أَدْرِي أَنَسِيَ الشَّيْخُ أَوْ كَرِهَ أَنْ يُحَدِّثَكُمْ فَتَتَّكِلُوا. قُلنَا لَهُ: حَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ؛ مَا ذَكَرْتُ لَكُمْ هَذَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ. [ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ فَأَحْمَدُهُ بِتِلكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا. فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُل يُسْمَعْ لَكَ وَسَل تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله. قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي؛ لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله] قَالَ: فَأَشْهَدُ عَلَى الحَسَنِ أَنَّهُ حَدَّثَنَا بِهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أُرَاهُ قَالَ: قَبْلَ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمَئِذٍ جَمِيعٌ. مسلم (286).

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (11/ 440-449): قوله: [يجمع الله الناس يوم القيامة] في رواية معبد بن هلال: [إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض] وأول حديث أبي هريرة [أنا سيد الناس يوم القيامة، يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون] وزاد في رواية إسحاق بن راهويه عن أبي زرعة فيه: [وتدنو الشمس من رؤوسهم فيشتد عليهم حرها ويشق عليهم دنوها فينطلقون من الضجر والجزع مما هم فيه] وأول حديث أبي بكر: [عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيفظع الناس لذلك والعرق كاد يلجمهم]، وفي رواية معتمر: [يلبثون ما شاء الله من الحبس]، وفي حديث سلمان: [تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين، ثم تدنو من جماجم الناس فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع الرجل حتى يقول: عق عق] وفي رواية النضر بن أنس: [لغم ما هم فيه والخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة،

وأما الكافر فيغشاه الموت] وفي حديث عبادة بن الصامت رفعه: [إني لسيد الناس يوم القيامة بغير فخر، وما من الناس إلا من هو تحت لوائي ينتظر الفرج، وإن معي لواء الحمد] وفي رواية هشام وسعيد وهمام [يجتمع المؤمنون فيقولون] وتبين من رواية النضر بن أنس: أن التعبير بالناس أرجح لكن الذي يطلب الشفاعة هم المؤمنون.

قوله: (فيقولون لو استشفعنا) في رواية مسلم «فيلهمون ذلك» وفي لفظ «فيهتمون بذلك»، وفي رواية همام «حتى يهتموا بذلك».

قوله: (على ربنا) في رواية هشام وسعيد « إلى ربنا » وتوجه بأنه ضمن معنى استشفعنا سعي لأن الاستشفاع طلب الشفاعة وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يرومه. وفي حديث حذيفة وأبي هريرة معًا يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقوم المؤمنون حتى تنزلف لهم الجنة فيأتون آدم و«حتى» غاية لقيامهم المذكور. ويُؤخذ منه: أن طلبهم الشفاعة يقع حين تنزلف لهم الجنة. ووقع في أول حديث أبي نضرة عن أبي سعيد في مسلم رفعه «أنا أول من تنشق عنه الأرض» الحديث وفيه « فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم» الحديث. قال القرطبي: كأن ذلك يقع إذا جيء بجهنم، فإذا زفرت فزع الناس حينئذٍ وجثوا على ركبهم .اهـ

قوله: (حتى يريحنا) في رواية مسلم «فيريحنا» وفي حديث ابن مسعود عند ابن حبان «إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول: يا رب أرحني ولو إلى النار» وفي رواية ثابت عن أنس «يطول يوم القيامة على الناس، فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر فليشفع لنا إلى ربنا فليقض بيننا» وفي حديث سلمان: «فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض: ائتوا أباكم آدم».

قوله: (حتى يريحنا من مكاننا هذا) في رواية ثابت: «فليقض بيننا» وفي رواية حذيفة وأبي هريرة فيقولون «يا أبانا استفتح لنا الجنة».

قوله: (فيأتون آدم) وفي رواية شيبان: «فينطلقون حتى يأتوا آدم فيقولون أنت الذي» في رواية مسلم «يا آدم أنت أبو البشر»، وفي رواية همام وشيبان: «أنت أبو البشر»، وفي حديث حذيفة: «فيقولون يا أبانا».

قوله: (خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه) زاد في رواية همام: «وأسكنك جنته وعلمك أسماء كل شيء»، وفي حديث أبي هريرة: «وأمر الملائكة فسجدوا لك» وفي حديث أبي بكر: «أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله». قوله: (فاشفع لنا عند ربنا) في رواية مسلم «عند ربك» وكذا في حديث أبي بكر وأبي هريرة «اشفع لنا إلى ربك»، وزاد أبو هريرة «ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا».

قوله: (لست هناكم) قال عياض: قوله لست هناكم كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة قاله تواضعًا وإكبارًا لما يسألونه، قال: وقد يكون فيه إشارة إلى أن هذا المقام ليس لي بل لغيري.اهـ قلت: وقد وقع في رواية معبد بن هلال «فيقول لست لها» وكذا في بقية المواضع، وفي رواية حذيفة: «لست بصاحب ذاك» وهو يُؤيد الإشارة المذكورة.

قوله: (ويذكر خطيئته) زاد مسلم «التي أصاب»، زاد همام في روايته «أكله من الشجرة. وقد نهي عنها»، وفي رواية هشام «فيذكر ذنبه فيستحي»، وفي رواية ابن عباس: «إني قد أخرجت بخطيئتي من الجنة»، وفي رواية أبي نضرة عن أبي سعيد: «وإني أذنبت ذنبا فأهبطت به إلى الأرض» وفي رواية حذيفة وأبي هريرة معًا: « هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم»، وفي رواية عند سعيد بن منصور: «إني أخطأت وأنا في الفردوس فإن يغفر لي اليوم حسبي» وفي حديث أبي هريرة: «إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري».

قوله: (ائتوا نوحًا فيأتونه)، في رواية مسلم: «ولكن ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحًا»، وفي رواية هشام: «فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»، وفي حديث أبي بكر: «انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم، إلى نوح، ائتوا عبدًا شاكرًا»، وفي حديث

أبي هريرة: «اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا» وفي حديث أبي بكر «فينطلقون إلى نوح فيقولون: يا نوح اشفع لنا إلى ربك، فإن الله اصطفاك واستجاب لك في دعائك ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا»، ويجمع بينهما بأن آدم سبق إلى وصفه بأنه أول رسول فخاطبه أهل الموقف بذلك، وقد استشكلت هذه الأولية بأن آدم نبي مرسل وكذا شيث وإدريس وهم قبل نوح، ومحصل الأجوبة عن الإشكال المذكور: أن الأولية مقيدة بقوله «أهل الأرض» لأنَّ آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا إلى أهل الأرض، ويشكل عليه حديث جابر، ويُجاب بأن بعثته إلى أهل الأرض باعتبار الواقع لصدق أنهم قومه بخلاف عموم بعثة نبينا محمد ﷺ لقومه ولغير قومه، أو الأولية مقيدة بكونه أهلك قومه، أو أنَّ الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلًا، وإلى هذا جنح ابن بطال في حق آدم، وتعقبه عياض بما صححه ابن حبان من حديث أبي ذر فإنه كالصريح في أنه كان مرسلًا، وفيه: التصريح بإنزال الصحف على شيث وهو من علامات الإرسال، وأما إدريس فذهبت طائفة إلى أنه: كان في بني إسرائيل وهو إلياس. ومن الأجوبة أن رسالة آدم كانت إلى بنيه وهم موحدون ليعلمهم شريعته، ونوح كانت رسالته إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد.

قوله: (فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها) في رواية هشام «ويذكر سؤال ربه ما ليس له به علم» وفي رواية شيبان «سؤال الله»، وفي رواية معبد ابن هلال مثل جواب آدم لكن قال «وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي»، وفي حديث ابن عباس «فيقول ليس ذاكم عندي»، وفي حديث أبي هريرة «إني دعوت بدعوة أغرقت أهل الأرض» ويجمع بينه وبين الأول بأنه اعتذر بأمرين: أحدهما: نهي الله تعالى له أن يسأل ما ليس له به علم فخشي أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك، ثانيهما: أن له دعوة واحدة محققة الإجابة وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض فخشي أن يطلب فلا يجاب. وقال بعض الشراح: كان الله وعد نوحًا أن ينجيه وأهله، فلما غرق ابنه ذكر لربه ما وعده فقيل له: المراد من أهلك من آمن وعمل صالحًا فخرج ابنك منهم، فلا تسأل ما ليس لك به علم.

قوله: (ائتوا إبراهيم) في رواية مسلم: «ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا» وفي رواية معبد بن هلال: «ولكن عليكم بإبراهيم فهو خليل الله».

قوله: (فيأتونه) في رواية مسلم «فيأتون إبراهيم» زاد أبو هريرة في حديثه «فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، قم اشفع لنا إلى ربك» وذكر مثل ما لآدم قولًا وجوابًا إلا أنه قال «قد كنت كذبت ثلاث كذبات» وذكرهن.

قوله: (فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته) زاد مسلم «التي أصاب فيستحيي ربه منها» وفي حديث أبي بكر «ليس ذاكم عندي» وفي رواية همام «إني كنت كذبت ثلاث كذبات» زاد شيبان في روايته «قوله إني سقيم» وقوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لامرأته أخبريه أني أخوك وفي رواية عن أبي سعيد فيقول إني كذبت ثلات كذبات، قال رسول الله ﷺ [ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله] «وماحل بمهملة بمعنى جادل وزنه ومعناه. ووقع في رواية حذيفة المقرونة «لست بصاحب ذاك، إنما كنت خليلًا من وراء وراء» وضبط بفتح الهمزة وبضمها، وصوب ابن دحية الفتح على أن الكلمة مركبة مثل شذر مذر، ومعناه: لم أكن في التقريب والإدلال بمنزلة الحبيب. قال صاحب التحرير: كلمة تُقَال على سبيل التواضع، أي: لست في تلك الدرجة.

قال البيضاوي: الحق أن الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض الكلام، لكن لما كانت صورتها صورة الكذب أشفق منها استصغارًا لنفسه عن الشفاعة مع وقوعها، لأنَّ من كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة كان أعظم خوفًا.

قوله: (ائتوا موسى الذي كلمه الله) في رواية مسلم «ولكن ائتوا موسى» وزاد «وأعطاه التوراة»، وفي رواية معبد بن هلال «ولكن عليكم بموسى فهو كليم الله»، وفي رواية الإسماعيلي «عبدًا أعطاه الله التوراة وكلمه تكليمًا»، زاد همام في روايته «وقربه نجيًا»، وفي رواية حذيفة المقرونة «اعمدوا إلى موسى».

قوله: (فيأتونه) في رواية مسلم «فيأتون موسى فيقول»، وفي حديث أبي هريرة «فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وكلامه على الناس، اشفع لنا» فذكر مثل آدم قولًا وجوابًا لكنه قال: «إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها».

قوله: (فيقول لست هناكم) زاد مسلم «فيذكر خطيئته التي أصاب قتل النفس» وللإسماعيلي «فيستحيي ربه منها»، وفي رواية عند سعيد بن منصور «إني قتلت نفسًا بغير نفس، وإن يغفر لي اليوم حسبي» وفي حديث أبي هريرة «إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها» وذكر مثل ما في آدم.

قوله: (ائتوا عيسى) زاد مسلم «روح الله وكلمته»، وفي رواية هشام «عبد الله ورسوله وكلمته وروحه»، وفي حديث أبي بكر «فإنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى».

قوله: (فيأتونه) في رواية مسلم «فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم» وفي حديث أبي هريرة «فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟» فذكر مثل آدم قولًا وجوابًا لكن قال: «ولم يذكر ذنبًا» لكن في رواية الترمذي من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد «إني عبدت من دون الله» وفي رواية أحمد والنسائي من حديث ابن عباس: «إني اتخذتُ إلهًا من دون الله» وفي رواية ثابت عند سعيد بن منصور نحوه وزاد «وإن يغفر لي اليوم حسبي».

قوله: (ائتوا محمدًا ﷺ فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) في رواية مسلم «عبد غفر له إلخ» زاد ثابت «من ذنبه» وفي رواية هشام «غفر الله له» وفي رواية معتمر «انطلقوا إلى من جاء اليوم مغفورًا له ليس عليه ذنب» وفي رواية ثابت أيضًا «خاتم النبيين قد حضر اليوم، أرأيتم لو كان متاع في وعاء قد ختم عليه أكان يقدر على ما في الوعاء حتى يفض الخاتم» وعند سعيد ابن منصور «فيرجعون إلى آدم فيقول أرأيتم إلخ»، وفي حديث أبي بكر «ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم فإنه أول من تنشق عنه الأرض» قال عياض: اختلفوا في تأويل قوله تعالى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:6]، قيل: المتقدم ما قبل النبوة والمتأخر العصمة. وقيل:

ما وقع عن سهو أو تأويل. وقيل: المتقدم ذنب آدم والمتأخر ذنب أمته، وقيل: المعنى أنه مغفور له غير مؤاخذ لو وقع، وقيل غير ذلك. قلت: واللائق بهذا المقام القول الرابع، وأما الثالث فلا يتأتى هنا، ويُستَفَاد من قول عيسى في حق نبينا هذا ومن قول موسى فيما تقدم «إني قتلت نفسًا بغير نفس، وإن يغفر لي اليوم حسبي» مع أن الله قد غفر له بنص القرآن، التفرقة بين من وقع منه شيء ومن لم يقع شيء أصلًا، فإن موسى ﷺ مع وقوع المغفرة له لم يرتفع إشفاقه من المؤاخذة بذلك، ورأى في نفسه تقصيرًا عن مقام الشفاعة مع وجود ما صدر منه، بخلاف نبينا ﷺ في ذلك كله، ومن ثم احتج عيسى بأنه صاحب الشفاعة؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بمعنى أن الله أخبر أنه لا يؤاخذه بذنب لو وقع منه، وهذا من النفائس التي فتح الله بها في فتح الباري فله الحمد.

قوله: (فيأتوني) في رواية النضر بن أنس عن أبيه « حدثني نبي الله ﷺ قال: [**إني لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط إذ جاء عيسى فقال: يا محمد هذه الأنبياء قد جاءتك يسألون لتدعو الله أن يفرق جمع الأمم إلى حيث يشاء لِغَمِّ ما هم فيه**] فأفادت هذه الرواية: تعيين موقف النبي ﷺ حينئذٍ، وأن هذا الذي وصف من كلام أهل الموقف كله يقع عند نصب الصراط بعد تساقط الكفار في النار، وأن عيسى ﷺ هو الذي يخاطب النبي ﷺ، وأن الأنبياء جميعًا يسألونه في ذلك. وقد أخرج الترمذي وغيره من حديث أُبي بن كعب في نزول القرآن على سبعة أحرف وفيه [وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي فيه الخلق حتى إبراهيم ﷺ] ووقع في رواية معبد بن هلال [**فيأتوني فأقول: أنا لها أنا لها**] زاد عقبة بن عامر عند ابن المبارك في الزهد [**فيأذن الله لي** فأقوم، فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد] وفي حديث سلمان بن أبي بكر ابن أبي شيبة [يأتون محمدًا فيقولون: يا نبي الله أنت الذي فتح الله بك وختم، وغفر لك ما تقدم وما تأخر، وجئت في هذا اليوم آمنًا وترى ما نحن فيه، فقم فاشفع لنا إلى ربنا. فيقول: أنا صاحبكم، فيجوش الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة]وفي رواية معتمر [فيقول: أنا صاحبها].

قوله: (على ربي) زاد همام [في داره فيؤذن لي] والإذن له إنما هو في دخول الدار وهي الجنة، وأضيفت إلى الله تعالى إضافة تشريف، قيل الحكمة في انتقال النبي ﷺ من مكانه إلى دار السلام أن أرض الموقف لما كانت مقام عرض وحساب كانت مكان مخافة وإشفاق، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام، ومن ثم يستحب أن يتحرى للدعاء المكان الشريف لأن الدعاء فيه أقرب للإجابة.اهـ

قلت: وتقدم في بعض طرقه أن من جملة سؤال أهل الموقف استفتاح باب الجنة. وقد ثبت في (صحيح مسلم) أنه أول من يستفتح باب الجنة، وفي رواية علي ابن زيد عن أنس عند الترمذي [فآخذ حلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد، فيفتحون لي ويرحبون، فأخر ساجدًا] وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم [فيقول الخازن: من؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك] وله من رواية عن أنس رفعه: [أنا أول من يقرع باب الجنة] وفي رواية قتادة عن أنس: [آتي باب الجنة فأستفتح فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد، فيقال: مرحبًا بمحمد]، وفي حديث سلمان: [فيأخذ بحلقة الباب وهي من ذهب فيقرع الباب فيقال: من هذا؟ فيقول: محمد، فيفتح له حتى يقوم بين يدي الله فيستأذن في السجود فيؤذن له] وفي حديث أبي بكر الصديق: [فيأتي جبريل ربه فيقول ائذن له].

قوله: (فإذا رأيته وقعت له ساجدًا) في رواية أبي بكر: [فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي] وفي رواية لابن حبان عن أنس: [فيتجلى له الرب ولا يتجلى لشيء قبله] وفي حديث أبي ابن كعب عند أبي يعلى رفعه: [يعرفني الله نفسه، فأسجد له سجدة يرضى بها عني، ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني].

قوله: (فيدعني ما شاء الله) زاد مسلم [أن يدعني] وكذا في رواية هشام، وفي حديث عبادة بن الصامت [فإذا رأيت ربي خررت له ساجدًا شاكرًا له] وفي رواية معبد بن هلال: [فأقوم بين يديه فيلهمني محامد لا أقدر عليها الآن فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا] وفي حديث أبي بكر الصديق: [فينطلق إليه جبريل فيخر ساجدًا قدر جمعة].

قوله: (ثم يقال لي ارفع رأسك) في رواية مسلم [فيقال يا محمد]، وفي رواية النضر بن أنس [فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد فقل له ارفع رأسك] فعلى هذا فالمعنى يقول لي على لسان جبريل.

قوله: (وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع) في رواية مسلم بغير واو، وسقط من أكثر الروايات [وقل يسمع] وفي حديث أبي بكر [فيرفع رأسه فإذا نظر إلى ربه خر ساجدًا قدر جمعة] وفي حديث سلمان [فينادى يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع وادع تجب].

قوله: [فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني] وفي رواية هشام [يعلمنيه] وفي رواية ثابت [بمحامد لم يحمده بها أحد قبلي، ولا يحمده بها أحد بعدي] وفي حديث سلمان [فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحد من الخلائق] وكأنه ﷺ يلهم التحميد قبل سجوده وبعده، وفيه [ويكون في كل مكان ما يليق به] وقد ورد ما لعله يفسر به بعض ذلك لا جميعه، ففي النسائي و(مصنف عبد الرزاق) و(معجم الطبراني) من حديث حذيفة رفعه قال: [**يجمع الناس في صعيد واحد فيقال: يا محمد، فأقول: لبيك وسعديك والخير في يديك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك تباركت وتعاليت سبحانك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**] زاد عبد الرزاق [سبحانك رب البيت] فذلك قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:79]. قال ابن منده في كتاب الإيمان: هذا حديث مجمع على صحة إسناده وثقة رواته.

قوله: [فيحد لي حدًا] أي: يُبين لي في كل طور من أطوار الشفاعة حدًا أقف عنده فلا أتعداه، مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعة، ثم فيمن أخل بالصلاة، ثم فيمن شرب الخمر، ثم فيمن زنى وعلى هذا الأسلوب، كذا حكاه الطيبي، والذي يدل عليه سياق الأخبار أن المراد به تفضيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة كما عند أحمد عن يحيى القطان عن قتادة في هذا الحديث بعينه، وكما تقدم في رواية عن أنس في كتاب الإيمان بلفظ [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة] وفي رواية ثابت عند أحمد [فأقول: أي رب أمتي

أمتي، فيقول: أخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة] ثم ذكر نحو ما تقدم، وقال: [مثقال ذرة] ثم قال: [مثقال حبة من خردل]. وفي طريق النضر بن أنس قال: [فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنسانًا واحدًا، فما زلت أتردد على ربي لا أقوم منه مقامًا إلا شفعت] وفي حديث سلمان: [فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة ثم شعيرة ثم حبة من خردل فذلك المقام المحمود].

قوله: (ثم أخرجهم من النار) وهنا إشكال قوي، وقد أجاب عنه عياض وتبعه النووي وغيره: بأنه قد وقع في حديث حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة بعد قوله [فيأتون محمدًا فيقوم ويؤذن له] أي في الشفاعة [وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينًا وشمالًا فيمر أولكم كالبرق] الحديث. قال عياض: فبهذا يتصل الكلام، لأنَّ الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي الإراحة من كرب الموقف، ثم تجيء الشفاعة في الإخراج، وقد وقع في حديث أبي هريرة الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكان الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء والإراحة من كرب الموقف، قال: وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معانيها.اهـ قلت: فكأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر، وسيأتي بقيته وفيه [حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا وفي جانبي الصراط كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوش في النار] فظهر منه أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضي بين الخلق، وأنَّ الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك، وقد وقع ذلك صريحًا في حديث ابن عمر بلفظ: [إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذٍ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم] وفي حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى: [ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون] وفي حديث ابن عباس عند أحمد [فيقول عَزَّ وَجَلَّ: يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك؟ فأقول: يا رب عجل

حسابهم] وفي رواية عن ابن عباس عند أحمد وأبي يعلى: [فأقول أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد: أين محمد وأمته] الحديث.

وأجاب القرطبي عن أصل الإشكال: بأن في قوله آخر حديث أبي زرعة عن أبي هريرة بعد قوله ﷺ [فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال: أدخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب] قال: في هذا ما يدل على أن النبي ﷺ يشفع فيما طلب من تعجيل الحساب، فإنه لما أذن له في إدخال من لا حساب عليه دل على تأخير من عليه حساب ليحاسب، وفي حديث الصور الطويل عند أبي يعلى: [فأقول يا رب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله: وقد شفعتك فيهم وأذنت لهم في دخول الجنة] قلت: وفيه إشعار بأن العرض والميزان وتطاير الصحف يقع في هذا الموطن، ثم ينادي المنادي: ليتبع كل أمة من كانت تعبد، فيسقط الكفار في النار، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه، فيطفأ نور المنافقين فيسقطون في النار أيضًا، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة، فمن العصاة من يسقط ويوقف بعض من نجا عند القنطرة للمقاصة بينهم ثم يدخلون الجنة. قوله (ثم أعود فأقع ساجدا مثله في الثالثة أو الرابعة) في رواية هشام [فأحد لهم حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع ثانيًا فأستأذن] إلى أن قال [ثم أحد لهم حدًا ثالثًا فأدخلهم الجنة ثم أرجع]. وعند أحمد عن قتادة: [ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن] ولم يشك بل جزم بأن هذا القول يقع في الرابعة. ووقع في رواية معبد بن هلال عن أنس: أن الحسن حدث معبدًا بعد ذلك بقوله [فأقوم الرابعة] وفيه قول الله له [ليس ذلك لك] وأن الله يخرج مَنْ النار من قال لا إله إلا الله وإن لم يعمل خيرًا قط. فعلى هذا فقوله [حبسه القرآن] يتناول الكفار وبعض العصاة ممن ورد في القرآن في حقه التخليد، ثم يخرج العصاة في القبضة وتبقى الكفار، ويكون المراد بالتخليد في حق العصاة المذكورين البقاء في النار بعد إخراج من تقدمهم.

قوله (إلا من حبسه القرآن، وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود) في رواية همام «إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود» كذا أبهم قائل أي: وجب «وتبين من رواية أبي عوانة أنه قتادة أحد رواته. وفي رواية سعيد عند أحمد بعد قوله إلا من حبسه القرآن» قال: فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: [فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة] الحديث، وفي رواية معبد بن هلال بعد روايته عن أنس من روايته عن الحسن البصري عن أنس قال [ثم أقوم الرابعة فأقول أي رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول لي ليس ذلك لك] فذكر بقية الحديث في إخراجهم، وقد تمسك به بعض المبتدعة في دعواهم أن من دخل النار من العصاة لا يخرج منها لقوله تعالى ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:23]. وأجاب أهل السنة: بأنها نزلت في الكفار، وعلى تسليم أنها في أعم من ذلك فقد ثبت تخصيص الموحدين بالإخراج، ولعل التأبيد في حق من يتأخر بعد شفاعة الشافعين حتى يخرجوا بقبضة أرحم الراحمين، فيكون التأبيد مؤقتًا، وقال عياض: استدل بهذا الحديث مَنْ جوز الخطايا على الأنبياء كقول كل من ذكر فيه ما ذكر، وأجاب عن أصل المسألة بأنه لا خلاف في عصمتهم من الكفر بعد النبوة وكذا قبلها على الصحيح، وكذا القول في الكبيرة، ويلتحق بها ما يزري بفاعله من الصغائر، وكذا القول في كل ما يقدح في الإبلاغ من جهة القول، واختلفوا في الفعل فمنعه بعضهم حتى في النسيان، وأجاز الجمهور السهو لكن لا يحصل التمادي، واختلفوا فيما عدا ذلك كله من الصغائر، فذهب جماعة من أهل النظر إلى عصمتهم منها مطلقًا، وأولوا الأحاديث والآيات الواردة في ذلك بضروب من التأويل، ومن جملة ذلك: أن الصادر عنهم إما أن يكون بتأويل من بعضهم أو بسهو أو بإذن، لكن خشوا أن لا يكون ذلك موافقًا لمقامهم فأشفقوا من المؤاخذة أو المعاتبة، قال: وهذا أرجح المقالات، وليس هو مذهب المعتزلة وإن قالوا بعصمتهم مطلقًا؛ لأن منزعهم في ذلك التكفير بالذنوب مطلقًا ولا يجوز على النبي الكفر، ومنزعنا أن أمة النبي مأمورة بالاقتداء به في أفعاله فلو جاز منه وقوع المعصية للزم الأمر بالشيء الواحد والنهي عنه في حالة واحدة وهو باطل. ثم قال عياض: وجميع ما ذكر في حديث الباب لا يخرج عما قلناه لأن أكل آدم من الشجرة كان

عن سهو، وطلب نوح نجاة ولده كان عن تأويل، ومقالات إبراهيم كانت معاريض وأراد بها الخير، وقتيل موسى كان كافرًا.اهـ

وقوله فيه: (فذهبنا معنا بثابت البناني إليه يسأله) قال ابن التين: فيه تقديم الرجل الذي هو من خاصة العالم ليسأله.

وفي قوله: « فإذا هو في قصره » قال ابن التين: فيه اتخاذ القصر لمن كثرت ذريته.

قوله: (وهو متوار في منزل أبي خليفة) هو حجاج بن عتاب العبدي البصري والد عمر بن أبي خليفة، سماه البخاري في (تاريخه).

قوله: (وهو جميع) أي: مجتمع العقل وهو إشارة إلى أنه كان حينئذٍ لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن، وحدوث اختلاط الحفظ.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (1/ 3/ 53-59) و (61-65): **قوله ﷺ: [يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك]** وفي رواية (فيلهمون) **فمعنى الأولى:** أنهم يعتنون بسؤال الشفاعة وزوال الكرب الذي هم فيه، **ومعنى الثانية:** أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك، والإلهام؛ أن يلقى الله تعالى في النفس أمرًا يحمل على فعل الشيء أو تركه. والله أعلم.

قوله ﷺ في الناس: [أنهم يأتون آدم ونوحًا وباقي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فيطلبون شفاعتهم فيقولون: لسنا هناكم، ويذكرون خطاياهم] إلى آخره. اعلم أن العلماء من أهل الفقه والأصول وغيرهم اختلفوا في جواز المعاصي على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقد لخص القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ مقاصد المسألة فقال: لا خلاف أن الكفر عليهم بعد النبوة ليس بجائز بل هم معصومون منه، واختلفوا فيه قبل النبوة، والصحيح أنه لا يجوز، وأما المعاصي فلا خلاف أنهم معصومون من كل كبيرة، وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروءته، واختلفوا في وقوع غيرها من الصغائر منهم، فذهب معظم الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من السلف والخلف إلى جواز

وقوعها منهم وحجتهم ظواهر القرآن والأخبار وذهب جماعة من أهل التحقيق والنظر من الفقهاء والمتكلمين من أئمتنا إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر، وأن منصب النبوة يجل عن مواقعتها وعن مخالفة الله تعالى عمدًا، وتكلموا على الآيات والأحاديث الواردة في ذلك وتأولوها، وأن ما ذكر عنهم من ذلك إنما هو فيما كان منهم على تأويل أو سهو أو من إذن من الله تعالى في أشياء أشفقوا من المؤاخذة بها وأشياء منهم قبل النبوة، وهذا المذهب هو الحق لما قدمناه، ولأنه لو صح ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء بأفعالهم وإقرارهم وكثير من أقوالهم، ولا خلاف في الاقتداء بذلك، وانظر هذه الخطايا التي ذكرت للأنبياء من أكل آدم عليه الصلاة والسلام من الشجرة ناسيًا، ومن دعوة نوح ﷺ على قوم كفار، وقتل موسى ﷺ الكافر لم يؤمر بقتله، ومدافعة إبراهيم ﷺ الكفار بقول عرض به هو فيه من وجه صادق، وهذه كلها في حق غيرهم ليست بذنوب، لكنهم أشفقوا منها إذ لم تكن عن أمر الله تعالى، وعتب على بعضهم فيها لقدر منزلتهم من معرفة الله تعالى. هذا آخر كلام القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ والله أعلم.

قوله: [في آدم خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه] هو من باب إضافة التشريف.

قوله: [ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا] قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: أصل الخلة الاختصاص والاستصفاء وقيل: أصلها الانقطاع إلى من خاللت، مأخوذ من الخلة وهي الحاجة، فسمي إبراهيم بذلك؛ لأنه قصر حاجته على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقيل: (الخلة) صفاء المودة التي توجب تخلل الأسرار. وقيل معناها: المحبة والإلطاف. هذا كلام القاضي، وقال ابن الأنباري: الخليل: معناه المحب الكامل المحبة، والمحبوب: الموفي بحقيقة المحبة اللذان ليس في حبهما نقص ولا خلل، قال الواحدي: هذا القول هو الاختيار ; لأن الله عَزَّ وَجَلَّ خليل إبراهيم وإبراهيم خليل الله، ولا يجوز أن يُقال الله تعالى خليل إبراهيم من الخلة التي هي الحاجة.اهـ

قوله ﷺ [إن كل واحد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يقول: لست هناكم، أو لست لها] قال القاضي عياض: هذا يقولونه تواضعًا وإكبارًا لما يسألونه. قال: وقد تكون إشارة من كل واحد منهم إلى أن هذه الشفاعة وهذا المقام ليس له بل لغيره، وكل واحد منهم يدل

على الآخر حتى انتهى الأمر إلى صاحبه، قال: ويحتمل أنهم علموا أن صاحبها محمد ﷺ معينًا وتكون إحالة كل واحد منهم على الآخر على تدريج الشفاعة في ذلك إلى نبينا محمد ﷺ، قال: وفيه تقديم ذوي الأسنان والآباء على الأبناء في الأمور التي لها بال، قال: وأما مبادرة النبي ﷺ لذلك إجابته لدعوتهم فلتحققه ﷺ أن هذه الكرامة والمقام له ﷺ خاصة.أهـ والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم سؤال آدم ومن بعده صلوات الله وسلامه عليهم في الابتداء، ولم يلهموا سؤال نبينا محمد ﷺ هي - والله أعلم - إظهار فضيلة نبينا محمد ﷺ، فإنهم لو سألوه ابتداء لكان يحتمل أن غيره يقدر على هذا ويحصله، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم ; فهو النهاية في ارتفاع المنزلة وكمال القرب وعظيم الإدلال والأنس. وفيه تفضيله ﷺ على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة ; فإن هذا الأمر العظيم وهي الشفاعة العظمى لا يقدر على الإقدام عليه غيره ﷺ وعليهم أجمعين.

قوله ﷺ في موسى ﷺ: [الذي كلمه الله تكليمًا] هذا بإجماع أهل السنة على ظاهره، وأن الله تعالى كلم موسى حقيقة كلامًا سمعه بغير واسطة، ولهذا أكد بالمصدر، والكلام صفة ثابتة لله تعالى لا يشبه كلام غيره.

قوله ﷺ: (ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) هذا مما اختلف العلماء في معناه. قال القاضي: قيل: المتقدم ما كان قبل النبوة والمتأخر عصمتك بعدها، وقيل: المراد به ذنوب أمته ﷺ، قلت: فعلى هذا يكون المراد الغفران لبعضهم أو سلامتهم من الخلود في النار. وقيل: المراد ما وقع منه ﷺ عن سهو. وتأويل حكاه الطبري واختاره القشيري، وقيل: ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك. وقيل: المراد أنه مغفور لك غير مؤاخذ بذنب لو كان. وقيل: هو تنزيه له من الذنوب ﷺ. والله أعلم.

قوله ﷺ: [فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي] قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه - والله أعلم - فيؤذن لي في الشفاعة الموعود بها والمقام المحمود الذي ادخره الله تعالى له، وأعلمه أنه يبعثه فيه، قال القاضي: وجاء في حديث أنس وحديث أبي هريرة ابتداء النبي ﷺ بعد

سجوده وحمده والإذن له في الشفاعة بقوله (أمتي أمتي) وقد جاء في حديث حذيفة بعد هذا في الحديث نفسه قال [فيأتون محمدًا ﷺ فيقوم ويؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا فيمر أولهم كالبرق] وساق الحديث، وبهذا يتصل الحديث؛ لأن هذه هي الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها وهي الإراحة من الموقف، والفصل بين العباد، ثم بعد ذلك حلت الشفاعة في أمته ﷺ وفي المذنبين، وحلت الشفاعة للأنبياء والملائكة وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم كما جاء في الأحاديث الأخر، وجاء في الأحاديث المتقدمة في الرؤية وحشر الناس اتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المؤمنين من المنافقين، ثم حلول الشفاعة ووضع الصراط فيحتمل أن الأمر باتباع الأمم ما كانت تعبد هو أول الفصل والإراحة من هول الموقف، وهو أول المقام المحمود، وأن الشفاعة التي ذكر حلولها هي الشفاعة في المذنبين على الصراط، وهو ظاهر الأحاديث وأنها لنبينا محمد ﷺ ولغيره كما نص عليه في الأحاديث، ثم ذكر بعدها الشفاعة فيمن دخل النار، وبهذا تجتمع متون الحديث وتترتب معانيها إن شاء الله تعالى.أهـ

قوله ﷺ: [ما بقي في النار إلا مَنْ حبسه القرآن] أي: وجب عليه الخلود. وبين مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ أن قوله (أي وجب عليه الخلود) هو تفسير قتادة الراوي، وهذا التفسير صحيح، ومعناه: مَنْ أخبر القرآن أنه مخلد في النار وهم الكفار كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ وفي هذا: دلالة لمذهب أهل الحق وما أجمع عليه السلف أنه لا يخلد في النار أحد مات على التوحيد. والله أعلم.

قوله ﷺ: [ثم آتيه فأقول يا رب] معنى (آتيه) أي: أعود إلى المقام الذي قمت فيه أولا وسألت، وهو مقام الشفاعة.

قوله ﷺ [فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجوه منها فأنطلق فأفعل] ثم قال ﷺ بعده [فيُقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه] ثم قال ﷺ [فيُقال لي انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال

حبة من خردل من إيمان فأخرجه] أما الثاني والثالث فاتفقت الأصول على أنه (فأخرجه) بضميره ﷺ وحده. فمن روى (فأخرجوه) يكون خطابًا للنبي ﷺ ومن معه من الملائكة. وفي هذا الحديث دلالة لمذهب السلف وأهل السنة ومن وافقهم من المتكلمين في أن الإيمان يزيد وينقص، ونظائره في الكتاب والسنة كثيرة.

وقوله (هذا حديث أنس الذي أنبأنا به فخرجنا من عنده فلما كنا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة، قال: فدخلنا عليه فسلمنا عليه وقلنا: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع بمثل حديث حدثناه في الشفاعة قال: هيه، فحدثناه الحديث، قال: هيه، قلنا: ما زادنا، قال: حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذٍ جميع، ولقد ترك منه شيئًا ما أدري أنسي الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، قلنا له: حدثنا، فضحك وقال: خلق الإنسان من عجل، ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه: [ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعط، واشفع تشفع فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله قال: ليس ذلك لك أو قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال: لا إله إلا الله] قال: فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قال: قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع) هذا الكلام فيه فوائد كثيرة فلهذا نقلت المتن بلفظه مطولًا ليعرف مُطالعه مقاصده.

أما قوله: (بظهر الجبان) أي بظاهرها وأعلاها المرتفع منها. قال أهل اللغة: الجبان والجبانة هما الصحراء ويسمى بهما المقابر، لأنها تكون في الصحراء، وهو من تسمية الشيء باسم موضعه.

وقوله: (ملنا إلى الحسن) يعني عدلنا، وهو الحسن البصري. وقوله (وهو مستخف) يعني متغيبًا خوفًا من الحجاج بن يوسف.

وقوله: (قال: هيه) قال أهل اللغة: يقال في استزادة الحديث (إيه) ويُقَال (هيه) بالهاء بدل الهمزة، قال الجوهري: تقول للرجل إذا استزدته من حديث أو عمل (إيه) بكسر الهمزة.

وأما قوله: (وهو يومئذٍ جميع) أي: مجتمع القوة والحفظ.

وقوله (فضحك) فيه: أنه لا بأس بضحك العالم بحضرة أصحابه إذا كان بينه وبينهم أنس، ولم يخرج بضحكه إلى حد يعد تركًا للمروءة.

وقوله (فضحك وقال: خلق الإنسان من عجل) فيه: جواز الاستشهاد بالقرآن في مثل هذا الموطن، وقد ثبت في (الصحيح) مثله من فعل رسول الله ﷺ لما طرق فاطمة وعليًا رضي الله عنهما ثم انصرف وهو يقول ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54] ونظائر هذا كثيرة.

وقوله ﷺ: [ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن مَنْ قَالَ لا إله إلا الله] معناه: لأتفضلن عليهم بإخراجهم من غير شفاعة، كما في الحديث [شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين]. وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ (وجبريائي) أي: عظمتي وسلطاني أو قهري.

فوائد الحديث:

1- عصمة الأنبياء من الكبائر مطلقًا، ومن الصغائر كذلك.

2- فيه: دلالة لمذهب أهل الحق وما أجمع عليه السلف أنه لا يخلد في النار أحد مات على التوحيد.

3- فيه: دلالة لمذهب السلف وأهل السنة ومَنْ وافقهم من المتكلمين في أن الإيمان يزيد وينقص.

4- إثبات الشفاعات لرسول الله ﷺ، وأولها وأجلها شفاعته في الخلائق أجمعين.

5- تفضيل محمد ﷺ على جميع الخلق؛ لأن الرسل والأنبياء والملائكة أفضل ممن سواهم، وقد ظهر فضله في هذا المقام عليهم، قال القرطبي: ولو لم يكن في ذلك إلا الفرق بين من يقول نفسي نفسي وبين من يقول أمتي أمتي لكان كافيًا.

6- الرد على الخوارج والمعتزلة وأمثالهم المخالفون في المسائل السابقة.

7- أنَّ نوحًا أول رسول بعثه الله تعالى، وأن إبراهيم خليل الله، وأن موسى كلمه الله حقيقة.

8- ينبغي للعالم وكبير المجلس أن يكرم فضلاء الداخلين عليه ويميزهم بمزيد إكرام في المجلس وغيره.

9- تقديم ذوي الأسنان والآباء على الأبناء في الأمور التي لها بال.

10- لا بأس بضحك العالم بحضرة أصحابه إذا كان بينه وبينهم أُنس، ولم يخرج بضحكه إلى حد يعد تركًا للمروءة.

11- جواز الاستشهاد بالقرآن في موطن التعجب والتندر وغيره.

12- تفضيل الأنبياء المذكورين فيه على مَنْ لم يذكر فيه لتأهلهم لذلك المقام العظيم دون من سواهم، وقد قيل: إنما اختص المذكورون بذلك لمزايا أخرى لا تتعلق بالتفضيل، فآدم لكونه والد الجميع، ونوح لكونه الأب الثاني، وإبراهيم للأمر باتباع ملته، وموسى لأنه أكثر الأنبياء تبعًا، وعيسى لأنه أولى الناس بنبينا محمد ﷺ كما ثبت في الحديث الصحيح. ويحتمل أن يكونوا اختصوا بذلك لأنهم أصحاب شرائع عمل بها من بين من ذكر أولًا ومن بعده.

13- أن مَنْ طلب من كبير أمرًا مهمًا أن يقدم بين يدي سؤاله وصف المسئول بأحسن صفاته وأشرف مزاياه ليكون ذلك أدعى لإجابته لسؤاله.

14- أن المسئول إذا لم يقدر على تحصيل ما سئل يعتذر بما يقبل منه ويدل على مَنْ يظن أنه يكمل في القيام بذلك فالدال على الخير كفاعله، وأنه يثني على المدلول عليه بأوصافه المقتضية لأهليته، ويكون أدعى لقبول عذره في الامتناع.

15- العمل بالعام قبل البحث عن المخصص أخذًا من قصة نوح في طلبه نجاة ابنه.

16- أن الناس يوم القيامة يستصحبون حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله تعالى في حوائجهم بأنبيائهم، والباعث على ذلك الإلهام كما تقدم في صدر الحديث.

17- أنهم يستشير بعضهم بعضًا ويجمعون على الشيء المطلوب، وأنهم يغطى عنهم بعض ما علموه في الدنيا لأن في السائلين من سمع هذا الحديث ومع ذلك فلا يستحضر أحد منهم أن ذلك المقام يختص به نبينا ﷺ، إذ لو استحضروا ذلك لسألوه من أول وهلة ولما احتاجوا إلى التردد من نبي إلى نبي، ولعل الله تعالى أنساهم ذلك للحكمة التي تترب عليه من إظهار فضل نبينا ﷺ.

18- جواز إطلاق الغضب على الله والمراد به ما يظهر من انتقامه ممن عصاه، وما يشاهده أهل الموقف من الأهوال التي لم يكن مثالها ولا يكون، كذا قرره النووي. وقال غيره: المراد بالغضب لازمه وهو إرادة إيصال السوء للبعض، وقول آدم ومن بعده «نفسي نفسي» أي نفسي هي التي تستحق أن يشفع لها.

الحديث التاسع

عَنْ نَصْرِ بْنِ حَزْنٍ ﷺ قال: افتخر أهل الإبل والشاة، فقال رسول الله ﷺ: [**بُعِثَ مُوسَى ﷺ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثَ دَاوُدَ ﷺ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثْتُ وَأَنَا أَرْعَى غَنَمًا لأَهْلِي بِأَجْيَادٍ**] (السنن الكبرى 6/ 396).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ نَجْنِي الكَبَاثَ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: [**عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ**] قَالُوا: أَكُنْتَ تَرْعَى الغَنَمَ؟ قَالَ [**وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا**] البخاري (3406).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ [مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ] فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: [نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ] البخاري (2262).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا رَاعِيَ غَنَمٍ] قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: [وَأَنَا كُنْتُ أَرْعَاهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالقَرَارِيطِ] قَالَ سُوَيْدٌ: يَعْنِي كُلَّ شَاةٍ بِقِيرَاطٍ. ابن ماجه (2140).

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (4/ 516): قوله: (بمر الظهران) مكان معروف على مرحلة من مكة. قوله: (نجني) أي: نقتطف.

قوله: (فقيل: أكنت ترعى الغنم)؟ في السؤال اختصار والتقدير: أكنت ترعى الغنم حتى عرفت أطيب الكباث؟ لأن راعي الغنم يكثر تردده تحت الأشجار لطلب المرعى منها والاستظلال تحتها، وأفاد ابن التين عن الداودي: أن الحكمة في اختصاصها بذلك لكونها لا تركب فلا تزهو نفس راكبها، قال: وفيه إباحة أكل ثمر الشجر الذي لا يملك، قال ابن بطال: كان هذا في أول الإسلام عند عدم الأقوات، فإذا أغنى الله عباده بالحنطة أو الحبوب الكثيرة وسعة الرزق فلا حاجة بهم إلى ثمر الأراك. قلت: إن أراد بهذا الكلام الإشارة إلى كراهة تناوله فليس بمسلم، ولا يلزم من وجود ما ذكر منع ما أبيح بغير ثمن، بل كثير من أهل الورع لهم رغبة في مثل هذه المباحات أكثر من تناول ما يشتري والله أعلم. تكملة: أخرج البيهقي هذا الحديث في كتاب «الدلائل» عن يحيى بن بكير بسنده إلى جابر فذكر هذا الحديث وقال في آخره «وقال إن ذلك كان يوم بدر يوم جمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان».

قوله: [على قراريط لأهل مكة] في رواية ابن ماجه [كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط] قال سويد أحد رواته: يعني كل شاة بقيراط، يعني القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم، قال إبراهيم الحربي: « قراريط » اسم موضع بمكة ولم يرد القراريط من الفضة،

وصوبه ابن الجوزي تبعًا لابن ناصر وخطأ سويدًا في (تفسيره)، لكن رجح الأول؛ لأن أهل مكة لا يعرفون بها مكانًا يُقال له قراريط. وأما ما رواه النسائي من حديث نصر بن حَزْن قال «افتخر أهل الإبل وأهل الغنم، فقال رسول الله ﷺ: [بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثتُ وأنا أرعى غنم أهلي بجياد] فزعم بعضهم: أن فيه ردًا لتأويل سويد بن سعيد؛ لأنه ما كان يرعى بالأجرة لأهله فيتعين أنه أراد المكان فعبر تارة بجياد وتارة بقراريط. وليس الرد بجيد إذ لا مانع من الجمع بين أن يرعى لأهله بغير أجرة ولغيرهم بأجرة، أو المراد بقوله «أهلي» أهل مكة فيتحد الخبران ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة وفي الآخر بين المكان فلا ينافي ذلك والله أعلم. وقال بعضهم: لم تكن العرب تعرف القيراط الذي هو من النقد، ولذلك جاء في (الصحيح) [يستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط] وليس الاستدلال لما ذكر من نفي المعرفة بواضح.

قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم، والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة؛ ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها. وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

قال السندي في شرح (سنن ابن ماجه): قوله: [إلا راعي غنم] اسم فاعل من الرعي، ولعل ذلك؛ لأن الغنم أكثر من المواشي انتشارًا وضعفًا فراعيها يكون أقدر لجمع المتفرق وأعرف بتدبيره ويكون أرق قلبًا يراعي الضعيف وجمع المتفرق (بالقراريط) جمع قيراط على أن ياءه بدل من الواو وهو من أجزاء الدينار وهو نصف عشره في أكثر البلاد وأهل الشام يجعلونه جزءا من أربعة وعشرين.

فوائد الحديث:

1- ما كان عليه النبي ﷺ من عظيم التواضع لربه.

2- تصريحه بمنن الله عَزَّ وَجَلَّ عليه وعلى إخوانه من الأنبياء أن لم يضع النبوة في أبناء الدنيا والمترفين منهم

3- رعي الغنم مهنة شريفة مباركة امتهنها أشرف الخلق.

4- إباحة أكل ثمر الشجر الذي لا يملك.

5- الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم الخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم.

الحديث العاشر

عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: [مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَجُلًا مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الخَلقِ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ سَبِطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ الله إِيَّاهُ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة:23].] البخاري (3239) ومسلم (240).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِإِيلِيَاءَ رَأَيْتُ مُوسَى وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي

الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ. فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ وَلَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ] البخاري (3394) و(3437) و(4709).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ؛ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ -يَعْنِي نَفْسَهُ-، فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ]. مسلم (251).

معاني الكلمات

(ضَرْبٌ) أي: نحيف.

(آدَمَ) الأُدْمَة لون بين البياض والسواد، والمراد شديد السمرة.

(رَجِلٌ) أي: دهين الشعر مسترسل؛ وقيل: غير جعد.

(شَنُوءَةَ) حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأزد، ولقب شنوءة لشنان كان بينه وبين أهله، والنسبة إليه شنوئي، **قال ابن قتيبة**: سُمِيَ بذلك من قولك: رجل فيه شنوءة أي تقزز، والتقزز التباعد من الأدناس، **قال الداودي**: رجال الأزد معروفون بالطول.

(جَعْدًا) **قال النووي**: الجعودة في صفة موسى جعودة الجسم وهو اكتنازه واجتماعه لا جعودة الشعر لأنه جاء أنه كان رجل الشعر.

(رَبْعَةٌ) وهو المربوع، والمراد أنه ليس بطويل جدا ولا قصير جدا بل وسط.

(دِيَاسٍ) والدياس في اللغة السرب، ويُطلق أيضًا على الكن، والحمام من جملة الكن. والمراد من ذلك وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتى كأنه كان في موضع كن فخرج منه وهو عرقان.

(بِإِيلِيَاءَ) هي مدينة بيت المقدس، وهو ظاهر في أن عرض ذلك عليه ﷺ وقع وهو في بيت المقدس.

(غَوَتْ أُمَّتُكَ) معناه: ضلت وانهمكت في الشر.

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (10/ 36): قوله ﷺ [وأنا أشبه ولد إبراهيم به] أي: الخليل ﷺ، وزاد مسلم في رواية عن جابر: **[ورأيتُ جبريل فإذا أقرب الناس به شبهًا دحية]**.

قوله: [ولو أخذت الخمر غوت أمتك] قال ابن عبد البر: يحتمل أن يكون ﷺ نفر من الخمر؛ لأنه تفرس أنها ستحرم لأنها كانت حينئذٍ مباحة، ولا مانع من افتراق مباحين مشتركين في أصل الإباحة في أن أحدهما سيحرم والآخر تستمر إباحته.اهـ قلت: ويحتمل أن يكون نفر منها لكونه لم يعتد شربها فوافق بطبعه ما سيقع من تحريمها بعد، حفظًا من الله تعالى له ورعاية، واختار اللبن لكونه مألوفا له، سهلًا طيبًا طاهرًا، سائغًا للشاربين، سليم العاقبة، بخلاف الخمر في جميع ذلك. والمراد بالفطرة هنا الاستقامة على الدين الحق.

وقوله: [غوت أمتك] يحتمل أن يكون أخذه من طريق الفأل، أو تقدم عنده علم بترتب كل من الأمرين وهو أظهر.

قوله: (إن النبي ﷺ أتي ليلة أسري به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن فقال له جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك) فألهمه الله تعالى اختيار اللبن، لما أراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من توفيق هذه الأمة، واللطف بها، فلله الحمد والمنة.

وقول جبريل ﷺ: (أصبت الفطرة) أظهر الأقوال فيه: أنَّ الله تعالى أعلم جبريل أن النبي ﷺ إن اختار اللبن كان كذا، وإن اختار الخمر كان كذا. وأما الفطرة فالمراد بها هنا الإسلام والاستقامة.

وقوله: (الحمد لله) فيه: استحباب حمد الله عند تجدد النعم، وحصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه. والله أعلم.

قال الإمام النووي رحمه الله (1/ 2/ 226-228 و232 و238): قوله ﷺ: [موسى آدم طوال كأنه من رجال شنوءة وقال: عيسى جعد مربوع] أما (طوال) فمعناه طويل. وأما (شنوءة) وهي قبيلة معروفة. قال ابن قتيبة في (أدب الكاتب): سموا بذلك من قولك رجل فيه شنوءة إي تقزز قال: ويُقَال: سموا بذلك لأنهم تشانؤا وتباعدوا وقال الجوهري: الشنوءة التقزز وهو التباعد من الأدناس ومنه أزد شنوءة وهم حي من اليمن ينسب إليهم. وأما قوله ﷺ: (مربوع) فقال أهل اللغة: هو الرجل بين الرجلين في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقير. وأما قوله ﷺ في عيسى ﷺ أنه: (جعد) وفي أكثر الروايات في صفته: (سبط الرأس) فقال العلماء: المراد بالجعد هنا جعودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه وليس المراد جعودة الشعر. وأما الجعد في صفة موسى ﷺ فقال صاحب التحرير فيه معنيان أحدهما ما ذكرناه في عيسى ﷺ وهو اكتناز الجسم والثاني جعودة الشعر قال: والأول أصح. والمعنيان فيه جائزان وتكون جعودة الشعر على المعنى الثاني ليست جعودة القطط بل معناها أنه بين القطط والسبط. والله أعلم. والسَبِط قال أهل اللغة: الشعر السبط هو المسترسل ليس فيه تكسر ويقال في الفعل منه سبِط شعره.

قوله ﷺ: [وأري مالكًا خازن النار] ومعناه: أري النبي ﷺ مالكًا، وقد ثبت في (صحيح البخاري) في هذا الحديث [ورأيت مالكًا] وفيه فوائد يتنبه بها على غيره والله أعلم.

قوله ﷺ: [وأري مالكا خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾]قال: كان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى ﷺ) هذا الاستشهاد بقوله

تعالى ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ هو من استدلال بعض الرواة. وأما تفسير قتادة فقد وافقه عليه جماعة منهم مجاهد والكلبي والسدي، وعلى مذهبهم معناه فلا تكن في شك من لقائك موسى. وذهب كثيرون من المحققين من المفسرين وأصحاب المعاني إلى أن معناها فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب وهذا مذهب ابن عباس ومقاتل والزجاج وغيرهم.

قوله ﷺ في صفة عيسى ﷺ: (فإذا ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس) يعني: حمامًا، وأما (الديماس) فسره الراوي بالحمام، والمعروف عند أهل اللغة أن الديماس هو السرب، وهو أيضا الكن قال الهروي في هذا الحديث: قال بعضهم: الديماس هنا هو الكن أي كأنه مخدر لم ير شمسًا، وقال بعضهم: المراد به السرب ومنه دمسته إذا دفنته. وقال الجوهري في (صحاحه): في هذا الحديث قوله (خرج من ديماس) يعني: في نضارته، وكثرة ماء وجهه كأنه خرج من كن؛ لأنه قال في وصفه كأن رأسه يقطر ماء. وأما وصف عيسى صلوات الله عليه وسلامه في رواية أبي هريرة ﷺ: بأنه أحمر، ووصفه في رواية ابن عمر ﷺ بعدها: بأنه آدم، والآدم الأسمر. وقد روى البخاري عن ابن عمر ﷺ أنه أنكر رواية أحمر وحلف: أن النبي ﷺ لم يقله يعني، وأنه اشتبه على الراوي فيجوز أن يتأول الأحمر على الأدم، ولا يكون المراد حقيقة الأدمة والحمرة بل ما قاربها. والله أعلم.

قوله ﷺ: [فكربت كربة ما كربت مثله قط] وهو الكرب أو الغم أو الهم أو الشيء.

قوله ﷺ: [وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم فإذا موسى ﷺ قائم يُصلي، وإذا عيسى بن مريم ﷺ قائم يُصلي، وإذا إبراهيم ﷺ قائم يصلي فحانت الصلاة فأممتهم] قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تكون الصلاة هنا بمعنى الذكر والدعاء وهي من أعمال الآخرة. قال القاضي: فإن قيل: كيف رأى موسى ﷺ يصلي في قبره، وصلى النبي ﷺ بالأنبياء في بيت المقدس ووجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه ورحبوا به؟ فالجواب: أنه يحتمل أن تكون رؤيته موسى في قبره عند الكثيب الأحمر كانت قبل صعود النبي ﷺ إلى السماء وفي طريقه إلى بيت المقدس، ثم وجد موسى قد سبقه إلى السماء. ويحتمل أنه ﷺ

رأى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وصلى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم ثم سألوه ورحبوا به، أو يكون اجتماعه بهم وصلاته، ورؤيته موسى بعد انصرافه ورجوعه عن سدرة المنتهى. والله أعلم.

فوائد الحديث:

1- استحباب حمد الله عند تجدد النعم، وحصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه.

2- دين الأنبياء واحد.

3- شرف النبي ﷺ على الخلق أجمعين لإمامته لأفضلهم وهم الأنبياء في الصلاة.

الحديث الحادي عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَإِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، وَكَانَ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، لا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى؛ فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَذَهَبَ يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ.. ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ الله، فَقَالُوا: وَالله مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَالله إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:69].] البخاري (3404)، والترمذي وقال: حسن صحيح.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (كَانَ مُوسَى ﷺ رَجُلًا حَيِيًّا. قَالَ: فَكَانَ لَا يُرَى مُتَجَرِّدًا. قَالَ: فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنَّهُ آدَرُ. قَالَ: فَاغْتَسَلَ عِنْدَ مُوَيْهٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَانْطَلَقَ الحَجَرُ يَسْعَى، وَاتَّبَعَهُ بِعَصَاهُ يَضْرِبُهُ؛ ثَوْبِي حَجَرُ.. ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:69].) مسلم (4373).

معاني الكلمات:

(أُدْرَةٌ) هي انتفاخ في الخصية. (بَرَصٌ) مرض بالجلد. (آفَةٌ) داء.

(طَفِقَ) بدأ وشرع.

(نَدَبًا) الأثر.

(وجيهًا) ذا جاه ومنزلة.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (1/ 460): قوله [كانت بنو إسرائيل] أي: جماعة منهم يغتسلون عراة متجردين، وكان هذا جائزًا في شرعهم، وإلا لما أقرهم موسى على ذلك، وأما هو ﷺ فكان حييًا؛ فكان يغتسل وحده أخذًا بالأفضل.

قوله: [عدا بثوبه] أي: جرى به، وخاطبه ثوبي حجر، فأجراه مجرى مَنْ يعقل لكونه فرَّ بثوبه، فانتقل عنده من حكم الجماد إلى حكم الحيوان فناداه، فلما لم يعطه ضربه.

قوله: [فرأوه عريانًا] ظاهر في أنهم رأوا عورته (موضع الاتهام).

قوله: [ثوبي يا حجر] أي: أعطني، وإنما خاطبه؛ لأنه أجراه مجرى مَنْ يعقل لكونه فر بثوبه فانتقل عنده من حكم الجماد إلى حكم الحيوان فناداه، فلما لم يعطه ضربه. وقيل: يحتمل أن يكون موسى أراد بضربه إظهار المعجزة بتأثير ضربه فيه، ويحتمل أن يكون عن وحي.

قوله: (لندب) وهو الأثر.

قوله: (لا يرى من جلده شيء استحياء منه) هذا يشعر بأن اغتسال بني إسرائيل عراة بمحضر منهم كان جائزًا في شرعهم. وإنما اغتسل موسى وحده استحياء.

قوله (فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه) وظاهره أنه دخل الماء عريانًا. وفي رواية عن أنس عند أحمد في هذا الحديث: [إن موسى كان إذا أراد أن يدخل الماء لم يلق ثوبه حتى يواري عورته في الماء].

قوله: (عدا بثوبه) أي: مضى مسرعًا.

قوله: (ثوبي حجر.. ثوبي حجر) أي: أعطني ثوبي، أو رد ثوبي.

قوله (وأبرأه مما يقولون) في رواية عن أبي هريرة: [فقالت بنو إسرائيل: قاتل الله الأفاكين وكانت براءته]

قوله (ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا) وعند ابن مردويه عن أبي هريرة الجزم بست ضربات. وفي الحديث جواز المشي عريانًا للضرورة، وقال ابن الجوزي: لما كان موسى في خلوة وخرج من الماء فلم يجد ثوبه تبع الحجر بناء على أن لا يصادف أحدًا وهو عريان، فاتفق أنه كان هناك قوم فاجتاز بهم، كما أن جوانب الأنهار وإن خلت غالبًا لا يؤمن وجود قوم قريب منها، فبُني الأمر على أنه لا يراه أحد لأجل خلاء المكان، فاتفق رؤية مَنْ رآه. والذي يظهر أنه استمر يتبع الحجر على ما في الخبر حتى وقف على مجلس لبني إسرائيل كان فيهم من قال فيه ما قال. وبهذا تظهر الفائدة، وإلا فلو كان الوقوف على قوم منهم في الجملة لم يقع ذلك الموقع.

وقد روى «أحمد بن منيع في مسنده» والطبري وابن أبي حاتم بإسناد قوي عن ابن عباس عن علي قال: «صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حبًا فآذوه بذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمرت به على مجالس بني إسرائيل، فعلموا بموته» قال الطبري: يحتمل أن يكون هذا المراد بالأذى في قوله ﴿ لَا

تَكُونُواْ كَالَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾. [الأحزاب:69] قلت: وما في الصحيح أصح من هذا، لكن لا مانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة.اهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (4/ 32): إنه يجوز كشف العورة في موضع الحاجة في الخلوة، وذلك كحالة الاغتسال وحال البول ومعاشرة الزوجة ونحو ذلك، فهذا كله جائز فيه التكشف في الخلوة، وأما بحضرة الناس فيحرم كشف العورة في كل ذلك. قال العلماء: والتستر بمئزر ونحوه في حال الاغتسال في الخلوة أفضل من التكشف، والتكشف جائز مدة الحاجة في الغسل ونحوه والزيادة على قدر الحاجة حرام على الأصح. والله أعلم. وموضع الدلالة من هذا الحديث أن موسى ﷺ اغتسل في الخلوة عريانًا، وهذا يتم على قول من يقول من أهل الأصول أن شرع من قبلنا شرع لنا. والله أعلم.

قوله ﷺ: [كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءة بعض] يحتمل أن هذا كان جائزًا في شرعهم، وكان موسى ﷺ يتركه تنزهًا واستحبابًا وحياء ومروءة، ويحتمل أنه كان حرامًا في شرعهم كما هو حرام في شرعنا، وكانوا يتساهلون فيه كما يتساهل فيه كثيرون من أهل شرعنا. والسوءة هي العورات سُميتْ بذلك؛ لأنه يسوء صاحبها كشفها. والله أعلم.

قوله: ﷺ [فطفق بالحجر ضربًا] معناه: جعل وأقبل وصار ملتزمًا لذلك، ويجوز أن يكون أراد موسى ﷺ بضرب الحجر إظهار معجزة لقومه بأثر الضرب في الحجر، ويحتمل أنه أوحى إليه أن يضربه لإظهار المعجزة.

قوله: (أنه آدر) وهو عظيم الخصيتين. وطفق ضربًا أي: جعل يضرب. وأما الندب فأصله أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد.

و قوله: (ثوبي حجر) أي: دع ثوبي يا حجر.اهـ

قال شارح الترمذي: قوله (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾) أي: لا تؤذوا نبيكم كما آذى بنو إسرائيل موسى وهو قولهم إنه آدر (﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا

قَالُواْ ﴾) أي: فطهره الله مما قالوا فيه (﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾) أي: كريمًا ذا جاه وقدر. ومما أُوذِيَ به نبينا ﷺ أنه قسم قسمًا فقال رجل هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فغضب النبي ﷺ من ذلك. وقال: [يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر] رواه البخاري.

ونقل ابن كثير (3/ 499): عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (في قوله ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته؛ كان ألين لنا منك، وأشد حياء، فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرُخم؛ وإن الله جعله أصم أبكم) قال ابن جرير: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، فلا قول أولى من قول الله عَزَّ وَجَلَّ.اهـ

فوائد الحديث:

1- جواز الغسل عريانًا في الخلوة، وإن كان ستر العورة أفضل، وبهذا قال جماهير العلماء.

2- جواز كشف العورة في موضع الحاجة في الخلوة، وذلك كحالة الاغتسال وحال البول، ومعاشرة الزوجة ونحو ذلك.

3- جواز المشي عريانًا لضرورة.

4- جواز النظر إلى العورة عند الضرورة الداعية لذلك من مداواة أو براءة من عيب، كما لو ادعى أحد الزوجين على الآخر البرص ليفسخ النكاح فأنكر.

5- فيه: أنَّ الأنبياء في خَلقهم وخلقهم على غاية الكمال منزهون عن النقائص في الخَلق والخُلق، سالمون من العاهات والمعايب.

6- فيه: أن من نسب نبيًا من الأنبياء إلى نقص في خلقته فقد آذاه، ويخشى على فاعله من الكفر.

7- فيه: معجزتين ظاهرتين لموسى ﷺ إحداهما: مشي الحجر بثوبه إلى ملأ بني إسرائيل، والثانية: حصول الندب في الحجر.

8- فيه: أن الآدمي يغلب عليه طباع البشر؛ لأن موسى علم أن الحجر ما سار بثوبه إلا بأمر من الله، ومع ذلك عامله معاملة مَنْ يعقل حتى ضربه. ويحتمل أنه أراد بيان معجزة أخرى لقومه بتأثير الضرب بالعصا في الحجر.

9- وجود التمييز في الجماد كالحجر ونحوه ومثله تسليم الحجر بمكة وحنين الجذع ونظائره.

10- فيه: ما ابتلى به الأنبياء والصالحون من أذى السفهاء والجهال وصبرهم عليهم، وجعل الله العاقبة لهم على مَنْ آذاهم.

الحديث الثاني عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: [احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَأَشْقَيْتَهُمْ؟. قَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلَاثًا] البخاري (3409) و(6614) و(7515).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى. قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَل وَجَدْتَ فِيهَا: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ

عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!] قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى] مسلم (4795) وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد، ومالك.

معاني الكلمات:

(احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى) أي: التقيا إما بأرواحهما أو بأشخاصهما.

(اصْطَفَاكَ) أي: اختصك وآثرك بذلك.

(قَدَّرَهُ الله عَلَيَّ) المراد بالتقدير هنا: الكتابة في اللوح المحفوظ، وفي صحف التوراة وألواحها.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (11/ 515-520): قوله [احتج آدم وموسى]، في رواية [تحاج]، وفي رواية [حج آدم وموسى] وعليها شرح الطيبي فقال: معنى قوله [حج آدم وموسى] غلبه بالحجة. وقوله بعد ذلك: [قال موسى: أنت آدم..الخ] توضيح لذلك، وتفسير لما أجمل، وقوله في آخره [فحج آدم موسى] تقرير لما سبق وتأكيد له، وفي رواية [عند ربهما] وفي رواية [التقى آدم وموسى] وفي رواية [لقى آدم موسى]، وفي حديث عمر [لقي موسى آدم]، وأما أبو داود فلفظه [قال موسى: يا رب أرني آدم].

وقد اختلف العلماء في وقت هذا اللفظ؛ فقيل: يحتمل أنه في زمان موسى فأحيا الله له آدم معجزة له فكلمه، أو كشف له عن قبره فتحدثا، أو أراه الله روحه كما أرى النبي ﷺ ليلة المعراج أرواح الأنبياء، أو أراه الله له في المنام ورؤيا الأنبياء وحي ولو كان يقع في بعضها ما يقبل التعبير كما في قصة الذبيح، أو كان ذلك بعد وفاة موسى فالتقيا في البرزخ أول ما مات موسى فالتقت أرواحهما في السماء، وقد وقع في حديث عمر لما قال موسى: أنت آدم؟ قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، وأن ذلك لم يقع بعد وإنما يقع في الآخرة؛ والتعبير عنه في الحديث بلفظ الماضي لتحقق وقوعه. وذكر ابن الجوزي احتمال التقائهما في البرزخ، واحتمال أن يكون

ذلك ضرب مثل والمعنى: لو اجتمعا لقالا ذلك، وخُص موسى بالذكر لكونه أول نبي بعث بالتكاليف الشديدة، قال: وهذا وإن احتمل لكن الأول أولى، قال: وهذا مما يجب الإيمان به لثبوته عن خبر الصادق وإن لم يطلع على كيفية الحال، وليس هو بأول ما يجب علينا الإيمان به، وإن لم نقف على حقيقة معناه كعذاب القبر ونعيمه، ومتى ضاقت الحيل في كشف المشكلات لم يبق إلا التسليم. وقال ابن عبد البر: مثل هذا عندي يجب فيه التسليم ولا يوقف فيه على التحقيق لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلًا.

قوله: [أنت أبونا] في رواية [أنت الناس]، وكذا في حديث عمر [أنت آدم أبو البشر].

قوله: [خيبتنا وأخرجتنا من الجنة] في رواية [أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة] وفي رواية مالك: [أنت الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة] ومعنى أغويت: كنت سببًا لغواية من غوى منهم، وهو سبب بعيد إذ لو لم يقع الأكل من الشجرة لم يقع الإخراج من الجنة، ولو لم يقع الإخراج ما تسلط عليهم الشهوات والشيطان المسبب عنهما الإغواء، والغي ضد الرشد وهو الانهماك في غير الطاعة، ويُطلق أيضًا على مجرد الخطأ يُقال: غوى أي أخطأ صواب ما أمر به. وفي رواية أبي سلمة: [أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك] وعند أحمد [أنت الذي أدخلت ذريتك النار] والقول فيه كالقول في أغويت، وفي رواية [فأهبطت الناس بخطيئتك الى الأرض] وأوله عنده [أنت الذي خلقك الله بيده واسجد لك ملائكته] وفي رواية [ونفخ فيك من روحه] ولم يقل [وأسجد لك ملائكته] وفي رواية [يا آدم خلقك الله بيده، ثم نفخ فيك من روحه، ثم قال لك كن فكنت، ثم أمر الملائكة فسجدوا لك، ثم قال لك ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. فنهاك عن شجرة واحدة فعصيت]، وفي رواية [أنت آدم الذي خلقك الله بيده]، وفي حديث عمر بعد قوله [أنت آدم؟ قال: نعم. قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه وعلمك الأسماء كلها وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم. قال: فلم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟]، وفي لفظ [فوالله لولا ما فعلت ما دخل أحد من ذريتك النار] وهذا يشعر بأن جميع ما ذكر في

هذه الروايات محفوظ، وأن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ الآخر. وقوله: [أنت آدم؟] استفهام تقرير، وإضافة الله خلق آدم إلى يده في الآية إضافة تشريف وكذا إضافة روحه إلى الله، والنفخ بمعنى الخلق أي خلق فيك الروح، ومعنى قوله: [أخرجتنا] كنت سببًا لإخراجنا كما تقدم تقريره.

وقوله: [أغويتنا وأهلكتنا] من إطلاق الكل على البعض، بخلاف أخرجتنا فهو على عمومه، ومعنى قوله: أخطأتَ وعصيت ونحوهما فعلت خلاف ما أمرت به، وأما قوله: [خيبتنا] من الخيبة فالمراد به الحرمان، وقيل: هي كأغويتنا من إطلاق الكل على البعض، والمراد من يجوز منه وقوع المعصية، ولا مانع من حمله على عمومه، والمعنى: أنه لو استمر على ترك الأكل من الشجرة لم يخرج منها، ولو استمر فيها لولد له فيها وكان ولده سكان الجنة على الدوام، فلما وقع الإخراج فات أهل الطاعة من ولده استمرار الدوام في الجنة، وإن كانوا إليها ينتقلون، وفات أهل المعصية تأخر الكون في الجنة مدة الدنيا وما شاء الله من مدة العذاب في الآخرة إما مؤقتا في حق الموحدين وإما مستمرًا في حق الكفار؛ فهو حرمان نسبي.

قوله: [فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده] في رواية [أنت موسى الذي أعطاك الله علم كل شيء، واصطفاك على الناس برسالته]، وفي رواية زاد [وقربك نجيًا، وأعطاك الألواح فيها بيان كل شيء]، وفي رواية [اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة]، وفي حديث عمر قال: [أنا موسى. قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: أنت الذي كلمك الله من وراء حجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولًا من خلقه؟ قال: نعم].

قوله [أتلومني على أمر قدر الله عليَّ] في رواية [فكيف تلومني على أمر كتبه الله أو قدره الله عليَّ] ولم يذكر المدة، وفي رواية [فكم تجد في التوراة أنه كتب على العمل الذي عملته قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة. قال: فكيف تلومني عليه؟] وفي رواية زاد [فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم]، وفي رواية عند أحمد [فهل وجدت فيها - يعني الألواح أو التوراة

- أني أهبط]، وفي رواية [أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها؟ قال: بلى] وفي رواية [ألم تعلم أن الله قدر هذا علي قبل ان يخلقني] وفي رواية [فوجدته كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم] وفي رواية [فتلومني في شيء كتبه الله علي قبل خلقي] وفي حديث عمر قال: [فلم تلومني على شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء] ووقع في حديث أبي سعيد الخدري [أتلومني على أمر قدره علي قبل أن يخلق السماوات والأرض] والجمع بينه وبين الرواية المقيدة بأربعين سنة حملها على ما يتعلق بالكتابة، وحمل الأخرى على ما يتعلق بالعلم، وقال ابن التين: يحتمل أن يكون المراد بالأربعين سنة ما بين قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]. إلى نفخ الروح في آدم، وأجاب غيره أن ابتداء المدة وقت الكتابة في الألواح و آخرها ابتداء خلق آدم، وقال ابن الجوزي: المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم قبل وجود المخلوقات كلها، ولكن كتابتها وقعت في أوقات متفاوتة، وقد ثبت في (صحيح مسلم) [أن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة] فيجوز أن تكون قصة آدم بخصوصها كتبت قبل خلقه بأربعين سنة، ويجوز أن يكون ذلك القدر مدة لبثه طينًا إلى أن نفخت فيه الروح، فقد ثبت في (صحيح مسلم) أن بين تصويره طينًا، ونفْخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة، ولا يخالف ذلك كتابة المقادير عمومًا قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقال المازري: الأظهر أن المراد أنه كتبه قبل خلق آدم بأربعين عامًا، ويحتمل أن يكون المراد أظهره للملائكة أو فعل فعلًا ما أضاف إليه هذا التاريخ، وإلا فمشيئة الله وتقديره قديم، والأشبه أنه أراد بقوله: [قدره الله علي قبل أن أخلق] أي كتبه في التوراة لقوله في الرواية: [فكم وجدته كتب في التوراة قبل أن أخلق؟] وقال النووي: المراد بتقديرها كتبه في اللوح المحفوظ أو في التوراة أو في الألواح، ولا يجوز أن يراد أصل القدر لأنه أزلي ولم يزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مريدًا لما يقع من خلقه. وكان بعض شيوخنا يزعم أن المراد إظهار ذلك عند تصوير آدم طينًا فإن آدم أقام في طينته أربعين سنة، والمراد على هذا بخلقه نفخ الروح فيه. قلت: وقد يعكر على هذا رواية [كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض] لكنه يحمل قوله فيه [كتبه الله علي] قدره أو على تعدد الكتابة لتعدد المكتوب، والعلم عند الله تعالى.

قوله: [فحج آدم موسى.. فحج آدم موسى ثلاثًا] وفي حديث عمر: [فاحتجا إلى الله؛ فحج آدم موسى، قالها ثلاث مرات]، وفي رواية [لقد حج آدم موسى.. لقد حج آدم موسى.. لقد حج آدم موسى]، وفي حديث أبي سعيد [فحج آدم موسى ثلاثا] واتفق الرواة والنقلة والشراح: على أن آدم بالرفع وهو الفاعل، وشذَّ بعض الناس فقرأه بالنصب على أنه المفعول وموسى في محل الرفع على أنه الفاعل نقله الحافظ أبو بكر بن الخاصية عن مسعود بن ناصر السجزي الحافظ قال: سمعته يقرأ فحج آدم بالنصب قال: وكان قدريًا. قلت: هو محجوج بالاتفاق قبله على أن آدم بالرفع على أنه الفاعل، وقد أخرجه أحمد عن أبي هريرة بلفظ [فحجه آدم] وهذا يرفع الإشكال، ومعنى [حجه] غلبه بالحجة مثل خاصمته فخصمته.اهـ

وقال الإمام الخطابي في «معالم السنن»: يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر يستلزم الجبر وقهر العبد، ويتوهم أن غلبة آدم كانت من هذا الوجه، وليس كذلك وإنما معناه: الإخبار عن إثبات علم الله بما يكون من أفعال العباد، وصدورها عن تقدير سابق منه، فإن القدر اسم لما صدر عن فعل القادر، وإذا كان كذلك فقد نفى عنهم من وراء علم الله أفعالهم وأكسابهم، ومباشرتهم تلك الأمور عن قصد وتعمد واختيار، فالحجة إنما نلزمهم بها واللائمة إنما تتوجه عليها، وجماع القول في ذلك: أنهما أمران لا يبدل أحدهما عن الآخر: أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء ونقضه وإنما جهة حجة آدم أنَّ الله علم منه أنه يتناول من الشجرة فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه، وإنما خلق للأرض، وأنه لا يترك في الجنة بل ينقل منها الى الأرض فكان تناوله من الشجرة سببًا لإهباطه واستخلافه في الأرض كما قال تعالى قبل خلقه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]. قال: فلما لامه موسى عن نفسه قال له: أتلومني على أمر قدره الله عليَّ؟ فاللوم عليه من قبلك ساقط عني إذ ليس لأحد أن يعير أحدًا بذنب كان منه؛ لأن الخلق كلهم تحت العبودية سواء وإنما يتجه اللوم من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذ كان نهاه فباشر ما نهاه عنه، قال: وقول موسى وإن كان في النفس منه شبهة، وفي ظاهره تعلق لاحتجاجه بالسبب لكن تعلق آدم بالقدر أرجح فلهذا غلبه. والغلبة تقع مع المعارضة كما تقع

مع البرهان. انتهى ملخصًا. قلت: ولم يتلخص من كلامه مع تطويله دفع للشبهة إلا في دعواه أنه ليس للآدمي أن يلوم آخر مثله على ما فعل ما قدره الله عليه، وإنما يكون ذلك لله تعالى لأنه هو الذي أمره ونهاه. وللمعترض أن يقول: وما المانع إذا كان ذلك لله أن يباشره من تلقي عن الله من رسوله ومن تلقى عن رسله ممن أمر بالتبليغ عنهم؟.اهـ

وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة؛ لأنَّه علم من التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه له على ذلك نوع جفاء كما يقال ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي حتى كأنه لم يكن فلا يُصادف اللوم من اللائم حينئذٍ محلًا. انتهى. وهو المعتمد.اهـ

وقد أنكر القدرية هذا الحديث؛ لأنه صريح في إثبات القدر السابق، وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به، وشهادته بأنه غلب موسى، فقالوا: لا يصح لأن موسى لا يلوم على أمر قد تاب منه صاحبه، وقد قتل هو نفسًا لم يؤمر بقتلها ثم قال: رب اغفر لي، فغفر له، فكيف يلوم آدم على أمر قد غفر له؟ ثانيها: لو ساغ اللوم على الذنب بالقدر الذي فرغ من كتابته على العبد لا يصح هذا لكان من عُوتِب على معصَية قد ارتكبها فيحتج بالقدر السابق ولو ساغ ذلك لانسد باب القصاص والحدود، ولاحتج به كل أحد على ما يرتكبه من الفواحش، وهذا يفضي إلى لوازم قطعية، فدل ذلك على أن هذا الحديث لا أصل له.

والجواب من أوجه: أحدها: أنَّ آدم إنما احتج بالقدر على المعصية لا المخالفة فإن محصل لوم موسى إنما هو على الإخراج، فكأنه قال: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على الأكل من الشجرة والذي رتب ذلك قدره قبل أن أخلق فكيف تلومني على أمر ليس لي فيه نسبة إلا الأكل من الشجرة والإخراج المرتب عليها ليس من فعلي. قلتُ: وهذا الجواب لا يدفع شبهة الجبرية.

ثانيها: إنما حكم النبي ﷺ لآدم بالحجة في معنى خاص وذلك لأنه لو كانت في المعنى العام لما تقدم من الله تعالى

لومه بقوله ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف:22]. ولا واخذه بذلك حتى أخرجه من الجنة، وأهبطه الى الأرض، ولكن لما أخذ موسى في لومه وقدم قوله له: أنت الذي خلقك الله بيده وأنت وأنت لم فعلت كذا؟ عارضه آدم بقوله: أنت الذي اصطفاك الله وأنت وأنت. وحاصل جوابه: إذا كنت بهذه المنزلة كيف يخفي عليك أنه لا محيد من القدر وإنما وقعت الغلبة لآدم من وجهين: أحدهما: أنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقًا في وقوع ما قدر عليه إلا بإذن من الله تعالى فيكون الشارع هو اللائم، فلما أخذ موسى في لومه من غير أن يؤذن له في ذلك عارضه بالقدر

فأسكته. والثاني: أن الذي فعله آدم اجتمع فيه القدر والكسب، والتوبة تمحو أثر الكسب، وقد كان الله تاب عليه فلم يبق إلا القدر، والقدر لا يتوجه عليه لوم لأنه فعل الله ولا يسأل عما يفعل.

ثالثها: قال ابن عبد البر: هذا عندي مخصوص بآدم؛ لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعًا.

كما قال تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:37]. فحسن منه أن ينكر على موسى لومه على الأكل من الشجرة؛ لأنه كان قد تِيب عليه من ذلك وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب معصية كما لو قتل أو زنى أو سرق: هذا سبق في علم الله وقدره علي قبل أن يخلقني فليس لك أن تلومني عليه، فإنَّ الأمة أجمعت على جواز لوم من وقع منه ذلك بل على استحباب ذلك كما أجمعوا على استحباب محمدة مَنْ واظب على الطاعة قال: وقد حكى ابن وهب في (كتاب القدر) عن مالك، عن يحيى بن سعيد أن ذلك كان من آدم بعد أن تيب عليه. رابعها: إنما توجهت الحجة لآدم لأن موسى لامه بعد أن مات، واللوم إنما يتوجه على المكلف ما دام في دار التكليف فإن الأحكام حينئذ جارية عليهم فيلام العاصي ويقام عليه الحد والقصاص وغير ذلك، وأما بعد أن يموت فقد ثبت النهي عن سب الأموات [ولا تذكروا موتاكم إلا بخير] لأن مرجع أمرهم إلى الله، وقد ثبت أنه لا يثنى العقوبة على مَنْ أقيم عليه

الحد، بل ورد النهي عن التثريب على الأمة إذا زنت وأُقيم عليها الحد، وإذا كان كذلك فلوم موسى لآدم إنما وقع بعد انتقاله عن دار التكليف، وثبت أن الله تاب عليه فسقط عنه اللوم، فلذلك عدل إلى الاحتجاج بالقدر السابق، وأخبر النبي ﷺ بأنه غلب موسى بالحجة.

قال المازري: لما تاب الله على آدم صار ذكر ما صدر منه إنما هو كالبحث عن السبب الذي دعاه إلى ذلك، فأخبر هو أن الأصل في ذلك القضاء السابق فلذلك غلب بالحجة.اهـ

قال الداودي فيما نقله ابن التين: إنما قامت حجة آدم؛ لأن الله خلقه ليجعله في الأرض خليفة، فلم يحتج آدم في أكله من الشجرة بسابق العلم لأنه كان عن اختيار منه، وإنما احتج بالقدر لخروجه لأنه لم يكن بد من ذلك. وقيل: إن آدم أب وموسى ابن، وليس للابن أن يلوم أباه. حكاه القرطبي وغيره، ومنهم مَنْ عبر عنه بأن آدم أكبر منه، وتعقبه بأنه بعيد من معنى الحديث، ثم هو ليس على عمومه بل يجوز للابن أن يلوم أباه في عدة مواطن، وقيل: إنما غلبه لأنهما شريعتين متغايرتين، وتعقب بأنها دعوى لا دليل عليها، ومن أين يعلم أنه كان في شريعة آدم أن المخالف يحتج بسابق القدر، وفي شريعة موسى أنه لا يحتج أو أنه يتوجه له اللوم على المخالف، وفي الجملة فأصح الأجوبة الثاني والثالث، ولا تنافي بينهما فيمكن أن يمتزج منهما جواب واحد وهو أن التائب لا يلام على ما تيب عليه منه ولا سيما إذا انتقل عن دار التكليف. وقد سلك النووي هذا المسلك فقال: معنى كلام آدم أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب علي قبل أن أخلق فلا بد من وقوعه، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر فلا تلمني فإن اللوم على المخالفة شرعي لا عقلي، وإذا تاب الله عليَّ وغفر لي زال اللوم فمن لامني كان محجوجًا بالشرع. فإن قيل فالعاصي اليوم لو قال: هذه المعصية قُدرت علي فينبغي أن يسقط عني اللوم قلنا: الفرق أن هذا العاصي باق في دار التكليف جارية عليه الأحكام واللوم وفي ذلك له ولغيره زجر وعظة، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف مستغن عن الزجر فلم يكن للومه فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل فلذلك كان الغلبة له. **وقال التوربشتي:** ليس معنى قوله كتبه الله عليَّ ألزمني به، وإنما معناه أثبته في أم الكتاب قبل أن يخلق آدم وحكم أن

ذلك كائن. ثم إن هذه المحاجة إنما وقعت في العالم العلوي عند ملتقى الأرواح ولم تقع في عالم الأسباب، والفرق بينهما: أن عالم الأسباب لا يجوز قطع النظر فيه عن الوسائط والاكتساب، بخلاف العالم العلوي بعد انقطاع موجب الكسب وارتفاع الأحكام التكليفية، فلذلك احتج آدم بالقدر السابق.اهـ

- وفيه: استعمال التعريض بصيغة المدح يُؤخذ ذلك من قول آدم لموسى [أنت الذي اصطفاك الله برسالته] إلى آخر ما خاطبه به، أشار بذلك إلى أنه اطلع على عذره، وعرفه بالوحي فلو استحضر ذلك ما لامه مع وضوح عذره. وأيضًا ففيه: إشارة إلى شيء آخر أعم من ذلك وإن كان لموسى فيه اختصاص فكأنه قال: لو لم يقع إخراجي الذي رتب على أكلي من الشجرة ما حصلت لك هذه المناقب لأني لو بقيت في الجنة واستمر نسلي فيها ما وجد من تجاهر بالكفر الشنيع بما جاهر به فرعون حتى أرسلت أنت إليه وأعطيت ما أعطيت، فإذا كنت أنا السبب في حصول هذه الفضائل لك فكيف يسوغ لك أن تلومني. قال الطيبي: مذهب الجبرية إثبات القدرة لله ونفيها عن العبد أصلًا، ومذهب المعتزلة بخلافه، وكلاهما من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد، فلما كان سياق كلام موسى يؤول إلى الثاني بأن صدر الجملة بحرف الإنكار والتعجب، وصرح باسم آدم ووصفه بالصفات التي كل واحدة منها مستقلة في علية عدم ارتكابه المخالفة، ثم أسند الإهباط إليه ونفس الإهباط منزلة دون فكأنه قال: ما أبعد هذا الانحطاط من تلك المناصب العالية، فأجاب آدم بما يقابلها بل أبلغ فصدر الجملة بهمزة الإنكار أيضًا وصرح باسم موسى، ووصفه بصفات كل واحدة مستقلة في علية عدم الإنكار عليه، ثم رتب العلم الأزلي على ذلك، ثم أتى بهمزة الإنكار بدل كلمة الاستبعاد فكأنه قال: تجد في التوراة هذا ثم تلومني قال: وفي هذا التقرير تنبيه على تحري قصد الأمور. قال: وختم النبي ﷺ الحديث بقوله: [فحج آدم موسى] تنبيهًا على أن بعض أمته كالمعتزلة ينكرون القدر فاهتم لذلك وبالغ في الإرشاد.أهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (6/ 2/ 200-202): قوله ﷺ [حج آدم موسى] قال أبو الحسن القاضي: التقت أرواحهما في السماء، فوقع الحجاج بينهما. قال القاضي عياض: ويحتمل أنه على ظاهره. وأنهما اجتمعا بأشخاصهما، وقد ثبت في حديث الإسراء: أن النبي ﷺ اجتمع بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في السموات، وفي بيت المقدس، وصلى بهم. قال: فلا يبعد أن الله تعالى أحياهم كما جاء في الشهداء. قال: ويحتمل أن ذلك جري في حياة موسى ; سأل الله تعالى أن يريه آدم فحاجه.

قوله ﷺ: [فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة]، وفي رواية: [أنت آدم الذي أغويت الناس، وأخرجتهم من الجنة]، وفي رواية [أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض]. معنى (خيبتنا) أوقعتنا في الخيبة، وهي الحرمان والخسران. وقد خاب يخيب ويخوب، ومعناه كنت سبب خيبتنا، وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة، ثم تعرضنا نحن لإغواء الشياطين. والغي الانهماك في الشر.

قوله: [اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده] في (اليد) هنا مذهبان: أحدهما؛ الإيمان بها، ولا يتعرض لتأويلها، مع أن ظاهرها غير مراد. والثاني: تأويلها على القدرة.

ومعنى قوله: [أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟] المراد بالتقدير هنا الكتابة في اللوح المحفوظ، وفي صحف التوراة وألواحها، أي: كتبه عليَّ قبل خلقي بأربعين سنة، وقد صرح بهذا في الرواية التي بعد هذه [فقال: بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين سنة. قال: أتلومني على أن عملت عملا كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟] فهذه الرواية مصرحة ببيان المراد بالتقدير، ولا يجوز أن يراد به حقيقة القدر، فإن علم الله تعالى وما قدره على عباده وأراد من خلقه أزلي لا أول له، ولم يزل سبحانه مريدا لما أراده من خلقه من طاعة ومعصية، وخير وشر.

قوله ﷺ: [فحج آدم موسى] هكذا الرواية في جميع كتاب الحديث باتفاق الناقلين والرواة والشراح وأهل الغريب [فحج آدم موسى] برفع آدم، وهو فاعل، أي: غلبه بالحجة، وظهر عليه بها. ومعنى كلام آدم أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب علي قبل أن أخلق، وقدر علي، فلا بد من وقوعه، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر، فلم تلومني على ذلك؟. ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي، وإذ تاب الله تعالى على آدم، وغفر له، زال عنه اللوم فمَنْ لامه كان محجوبًا بالشرع. فإن قيل: فالعاصي منا لو قال: هذه المعصية قدرها الله عليَّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك، وإن كان صادقًا فيما قاله. فالجواب: أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف، جارٍ عليه أحكام المكلفين من العقوبة، واللوم والتوبيخ وغيرها، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاج إلى زجر ما لم يمت فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف، وعن الحاجة إلى الزجر، فلم يكن في القول المذكور له فائدة، بل فيه إيذاء وتخجيل. والله أعلم.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: [أفتلومني على أمر قد قدر علي] فهذا عندي مخصوص به آدم لأن ذلك إنما كان منه ومن موسى عليهما السلام بعد أن تِيب على آدم، وبعد أن تلقى من ربه كلمات تاب بها عليه، فحسن منه أن يقول ذلك لموسى؛ لأنه قد كان تيب عليه من ذلك الذنب. جائز أن يقوله اليوم أحد إذا أتى ما نهاه الله عنه ويحتج بمثل هذا فيقول: أتلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وذلك قد سبق في علم الله وقدره عليَّ قبل أن أخلق هذا ما لا يسوغ لأحد أن يقوله وقد اجتمعت الأمة أن من أتى ما يستحق الذم عليه فلا بأس بذمه ولا حرج في لومه ومن أتى ما يحمد له فلا بأس بمدحه عليه وحمده، وقد حكى مالك عن يحيى بن سعيد معنى ما ذكرنا؛ أن ذلك إنما كان من آدم ﷺ بعد أن تيب عليه. ذكره ابن وهب عن مالك وهذا صحيح لأن روحه لم يجتمع بروح موسى، ولم يلتقيا والله أعلم إلا بعد الوفاة وبعد رفع أرواحهما في عليين فكان التقاؤهما كنحو التقاء رآه ﷺ بمن لقيه في المعراج من الأنبياء على ما جاء في الأثر الصحيح، وإن كان ذلك عندي لا يحتمل تكييفًا وإنما فيه التسليم لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلًا.اهـ

وقال ابن عبد البر أيضًا (18/ 17): قال أبو عمر: هذا الحديث من أوضح ما روي عن النبي ﷺ في إثبات القدر ودفع قول القدرية. يُطالب خلقه بما قضى عليهم وقدر، ولكن يطالبهم بما نهاهم عنه وأمر. فطالب نفسك من حيث يطالبك ربك والسلام، وروينا أن الناس لما خاضوا في القدر بالبصرة اجتمع مسلم بن يسار ورفيع أبو العالية فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى ننظر فيما خاض الناس فيه هذا الأمر. قال: فقعدا ففكرا فاتفق رأيهما أنه يكفي المؤمن من هذا الأمر أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له وأنه مجزي بعمله.اهـ

فوائد الحديث:

1- إباحة التقرير والتعريض في معنى التوبيخ في درج الحجاج حتى تقر الحجة مقرها.

2- أنَّ اللوم على مَنْ أيقن وعلم أشد من اللوم على مَنْ لم يحصل له ذلك.

3- إباحة مناظرة الصغير للكبير والأصغر للأسن إذا كان ذلك طلبًا للازدياد من العلم، وتقريرًا للحق وابتغاء له.

4- وفيه: ذكر الجنة وهي موجودة من قبل آدم. هذا مذهب أهل الحق.

5- الأصل الجسيم الذي أجمع عليه أهل الحق، وهو أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد فرغ من أعمال العباد، فكل يجري فيما قدر له وسبق في علم الله تبارك اسمه.

6- فيه: حجة لأهل السنة في أن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد التي وعد المتقون ويدخلونها في الآخرة، خلافًا لمن قال من المعتزلة وغيرهم: إنها جنة أخرى، ومنهم من زاد على ذلك فزعم أنها كانت في الأرض.

7- وفيه: حجة لأهل السنة في إثبات القدر، وخلق أفعال العباد.

8- وفيه: إطلاق العموم وإرادة الخصوص في قوله: [أعطاك علم كل شيء] والمراد به كتابه المنزل عليه

وكل شيء يتعلق به؛ وليس المراد عمومه؛ لأنه قد أقر الخضر على قوله: [وإني على علم من علم الله لا تعلمه أنت].

9- وإباحة التوبيخ والتعريض في أثناء الحجاج ليتوصل إلى ظهور الحجة.

10- وفيه: أنه يغتفر للشخص في بعض الأحوال مالا يغتفر في بعض كحالة الغضب والأسف وخصوصًا ممن طبع على حدة الخلق وشدة الغضب، فإن موسى ﷺ لما غلبت عليه حالة الإنكار في المناظرة خاطب آدم مع كونه والده باسمه مجردًا وخاطبه بأشياء لم يكن ليخاطب بها تلك الحالة، ومع ذلك فأقره على ذلك، وعدل إلى معارضته فيما أبداه من الحجة في دفع شبهته.

11- وفيه: جواز إطلاق الشيء على سببه.

12- وفيه: مشروعية الحجج في المناظرة لإظهار طلب الحق.

الحديث الثالث عشر

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: إِنَّ نَوْفًا البَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ. فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ؛ فأخبر أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالحُرُّ بْنُ قَيسِ بْنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ. فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى؛ الَّذِي سَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ. هَل سَمِعتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ يَقُولُ: [قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى إِذَا فَاضَتِ العُيُونُ وَرَقَّتِ القُلُوبُ، وَلَّى. فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، هَل تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلمَ إِلَيْهِ. فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ؟ فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ، فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، فَانطَلَقَ وَانطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ. قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾، فَكَانَ مُوسَى ﷺ يَتْبَعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ. حَتَّى كَانَا عِندَ الصَّخْرَةِ فِي مَكَانٍ

ثَرْيَانَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، وَأَمْسَكَ الله عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ فَانطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ. فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ فَكَانَ لِلحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا. قَالَ موسى ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَوَجَدَا خَضِرًا رَجُلًا مُسَجًّى بِثَوْبٍ قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ الله فِي كِتَابِهِ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيكَ، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ. فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ. فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ، فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوْحًا بِالقَدُّومِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: مَا صَنَعْتَ؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا! ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ فَكَانَتْ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا. فَانْطَلَقَا، فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ البَحْرِ يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ، فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ

مِنْ الأُولَى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ قَالَ الخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا] قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ يَقْرَأُ ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ـ صَالِحَةٍ ـ غَصْبًا ﴾، وَكَانَ يَقْرَأُ ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ ـ كَافِرًا وَكَانَ ـ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ البخاري (122) و(3401).

معاني الكلمات:

(سَرَبًا) التسلل خفية.

(النَّصَبِ) التعب.

(المِكْتَلِ) القفة أو السلة.

(فارتدا) رجعا.

(انْسَلَّ) خرج برفق.

(تَمَارَيْتُ) تجادلت وتحاورت.

(النَّوْلِ) العطاء والأجر.

(إمرًا) الأمر المنكر الشنيع.

(ينقض) تصدع وكاد يسقط.

(قصصا) تتبع الأثر.

(أَمْرِهِمَا) ما مر بهما من أعاجيب وغرائب.

(الطاق) السقف أو ما جعل كالقوس من الأبنية والأشكال.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (1/ 264-268) و(6/ 499-502): قوله: (قال ابن عباس: هو خضر) وخَضِر بفتح أوله وكسر ثانيه أو بكسر أوله وإسكان ثانيه، وبإثبات الألف واللام فيه وبحذفهما؛ وهذا التماري الذي وقع بين ابن عباس والحر غير التماري الذي وقع بين سعيد بن جبير ونوف البكالي، فإن هذا في صاحب موسى هل هو الخضر أو غيره، وذلك في موسى هل هو موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة أو موسى بن مِيْشا، ويُقَال: إن اسم الخضر بليا.

قوله: (فدعاه) أي: ناداه وذكر أن فيه حذفًا والتقدير؛ فقام إليه فسأله لأن المعروف عن ابن عباس التأدب مع مَنْ يأخذ عنه وأخباره في ذلك شهيرة.

قوله: (كذب عدو الله) **قال ابن التين:** لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق، فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الرجز والتحذير منه وحقيقته غير مرادة. قلت: ويجوز أن يكون ابن عباس اتهم نوفًا في صحة إسلامه، فلهذا لم يقل في حق الحر بن قيس هذه المقالة مع تواردهما عليها. وأما تكذيبه فيستفاد منه للعالم إذا كان عنده علم بشيء فسمع غيره يذكر فيه شيئا بغير علم أن يكذبه، ونظيره قوله ﷺ: [كذب أبو السنابل] أي أخبر بما هو باطل في نفس الأمر.

قوله: [إذ قال: سلوني] فيه: جواز قول العالم ذلك، ومحله إذا أمن العجب أو دعت الضرورة إليه كخشية نسيان العلم.

قوله: [حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب] فيه: أن الواعظ إذا أثر وعظه في السامعين فخشعوا وبكوا ينبغي أن يخفف لئلا يملوا.

قوله: [فقال: أنا أعلم] في جواب: أي الناس أعلم؟ وعند النسائي عن سعيد بن جبير بهذا السند [قام موسى خطيبًا فعرض في نفسه أن أحدًا لم يؤت من العلم ما أُوتي، وعلم الله بما

حدث به نفسه. فقال: يا موسى، إن من عبادي من أتيته من العلم ما لم أوتك] وعند مسلم من وجه آخر بلفظ [ما أعلم في الأرض رجلًا خيرًا أو أعلم مني] قال ابن المنير: ظن ابن بطال أن ترك موسى الجواب عن هذه المسألة كان أولي. قال: عندي أنه ليس كذلك بل رد العلم إلى الله تعالى متعين أجاب أو لم يجب، فلو قال موسى ﷺ: أنا والله أعلم لم تحصل المعاتبة، وإنما عُوتب على اقتصاره على ذلك أي لأن الجزم يوهم أنه كذلك في نفس الأمر، وإنما مراده الإخبار بما في علمه، والعتب من الله تعالى محمول على ما يليق به لا على معناه العرفي في الآدميين كنظائره.

قوله: [هو أعلم منك] ظاهر في أن الخضر نبي بل نبي مرسل إذا لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالي على الأعلى وهو باطل من القول، والمراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص لقوله بعد ذلك [إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه] والمراد بكون النبي أعلم أهل زمانه أي ممن أرسل إليه، ولم يكن موسى مرسلًا إلى الخضر وإذًا فلا نقص به إذا كان الخضر أعلم منه إن قلنا أنه نبي مرسل، أو أعلم منه في أمر مخصوص إن قلنا أنه نبي أو ولي. ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر.

قوله: [وما فعلته عن أمري] وينبغي اعتقاد كونه نبيًا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي، حاشا وكلا. قال ابن المنير: وليس قول موسى ﷺ: [أنا أعلم] كقول آحاد الناس مثل ذلك، ولا نتيجة قوله كنتيجة قولهم فإن نتيجة قولهم العجب والكبر، ونتيجة قوله المزيد من العلم، والحث على التواضع والحرص على طلب العلم. وموسى إنما اعترض بظاهر الشرع لا بالعقل المجرد ففيه حجة على صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه ولو كان مستقيما في باطن الأمر.

قوله: [قال خذ حوتًا] في رواية أبي أسحاق عند مسلم [فقيل له تزود حوتًا مالحًا فإنه حيث تفقد الحوت].

ويُستفاد من هذه الرواية: أن الحوت كان ميتًا لأنه لا يملح وهو حي، ومنه تعلم الحكمة في تخصيص الحوت دون غيره من الحيوانات لأن غيره لا يؤكل ميتًا، ولا يرد الجراد لأنه قد يفقد وجوده لا سيما بمصر.

قوله: [فقال لفتاه] لفظ الفتى مأخوذ من الفتي وهو الشباب، وأطلق ذلك على مَنْ يخدم المرء سواء كان شابًا أو شيخًا؛ لأن الأغلب أن الخدم تكون شبانًا.

قوله: [في مكان ثريان] أي مبلول.

قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ [الكهف: 60]. اختلف في مكان مجمع البحرين، فروى عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة قال: بحر فارس والروم، وروى ابن أبي حاتم من طريق السدي قال: هما الكر والرس حيث يصبان في البحر.

قال ابن عطية: مجمع البحرين ذراع في أرض فارس من جهة أذربيجان يخرج من البحر المحيط من شماليه إلى جنوبيه وطرفيه مما يلي بر الشام، وقيل: هما بحر الأردن والقلزم، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ زمانًا، وجمعه أحقاب. هو قول أبي عبيدة قال: ويُقال فيه أيضا حقبة أي بكسر أوله والجمع حقب. وقال عبد الرزاق: عن معمر، عن قتادة: الحقب الزمان. وعن ابن عباس: الحقب الدهر. وعن سعيد بن جبير: الحقب الحين أخرجها بن المنذر. وجاء تقديره عن غيرهم فروى بن المنذر عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه ثمانون سنة، وروى عبد بن حميد عن مجاهد أنه سبعون.

قوله: [فانطلقا بقية ليلتهما ويومَهما] نبه بعض الحذاق على أنه مقلوب، وأن الصواب بقية يومهما وليلتهما لقوله بعده [فلما أصبح] لأنه لا يصبح إلا عن ليل.

قوله ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف: 61]. مذهبًا، يسرب يسلك. ومنه: سارب بالنهار. قال أبو عبيدة في قوله تعالى ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي مسلكًا ومذهبًا يسرب فيه، وفي آية أخرى ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: 10]. وقال أيضًا في قوله

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ سالك في سربه أي: مذهبه، ومنه أصبح فلان آمنًا في سربه، ومنه انسرب فلان إذا مضى.

قوله تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ فقيل: نسب النسيان إليهما تغليبًا، والناسي هو الفتى نسي أن يخبر موسى كما في هذا الحديث. وقيل: بل المراد أن الفتى نسي أن يخبر موسى بقصة الحوت، ونسي موسى أن يستخبره عن شأن الحوت بعد أن استيقظ لأنه حينئذٍ لم يكن معه وكان بصدد أن يسأله أين هو؟ فنسي ذلك. وصريح الآية يدل على صحة صريح الخبر، وأن الفتى يتحقق على ما جرى للحوت، ونسي أن يخبر موسى بذلك. وذكر ابن عطية: أنه رأى سمكة أحد جانبيها شوك وعظم وجلد رقيق على أحشائها ونصفها الثاني صحيح، ويذكر أهل ذلك المكان أنها من نسل حوت موسى، إشارة إلى أنه لما حيي بعد أن أكل منه استمرت فيه تلك الصفة ثم في نسله، والله أعلم.

قوله: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: نطلب، لأن فقد الحوت جعل آية أي علامة على الموضع الذي فيه الخضر.

قوله ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما؛ أي آثار سيرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، وهذا يدل على أن الفتى لم يخبر موسى حتى سارا زمانًا إذ لو أخبره أول ما استيقظ ما احتاجا إلى اقتصاص آثارهما.

قوله: [حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل] المراد أنهما لما انتهيا إلى الصخرة تتبعاه إلى أن وجداه في الجزيرة.

قوله: [قال: وأنى بأرضك السلام؟] وهي بمعنى أين أو كيف وهو استفهام استبعاد يدل على أن أهل تلك الأرض لم يكونوا إذ ذاك مسلمين.

قوله: [وأنى؟] أي كيف بأرضك السلام، ويُؤيده ما في التفسير: هل بأرضي من سلام، أو من أين كما في قوله تعالى ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: 37]. والمعنى: من أين السلام في هذه

الأرض التي لا يُعرف فيها وكأنها كانت بلاد كفر أو كانت تحيتهم بغير السلام، وفيه: دليل على أن الأنبياء ومن دونهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله، إذ لو كان الخضر يعلم كل غيب لعرف موسى قبل أن يسأله.

قوله: [فجاء عصفور] قيل: هو الصُرَد، وقيل: أنه الخطاف.

قوله: [ما نقص علمي وعلمك من علم الله] لفظ النقص ليس على ظاهره؛ لأن علم الله لا يدخله النقص، فقيل: معناه لم يأخذ، وهذا توجيه حسن، ويكون التشبيه واقعًا على الآخذ لا على المأخوذ منه، وأحسن منه: أن المراد بالعلم المعلوم بدليل دخول حرف التبعيض؛ لأن العلم القائم بذات الله تعالى صفة قديمة لا تتبعض والمعلوم هو الذي يتبعض. وقال القرطبي: وقع في رواية بلفظ أحسن سياقًا من هذا، وأبعد إشكالًا، فقال: [ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر].

قوله: [يا موسى إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه] أي: جميعه [وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه] أي: جميعه، وتقدير ذلك متعين؛ لأنَ الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى بالمكلف عنه، وموسى كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي.

قوله: [فانطلقا يمشيان] أي: موسى والخضر ولم يذكر فتى موسى - وهو يوشع - لأنه تابع غير مقصود بالأصالة.

قوله: [فكلموهم] ضم يوشع معهما في الكلام لأهل السفينة؛ لأن المقام يقتضي كلام التابع.

قوله: [فحملوهما] يُقال فيه ما قيل في يمشيان، ويحتمل أن يكون يوشع لم يركب معهما لأنه لم يقع له ذكر بعد ذلك. وعن مجاهد أنه قيل له الخضر؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله.

قوله ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ كذا أطلق بالصيغة الدالة على استمرار النفي لما أطلعه الله عليه من أن موسى لا يصبر على ترك الإنكار إذا رأى ما يخالف الشرع، لأن ذلك

شأن عصمته، ولذلك لم يسأله موسى عن شيء من أمور الديانة بل مشى معه ليشاهد منه ما أطلع به على منزلته في العلم الذي اختص به.

وقوله ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ ﴾ استفهام عن سؤال تقديره: لم قلت إني لا أصبر وأنا سأصبر، قال: كيف تصبر؟

وقوله ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف:69]. قيل: استثنى في الصبر فصبر ولم يستثنِ في العصيان فعصاه، وفيه نظر، وكأن المراد بالصبر أنه صبر عن إتباعه والمشي معه غير ذلك، لا الإنكار عليه فيما يخالف ظاهر الشرع.

قوله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قال مجاهد: منكرًا. وعن قتادة قال: عجبًا. وقيل: عظيمًا. زاد مسلم في هذه القصة؛ فقال النبي ﷺ [رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته ذمامة من صاحبه فقال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني].

قوله: [فانطلقا فوجدا جدارًا] وفي رواية [فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية] وعند مسلم [أهل قرية لئامًا، فطافا في المجالس، فاستطعما أهلها] قيل: هي الأبلة. وقيل: إنطاكية. وقيل: أذربيجان. وقيل: برقة. وقيل: ناصرة. وقيل: جزيرة الأندلس. وهذا الاختلاف قريب من الاختلاف في المراد بمجمع البحرين وشدة المباينة في ذلك تقتضي أن لا يوثق بشيء من ذلك.

قوله ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف:77]. قال سعيد: أجرًا نأكله. وذكر الثعلبي أن الخضر قال لموسى: أتلومني على خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ونسيت نفسك حين ألقيت في البحر وحين قتلت القبطي وحين سقيت أغنام ابنتي شعيب احتسابًا.

قوله: [كان أبواه مؤمنين وكان كافرا] يعني الغلام المقتول، وفي رواية [وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرًا، وكان أبواه قد عطفا عليه].

قوله: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف:80]. أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه.

قوله: ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: 81]. لقوله ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ يعني أن قوله ﴿زَكَوٰةً ﴾ ذكر للمناسبة المذكورة. وعن ابن جريج في قوله ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ قال: إسلامًا. وقال عطية العوفي: دينًا.

قوله: ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر، وعن الأصمعي قال: الرحم بكسر الحاء القرابة، وبسكونها فرج الأنثى، وبضم الراء ثم السكون الرحمة. وعن أبي عبيد القاسم بن سلام: الرحم والرحم يعني بالضم والفتح مع السكون فيهما مثل العمر والعمر.

قال سعيد بن جبير: إنهما أبدلا جارية، وللنسائي عن ابن عباس (فأبدلها ربهما خيرًا منه زكاة قال: أبدلها جارية فولدت نبيًا من الأنبياء)، ولابن أبي حاتم من طريق السدي قال: ولدت جارية فولدت نبيًا، وهو الذي كان بعد موسى فقالوا له: ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله، واسم هذا النبي شمعون، واسم أمه حنة.

وقال ابن جريج: وبلغني أن أمه يوم قتل كانت حبلى بغلام. وقال ابن بطال: قول الخضر وأما الغلام فكان كافرًا هو باعتبار ما يئول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ، واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله، ولله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده. انتهى. ويحتمل أن يكون جواز تكليف المميز قبل أن يبلغ كان في تلك الشريعة فيرتفع الإشكال.

قوله ﴿ يَنقَضَّ ﴾ قال أبو عبيدة في قوله ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي يقع يقال: انقضت الدار إذا انهدمت. قال: وقرأه قوم ينقاض أي: ينقلع من أصله كقولك انقاضت السن إذا انقلعت من أصلها، وهو أبلغ من ينقض، وينقض بوزن يفعل من انقضاض الطائر إذا سقط إلى الأرض.

قوله ﴿ نُّكْرًا ﴾ داهية، وعند أبي عبيدة في قوله ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ داهية، ونكرًا أي عظيمًا. واختلف في أيهما أبلغ؛ فقيل إمرًا أبلغ من نكرًا لأنه قالها بسبب الخرق الذي يفضي إلى

هلاك عدة أنفس وتلك بسبب نفس واحدة. وقيل: نكرًا أبلغ لكون الضرر فيها ناجزًا بخلاف إمرًا لكون الضرر فيها متوقعًا ويؤيد ذلك أنه قال في نكرًا ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ ولم يقلها في إمرًا.

قوله ﴿رُحْمًا﴾ قال أبو عبيدة: من الرحم، وهي أشد مبالغة من الرحمة، ويظن أنه من الرحيم، وتدعى مكة أم رحم أي الرحمة تنزل بها. فحاصل كلامه: أن رحمًا من الرحم التي هي القرابة، وهي أبلغ من الرحمة التي هي رقة القلب؛ لأنها تستلزمها غالبًا من غير عكس.

وفي حديث أبي هريرة [إنما سُمِيَ الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء] وقد زاد عبد الرزاق في مصنفه (الفرو الحشيش). والخضر قد اختلف في اسمه وفي اسم أبيه وفي نسبه وفي نبوته وفي تعميره؛ فقال وهب بن منبه: هو بَليا بن ملكان بن فالغ بن عابَر بن شالخ بن أرفشخند بن سام بن نوح، فعلى هذا فمولده قبل إبراهيم الخليل؛ لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم. قال وهب: وكنيته أبو العباس. وأخرج النقاش أخبارًا كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشيء منها حجة قاله ابن عطية قال: ولو كان باقيًا لكان له في ابتداء الإسلام ظهور ولم يثبت شيء من ذلك. وقال القرطبي: هو نبي ثم الجمهور والآية تشهد بذلك؛ لأن النبي ﷺ لا يتعلم ممن هو دونه، ولأن الحكم بالباطن لا يطلع عليه إلا الأنبياء. وقال ابن الصلاح: هو حي عند جمهور العلماء والعامة معهم في ذلك، وإنما شذَّ بإنكاره بعض المحدثين. وتبعه النووي وزاد أن ذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به أكثر من أن تحصر.انتهى. والذي جزم بأنه غير موجود الآن البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو جعفر بن المنادى، وأبو يعلى ابن الفراء، وأبو طاهر العبادي، وأبو بكر ابن العربي وطائفة، وعمدتهم: الحديث المشهور عن ابن عمر وجابر وغيرهما أن النبي ﷺ قال في أخر حياته [لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد] قال ابن عمر: أراد بذلك إنخرام قرنه. وأجاب من أثبت حياته بأنه كان حينئذ على وجه البحر، أو هو مخصوص من الحديث كما خص منه إبليس بالاتفاق. ومن حجج من أنكر ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء:34]. وحديث ابن عباس [ما بعث الله نبيًا إلا أخذ

عليه الميثاق؛ لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه] البخاري، ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء إلى النبي ﷺ ولا قاتل معه، وقد قال ﷺ يوم بدر: [اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض] فلو كان الخضر موجودًا لم يصح هذا النفي. وقال ﷺ: [رحم الله موسى لوددنا لو كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما] فلو كان الخضر موجودًا لما حسن هذا التمني، ولأحضره بين يديه وأراه العجائب وكان أدعى لإيمان الكفرة لا سيما أهل الكتاب. وجاء في اجتماعه مع النبي ﷺ أحاديث ضعيفة، وكذلك في اجتماعه ببعض الصحابة فمن بعدهم أخبار أكثرها واهي الإسناد، وذكر ابن حجر بعضًا من هذه الأحاديث والأخبار.

وفي قصة موسى والخضر من الفوائد: أنَّ الله يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفع أو يضر، فلا مدخل للعقل في أفعاله ولا معارضة لأحكامه، بل يجب على الخلق الرضا والتسليم، فإن إدراك العقول لأسرار الربوبية قاصر فلا يتوجه على حكمه لِمَ ولا كيف، وأن ذلك راجع إلى الشرع فما حسنه بالثناء عليه فهو حسن وما قبحه بالذم فهو قبيح، وإن الله تعالى فيما يقضيه حكمًا وأسرارًا في مصالح خفية اعتبرها كل ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوب عليه ولا حكم عقل يتوجه إليه، بل بحسب ما سبق في علمه ونافذ حكمه فما اطلع الخلق عليه من تلك الأسرار عرف، وإلا فالعقل عنده واقف. فليحذر المرء من الاعتراض فإن مآل ذلك إلى الخيبة. قال: ولننبه هنا على مغالطتين؛ الأولى: وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى تمسكًا بهذه القصة وبما اشتملت عليه، وهذا ممن قصر نظره على القصة ولم ينظر فيما خص الله به موسى ﷺ من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾.[الأعراف:144] قال: والخضر وإن كان نبيًا فليس برسول باتفاق، والرسول أفضل من نبي ليس برسول، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم. وإن قلنا أن الخضر ليس بنبي بل ولي فالنبي أفضل من الولي وهو أمر مقطوع به عقلًا ونقلًا،

والصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة. قال: وإنما كانت قصة الخضر مع موسى امتحانًا لموسى ليعتبر. الثانية: ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا: أنه يُستفاد من قصة موسى والخَضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عند الأغيار. فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى. قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر؛ لأنه إنكار لما علم من الشرائع، فإن الله قد أجرى سنته، وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه، كما قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:75]. وقال ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:124]. وحثَّ على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى. فمَنْ ادعى أن هناك طريقًا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب. وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا، لأن مَنْ قال إنه يأخذ عن قلبه؛ لأن الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة. وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت. وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي. وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع. ومَنْ استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضلَّ، فإن الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشرع، فإن نقض لوح من ألواح السفينة لدفع الظالم عن غصبها ثم إذا تركها أعيد اللوح جائز شرعًا وعقلًا. ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظاهر. وفي رواية عند مسلم [فإذا جاء الذي يسخرها فوجدها منخرقة تجاوزها فأصلحها] فيُستفاد منه: وجوب التأني عن الإنكار

في المحتملات. وأما قتله الغلام فلعله كان في تلك الشريعة. وأما إقامة الجدار فمن باب مقابلة الإساءة بالإحسان.

فوائد الحديث:

1-استحباب الحرص على الازدياد من العلم والرحلة فيه.

2- مشروعية حمل الزاد في السفر.

3- لقاء المشايخ، وتجشم المشاق في ذلك، والاستعانة في ذلك بالأتباع.

4- إطلاق الفتى على التابع.

5- استخدام الحر.

6- طواعية الخادم لمخدومه.

7- عذر الناسي.

8- قبول الهبة من غير المسلم.

9- العمل بخبر الواحد الصدوق.

10- للعالم إذا كان عنده علم بشيء فسمع غيره يذكر فيه شيئا بغير علم أن يكذبه.

11- جواز قول العالم: سلوني، ومحله إذا أمن العجب أو دعت الضرورة إليه كخشية نسيان العلم.

12- جواز التجادل في العلم إذا كان بغير تعنت.

13- الرجوع إلى أهل العلم عند التنازع.

14- خضوع الكبير لمن يتعلم منه. ووجه الدلالة منه قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: 90]. وموسى ﷺ منهم، فتدخل أمة النبي ﷺ تحت هذا الأمر إلا فيما ثبت نسخه.

15- أنَّ الواعظ إذا أثر وعظه في السامعين، فخشعوا وبكوا، ينبغي أن يخفف لئلا يملوا.

16- ما يستحب للعالم إذا سُئِلَ أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله.

17- الترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم؛ لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى ﷺ لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم، وركوب البر والبحر لأجله.

18- ركوب البحر في طلب العلم بل في طلب الاستكثار منه.

19- جواز طلب القوت وطلب الضيافة.

20- لزوم التواضع في كل حال، ولهذا حرص موسى على الالتقاء بالخضر عليهما السلام، وطلب التعلم منه تعليمًا لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبيهًا لمن زكى نفسه أن يسلك مسلك التواضع.

21- صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه، ولو كان مستقيمًا في باطن الأمر.

22- الأنبياء ومَنْ دونهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله، إذ لو كان الخضر يعلم كل غيب لعرف موسى قبل أن يسأله!.

23- الإغضاء على بعض المنكرات مخافة أن يتولد منه ما هو أشد.

24- أنَّ الله يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفع أو يضر، فلا مدخل للعقل في أفعاله ولا معارضة لأحكامه، بل يجب على الخلق الرضا والتسليم.

25- جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما.

26- إفساد بعض المال لإصلاح معظمه؛ كخصاء البهيمة للسمن، وقطع أذنها لتتميز، ومن هذا مصالحة ولي اليتيم السلطان على بعض مال اليتيم خشية ذهابه بجميعه.

27- أن الخضر نبي، لعدة معان؛ كقوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وكاتباع موسى رسول الله له ليتعلم منه، وكإطلاق أنه أعلم منه، وكإقدامه على قتل النفس، وغير ذلك فصحيح لكن فيما لا يُعارض منصوص الشرع فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفسًا كثيرة قبل أن يتعاطى شيئًا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لاطلاع الله تعالى عليه.

28- جواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض ونحوه، ومحل ذلك إذا كان سخط من المقدور.

29- أن المتوجه إلى ربه يُعان فلا يسرع إليه النصب والجوع بخلاف المتوجه إلى غيره كما في قصة موسى في توجهه إلى ميقات ربه، وذلك في طاعة ربه فلم ينقل عنه أنه تعب ولا طلب غداء ولا رافق أحدًا، وأما في توجهه إلى مدين فكان في حاجة نفسه فأصابه الجوع، وفي توجهه إلى الخضر لحاجة نفسه أيضًا فتعب وجاع

30- قيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية. قال ابن عطية: يشبه أن يكون هذا أصل مالك في ضرب الآجال في الأحكام إلى ثلاثة أيام.

31- حسن الأدب مع الله، وأن لا يُضاف إليه ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقديره وخلقه لقول الخضر عن السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وعن الجدار ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ ومثل هذا قوله ﷺ: [والخير بيدك والشر ليس إليك].

الحديث الرابع عشر

عَنْ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُهُ عَلَى المِنْبَرِ يَرْفَعُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: [سَأَلَ مُوسَى ﷺ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟! فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ! فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ! قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ]. قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:17]. مسلم (276).

معاني الحديث:

(مَا أَدْنَى) أي: ما صفة أو ما علامة أدنى أهل الجنة؟.

(وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ) قال القاضي: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصلوه، أو: قصدوا منازلهم.

(أَرَدْتُ) اخترت واصطفيت. (وَمِصْدَاقُهُ) دليله وما يصدقه.

(غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي) اصطفيتهم وتوليتهم، فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير.

شرح الحديث:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (1/ 3/ 46): اعلم أن قولهم: رواية أو يرفعه أو ينميه أو يبلغ به، كلها ألفاظ موضوعة عند أهل العلم لإضافة الحديث إلى رسول الله ﷺ لا خلاف في ذلك بين أهل العلم.

وأما قول موسى ﷺ: (ما أدنى أهل الجنة؟) معناه: ما صفة أو ما علامة أدنى أهل الجنة؟

قوله: (كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟) **قال القاضي**: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصلوه، أو يكون معناه: قصدوا منازلهم.

قوله ﷺ: (فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر، قال ومصداقه في كتاب الله تعالى) أما (أردت) معناه: اخترت واصطفيت. وأما (غرست كرامتهم بيدي) إلى آخره فمعناه: اصطفيتهم وتوليتهم، فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير، وفي آخر الكلام حذف اختصر للعلم به تقديره: ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته لهم، وأما (ومصداقه) معناه: دليله وما يصدقه. والله أعلم.

الحديث الخامس عشر

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: [قال موسى ﷺ : يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به. قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت. يا رب إنما أريد شيئًا تخصني به. قال: يا موسى، لو كان السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله]. أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه ابن حبان في (صحيحه). وضعفه الألباني.

شرح الحديث

قال شارح كتاب التوحيد (1/ 41): أبو سعيد اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي صحابي جليل، وأبوه أيضًا كذلك استصغر أبو سعيد بأحد ثم شهد ما بعدها مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين، وقيل: أربع وسبعين.

قوله: (أذكرك وأدعوك) أي: أثني عليك وأحمدك به، وأدعوك أي: أتوسل به إليك إذا دعوتك.

قوله: (قل يا موسى لا إله إلا الله) فيه: أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضًا (هو) كما يقوله غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة، وقد صنف جهالهم في المسألتين، وصنف ابن عربي كتابًا سماه كتاب «الهو».

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) وفي (سنن النسائي) والحاكم وشرح السنة بعد قوله (كل عبادك يقولون هذا.

(إنما أريد أن تخصني به) أي: بذلك الشيء من بين عموم عبادك، فإن من طبع الإنسان أن لا يفرح فرحًا شديدًا إلا بشيء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست موجودة عند غيره مع أن من رحمة الله، وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة كان أكثر وجودًا كالبر والملح والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ ولما كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية في الضرورة فوقه كانت أكثر الأذكار وجودًا وأيسرها حصولًا وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الأسماء الغريبة، والدعوات المبتدعة التي لا أصل لها في الكتاب والسنة كالأحزاب والأوراد التي ابتدعها جهلة المتصوفة.

قوله (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف على السموات أي: لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله، والأرضين السبع ومن فيهن، وضعوا في كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى مالت بهن لا إله إلا الله. وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: [أن نوحًا ﷺ قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله] وفيه: دليل على أن الله تعالى فوق السموات.

قوله: (في كِفّة) من كفة الميزان. قال بعضهم: ويطلق لكل مستدير.

قوله: (مالت بهن لا إله إلا الله) أي رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة ورأس اللبن، فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها ولوازمها واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: 30-31]. والحديث يدل على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر كما في حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: [**خير الدعاء دعاء يوم عرفة،وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**] رواه أحمد والترمذي، وعنه أيضًا مرفوعًا: [يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا كل سجل منها مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب. فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقال: بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله». فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة] رواه الترمذي وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في (تلخيصه) صحيح.

قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العمل واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلًا كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.اهـ وعن أبي هريرة مرفوعًا [**ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصًا قط إلا فتحت**

له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر] رواه الترمذي، وحسنه، والنسائي، والحاكم وقال: على شرط مسلم.

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان اسمه محمد بن حِبّان بن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمي البستي الحافظ صاحب التصانيف كـ(الصحيح) و(التاريخ) و(الضعفاء والثقات) وغير ذلك. قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست. وأما الحاكم فاسمه محمد ابن عبد الله بن محمد الضبي النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويُعرف بابن البيع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وصنف التصانيف كـ(المستدرك) و(تاريخ نيسابور) وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

فوائد الحديث:

1- الذاكر لابد أن يقول: لا إله إلا الله كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضًا (هو) كما يقوله غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة.

2- لا إله إلا الله أفضل الذكر، وأكثرها وجودًا، وأيسرها حصولًا، وأعظمها معنى.

3- كثرة ثواب لا إله إلا الله عند الله.

4- احتياج الأنبياء للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

5- النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

6- أن للسموات عُمّارًا.

الحديث السادس عشر

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَمَرَرْنَا بِوَادِي الأَزْرَقِ فَقَالَ [أَيُّ وَادٍ هَذَا؟] فَقَالُوا: وَادِي الأَزْرَقِ. فَقَالَ: [كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الوَادِي] قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ. فَقَالَ [أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟] قَالُوا: هَرْشَى. فَقَالَ: [كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ مَارًّا بِهَذَا الوَادِي مُلَبِّيًا] مسلم (241) و(242).

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فَذَكَرُوا الدَّجَّالَ أَنَّهُ قَالَ: [مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ] فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ أَسْمَعْهُ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: [أَمَّا مُوسَى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذْ انْحَدَرَ فِي الوَادِي يُلَبِّي] البخاري (1555).

معاني الكلمات:

(الجُؤَارٌ) هو رفع الصوت.

(الجَعْدَةِ) أي: مكتنزة اللحم.

(ثَنِيَّةِ هَرْشَى) هو جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة.

(الخِطَامُ) هو الحبل الذي يُقاد به البعير يجعل على خطمه.

(الخُلْبَةٌ) هو الليف.

شرح الحديث:

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (1/ 2/ 228-230): قوله ﷺ [كأني أنظر إلى موسى ﷺ هابطًا من الثنية وله جؤار إلى الله تعالى بالتلبية] ثم قال ﷺ في يونس بن متي ﷺ [رأيته وهو يلبي] قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: أكثر الروايات في وصفهم تدل على أنه ﷺ رأى ذلك ليلة أسري به. قال: فإن قيل كيف يحجون ويلبون وهم أموات وهم في الدار الآخرة وليست دار

عمل؟ فاعلم أن للمشايخ وفيما ظهر لنا عن هذا أجوبة: أحدها؛ أنهم كالشهداء بل هم أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا كما ورد في الحديث الآخر، وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا لأنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل حتى إذا فنيت مدتها وتعقبتها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل. الوجه الثاني؛ أن عمل الآخرة ذكر ودعاء قال الله تعالى ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [يونس:10]. الوجه الثالث؛ أن تكون هذه رؤية منام في غير ليلة الإسراء أو في بعض ليلة الإسراء. الوجه الرابع؛ أنه ﷺ أري أحوالهم التي كانت في حياتهم، ومثلوا له في حال حياتهم كيف كانوا وكيف حجهم وتلبيتهم كما قال ﷺ: كأني أنظر إلى موسى، وكأني أنظر إلى عيسى، وكأني أنظر إلى يونس عليهم السلام. الوجه الخامس؛ أن يكون أخبر عما أوحي إليه ﷺ من أمرهم، وما كان منهم وإن لم يرهم رؤية عين. اهـ كلام القاضي عياض.

قوله ﷺ: [كأني أنظر إلى موسى واضعًا إصبعيه في أذنيه] أما الأصبع ففيها عشر لغات كسر الهمزة وفتحها وضمها مع فتح الباء وكسرها وضمها والعاشرة أصبوع على مثال عصفور. وفي هذا: دليل على استحباب وضع الأصبع في الأذن عند رفع الصوت بالأذان ونحوه مما يستحب له رفع الصوت. وهذا الاستنباط والاستحباب يجيء على مذهب من يقول من أصحابنا وغيرهم: إن شرع من قبلنا شرع لنا. والله أعلم.

قوله ﷺ [خطام ناقته ليف خلبة] روى بتنوين (ليف)، وروى بإضافته إلى خلبة. فمن نون جعل خلبة بدلًا أو عطف بيان. اهـ

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (3/ 484-485): وقوله: [أما موسى كأني أنظر إليه] قال المهلب: هذا وهم من بعض رواته لأنه لم يأت أثر ولا خبر أن موسى حي وأنه سيحج، إنما أتى ذلك عن عيسى فاشتبه على الراوي، ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: [ليهلن ابن مريم بفج الروحاء] انتهى، وهو تغليط للثقات بمجرد التوهم، وقد أخرج مسلم الحديث من طريق أبي العالية عن ابن عباس بلفظ [كأني أنظر إلى موسى هابطا من الثنية واضعًا إصبعيه في أذنيه مارًا

بهذا الوادي وله جؤار إلى الله بالتلبية]، قاله لما مر بوادي الأزرق « واستفيد منه تسمية الوادي، وهو خلف أَمَج بينه وبين مكة ميل واحد، وأمج قرية ذات مزارع هناك، وفي هذا الحديث أيضا ذكر يونس، أفيقال: إن الراوي الآخر غلط فزاد يونس؟ وقد اختلف أهل التحقيق في معني قوله: [كأني أنظر] على أوجه: الأول: هو على الحقيقة والأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون فلا مانع أن يحجوا في هذا الحال كما ثبت في (صحيح مسلم) من حديث أنس أنه ﷺ رأى موسى قائمًا في قبره يصلي، قال القرطبي: حببت إليهم العبادة فهم يتعبدون بما يجدونه من دواعي أنفسهم لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. ويُؤيده أن عمل الآخرة ذكر ودعاء لقوله تعالى ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ [يونس:10]. الآية، لكن تمام هذا التوجيه أن يُقال: إن المنظور إليه هي أرواحهم، فلعلها مثلت له ﷺ في الدنيا كما مثلت له ليلة الإسراء، وأما أجسادهم فهي في القبور، قال ابن المنير وغيره: يجعل الله لروحه مثالًا فيرى في اليقظة كما يرى في النوم. ثانيها: كأنه مثلت له أحوالهم التي كانت في الحياة الدنيا كيف تعبدوا، وكيف حجوا وكيف لبوا، ولهذا قال: « كأني ». ثالثها: كأنه أخبر بالوحي عن ذلك فلشدة قطعه به قال [كأني أنظر إليه]. رابعها: كأنها رؤية منام تقدمت له فأخبر عنها لما حج عندما تذكر ذلك، ورؤيا الأنبياء وحي، وهذا هو المعتمد عندي لما سيأتي في أحاديث الأنبياء من التصريح بنحو ذلك في أحاديث أخر، وكون ذلك كان في المنام والذي قبله أيضًا ليس ببعيد والله أعلم. قال ابن المنير في الحاشية: توهيم المهلب للراوي وهم منه، وإلا فأي فرق بين موسى وعيسى لأنه لم يثبت أن عيسى منذ رفع نزل إلى الأرض إنما ثبت أنه سينزل. قلت: أراد المهلب بأن عيسى؛ لما ثبت أنه سينزل كان كالمحقق فقال [كأني أنظر إليه] ولهذا استدل المهلب بحديث أبي هريرة الذي فيه [ليهلن ابن مريم بالحج] والله أعلم.

قوله: (إذ انحدر) وفي الحديث: أن التلبية في بطون الأودية من سنن المرسلين، وأنها تتأكد عند الهبوط كما تتأكد عند الصعود.

(تنبيه) لم يصرح أحد ممن روي هذا الحديث عن ابن عون بذكر النبي ﷺ قاله الإسماعيلي، ولا شك أنه مراد لأن ذلك لا يقوله ابن عباس من قبل نفسه ولا عن غير النبي ﷺ، والله أعلم.

فوائد الحديث

1- مشروعية الحمد عند حصول ما يحمد، ودفع ما يحذر.

2- أن التلبية في بطون الأودية من سنن الرسل، وأنها تتأكد عند الهبوط و الصعود.

3- استحباب وضع الأصبع في الأذن عند رفع الصوت بالأذان، وما يستحب له رفع الصوت.

الحديث السابع عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ! فَرَدَّ الله عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَالآنَ. فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ؛ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ]) البخاري (1339) و(3407).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ. قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى ﷺ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا. قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى الله تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي. قَالَ: فَرَدَّ الله إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلِ الْحَيَاةَ تُرِيدُ، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ، فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ، فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ

رَبَّ أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ[وَالله لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ] مسلم (4375).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: [قَدْ كَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا. قَالَ: فَأَتَى مُوسَى، فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ. فَأَتَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: يَا رَبِّ عَبْدُكَ مُوسَى فَقَأَ عَيْنِي، وَلَوْلَا كَرَامَتُهُ عَلَيْكَ لَعَنُفْتُ بِهِ. وَقَالَ يُونُسُ: لَشَقَقْتُ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى عَبْدِي، فَقُلْ لَهُ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى جِلْدِ أَوْ مَسْكِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ وَارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ. فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا بَعْدَ هَذَا؟ قَالَ: الْمَوْتُ. قَالَ: فَالآنَ . قَالَ: فَشَمَّهُ شَمَّةً، فَقَبَضَ رُوحَهُ] أحمد (10484).

معاني الكلمات:

(رَمْيَةً بِحَجَرٍ) أي: أدنني إليها حتى يكون بيني وبينها هذا القدر.

(الْكَثِيبِ) الرمل المجتمع المستطيل المحدودب.

(مَتْنِ ثَوْرٍ) هو ظهره.

(تَوَارَتْ) أي: غطت.

(صَكَّهُ) أي: لطمه على عينه.

(ثُمَّ مَهْ) هي هاء السكت، وهو استفهام أي ثم ماذا يكون أحياة أم موت؟.

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (2/ 239) و(6/ 510): قال المهلب: إنما طلب ذلك ليقرب عليه المشي إلى المحشر، وتسقط عنه المشقة الحاصلة لمن بعد عنه. ويحتمل أن يكون القدر الذي كان بينه وبين أول الأرض المقدسة فلذلك طلبها، ونقل ابن بطال أن الحكمة في أنه لم يطلب دخولها ليعمي موضع قبره لئلا تعبده الجهال من ملته. قال: ويحتمل أن يكون سر ذلك أن الله لما منع بني إسرائيل من دخول بيت المقدس، وتركهم في التيه أربعين سنة إلى أن

أفناهم الموت، فلم يدخل المقدسة مع يوشع إلا أولهم، ولم يدخلها معه أحد ممن امتنع أولًا أن يدخلها، ومات موسى وهارون قبل فتح الأرض المقدسة، فكأن موسى لما لم يتهيأ له دخولها لغلبة الجبارين عليها، ولا يمكن نبشه بعد ذَلك لينقل إليها طلب القرب منها، لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه.اهـ

قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذَا الحديث، وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخف به!، وإن لم يكن يعرفه، فكيف لم يقتص له من فقْ عينه؟ والجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذٍ، وإنما بعثه إليه إختيارًا. وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدميًا دخل داره بغير إذْنه، ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشرع فقْ عين الناظر في دار المسلم بغير إذْن، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه. وعلى تقدير أنه عرفه؛ فمن أين لهذَا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟، ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى، فلم يقتص له؟.وزاد الخطابي: أن موسى دفعه عن نفسه لما ركب فيه من الحدة، وأن الله رد عين ملك الموت ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله، فلهذَا استسلم حينئذٍ.اهـ وقال النووي: لا يمتنع أن يأذَن الله لموسى في هذَه اللطمة امتحانًا للملطوم. وقال غيره: إنما لطمه لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيره، ولما ثبت أنه لم يقبض نبي حتى يخير، فلهذَا لما خيره في المرة الثانية أذْعن. وقال ابن قتيبة: إنما فق موسى العين التي هي تخييل وتمثيل، وليست عينًا حقيقية، ومعنى رد الله عينه أي: أعاده إلى خلقته الحقيقية، وقيل: على ظاهره، ورد الله إلى ملك الموت عينه البشرية ليرجع إلى موسى على كمال الصورة، فيكون ذَلك أقوى في اعتباره، وهذَا هو المعتمد. وجوز ابن عقيل: أن يكون موسى أذَن له أن يفعل ذَلك بملك الموت،وأمر ملك الموت بالصبر على ذَلك، كما أمر موسى بالصبر على ما يصنع الخضر.اهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (15/ 124و128): **قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة** هذا الحديث وأنكر تصوره؛ قالوا: كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت؟ قال: وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون موسى ﷺ قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحانًا للملطوم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفعل في خلقه ما شاء، ويمتحنهم بما أراد. والثاني: أن هذا على المجاز والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة ويُقال: فقأ فلان عين فلان إذا غالبه بالحجة، ويُقال: عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصًا. قال: وفي هذا ضعف لقوله ﷺ [فرد الله عينه]. **والثالث: أن موسى لم يكن يعلم أنه ملك من عند الله**، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها، فأدت المدافعة إلى فقء عينه، لا أنه قصدها بالفقء، وتؤيده رواية [صكه]، وهذا جواب الإمام أبي بكر ابن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض قالوا: وليس في الحديث بيان بأنه تعمد فقء عينه، فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيًا بأنه ملك الموت، فالجواب: أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى، والله اعلم.

وأما سؤاله الإدناء من الأرض المقدسة؛ فلشرفها، وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم. **قال بعض العلماء**: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس؛ لأنه خاف أن يكون قبره مشهورًا عندهم فيفتتن به الناس.

قال ابن حبان في صحيحه (14/ 112): ذكر خبر شنّع به على منتحلي سنن المصطفى ﷺ من حُرم التوفيق لإدراك معناه، ثم روى الحديث، وعقّب قائلًا: إن الله جَلَّ وعلا بعث رسول الله معلمًا لخلقه، فأنزله موضع الإبانة عن مراده، فبلغ ﷺ رسالته، وبين عن آياته بألفاظ مجملة ومفسرة، عقلها عنه أصحابه أو بعضهم، وهذا الخبر من الأخبار التي يدرك معناه من لم يحرم التوفيق لإصابة الحق. وذاك أن الله جَلَّ وعلا أرسل ملك الموت إلى موسى رسالة ابتلاء و اختبار، وأمره أن يقول له [أَجِبْ رَبَّكَ] أمر اختبار وابتلاء، لا أمرًا يريد الله جل وعلا إمضاءه، كما أمر خليله ﷺ بذبح ابنه أمر اختبار وابتلاء، دون الأمر الذي أراد الله عَزَّ وَجَلَّ

إمضاءه، فلما عزم على ذبح ابنه، وتلّه للجبين، فداه بالذبح العظيم. وقد بعث الله جَلَّ وعلا الملائكة إلى رسله في صورٍ لا يعرفونها، كدخول الملائكة على رسوله إبراهيم ولم يعرفهم، حتى أوجس منهم خيفة، وكمجيء جبريل إلى رسول الله ﷺ وسؤاله إياه عن الإيمان والإسلام، فلم يعرفه المصطفى ﷺ حتى ولّى. فكان مجيْ ملك الموت إلى موسى على غير الصورة التي كان يعرفه موسى ﷺ عليها، وكان موسى غيورًا، فرأى في داره رجلًا لم يعرفه، فشال يده فلطمه، فأتت لطمته على فقء عينه التي في الصورة التي يتصور بها، لا الصورة التي خلقه الله عليها، ولما كان المصرح عن نبينا ﷺ في خبر ابن عباس حيث قال: [أمني جبريل عند البيت مرتين] فذكر الخبر، وقال في آخره: [هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك] كان في هذا الخبر البيان الواضح أن بعض شرائعنا قد تتفق ببعض شرائع من قبلنا من الأمم.

ولما كان من شريعتنا أن مَنْ فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، أو الناظر إلى بيته بغير أمره من غير جُناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه؛ للأخبار الجمة الواردة فيه. فكان جائزًا اتفاق هذه الشريعة بشريعة موسى، بإسقاط الحرج عمن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه فكان استعمال موسى هذا الفعل مباحًا له، ولا حرج عليه في فعله. فلما رجع ملك الموت إلى ربه، وأخبره بما كان من موسى فيه، أمره ثانيًا بأمر آخر؛ أمر اختبار وابتلاء كما ذكرنا قبل، إذ قال الله له [قل له: إن شئت فضع يدك على متن ثور، فلك بكل ما غطت يدك بكل شعرة سنة] فلما علم موسى كليم الله ﷺ أنه ملك الموت، وأنه جاءه بالرسالة من عند الله، طابت نفسه بالموت ولم يستمهل وقال [فالآن] فلو كانت المرة الأولى عرفه موسى أنه ملك الموت لاستعمل ما استعمل في المرة الأخرى عند تيقنه وعلمه به، ضد قول من زعم أن أصحاب الحديث حمالة الحطب ورعاة الليل يجمعون ما لا ينتفعون به، ويروون ما لا يؤجرون عليه، ويقولون بما يبطله الإسلام، جهلًا منه لمعاني الأخبار، وترك التفقه في الآثار، معتمدًا منه على رأيه المنكوس، وقياسه المعكوس.

وهذه اللفظة [أجب ربك] قد توهم من لم يتبحر في العلم أن التأويل الذي قلناه للخبر مدخول، وذلك في قول ملك الموت لموسى [أجب ربك] بيان أنه عرفه، وليس كذلك، لأن

موسى ﷺ لما شال يده ولطمه قال له [أجب ربك] توهم موسى أنه يتعوذ بهذه اللفظة دون أن يكون رسول الله إليه، فكان قوله [أجب ربك] الكشف عن قصد البداية في نفس الابتلاء والاختبار الذي أريد منه. اهـ

قال السندي في شرح الحديث عند النسائي: وفيه إشكال من حيث أنه كيف لموسى أن يلطم ملك الموت الذي جاءه من الله تعالى ليقبض روحه؟! ومن حيث أنه يفيد أن موسى ما كان معتقدًا للموت والفناء له بل كان يعتقد البقاء له أو يظنه؟! فانظر إلى قول الملك: عبد لا يريد الموت وانظر إلى قوله: أي رب ثم مه؟! حتى إذا علم أنه بالآخرة الموت قال: فالآن والناس ما ذكروا في تأويله ما يدفع الإيراد بتمامه بل ولا يفي ببعضه، والأقرب أن الحديث من المشتبهات التي يفوض تأويلها إلى الله تعالى لكن إن أول فأقرب التأويل أن يُقَال: كأن موسى ما علم أولًا أنه جاءه بإذن الله بسبب اشتغاله بأمر من الأمور المتعلقة بقلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلما سمع منه أجب ربك أو نحوه وصار ذلك قاطعًا له عما كان فيه، ولم ينتقل ذهنه بما استولى عليه من سلطان الاشتغال أنه جاء بأمر الله حركه نوع غضب وشدة حتى فعل ما فعل، ولعل سر ذلك إظهار وجاهته عند الملائكة الكرام فصار ذلك سببًا لهذا الأصل، وأما قول الملك لا يريد الموت فذاك بالنظر إلى ظاهر ما فعل من المعاملة، وأما قوله (ارجع إليه فقل إلخ) فلعل ذلك لنقله من حالة الغضب إلى حالة اللين ليتنبه بما فعل، وأما قول موسى ثم ماذا؟ فلعله لم يكن لشك منه في الموت بالآخرة بل لتقرير أنه لا يستبعد الموت حالا إذا كان هو آخر الأمر مآلا، وكون الموت آخر الأمر معلوم عنده فلم يكن ما وقع منه لاستبعاده الموت حالا وذلك لأنه حين انتقل إلى حالة اللين علم أن ما وقع منه لا ينبغي وقوعه منه وكذا علم أن ما جاء به الملك عنده من قوله يضع يده إلخ بمنزلة الاعتراض عليه بأنه يستبعد الموت أو يريد الحياة حالا فأراد بهذا الاعتذار عما فعل وقرر أن الذي فعله ليس لاستبعاده الموت. اهـ

وقال الشيخ أبو إسحاق الحويني في مقدمته على «صلاح الأمة للعفاني»: ثم قوله لموسى ﷺ [أجب ربك] معناه: سلم لي نفسك لانتزع روحك، فهذا هو القتل، ودفع الصائل واجب حتى لو أدى إلى قتله كما قرره العلماء، وقد قال النبي ﷺ [من قتل دون أهله وماله فهو شهيد]. اهـ

فوائد الحديث:

1- وفيه: استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين.

2- في قوله: [فلك بكل شعرة سنة] دلالة على أن الذي بقى من الدنيا كثير جدًا، لأن عدد الشعر الذي تواريه اليد قدر المدة التي بين موسى وبعثة نبينا ﷺ مرتين وأكثر.

3- واستدل بعضهم بالحديث على جواز الزيادة في العمر والنقص منه حقيقة، وهو ما في قوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:11] وقال الجمهور: والضمير في قوله ﴿ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ للجنس لا للعين، أي: ولا ينقص من عمر غيره، وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر، والجواب عن قصة موسى: أن أجله قد كان قرب حضوره، ولم يبق منه إلا مقدار ما دار بينه وبين ملك الموت من المراجعتين، فأمر بقبض روحه أولا مع سبق علم الله أن ذلك لا يقع إلا بعد المراجعة، وإن لم يطلع ملك الموت على ذلك أولًا.

4- أن الملك يتمثل بصورة الإنسان.

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: [مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ] مسلم (4379) و(4380).

شرح الحديث:

قال المناوي في «فيض القدير» (5/ 674): أي يدعو الله ويثني عليه ويذكره؛ فالمراد الصلاة اللغوية، وقيل: المراد الشرعية، وعليه القرطبي فقال: الحديث بظاهره يدل على أنه رآه رؤية حقيقية في اليقظة، وأنه حي في قبره يصلي الصلاة التي يصليها في الحياة، وذلك ممكن ولا مانع من ذلك لأنه إلى الآن في الدنيا وهي دار تعبد، فإن قيل: كيف يصلون بعد الموت وليس تلك حالة تكليف؟ قلنا: ذلك ليس بحكم التكليف بل بحكم الإكرام والتشريف، لأنهم حبب إليهم في الدنيا الصلاة فلزموها، ثم توفوا وهم على ذلك فتشرفوا بإبقاء ما كانوا يحبونه عليهم، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة لا تكليفية، ويدل عليه خبر؛ يموت الرجل على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه؛ ولا تدافع بين هذا وبين رؤيته إياهم تلك الليلة في السماء لأن للأنبياء مراتع ومسارح يتصرفون فيما شاءوا ثم يرجعون، أو لأن أرواح الأنبياء بعد مفارقة البدن في الرفيق الأعلى وله إشراف على البدن وتعلق به يتمكنون من التصرف والتقرب بحيث يرد السلام على المسلم، وبهذا التعلق رآه يصلي في قبره ورآه في السماء فلا يلزم موسى عرج به من قبره ثم رد إليه بل ذلك مقام روحه واستقرارها وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح لأبدانها فرآه يصلي في قبره ورآه في السماء أي كما أن نبينا بالرفيق الأعلى وبدنه في ضريحه يرد السلام على من سلم عليه، ومن كثف إدراكه وغلظ طبعه عن إدراك هذا فلينظر إلى السماء في علوها وتعلقها وتأثيرها في الأرض وحياة النبات والحيوان، وإلى النار كيف تؤثر في الجسم البعيد مع أن الارتباط الذي بين الروح والبدن أقوى وألطف؛ وإذا تأملت هذه الكلمات علمت أن لا حاجة إلى ما أبدي في هذا المقام من التكلفات والتأويلات البعيدة التي منها أن هذا كان رؤية منام أو تمثيل أو إخبار عن وحي لا رؤية عين.اهـ

قال السدي في شرح النسائي: قوله: (عند الكثيب الأحمر) الكثيب هو ما ارتفع من الرمل كالتل الصغير. قيل: هذا ليس صريحًا في الإعلام بقبره الشريف، ومن ثم اختلفوا فيه.

قوله: (يصلي في قبره) قال الشيخ بدر الدين الصاحب: هذا صريح في إثبات الحياة لموسى في قبره فإنه وصفه بالصلاة وأنه قائم ومثل ذلك لا يوصف به الروح، وإنما يُوصف به الجسد وفي تخصيصه بالقبر دليل على هذا فإنه لو كان من أوصاف الروح لم يحتج لتخصيصه.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي في هذا الحديث؛ أن الصلاة تستدعي جسدًا حيًا ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون لابد معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نُشاهدها بل يكون لها حكم آخر.

فوائد الحديث:

1- الأنبياء أحياء في قبورهم.

2- صلاتهم في قبورهم تشريفًا لا تكليفًا.

الحديث التاسع عشر

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (شَهِدْتُ مِنْ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ الْمِقْدَادُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة24 وَلَكِنْ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ) يَعْنِي قَوْلَهُ. البخاري (3952) و(4609).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْرَجَهُ إِلَى بَدْرٍ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَشَارَ عُمَرَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَقَالَ بَعْضُ الأَنْصَارِ: إِيَّاكُمْ يُرِيدُ نَبِيُّ الله ﷺ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ قَائِلُ الأَنْصَارِ: تَسْتَشِيرُنَا يَا نَبِيَّ الله، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﷺ ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. وَلَكِنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لَاتَّبَعْنَاكَ) أحمد 1248. **وقال الأرنؤوط:** إسناده صحيح على شرط البخاري.

شرح الحديث

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (7/ 336): قوله: (شهدت من المقداد بن الأسود) اسم أبيه عمرو، وأن الأسود كان تبناه فصار ينسب إليه.

قوله: (مما عدل به) بضم المهملة وكسر الدال المهملة أي وزن أي من كل شيء يقابل ذلك من الدنيويات، وقيل: من الثواب، أو المراد الأعم من ذلك، والمراد المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك كائنا ما كان لكان حصوله له أحب إليه.

قوله: (وهو يدعو على المشركين) زاد النسائي في روايته «جاء المقداد على فرس يوم بدر فقال » وذكر ابن إسحاق: أن هذا الكلام قاله المقداد لما وصل النبي ﷺ الصفراء، وبلغه أن قريشًا قصدت بدرًا، وأن أبا سفيان نجا بمن معه، فاستشار الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر كذلك، ثم المقداد فذكر نحو ما في حديث الباب وزاد « فقال والذي بعثك بالحق لو سلكت بنا برك الغماد لجاهدنا معك من دونه. قال: فقال: [أشيروا عليَّ]. قال: فعرفوا أنه يريد الأنصار، وكان يتخوف أن لا يوافقوه لأنهم لم يبايعوه إلا على نصرته ممن يقصده لا أن يسير بهم إلى العدو، فقال له سعد بن معاذ: امض يا رسول الله لما أمرت به فنحن معك. قال: فسره قوله ونشطه » وكذا ذكره موسى بن عقبة مبسوطًا، وعند ابن أبي شيبة من مرسل علقمة بن وقاص في نحو قصة المقداد « فقال سعد بن معاذ لئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى - فذكره وفيه - ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره، فامض لما شئت، وصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت » قال: وإنما خرج يريد غنيمة ما مع أبي سفيان فأحدث الله له القتال، وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي أيوب قال: « قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان، فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يغنمناها؟

قلنا: نعم، فخرجنا. فلما سرنا يوما أو يومين قال: قد أخبروا خبرنا فاستعدوا للقتال، فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، فأعاده، فقال له المقداد: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون. قال فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد. فأنزل الله تعالى ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال: 5]. وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص، عن أبيه، عن جده نحوه لكن فيه أن معاذ هو الذي قال ما قال المقداد، والمحفوظ أن الكلام المذكور للمقداد كما في حديث الباب، وأن سعد بن معاذ إنما قال «لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لسرنا معك» كذلك ذكره موسى بن عقبة. وعند ابن عائذ في حديث عروة «فقال سعد بن معاذ: لو سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمد ذي يمن» ووقع في مسلم أن سعد بن عبادة هو الذي قال ذلك، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة من مرسل عكرمة، وفيه نظر؛ لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدرًا، وإن كان يعد فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه، ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين: الأولى: وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بين في رواية مسلم ولفظه «أن النبي ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان»، والثانية: كانت بعد أن خرج كما في حديث الباب، ووقع عند الطبراني: أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب.

قوله: (برك الغماد) دلت رواية ابن عائذ على أنها من جهة اليمن، وذكر السهيلي: أنه رأى في بعض الكتب أنها أرض الحبشة، وكأنه أخذه من قصة أبي بكر مع ابن الدغنة، فإن فيها أنه لقيه ذاهبًا إلى الحبشة ببرك الغماد فأجاره ابن الدغنة كما تقدم في هذا الكتاب، ويجمع بأنها من جهة اليمن تقابل الحبشة وبينهما عرض البحر. قوله: (ولكنا نقاتل عن يمينك إلخ) وفي رواية «ولكن امض ونحن معك» وفي رواية «ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون» ولأحمد من حديث عتبة بن عبد بإسناد حسن «قال أصحاب رسول الله ﷺ: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل، ولكن انطلق أنت وربك إنا معكم».اهـ

الحديث العشرون

عَنْ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ. قَالَ رَجُلٌ: وَالله إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ الله. فَقُلْتُ: وَالله لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ فَسَارَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ [فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ الله وَرَسُولُهُ، رَحِمَ الله مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ] البخاري (3150) و(3405) و(6100)، ومسلم (1759).

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (10/ 528): قوله (قسم النبي ﷺ قسمًا) في رواية عن الأعمش؛ أنها قسمه غنائم حنين، وفي رواية عن ابن أبي وائل لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسًا في القسمة أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل وأعطى ناسًا من أشراف العرب».

قوله: (فقال رجل من الأنصار) تقدمت تسميته في غزوة حنين والرد على من زعم أنه حرقوص بن زهير.

قوله: (والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله) قد تقدم في غزوة حنين من وجه آخر بلفظ ما أراد على البناء للفاعل وفي رواية منصور « ما عدل فيها ».

قوله (قلت: أما لأقولن) قال ابن التين: هي بتخفيف الميم وفي رواية « أما » بتشديدها وليس ببين. قلت: وقع للكشميهني « أم » بغير ألف وهو يؤيد التخفيف.

قوله: (فشق ذلك عليه وتغير وجهه) قد تقدم بلفظ « فتمعر وجهه ».

قوله (حتى وددت أني لم أكن) في رواية أن بفتح وتخفيف.

قوله: (فأتيته وهو في ملإ فساررته) فإن في ذلك دلالة على أن المنع يرتفع إذا بقي جماعة لا يتأذون بالسرار، ويستثنى من أصل الحكم ما إذا أذن من يبقى سواء كان واحدا أم أكثر للاثنين في التناجي دونه أو دونهم فإن المنع يرتفع لكونه حق من يبقى، وأما إذا تناجى اثنان ابتداء وثَمَّ ثالث كان بحيث لا يسمع كلامهما لو تكلما جهرًا فأتى ليستمع عليهما فلا يجوز كما لو لم يكن حاضرًا معهما أصلًا. وقد أخرج المصنف في «الأدب المفرد» من رواية سعيد المقبري قال «مررت على ابن عمر ومعه رجل يتحدث، فقمت إليهما، فلطم صدري وقال: إذا وجدت اثنين يتحدثان فلا تقم معهما حتى تستأذنهما» زاد أحمد في روايته من وجه آخر عن سعيد «وقال: أما سمعت أن النبي ﷺ قال [إذا تناجى اثنان فلا يدخل معهما غيرهما حتى يستأذنهما]. قال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما. قلت: ولا ينبغي لداخل القعود عندهما ولو تباعد عنهما إلا بإذنهما، لما افتتحا حديثهما سرًا وليس عندهما أحد دل على أن مرادهما ألا يطلع أحد على كلامهما. ويتأكد ذلك إذا كان صوت أحدهما جهوريًا لا يتأتى له إخفاء كلامه ممن حضره، وقد يكون لبعض الناس قوة فهم بحيث إذا سمع بعض الكلام استدل به على باقيه، فالمحافظة على ترك ما يؤذي المؤمن مطلوبة وإن تفاوتت المراتب. وقد أخرج سفيان بن عيينة في (جامعه) عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد قال « قال ابن عمر في زمن الفتنة: ألا ترون القتل شيئًا ورسول الله ﷺ يقول « فذكر حديث الباب وزاد في آخره «تعظيمًا لحرمة المسلم»، وأظن هذه الزيادة من كلام ابن عمر استنبطها من الحديث. فأدرجت في الخبر والله أعلم. أهـ

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة للبخاري للحديث: أراد البخاري بيان جواز النقل على وجه النصيحة، لكون النبي ﷺ لم ينكر على ابن مسعود نقله ما نقل، بل غضب من قول المنقول عنه، ثم حلم عنه وصبر على أذاه تأسيًا بموسى عليه السلام وامتثالًا لقوله تعالى ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: 90].

قوله: [**ثم قال قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**] في رواية شعبة عن الأعمش [**يرحم الله موسى قد أوذي**] فذكره وزاد في رواية منصور [**فقال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى**] الحديث. وفي هذا الحديث: جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يُقال فيهم مما لا يليق بهم ليحذروا القائل، وفيه: بيان ما يباح من الغيبة والنميمة، لأن صورتهما موجودة في صنيع ابن مسعود هذا ولم ينكره النبي ﷺ، وذلك أن قصد ابن مسعود كان نصح النبي ﷺ وإعلامه بمن يطعن فيه ممن يظهر الإسلام ويبطن النفاق ليحذر منه، وهذا جائز كما يجوز التجسس على الكفار ليؤمن من كيدهم، وقد ارتكب الرجل المذكور بما قال إثمًا عظيمًا فلم يكن له حرمة. وفيه أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم كما صنع النبي ﷺ اقتداء بموسى ﷺ، وأشار بقوله [**قد أوذي موسى**] إلى قوله تعالى ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب:69]. قد حكي في صفة أذاهم له ثلاث قصص: إحداها: قولهم هو آدر. ثانيها: في قصة موت هارون. ثالثها: في قصته مع قارون حيث أمر البغي أن تزعم أن موسى راودها حتى كان ذلك سبب هلاك قارون.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (3/ 1/ 158): قوله (فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله) **قال القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: حكم الشرع أن مَنْ سب النبي ﷺ كفر وقتل، ولم يذكر في هذا الحديث أن هذا الرجل قتل، **قال المازري**: يحتمل أن يكون لم يفهم منه الطعن في النبوة، وإنما نسبه إلى ترك العدل في القسمة، والمعاصي ضربان: كبائر وصغائر، فهو ﷺ معصوم من الكبائر بالإجماع، واختلفوا في إمكان وقوع الصغائر، ومَنْ جوزها منع من إضافتها إلى الأنبياء على طريق التنقيص، وحينئذٍ فلعله ﷺ لم يعاقب هذا القائل؛ لأنه لم يثبت عليه ذلك، وإنما نقله عنه واحد، وشهادة الواحد لا يراق بها الدم. **قال القاضي**: هذا التأويل باطل يدفعه قوله: اعدل يا محمد، واتق الله يا محمد، وخاطبه خطاب المواجهة بحضرة الملأ حتى استأذن عمر وخالد النبي ﷺ في قتله، فقال: [**معاذ الله أن يتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه**] فهذه هي العلة، وسلك معه مسلكه مع غيره من المنافقين الذين آذوه، وسمع

منهم في غير موطن ما كرهه، لكنه صبر استبقاء لانقيادهم وتأليفا لغيرهم، لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه فينفروا، وقد رأى الناس هذا الصنف في جماعتهم وعدوه من جملتهم.اهـ

فوائد الحديث:

1- حلم النبي ﷺ وصبره على الأذى تأسيًا بموسى ﷺ.

2- جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يُقال فيهم مما لا يليق بهم ليحذروا القائل.

3- بيان ما يُباح من الغيبة والنميمة؛ لأن صورتهما موجودة في صنيع ابن مسعود ولم ينكره النبي ﷺ، وذلك أن قصد ابن مسعود كان نصح النبي ﷺ وإعلامه بمن يطعن فيه ممن يظهر الإسلام ويبطن النفاق ليحذر منه، وهذا جائز كما يجوز التجسس على الكفار ليؤمن من كيدهم.

4- جواز نقل الكلام على وجه النصيحة.

5- أن أهل الفضل قد يُغضبهم ما يُقال في حقهم مما ليس فيهم، ومع ذلك فيتلقون ذلك بالصبر والحلم.

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الحِيرَةِ: أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فَأَسْأَلَهُ. فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ فَقَالَ: (قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ) البخاري (2684).

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (5/ 343): قوله: (سألني يهودي) لم أقف على اسمه، والحيرة بكسر المهملة بعدها تحتانية ساكنة بلد معروف بالعراق.

قوله: (حَبْر العرب) المراد ابن عباس ﷺ والحبر هو العالم في الدين.، وإنما عبر به سعيد

لكونها مستعملة عند الذي خاطبه، وقد أخرج أبو نعيم من حديث ابن عباس مرفوعا أن جبريل

سماه بذلك، ومراده بالقدوم على ابن عباس أي بمكة.

قوله: (أي الأجلين) المشار إليهما بقوله تعالى ﴿ ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ ﴾ [القصص:27].

قوله: (قضى أكثرهما وأطيبهما) كذا رواه سعيد بن جبير موقوفًا، وهو في حكم المرفوع؛ لأنَّ ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب. وذكر ابن دريد في «المنثور» أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما غزا المغرب أرسل إلى ابن عباس جريجًا فكلمه فقال: ما ينبغي لهذا إلا أن يكون حبر العرب، وقد صرح برفعه عكرمة عن ابن عباس (أن رسول الله ﷺ سأل جبريل [أي الأجلين قضى موسى؟] قال: أتمهما وأكملهما» أخرجه الحاكم، وفي حديث جابر «أوفاهما» أخرجه الطبراني في (الأوسط)، وفي حديث أبي سعيد «أتمهما وأطيبهما عشر سنين» والمراد بالأطيب: أي في نفس شعيب.

قوله: (إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل) المراد برسول الله ﷺ مَنْ اتصف بذلك ولم يرد شخصًا بعينه. وفي رواية حكيم بن جبير « أن النبي ﷺ: إذا وعد لم يخلف » زاد الإسماعيلي من الطريق التي أخرجها البخاري: «قال سعيد: فلقيني اليهودي فأعلمته بذلك، فقال: صاحبك والله عالم » والغرض من ذكر هذا الحديث في هذا الباب بيان توكيد الوفاء بالوعد، لأن موسى ﷺ لم يجزم بوفاء العشر، ومع ذلك فوفاها فكيف لو جزم. قال ابن الجوزي: لما رأى موسى ﷺ طمع شعيب ﷺ متعلقًا بالزيادة لم يقتضِ كريم أخلاقه أن يخيب ظنه فيه.اهـ

الحديث الثاني والعشرون

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الإِسْلَامِ. قَالَ: فَأَوْحَى الله إِلَى مُوسَى ﷺ أَنَّ قُلْ لِهَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ] أحمد، و(صحيح الجامع) (1492).

فوائد الحديث:

1- النهي عن التفاخر بالآباء والأنساب.

2- الإسلام دين الأنبياء.

3- التبشير بالجنة.

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي موسى ﷺ قال: أتى النبي ﷺ أعرابيًا فأكرمه، فقال له [ائتنا] فأتاه فقال له رسول الله ﷺ [سل حاجتك] قال: ناقة نركبها وأعنز يحلبها أهلي. فقال رسول الله ﷺ: [أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟!] قالوا: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ قال [إن موسى ﷺ لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف ﷺ لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: عجوز من بني إسرائيل. فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف. قالت: حتى تعطيني حكمي! قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع

مستنقع ماء فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوه فقالت: احتفروا، فاحتفروا فاستخرجوا عظام يوسف فلما أقلوها إلى الأرض، وإذا الطريق مثل ضوء النهار] (صحيح ابن حبان) والحاكم، (الصحيحة) (313).

قال العلامة الألباني في (الصحيحة 1/ 560): (فائدة) كنت استشكلت قديمًا قوله في هذا الحديث (عظام يوسف) لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح: [إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء] حتى وقفت على حديث ابن عمر ﷺ (أن النبي ﷺ لما بدَّن، قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله، يجمع أو يحمل عظامك؟ قال [بلى] فاتخذ له منبرًا مرقاتين) أبو داود (1081) بإسناد جيد على شرط مسلم. فعلمت منه أنهم كانوا يطلقون (العظام) ويريدون البدن كله، من باب اطلاق الجزء وإرادة الكل، كقوله تعالى ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:48]. أي: صلاة الفجر. فزال الإشكال والحمد لله، فكتبت هذا لبيانه.اهـ

الحديث الرابع والعشرون

عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَعَا بَدَأَ بِنَفْسِهِ وَقَالَ [رَحْمَةُ الله عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ لَرَأَى مِنْ صَاحِبِهِ العَجَبَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف:76]]. أبو داود (3470) و(صحيح الجامع) (3501).

شرح الحديث:

قال صاحب عون المعبود: (لو صبر) أي: موسى ﷺ. (من صاحبه) أي الخضر.

(العجب) ولفظ الشيخين عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ [رحمة الله علينا وعلى موسى -وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه- لو لا أنه عجل لرأي العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة] أي: حياء وإشفاق.

(فلا تصاحبني): بالألف أي فارقني ولا تصاحبني. قال البيضاوي: فلا تصاحبني وإن سألتك صحبتك. وعن يعقوب فلا تصحبني أي: فلا تجعلني صاحبك.

(قد بلغت من لدني) عذرًا أي قد وجدت عذرًا من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات.

الحديث الخامس والعشرون

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: [الكَمْأَةُ مِنْ المَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ الله عَلَى مُوسَى وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلعَيْنِ] البخاري (5708) مسلم (3819).

شرح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ (10/ 172-175): قوله: (سمعت سعيد بن زيد) أي ابن عمرو بن نفيل العدوي أحد العشرة، وعمر بن الخطاب بن نفيل ابن عم أبيه.

قوله: (الكمأة) وقال ابن الأعرابي: الكمأة الجمع والكمء على غير قياس، قال: ولم يقع في كلامهم نظير هذا سوى خبأة وخبء. وقيل: الكمأة قد تطلق على الواحد وعلى الجمع، وقد جمعوها على أكمؤ، قال الشاعر: ولقد جنيتك أكمؤًا وعساقلًا. والعساقل الشراب، وكأنه أشار إلى أن الأكمؤ محل وجدانها الفلوات. والكمأة نبات لا ورق لها ولا ساق، توجد في الأرض من غير أن تزرع. قيل: سميت بذلك لاستتارها، يقال كمأ الشهادة إذا كتمها. ومادة الكمأة من جوهر أرضي بخاري يحتقن نحو سطح الأرض ببرد الشتاء وينميه مطر الربيع فيتولد ويندفع متجسدًا، ولذلك كان بعض العرب يسميها جدري الأرض تشبيها لها بالجدري مادة وصورة، لأن مادته رطوبة دموية تندفع غالبًا عند الترعرع وفي ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة ومشابهتها له في الصورة ظاهر. وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة (أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: الكمأة جدري الأرض، فقال النبي ﷺ [الكمأة من المن]) الحديث. وللطبري من طريق ابن المنكدر عن جابر قال (كثرت الكمأة على عهد رسول الله ﷺ، فامتنع قوم من أكلها وقالوا: هي جدري الأرض، فبلغه ذلك فقال [إن الكمأة ليست من

جدري الأرض، ألا إن الكمأة من المن]) والعرب تسمي الكمأة أيضًا بنات الرعد لأنها تكثر بكثرته ثم تنفطر عنها الأرض. وهي كثيرة بأرض العرب، وتوجد بالشام ومصر، فأجودها ما كانت أرضه رملة قليلة الماء، ومنها صنف قتال يضرب لونه إلى الحمرة. وهي باردة رطبة في الثانية رديئة للمعدة بطيئة الهضم، وإدمان أكلها يورث القولنج والسكتة والفالج وعسر البول، والرطب منها أقل ضررًا من اليابس، وإذا دفنت في الطين الرطب ثم سلقت بالماء والملح والسعتر وأكلت بالزيت والتوابل الحارة قل ضررها، ومع ذلك ففيها جوهر مائي لطيف بدليل خفتها، فلذلك كان ماؤها شفاء للعين.

قوله (من المن) قيل في المراد بالمن ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد أنها من المن الذي أنزل على بني إسرائيل، وهو الطل الذي يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل حلوًا، ومنه الترنجبين فكأنه شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفوًا بغير علاج. وفي رواية في متن هذا الحديث: [الكمأة من المن الذي أنزل على بني إسرائيل]. والثاني: أن المعنى أنها من المن الذي امتن الله به على عباده عفوًا بغير علاج، قاله أبو عبيد وجماعة، وقال الخطابي: ليس المراد أنها نوع من المن الذي أنزل على بني إسرائيل، فإن الذي أنزل على بني إسرائيل كان كالترنجبين الذي يسقط على الشجر، وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي، فهو من قبيل المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل فيقع على الشجر فيتناولونه. ثم أشار إلى أنه يحتمل أن يكون الذي أنزل على بني إسرائيل كان أنواعًا، منها ما يسقط على الشجر، ومنها ما يخرج من الأرض فتكون الكمأة منه، وهذا هو القول الثالث وبه جزم الموفق عبد اللطيف البغدادي ومن تبعه فقالوا: إن المن الذي أنزل على بني إسرائيل ليس هو ما يسقط على الشجر فقط بل كان أنواعًا منّ الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفوًا، ومن الطير التي تسقط عليهم بغير اصطياد، ومن الطل الذي يسقط على الشجر. والمن مصدر بمعني المفعول أي ممنون به، فلما لم يكن للعبد فيه شائبة كسب كان منًا محضًا، وإن كانت جميع نعم الله تعالى على عبيده منًا منه عليهم، لكن خص هذا باسم المن لكونه لا صنع فيه لأحد، فجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قوتهم في

التيه الكمأة وهي تقوم مقام الخبز، وأدمهم السلوى وهي تقوم مقام اللحم، وحلواهم الطل الذي ينزل على الشجر، فكمل بذلك عيشهم. ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: [من المن] فأشار إلى أنها فرد من أفراده، فالترنجبين كذلك فرد من أفراد المن، وإن غلب استعمال المن عليه عرفًا.أهـ ولا يعكر على هذا قولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ لأن المراد بالوحدة دوام الأشياء المذكورة من غير تبدل وذلك يصدق على ما إذا كان المطعوم أصنافًا لكنها لا تتبدل أعيانها.

قوله (وماؤها شفاء للعين) كذا للأكثر وكذا عند مسلم، وفي رواية المستملي [من العين] أي شفاء من داء العين، قال الخطابي: إنما اختصت الكمأة بهذه الفضيلة لأنها من الحلال المحض الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط منه أن استعمال الحلال المحض يجلو البصر، والعكس بالعكس. قال ابن الجوزي: في المراد بكونها شفاء للعين قولان: أحدهما: أنه ماؤها حقيقة، إلا أن أصحاب هذا القول اتفقوا على أنه لا يستعمل صرفًا في العين، لكن اختلفوا كيف يصنع به على رأيين: أحدهما: أنه يخلط في الأدوية التي يكتحل بها حكاه أبو عبيد، قال: ويصدق هذا الذي حكاه أبو عبيد أن بعض الأطباء قالوا: أكل الكمأة يجلو البصر، ثانيهما: أن تؤخذ فتشق وتوضع على الجمر حتى يغلي ماؤها، ثم يؤخذ الميل فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر فيكتحل بمائها، لأن النار تلطفه وتذهب فضلاته الرديئة ويبقى النافع منه، ولا يجعل الميل في مائها وهي باردة يابسة فلا ينجع، وقد حكى إبراهيم الحربي عن صالح، وعبد الله ابني أحمد بن حنبل: أنهما اشتكت أعينهما فأخذا كمأة وعصراها واكتحلا بمائها فهاجت أعينهما ورمدا. قال ابن الجوزي: وحكى شيخنا أبو بكر ابن عبد الباقي: أن بعض الناس عصر ماء كمأة فاكتحل به فذهبت عينه.

والقول الثاني: أن المراد ماؤها الذي تنبت به، فإنه أول مطر يقع في الأرض فتربى به الأكحال حكاه ابن الجوزي عن أبي بكر بن عبد الباقي أيضًا، فتكون الإضافة إضافة الكل لا إضافة جزء. قال ابن القيم: وهذا أضعف الوجوه. قلت: وفيما ادعاه ابن الجوزي من الاتفاق على أنها لا تستعمل صرفًا نظر، فقد حكى عياض عن بعض أهل الطب في التداوي بماء الكمأة

تفصيلًا، وهو إن كان لتبريد ما يكون بالعين من الحرارة فتستعمل مفردة، وإن كان لغير ذلك فتستعمل مركبة، وبهذا جزم ابن العربي فقال: الصحيح أنه ينفع بصورته في حال، وبإضافته في أخرى، وقد جرب ذلك فوجد صحيحًا. نعم جزم الخطابي بما قال ابن الجوزي فقال: تربى بها التوتياء وغيرها من الأكحال، قال: ولا تستعمل صرفًا فإن ذلك يؤذي العين. وقال الغافقي في «المفردات»: ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به، فإنه يقوي الجفن، ويزيد الروح الباصر حدة وقوة، ويدفع عنها النوازل. وقال النووي: الصواب أن ماءها شفاء للعين مطلقًا فيعصر ماؤها ويجعل في العين منه، قال: وقد رأيت أنا وغيري في زماننا من كان عمي وذهب بصره حقيقة فكحل عينه بماء الكمأة مجردًا فشفي وعاد إليه بصره، وهو الشيخ العدل الأمين الكمال بن عبد الدمشقي صاحب صلاح ورواية في الحديث، وكان استعماله لماء الكمأة اعتقادًا في الحديث وتبركًا به فنفعه الله به. قلت: الكمال المذكور هو كمال الدين بن عبد العزيز بن عبد المنعم بن الخضر يُعرف بابن عبد بغير إضافة الحارثي الدمشقي من أصحاب أبي طاهر الخشوعي، سمع منه جماعة من شيوخ شيوخنا، عاش ثلاثًا وثمانين سنة ومات سنة اثنتين وسبعين وستمائة قبل النووي بأربع سنين. وينبغي تقييد ذلك بمن عرف من نفسه قوة اعتقاد في صحة الحديث والعمل به كما يشير إليه آخر كلامه، وهو ينافي قوله أولًا مطلقًا، وقد أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح إلى قتادة قال: حدثت أن أبا هريرة قال: (أخذت ثلاثة أكمؤ أو خمسًا أو سبعًا فعصرتهن فجعلت ماءهن في قارورة فكحلت به جارية لي فبرئت). وقال ابن القيم: اعترف فضلاء الأطباء أن ماء الكمأة يجلو العين، منهم المسيحي وابن سينا وغيرهما. والذي يزيل الإشكال عن هذا الاختلاف أن الكمأة وغيرها من المخلوقات خلقت في الأصل سليمة من المضار، ثم عرضت لها الآفات بأمور أخرى من مجاورة أو امتزاج أو غير ذلك من الأسباب التي أرادها الله تعالى، فالكمأة في الأصل نافعة لما اختصت به من وصفها بأنها من الله، وإنما عرضت لها المضار بالمجاورة، واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله، ويدفع الله عنه الضرر بنيته، والعكس بالعكس، والله أعلم. اهـ

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ (5/ 2/ 4-5):

قوله ﷺ: [الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين]وفي رواية [من المن الذي أنزل الله تعالى على بني إسرائيل] أما الكمأة فبفتح الكاف وإسكان الميم، وبعدها همزة مفتوحة. واختلف في معنى قوله ﷺ: [الكمأة من المن] فقال أبو عبيد وكثيرون: شبهها بالمن الذي كان ينزل على بني إسرائيل ; لأنه كان يحصل لهم بلا كلفة ولا علاج، والكمأة تحصل بلا كلفة ولا علاج ولا زرع بزر ولا سقي ولا غيره. وقيل: هي من المن الذي أنزل الله تعالى على بني إسرائيل حقيقة عملًا بظاهر اللفظ.

وقوله ﷺ: [وماؤها شفاء للعين] قيل: هو نفس الماء مجردًا، وقيل: معناه أن يخلط ماؤها بدواء، ويعالج به العي، وقيل: إن كان لبرودة ما في العين من حرارة فماؤها مجردًا شفاء، وإن كان لغير ذلك فمركب مع غيره، والصحيح بل الصواب: أن ماءها مجردًا شفاء للعين مطلقًا، فيعصر ماؤها، ويجعل في العين منه، وقد رأيت أنا وغيري في زمننا من كان عمي وذهب بصره حقيقة، فكحل عينه بماء الكمأة مجردًا، فشفي

وعاد إليه بصره، وهو الشيخ العدل الأيمن الكمال بن عبد الله الدمشقي، صاحب صلاح ورواية للحديث، وكان استعماله لماء الكمأة اعتقادًا في الحديث وتبركًا به والله أعلم.اهـ

الحديث السادس والعشرون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي العِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ] أحمد، والطبراني، والحاكم، وابن حبان، و (صحيح الجامع) (5374).

الحديث السابع والعشرون

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [صلى في مسجد الخيف سبعون نبيًا منهم موسى ﷺ كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو محرم على بعير من إبل شنوءة مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان] وروي مثله عن ابن عباس.

رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط) وإسناده حسن. (صحيح الجامع) (4468).

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لقد مر بالروحاء سبعون نبيًا فيهم نبي الله موسى ﷺ حفاة عليهم العباء يؤمون بيت الله العتيق].رواه أبو يعلى، والطبراني، وقال الألباني: حسن لغيره.

معاني الكلمات:

(قَطَوان) موضع بالكوفة تنسب إليه العبى والأكسية. (عُسْفان) موضع على مرحلتين من مكة.

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أتاني رجلان فأخذا بضبعي، فأتيا بي جبلًا وعرًا فقالا: اصعد. فقلت: إني لا أطيقه. فقالا: إنا سنسهله لك. فصعدت حتى إذا كنت في سواء الجبل؛ إذا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار. ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دمًا. قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم. فقال: خابت اليهود والنصارى ـ فقال سليمان (الراوي عن أبي أمامة): ما أدري أسمعه أبو أمامة من رسول الله ﷺ أم شيء من رأيه؟ ـ ثم انطلقا بي؛ فإذا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوأه منظرًا،

فقلت: من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء قتلى الكفار. ثم انطلقا بي؛ فإذا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وانتنه ريحًا كأن ريحهم المراحيض، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني. ثم انطلقا بي؛ فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات، قلت: ما بال هؤلاء؟! قال: هؤلاء اللاتي يمنعن أولادهن ألبانهن. ثم انطلقا بي؛ فإذا أنا بغلمان يلعبون بين نهرين، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين. ثم أشرفا بي شرفًا؛ فإذا أنا بنفر ثلاثة يشربون من خمر لهم، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر وزيد وابن رواحة. ثم أشرفا بي شرفًا آخر؛ فإذا أنا بنفر ثلاثة، قلت: من هؤلاء؟ قال: هذا إبراهيم وموسى وعيسى وهم ينتظرونك]. ابن حبان في (موارد الظمأن 1800)، و(الصحيحة 3951).

الحديث الثلاثون

عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله؛ قلت: يارب، كانت قبلي رسل منهم من سخرت له الرياح، ومنهم من كان يحيي الموتى، وكلمت موسى. قال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك، ووضعت عنك وزرك؟. قال: فقلت: بلى يا رب. فوددت أن لم أسأله]. (الصحيحة 2538).

الحديث الحادي والثلاثون

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: [إن بني إسرائيل استخلفوا خليفة عليهم بعد موسى ﷺ فقام يصلي ليلة فوق بيت المقدس في القمر، فذكر أمورًا كان صنعها، فخرج، فتدلى بسبب، فأصبح السبب معلقًا في المسجد وقد ذهب. قال: فانطلق حتى أتى قومًا على شط البحر فوجدهم يضربون لبنًا أو يصنعون لبنًا، فسألهم: كيف تأخذون على هذا اللبن؟ قال: فأخبروه، فلبن معهم، فكان يأكل من عمل يده، فإذا كان حين الصلاة قام يصلي. فرفع ذلك العمال إلى دهقانهم؛ أن فينا رجلًا يفعل كذا وكذا، فأرسل إليه، فأبى أن يأتيه -ثلاث مرات- ثم إنه جاء يسير على دابته، فلما رآه، فر، فاتبعه فسبقه فقال: أنظرني أكلمك. قال: فقام حتى

كلمه، فأخبره خبره، فلما أخبره أنه كان ملكًا، وأنه فر من رهبة ربه، قال: إني لأظنني لاحق بك. قال: فاتبعه فعبدا الله حتى ماتا برميلة مصر]. قال عبد الله: لو أني كنت ثم لاهتديت إلى قبرهما بصفة رسول الله ﷺ التي وصف لنا. (الصحيحة 3282).

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: [سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها قال: يا رب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى. قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفر. قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى. قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص]. قال رسول الله ﷺ: [ليس الغنى عن ظهر، إنما الغنى غنى النفس، وإذا أراد الله بعبد خيرًا جعل غناه في نفسه، وتقاه في قلبه، وإذا أراد الله بعبد شرًا جعل فقره بين عينيه]. قال أبو حاتم: قوله: صاحب منقوص يريد به : منقوص حالته يستقل ما أوتي ويطلب الفضل. (صحيح ابن حبان 14/ 100) (الصحيحة 3350).

الحديث الثالث والثلاثون

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقال لي أهل نجران: ألستم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم: 28]. وقد عرفتم ما بين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أرد عليهم حتى قدمت المدينة على رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال لي [أفلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟].

صحيح ابن حبان (14/ 142) قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: أُوتِيَ رَسُولُ الله ﷺ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي الطُّوَلِ، وَأُوتِيَ مُوسَى ﷺ سِتًّا، فَلَمَّا أَلْقَى الأَلْوَاحَ رُفِعَتْ ثِنْتَانِ وَبَقِيَ أَرْبَعٌ. أبو داود 1247، وصححه الألباني.

شرح الحديث:

قال صاحب عون المعبود: قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال (أوتي رسول الله السبع المثاني وهي الطول وأوتي موسى ستا فلما ألقي الألواح رفعت اثنتان وبقيت أربع) انتهى. وفي فتح الباري: وقد روى النسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس أن السبع المثاني هي السبع الطوال أي السور من أول البقرة إلى آخر الأعراف ثم براءة وقيل يونس. قال الحافظ: وفي لفظ للطبري أي من حديث ابن عباس أيضًا « البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف « قال الراوي وذكر السابعة فنسيتها. وفي رواية صحيحة عند ابن أبي حاتم عن مجاهد وسعيد بن جبير أنها يونس، وعند الحاكم أنها الكهف، وزاد «قيل له: ما المثاني؟ قال: تثني فيهن القصص. ومثله عن سعيد بن جبير عند سعيد بن منصور في (سننه). والحاصل: أن المراد بالسبع المثاني في الآية الكريمة هو الفاتحة لتصريح الأحاديث الصحيحة بذلك، والمراد بالسبع المثاني الطول الوارد في الحديث هو سبع سور من البقرة إلى التوبة. والله أعلم.

وقوله: (ستًا) من الألواح كتبت فيها التوراة. قال السيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (أعطي موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة، فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكوفًا على عبادة العجل رمى بالتوراة من يده فتحطمت، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبع) قوله (ألقى الألواح) أي: طرحها غضبًا.

قوله: (رفعت ثنتان وبقين أربع) وفي (الحلية) عن مجاهد قال: كانت الألواح، من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل يعني أخبار الغيب وبقي الهدي أي: ما فيه من المواعظ

والأحكام. وعند ابن المنذر عن ابن جريج قال: أخبرت أن ألواح موسى كانت تسعة فرفع منها لوحان وبقي سبعة. والله أعلم.

الحديث الخامس والثلاثون

قال عبد الله بن مسعود ﷺ (إن أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي رأت موسى ﷺ فقالت لأبيها يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر ﷺ). قال الحاكم في مستدركه (3/ 96): فرضي الله عن ابن مسعود لقد أحسن في الجمع بينهم بهذا. الإسناد صحيح.

الحديث السادس والثلاثون

عن ابن عباس ﷺ قال: كان موسى يقول لبني إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم في أموالهم، فشق ذلك على قارون فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رجم، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيرجم فنستريح منه. ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا! فقالوا: فقد زنيت، فجزع. فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت. فأقرت بالحق، فخر موسى ساجدًا يبكي، فأوحى الله إليه؛ إني أمرت الأرض أن تطيعك أمرها بما شئت. فأمرها فخسفت بقارون ومن معه، وكان من قصة قارون أنه حصل أموالًا عظيمة جدًا حتى قيل: كانت مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلًا، وكان يسكن تنيس، فحكي أن عبد العزيز الحروري ظفر ببعض كنوز قارون، وهو أمير على تنيس، فلما مات تأمر ابنه علي مكانه، وتورع ابنه الحسن بن عبد العزيز عن ذلك، فيقال: إن عليًا كتب إلى أخيه الحسن: إني استطيبت لك من مال أبيك مائة ألف دينار فخذها، فقال: أنا تركت الكثير من ماله لأنه لم يطب لي، فكيف آخذ هذا القليل؟! قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (6 / 448): أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح.

أحاديث أخرى

37- عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ [موسى بن عمران صفي الله]. (صحيح الجامع) (6633).

38- عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: [عريشًا كعريش موسى ثمام و خشبيات، و الأمر أعجل من ذلك]. (حسن) (صحيح الجامع 4007).

39- عن عبدالله بن الحارث ﷺ عن النبي ﷺ قال: [لو نزل موسى فاتبعتموه و تركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين و أنتم حظي من الأمم]. (حسن) (صحيح الجامع) (5308).

40- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِيَهُودِيَّيْنِ: [أَنْشَدْتُكُمَا بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ﷺ]. ابن ماجه (2328) وصححه الألباني.

41- عن ابن عباس عن أبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال [الغلام الذي قتله صاحب موسى ﷺ طبع يوم طبع كافرًا]. (حم 21160) قال الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل عبد الجبار بن عباس الشبامي الهمداني.

42- عن ابن عباس ﷺ قال (أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم ﷺ، والكلام لموسى ﷺ، والرؤية لمحمد رسول الله ﷺ). صححه الألباني في (ظلال الجنة) (1/ 216).

43- عن جابر عن النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال [أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي]. رواه أحمد والبيهقي، وحسنه الألباني في (الإرواء 1586).

ثانيًا- الأحاديث غير الصحيحة

1- السلسلة الضعيفة (3 / 233) (منكر)

تخرج الدابة ومعها عصى موسى ﷺ وخاتم سليمان ﷺ فتخطم الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إن أهل الخوان ليجتمعون على خوان فيقول هذا: يا مؤمن ويقول هذا ياكافر. (منكر

2- السلسلة الضعيفة (3 / 389) (ضعيف جدًا)

يوم كلم الله موسى ﷺ كانت عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكمة صوف ونعلاه من جلد حمار غير ذكي. (ضعيف جدًا)

3- السلسلة الضعيفة (3 / 670) (موضوع)

إن لله عَزَّ وَجَلَّ في الخلق ثلا ثمائة قلوبهم على قلب آدم ﷺ ولله تعالى في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى ﷺ ولله تعالى في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم ﷺ ولله تعالى في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل ﷺ ولله تعالى في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ﷺ ولله تعالى في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل ﷺ فإذا مات الواحدأبدل الله مكانه من الثلاثة وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة أبدل الله تعالى مكانه من السبعة وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء.

4 -السلسلة الضعيفة (5 / 334) (ضعيف)

[أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ: إنك لن تتقرب إلي بشيء أحب إلي من الرضا بقضائي ولم تعمل عملا أحبط لحسناتك من الكبرياء يا موسى! لا تضرع إلى أهل الدنيا فأسخط عليك

ولا تخف بدينك لدنياهم فأغلق عليك أبواب رحمتي يا موسى! قل للمذنبين النادمين: أبشروا وقب للعاملين المعجبين: اخسروا].

5 – السلسلة الضعيفة (7/ 49) (ضعيف)

إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة

6 –السلسلة الضعيفة (7/ 50) (موضوع)

إن الله أعطى موسى الكلام وأعطاني الرؤية فضلني بالمقام المحمود والحوض المورود

7 –السلسلة الضعيفة (8/ 403) (منكر جدًا)

أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ: من داوم على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة أعطيته أجر المتقين وأعمال الصديقين.

8 –السلسلة الضعيفة (9/ 50) (ضعيف)

قال موسى ﷺ لربه عَزَّ وَجَلَّ: ما جزاء من عزى الثكلى؟ قال: أجعله في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي.

9 – ضعيف الترغيب والترهيب (1/ 100) (ضعيف)

وعن الحسن ﷺ قال: قال سمرة بن جندب: ألا أحدثك حديثًا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارًا ومن أبي بكر مرارًا ومن عمر مرارًا. قلت: بلى. قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى اللهم أنت خلقتني وأنت تهديني وأنت تطعمني وأنت تسقيني وأنت تميتني وأنت تحييني لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه.

قال: فلقيت عبد الله بن سليم فقلت: ألا أحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ مرارًا ومن أبي بكر مرارًا ومن عمر مرارًا قال بلى فحدثته بهذا الحديث فقال بأبي وأمي قال رسول الله

ﷺ هؤلاء الكلمات كان الله عَزَّ وَجَلَّ قد أعطاهن موسى ﷺ فكان يدعو بهن في كل يوم سبع مرات فلا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه.

10 -ضعيف الترغيب والترهيب (1 / 179) (ضعيف)

وعنه ﷺ عن النبي ﷺ قال حج موسى ﷺ على ثور أحمر عليه عباءة قطوانية.

11 -ضعيف الترغيب والترهيب (1 / 286) (ضعيف)

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أعلمك الكلمات التي تكلم بها موسى ﷺ حين جاوز البحر ببني إسرائيل فقلنا: بلى يا رسول الله قال قولوا اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قال عبد الله: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

12 - ضعيف الترغيب والترهيب (2 / 43) (ضعيف جدًا)

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالًا كلها أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات فساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله عَزَّ وَجَلَّ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه مقبلًا على شأنه حافظًا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

قلت يا رسول الله: فما كانت صحف موسى ﷺ قال كانت عبرًا كلها عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك.

عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل.

قلت يا رسول الله: زدني عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر الله

قلت يا رسول الله: زدني قال ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك ولا تجد عليهم فيما تأتي وكفى بك عيبا أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك وتجد عليهم فيما تأتي ثم ضرب بيده على صدري فقال يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق.

13 -ضعيف الترغيب والترهيب (2 / 182) (ضعيف جدًا)

وروي عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عَزَّ وَجَلَّ ناجى موسى ﷺ بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام وكان فيما ناجاه به أن قال يا موسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد إلي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فذكر الحديث إلى أن قال وأما البكاؤون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه.

14- السنة لعبد الله بن أحمد إسناده مجهول الحال

وحدثني أبو معمر نا عبد الله بن معاذ وأبو سفيان المعمري عن معمر عن الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام عن جزء بن جابر الخثعمي انه سمع كعب الاحبار يقول لما كلم الله موسى ﷺ كلمه بالالسنة كلها قبل لسانه فطفق موسى يقول يا رب والله ما افقه هذا حتى كلمه آخر ذلك بلسان مثل صوته فقال موسى ﷺ هذا يا رب كلامك فقال الله عَزَّ وَجَلَّ لو كلمتك كلامي لم تكن شيئًا او قال لم تستقم له قال أي رب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبها بكلامي أشد ما يسمع الناس من الصواعق والحديث على لفظ أبي عن عبد الرزاق.

15- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني محمد بن بكار، نا أبو معشر عن محمد بن كعب قال: قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: بما شبهت صوت ربك عَزَّ وَجَلَّ حين كلمك من هذا الخلق قال شبهت صوته بصوت الرعد حين لا يترجع // إسناده ضعيف.

16- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني محمد بن بكار، نا أبو معشر، عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال: مكث موسى ﷺ أربعين يومًا لا يراه أحد ألا مات من نور رب العالمين عَزَّ وَجَلَّ // إسناده ضعيف.

17- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني محمد بن بكار، نا أبو معشر، عن أبي الحويرث قال: إنما كلم الله عَزَّ وَجَلَّ موسى ﷺ بقدر ما يطيق موسى من كلامه ولو تكلم بكلامه لم يطقه شيء // إسناده ضعيف.

18- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني أبي رَحِمَهُ اللَّهُ نا يزيد بن هارون أنا الجريري عن ابي عطاف قال كتب الله التوارة لموسى ﷺ بيده وهو مسند ظهر هو إلى الصخرة في ألواح من در فسمع صريف القلم ليس بينه وبينه إلا الحجاب // في إسناده مجهول.

19- السنة لعبد الله بن أحمد

قرأتُ على أبي: نا إبراهيم بن الحكم بن أبان قال: حدثني أبي، عن عكرمة قال: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يمس بيده شيء إلا ثلاثا خلق آدم بيده وغرس الجنة بيده وكتب التوراة بيده // إسناده ضعيف

20- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني أبي، نا حسين بن محمد، نا محمد بن مطرف، عن زيد بن أسلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما كتب التوراة بيده قال: بسم الله هذا كتاب الله بيده لعبده موسى يسبحني ويقدسين، ولا يحلق باسمي آثمًا فإني لا أزكي من حلف باسمي آثمًا // رجاله ثقات.

21- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني أبي، نا يحيى بن يمان، نا أشعث عن جعفر يعني ابن المغيرة، عن سعيد - يعني ابن جبير - قال قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: أينام ربك قال: فقال يا موسى: خذ قدحين زجاجتين فاملأهما ماء فصل وهما في يديك فانظر هل يثبتان فقام يصلي فنعس فانكسرتا فقال يا موسى: لو نمت لضاعت السموات والأرض // في إسناده جعفر بن المغيرة.

22- حدثني الحسن بن حماد سجادة أبو علي الحضرمي الفقيه، قال: ثنا أبو مالك الجنبي عمرو بن هشام، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عَزَّ وَجَلَّ ناجى موسى صلوات الله عليه بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام وصايا كلا فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عَزَّ وَجَلَّ وكان فيما ناجاه أن قال له يا موسى: إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد إلي المتعبدون بمثل البكاء من خيفتي قال موسى ﷺ: يا إله البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أعددت لهم وماذا جزيتهم قال أما الزاهدون في الدنيا فأبيحهم داري حتى يتبؤون منها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشته عما في يديه إلا الورعين فإني أجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب وأما البكاءون من خيفتي فأولئك لهم الرفيع الأعلى لا يشاركون فيه // إسناده ضعيف جدًا.

23- السنة لعبد الله بن أحمد

حدثني محمد بن سليمان بن حبيب لوين، نا عبيد الله بن عمرو الرقي، عن عبد الملك بن عمير، عن عطاء بن أبي مروان، عن أبيه، عن كعب قال: كلم الله موسى ﷺ فقال: أي رب أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها الخلاء والرجل يجامع أهله قال: يا موسى اذكرني على كل حال // تقدم في 575.

24- مسند أحمد بن حنبل (2 / 295)

حدثنا عبد الله حدثني، أبي ثنا يزيد، أنا حماد بن سلمة وعفان، ثنا حماد، أنا علي بن يزيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: تخرج الدابة ومعها عصا موسى ﷺ وخاتم سليمان ﷺ فتخطم الكافر قال عفان: أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى أن أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر.

تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

25- مسند أحمد بن حنبل

حدثنا عبد الله ثنا عبد الرحمن المعلم أبو مسلم، ثنا أيوب بن جابر اليمامي، ثنا سماك بن حرب، عن جابر بن سمرة قال: جاء جرمقاني إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال: أين صاحبكم هذا الذي يزعم إنه نبي لئن سألته لأعلمن إنه نبي أو غير نبي قال: فجاء النبي ﷺ فقال الجرمقاني: اقرأ علي أو قص علي فتلا عليه آيات من كتاب الله تبارك وتعالى فقال الجرمقاني: هذا والله الذي جاء به موسى ﷺ قال عبد الله بن أحمد هذا الحديث منكر.

تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف أيوب بن جابر اليمامي.

26- مجمع الزوائد (7/ 379)

وعن ابن زميل الجهني قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال وهو ثان رجله: سبحان الله وبحمده وأستغفر الله إنه كان توابًا سبعين مرة. ثم يقول: «سبعين بسبعمائة لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعمائة». ثم يستقبل الناس بوجهه وكانت تعجبه الرؤيا

فيقول: « هل رأى أحد منكم شيئًا؟». قال ابن زميل: فقلت: أنا يا رسول الله قال: «خيرًا تلقاه وشرا توقاه وخير لنا وشر على أعدائنا والحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك». فقلت: رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب والناس منطلقون [على الجادة] فبينا هم كذلك إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيناي مثله يرف رفيفًا ويقطر نداه فيه من أنواع الكلأ فكأني بالرعلة الأولى حين أشفوا على المرج كبروا ثم ركبوا رواحلهم في الطريق فمنهم المرتعي ومنهم الآخذ الضغث ومضوا على ذلك قال: ثم قدم عظيم الناس فلما أشفوا على المرج كبروا فقالوا: خير المنزل. فكأني أنظر إليهم يمـ نا ـ ـيمالا فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى آتى أقصى المرج فإذا أنا بك يا رسول الله على منـ ـيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة فإذا عن يمينك رجل آدم شثن أقنى إذا هو تكلم يسمو فيفرع الرجال طولًا وإذا عن يسارك رجل تار ربعة أحمر كثير خيلان الوجه كأنما حمم شعره بالماء إذا هو تكلم أصغيتم له إكراما له وإذا أمامكم شيخ أشبه الناس بك خلقا ووجها كلهم يؤمونه يريدونه فإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف وإذا أنت يا رسول الله كأنك تتقيها. قال: فانتقع لون رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سري عنه فقال: أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب فذلك ما حملتم عليه من الهدى فأنتم عليه. وأما المرج الذي رأيت فالدنيا وغضارة عيشها مضيت أنا وأصحابي فلم نتعلق بها [شيئًا] ولم تتعلق بنا ثم جاءت الرعلة الثانية بعدنا وهم أكثر منا ضعافا فمنهم المربع ومنهم آخذ الضغث ونحوه على ذلك. ثم جاء عظيم الناس فمالوا في المرج يمينا وشمالا [فإنا لله وإنا لله إليه راجعون]. وأما أنت فمضيت على طريق صالحة فلم تزل عليها حتى تلقاني. وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة فالدنيا سبعة آلاف سنة وأنا في آخرها ألفا. وأما الرجل الذي رأيت عن يميني الآدم الشثن فذاك موسى ﷺ إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه. والذي رأيت عن يساري التار الربعة الكثير خيلان الوجه كأنه حمم وجهه بالماء فذاك عيسى بن مريم ﷺ تكرمة لإكرام الله إياه. وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقا ووجها فذاك أبونا إبراهيم ﷺ كلنا نؤمه ونقتدي به. وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أتقيها فهي

الساعة علينا تقوم لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي. قال: فما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤيا بعدها إلا أن يجيء الرجل فيحدثه بها متبرعا.

رواه الطبراني وفيه: سليمان بن عطاء القرشي وهو ضعيف.

27- مجمع الزوائد (7/ 408)

عن ابن عباس قال: لما بعث الله جَلَّ ذكره موسى ﷺ وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم ولو شئت أن تطاع لاطعت ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون [فانتهى موسى ﷺ]. فلما بعث الله عَزَّ وَجَلَّ عزيزا وأنزل عليه التوراة بعدما كان رفعها عن بني إسرائيل حتى قال مَنْ قال منهم: إنه ابن الله. قال: اللهم إنك رب عظيم لو شئت أن تُطاع أطعت ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت [في ذلك] تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: لا أسأل عما أفعل وهم يسألون.

فأبت نفسه حتى سأل أيضًا فقال: اللهمّ إنك رب عظيم لو شئت أن تطاع أطعت، ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فأبت نفسه حتى سأل أيضًا فقال: اللهم إنك عظيم لو شئت أن تطاع أطعت ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت وأنت تحب أن تطاع وأنت تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فأبت نفسه حتى سأل أيضا قال: أفتستطيع أن تصر صرة من الشمس؟ قال: لا قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال: لا قال: أفتستطيع أن تأتي بمثقال من نور؟ قال: لا قال: فهكذا لا تقدر على الذي سألت عنه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون أما إني لا أجعل عقوبتك إلا أن أمحي اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم. فمحى اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم وهو نبي فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم قال: اللهم إنك رب عظيم لو شئت

أن تطاع لأطعت ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك تعصى فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه: إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون وأنت عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتك إلى مريم وروح مني خلقتك من تراب ثم قلت لك: كن فكنت لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون فجمع عيسى من تبعه فقال: القدر ستر الله فلا تكلفوه.

رواه الطبراني وفيه أبو يحيى القتات وهو ضعيف عند الجمهور، وقد وثقه ابن معين في رواية وضعفه في غيرها ومصعب بن سوار لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

28- مجمع الزوائد (7/ 514)

وعن عمرو بن عوف قال: كنا قعودًا حول رسول الله ﷺ في المسجد بالمدينة فجاءه جبريل ﷺ بالوحي فتغشى رداءه فمكث طويلًا حتى سري عنه ثم كشف رداءه فإذا هو يعرق عرقًا شديدًا وإذا هو قابض على شيء فقال: «أيكم يعرف ما يخرج من النخل؟». قلنا: نحن يا رسول الله بآبائنا أنت وأمهاتنا ليس شيء يخرج من النخل إلا نحن نعرفه نحن أصحاب نخل. ثم فتح يده فإذا فيها نوى فقال: « ما هذا؟ ». فقالوا: يا رسول الله نوى فقال: «نوى أي شيء؟». قالوا: نوى سنة قال: «صدقتم جاء جبريل ﷺ يتعاهد دينكم لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبرا فشبر وإن ذراعا فذراع وإن باعا فباع حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه. ألا إن بني إسرائيل افترقت على موسى ﷺ سبعين فرقة كلها ضالة إلا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم. ثم إنها افترقت على عيسى ﷺ على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالة إلا واحدة الإسلام وجماعتهم. ثم إنكم تكونون على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة الإسلام وجماعتهم».

رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف وقد حسن الترمذي له حديثًا وبقية رجاله ثقات.

29- كلمة الإخلاص (1 / 58) (ضعيف)

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: أن موسى ﷺ قال: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به قال يا موسى: قل لا إله إلا الله قال: لا إله إلا أنت يا رب إنما أريد شيئًا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفه ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله).

30- (ضعيف جدًا) حديث أن موسى ﷺ آجر نفسه ثماني حجج أو عشرًا على عفة فرجه وطعام بطنه رواه ابن ماجه والألباني في (الإرواء).

31- كنز العمال (6 / 763)

إن موسى ﷺ قال: أي رب إن عبدك المؤمن تقتر عليه في الدنيا قال: فيفتح له باب الجنة فينظر إليها قال: يا موسى هذا ما أعددت له فقال موسى: أي رب وعزتك وجلالك لو كان أقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤسًا قط ثم قال موسى: أي رب عبدك الكافر توسع عليه في الدنيا قال: فيفتح له باب من النار فيقال: يا موسى هذا ما أعددت له فقال موسى: أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره كأن لم ير خيرًا قط. (حم) عن أبي سعيد

32- مصنف ابن أبي شيبة (6/ 334)

عن ابن عباس قال: لما أتى موسى قومه فأمرهم بالزكاة، فجمعهم قارون فقال: هذا قد جاءكم بالصوم والصلاة وبأشياء تطيقونها تحتملون أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: ما نحتمل أن نعطيه أموالنا، فما ترى؟ قال: أرى أن نرسل إلى بغي بني إسرائيل، فنأمرها أن ترميه على رءوس الأجناد والناس بأنه أرادها على نفسها. ففعلوا، فرمت موسى ﷺ على رءوس الناس، فدعا الله عليهم، فأوحى الله تعالى إلى الأرض أن اطيعيه. فقال لها موسى ﷺ: خذيهم؛ فأخذتهم إلى ركبهم. قال: فجعلوا يقولون: يا موسى.. يا موسى. قال: خذيهم فأخذتهم إلى حجزهم،

فجعلوا يقولون: يا موسى.. يا موسى. فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى.. يا موسى. قال: خذيهم فأخذتهم فغيبتهم، فأوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ: يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك، فأبيت أن تجيبهم، أما وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم.

33- الزهد لهناد (1 / 277)

حدثنا عبدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي عمرو الشيباني، قال موسى ﷺ لربه عَزَّ وَجَلَّ: يا رب أي عبادك أحب إليك قال: أكثرهم لي ذكرًا قال؛ فأي عبادك أغنى قال: أقنعهم بما أعطيته قال: فأي عبادك أعدل قال مَنْ أدان نفسه من نفسه.

34- فيض القدير (4/ 135)

(السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب). طب وابن مردويه) في تفسيره كلاهما من وجه واحد (عن ابن عباس) قال الهيثمي: فيه الحسن بن أبي الحسن بن أبي الحسين الأشقر وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور وبقية رجاله حديثهم حسن أو صحيح اهـ. ورواه من هذا الوجه العقيلي في (الضعفاء) وقال: حسن المذكور شيعي متروك والحديث لا يعرف إلا من جهته وهو حديث منكر.

35- سنن النسائي

أخبرنا عمرو بن هشام، قال: حدثنا مخلد، عن سعيد بن عبد العزيز قال: حدثنا يزيد بن أبي مالك قال: حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها فركبت ومعي جبريل ﷺ فسرت فقال انزل فصل ففعلت فقال: أتدري أين صليت صليتُ بطيبة وإليها المهاجر ثم قال انزل فصل فصليت فقال: أتدري أين صليتُ صليت بطور سيناء حيث كلم الله عَزَّ وَجَلَّ موسى ﷺ ثم قال انزل فصل فنزلت فصليت فقال: أتدري أين صليت صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى ﷺ ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء ﷺ فقدمني جبريل حتى أممتهم ثم صعد

بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام، ثم صعد بي فوق سبع سماوات فأتينا سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة فخررت ساجدًا فقيل لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء ثم أتيت على موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى أمتك قلت: خمسين صلاة قال فإنك لا تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فرجعت إلى ربي فخفف عني عشرا ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع فرجعت فخفف عني عشرًا ثم ردت إلى خمس صلوات قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما فرجعت إلى ربي عَزَّ وَجَلَّ فسألته التخفيف فقال إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك فعرفت أنها من الله تبارك وتعالى صري فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال: ارجع فعرفت أنها من الله صري أي: حتم فلم أرجع.

قال الشيخ الألباني: منكر.

تم بحمد الله

المراجع

أولاً. القرآن الكريم:

ثانيًا. التفاسير:

- تفسير القرآن العظيم - الحافظ ابن كثير - دار الحديث
- تفسير الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار الشام للتراث
- تفسير محاسن التأويل - القاسمي - دار الحديث
- تفسير الطبري - أبو جعفر الطبري (CD)
- تفسير روح المعاني - الألوسي (CD)
- تفسير النسفي - النسفي - دار إحياء الكتب العربية
- تفسير فتح القدير - الشوكاني - دار المعرفة
- تفسير التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور (CD)
- تفسير معالم التنزيل - البغوي (CD)
- تفسير زاد المسير - ابن الجوزي (CD)
- تفسير البيضاوي - البيضاوي - دار البيان العربي
- تفسير أضواء البيان - الإمام الشنقيطي - مطبعة المدني
- تفسير أيسر التفاسير - أبو بكر الجزائري - دار السلام
- تفسير صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم
- تفسير الظلال - سيد قطب - دار الشروق
- تفسير الكشاف - الزمخشري (CD)
- تفسير مفاتيح الغيب - الرازي - الإنترنت.
- التفسير الموضوعي - عبد العزيز الدردير موسى
- خواطر الشعراوي - الشيخ الشعراوي

ثالثًا. كتب الحديث:

ـ صحيح البخاري وشرحه فتح الباري ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ المكتبة السلفية

ـ صحيح مسلم وشرحه ـ الإمام النووي ـ دار الريان

ـ سنن أبي داود وشرحه عون المعبود ـ المكتبة العلمية

ـ سنن الترمذي وشرحه تحفة الأحوذي ـ دار الكتب العلمية

ـ سنن النسائي ـ النسائي ـ دار القلم

ـ سنن ابن ماجة ـ ابن ماجة (CD).

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (CD).

ـ صحيح ابن خزيمة (CD).

ـ صحيح ابن حبان (CD)

ـ الأدب المفرد ـ البخاري ـ دار الحديث

ـ رياض الصالحين ـ النووي ـ دار المأمون للحديث

ـ الترغيب والترهيب ـ المنذري ـ دار الريان

ـ المستدرك ـ الحاكم النيسابوري (CD)

ـ الموطأ ـ الإمام مالك (CD)

ـ سنن الدارمي ـ الإمام الدارمي (CD)

ـ السلسلة الصحيحة ـ الألباني ـ المكتب الإسلامي

ـ السلسلة الضعيفة ـ الألباني (CD)

ـ إرواء الغليل ـ الألباني (CD)

ـ صحيح الترغيب والترهيب ـ الألباني ـ مكتبة المعارف

ـ الجامع الصغير وزياداته ـ الألباني (CD)

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ المناوي ـ مكتبة مصر

ـ ظلال الجنة في تخريج السنة ـ الألباني

ـــ التمهيد ـ ابن عبد البر (CD)
ـــ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي
ـــ صحيح الأحاديث القدسية ـ عصام الدين الصبابطي
ـــ من وصايا الرسول ـ طه عبد الله العفيفي ـ دار الاعتصام

رابعًا. العقيدة:

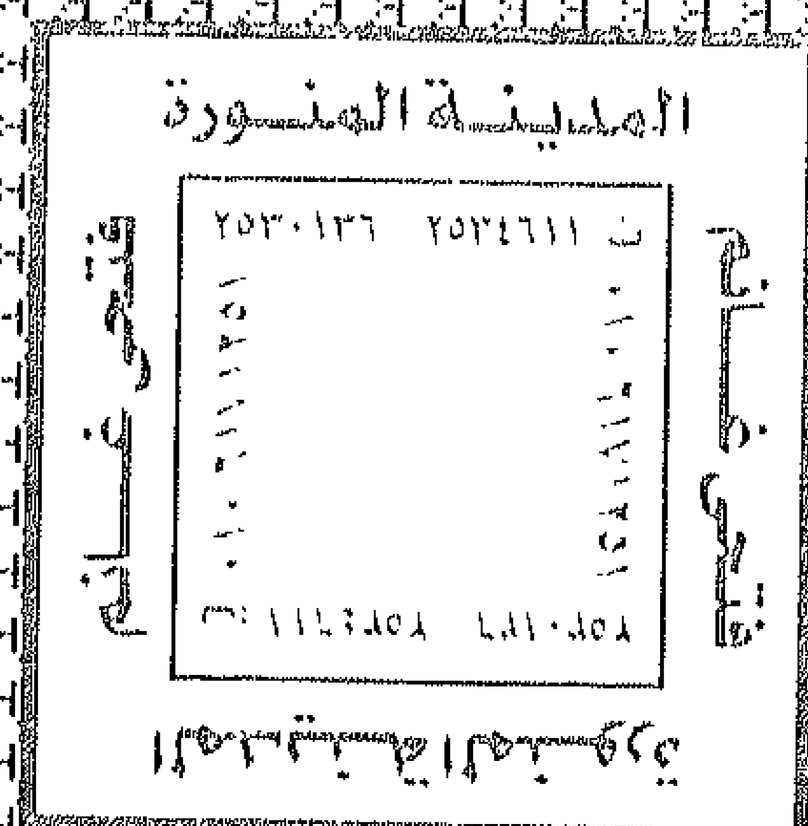
ـــ شرح العقيدة الطحاوية ـ الطحاوي ـ الألباني ـ دار الفكر العربي
ـــ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ـ سليمان بن عبد الله
ـــ معارج القبول ـ حافظ حكمي ـ مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية

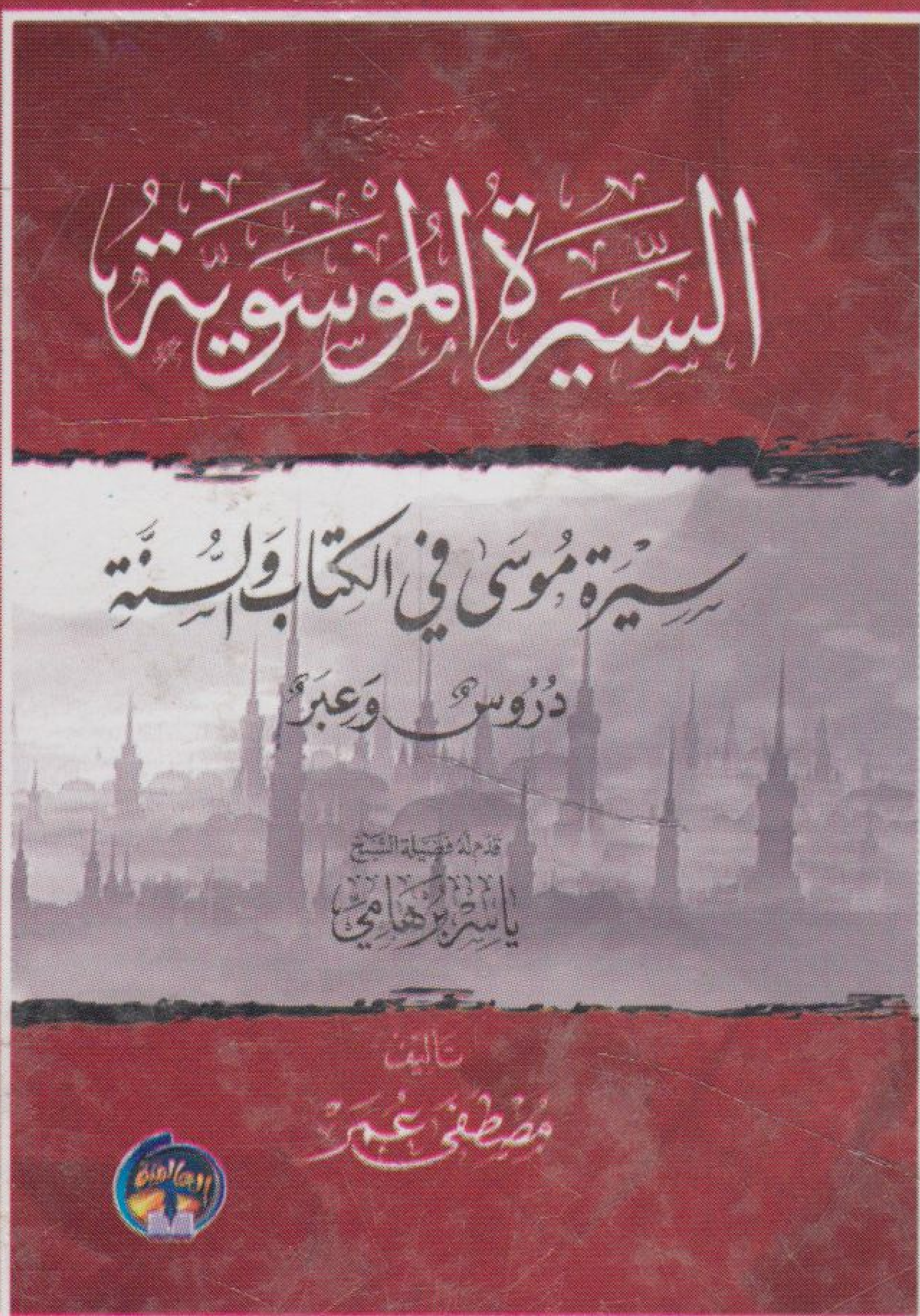
خامسًا. مراجع أخرى:

ـــ مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية ـ مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية
ـــ زاد المعاد في هدي خير العباد ـ ابن قيم الجوزية ـ دار البابي الحلبي
ـــ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ ابن قيم الجوزية ـ طبعة دار الحديث
ـــ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ دار الفكر العربي
ـــ قصص الأنبياء ـ الحافظ ابن كثير
ـــ النبوة والأنبياء ـ محمد علي الصابوني
ـــ عودة الحجاب ـ د. الشيخ محمد إسماعيل المقدم ـ دار الصفوة
ـــ مواقف إيمانية ـ د. الشيخ أحمد فريد
ـــ قصص الأنبياء ـ د. الشيخ سعيد عبد العظيم
ـــ الجزاء من جنس العمل ـ د. سيد حسين العفاني ـ مكتبة ابن تيمية
ـــ موسى وهارون ـ د. رشدي البدراوي
ـــ فرعون كان من قوم موسى ـ عاطف عزت
ـــ إتحاف النبلاء بسيرة سيد الأنبياء ـ عبد العظيم بن بدوي الخلفي
ـــ أعداد من مجلة التوحيد.

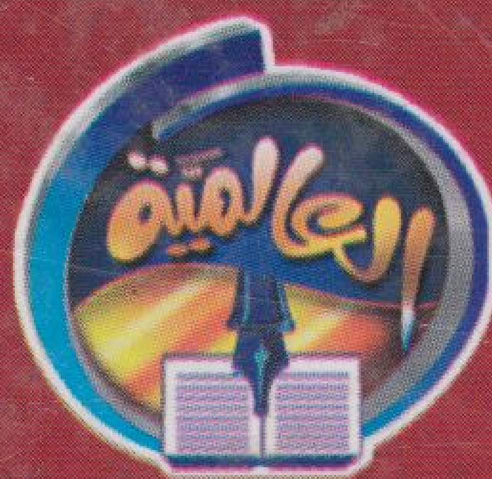
فهرس الأحاديث الصحيحة

محتويات الكتاب


المدينة المنورة
ت ٢٥٣٤٦١١ ٢٥٣٠١٣٦







الدار العالمية للنشر والتوزيع
٢٣ شارع الصالحي - محطة مصر - الأسكندرية
تليفاكس: 203 3907305+ محمول: 2 0105406403+
alamia_misr@hotmail.com